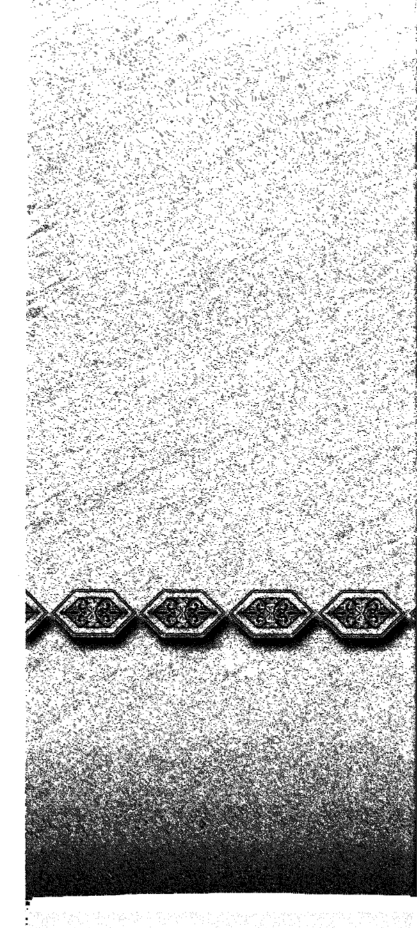

تاريخ
الشعراء
إعداد
1
دمشق - القاهرة



تاريخ
ملوك العرب الشعراء

تاريخ
ملوك العرب الشعراء

إعداد
علي المصري

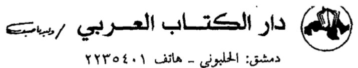
الجزء الأول



دار الكتاب العربي



الطبعة الأولى
١٤٢١ ـ ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١م



دمشق: الحلبوني ـ هاتف ٢٢٣٥٤٠١
القاهرة: ٥٢ ش عبد الخالق ثروت، شقة ١١
تلفاكس ٣٩١٦١٢٢
لبنان ص.ب ٣٠٠٤٣ هاتف ٠٣/٦٥٢٢٤١

محتوى الجزء الأول

الفصل الثاني
عمرو بن كلثوم

آ ـ حياته .

ب ـ شعره .

١ ـ معلقته

٢ ـ أغراضه الشعرية

الباب الثاني
العصر الراشدي

ويتضمن :

١ ـ تمهيداً عن آخر ملوك اليمن .

٢ ـ مآل الملك في الحيرة .

٣ ـ مآل الملك في الشام .

٤ ـ الحكم عند الأعراب في بواديهم .

٥ ـ استقرار القبائل في مكة والمدينة .

٦ ـ حياة النبي الكريم وأعماله .

٧ ـ أثر هجرة الرسول إلى المدينة .

٨ ـ حكومة الرسول في المدينة .

٩ ـ أهم الأحداث في حياته الشريفة .

آ ـ البعثة النبوية .

ب ـ بدء الدعوة سراً .

جـ ـ الدعوة جهراً .

د ـ المؤامرة تعقبها الهجرة .

هـ ـ حياته التشريعية بمكة .

و ـ حياته التشريعية بالمدينة خلال السنوات التالية .

١٠ ـ تشكيله للسلطات في المدينة .

١١ ـ بعض المقتطفات من كتابه بين أهل المدينة من مسلمين ويهود .

١٢ ـ بعض المقتطفات من العهد الذي كتبه لأحد عماله .

١٣ ـ بعض أحاديثه في أدب الحكم وأصوله .

الفصل الأول

الخلافة الاسلامية

١ ـ تعريفها .

٢ ـ شعار الخلافة وشاراتها .

٣ ـ وجوب الخلافة .

٤ ـ وحدة الخلافة .

٥ ـ شروط الخلافة .

٦ ـ اختيار الخليفة .

٧ ـ حصر الخلافة .

٨ ـ مقارنة بين الخلافتين الاسلامية والأموية .

٩ ـ القضاء .

١٠ ـ قيادة الجيش .

١١ ـ الخراج والجباية .

١٢ ـ الغنائم .

١٣ ـ النقود .

١٤ ـ الذميون والوظائف .

الفصل الثاني
نظام الخلافة بين الواقع والمثال

الفصل الثالث
الخلفاء الراشدين

الإهـــداء :

إلى :

جلالة الملك حسين بن طلال ملك المملكة الأردنية الهاشمية المعظم ، ممثلاً بسيادة رئيس مجلس وزرائه الشريف زيد بن شاكر المكرم ، الذي تفضل مشكوراً بالأمر لمن يلزم لمعالجتي في مشفى الملكة علياء لأمراض القلب ، في مدينة الحسين الطبية بعمّان ، وعلى نفقة الحكومة الأردنية ، بمجوجب كتابه رقم ١٠/١١/٢/١٣٢٢/أ تـاريـخ ٢٩/٨/١٤١٣ هـ المـوافـق ٢٠/٢/١٩٩٣ م .

وإلى :

جلالة الملك المعظم فهد بن عبد العزيز ، خادم الحرمين الشريفين ، ملك المملكة العربية السعودية ، الذي تفضل مشكوراً بأمره الملكي السامي رقم ٤٥٣/ب تاريخ ٢/٢/١٤١٥ هـ الموافق ١٠/٧/١٩٩٤ م لمعالجتي في مشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض ، وإجراء عملية فتح شرايين القلب ، وعلى نفقة الدولة في المملكة .

إلى هذين العاهلين العظيمين ، أقدم مؤلفي هذا «تاريخ ملوك العرب الشعراء» عرفاناً بجميليهما ، الذي سيظل ضوءاً ينير دروب حياتي .

درعا في ١/٥/١٤١٥ هـ
٥/١٠/١٩٩٤

علي المصري

المقدمة ..

كَلِفَ الناسُ منذ أقدم العصور بالتفكُّهِ بأخبار الملوك ونوادرهم وأشعارهم ، فدوَّنوها وتناقلوها ، للعبرة والموعظة حيناً ، ولتحلية مجالسهم وتطريتها أحياناً أخرى ، حتى إنَّ بعض المؤرخين القدامى جعلوا من سِيَرِ الملوك أساساً لكتب التاريخ التي دوَّنوها .

وفي تاريخنا العربي تكاد لا تقع إلّا على أخبار الملوك والأمراء ، ومجالسهم مع الشعراء والأدباء ، وأسمارهم مع الإماء والقيان وربات الحجال ، وبين تضاعيفها تقع على أخبار الحرب والسلم ، وغير ذلك من قصص المروءة والكرم والشجاعة والفطنة وغير ذلك .

١ ـ ومن أوائل مَنْ فَطِنَ إلى تدوين أشعار الملوك ، على ما يذكره لنا صاحب وفيات الأعيان ؛ هو عبدالله بن المعتز الخليفة العباسي نفسه (٢٤٧ ـ ٢٩٦ هـ) . فقد وضع كتاباً خاصاً في أشعار الملوك . ولكنه للأسف لم يصل إلينا ، وضاع مع ما ضاع

من تراثنا الشعري والأدبي والعلمي[1] .

٢ ـ ومن الذين تصدوا كذلك لتدوين شعر الملوك منذ القدم ، الأديب العباسي أبو بكر الصولي ، المتوفى سنة ٣٣٥ هـ . فقد وضع كتاباً في أشعار الخلفاء ، وأولاد الخلفاء ، وأشعار بني العباس . ولكنه لم يذكر من الخلفاء والملوك الذين سبقوا زمنه سوى عددٍ قليل . فقد أهمل الخلفاء الأمويين والإسلاميين والملوك الجاهليين ، حتى إنه لم يذكر من الخلفاء العباسيين الذي قالوا شعراً سوى الخليفة الراضي (٢٩٧ ـ ٣٣٩ هـ) تلميذه . وأمَّا في كتابه «أشعار أولاد الخلفاء العباسيين وأخبارهم» فلم يتجاوز عدد الذين ذكرهم في كتابه ، الأحَدَ عَشَرَ ، كلهم من أبناء الخلفاء العباسيين وهم : ابن السفاح ، وابن المنصور ، وابن المهدي ، وأخته عُلَيَّة بنت المهدي ، وابن الهادي ، وابنا الرشيد ، وابن الأمين ، وابن المعتصم ، وابن المتوكل ، وابن المعتز . وقصر أكثر كتابه على هذا الأخير «عبدالله بن المعتز ٢٤٧ ـ ٢٩٦ هـ» فخصص له مئة وثلاث وثمانين صفحة من أصل ثلاثمئة وثلاثة وثلاثين صفحةً مجمل الكتاب ، وخصص لِعُلَيَّةَ بنت المهدي ثلاثين صفحةً ، وعرض في الصفحات الباقية المئة والعشرين ، للتسعة الباقين ، ولرهط من بني العباس ممَّن ليس بخليفة ولا ابن خليفة .

٣ ـ ثم جاء بعدهما صاحب كتاب «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده» ابن رشيق القيرواني ٣٩٠ ـ ٤٥٦ هـ ، فخص في

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ١٢/٢١٦ .

قسم من كتابه ذكر الخلفاء الراشدين الأربعة ، وما نظموه من شعر ، وأورد بعضاً من أشعارهم . وزعم أنه ليس من أحدٍ من بني عبد المطلب رجالاً ونساءً من لم يقل الشعر حاشا النبي عليه السلام . ولم يذكر ابن رشيق هؤلاء القوم الأشراف في مطلع كتابه إلّا ليؤكِّد على أهمية الشعر .

٤ ـ ثم جاء بعد ذلك صاحب كتاب «الحلة السيراء» ابن الأبَّار أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي البلنسي ٥٩٥ ـ ٦٥٨ هـ ، وعرض للملوك الشعراء ، ولم يذكر من خلفاء بني أمية للمئة الأولى من الهجرة سوى مروان بن الحكم ، وابنه عبد الملك ، وسوى المنصور من رجال المئة الثانية ، وعرض فيما تبقى من كتابه إلى الخلفاء والأمراء في الأندلس والمغرب . ويُعدُّ كتابه من أوسع الأصول والمصادر لمعرفة الذين قرضوا الشعر من ملوك الأندلس وشمال أفريقيا .

٥ ـ ثم جاء بعد ذلك جلال الدين السيوطي المتوفى عام ٩١١ هـ ، فألف كتاب «تاريخ الخلفاء» ولم يفته أن يذكر معظم الملوك الخلفاء الذين قالوا شعراً ، بدءاً من الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، ومروراً بالأمويين ، فالعباسيين في العراق ومصر ، وغيرهم ، وأن يذكر نتفاً من أخبارهم وأشعارهم .

٦ ـ ثم جاء من المحدثين في العصر الحالي الدكتور جبرائيل جبور ، فألف كتاباً سماه «الملوك الشعراء» تحدث فيه عن الملوك الأمويين في الشام والأندلس ، وعن الملوك العباسيين في العراق ، وعن الملوك الفاطميين بمصر ، وبعض ملوك الطوائف في

الأندلس ، ولكنه أهمل العصرين الجاهلي والإسلامي ، والإمارات العربية في المشرق العربي كالحمدانيين في حلب .

ومع ذلك ، ورغم كل الذي قيل وكتب ، فإن الملوك العرب الذين حُفظت دواوين أشعارهم قليلون لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة ، غير أن هناك عدداً كبيراً منهم حفِظَتْ لهم بطون الكتب الأدبية والتاريخية أشعاراً قالوها أو استشهدوا بها .

ولقد شاقني موضوع «الملوك الشعراء» واستهواني ، فرحت أستقرىء المصادر التاريخية والأدبية ، وأجمع منها بذوق أدبي المادة التي تساعدني على تصنيف كتاب عن الملوك العرب الشعراء ، بدءاً من العصر الجاهلي وحتى نهاية الخلافة الإسلامية العربية في الأندلس ، مستكملاً ما أنقصه مَنْ صنَّفوا في هذا الموضوع قبلي ، متلافياً ما وقعوا فيه من أخطاء ، مؤرخاً لحياة الملك أو الأمير الشاعر ، أو الذي تمثل بالشعر وحفظه ، متعرضاً لأهم أحداث عصره السياسية والاجتماعيه ، حتى غدا سفراً أدبياً تاريخياً ، يقرؤه الأديب فيجد فيه لذَّته ومبتغاه ، ويتناوله المؤرخ فيلقىٰ فيه بعض ما يبحث عنه .

وشدَّتْ انتباهي القصة التي رُويت عن الخليفة المأمون ، إذْ زعموا أنه قال لندمائه ذات ليلة : مَنْ منكم ينشدني بيتاً من الشعر ، يُستدلُّ منه ، وإنْ لم يُعرف قائله ، أنه شعرُ ملِكٍ ؟

فأنشده بعضهم قول امرىء القيس :

أمِنْ أجل أعرابيةٍ حلَّ أهلُها
جنوبَ الملا ، عيناكَ تبتدران

فقال الخليفة المأمون : ما صنعتَ شيئاً ! ، فأيُّ شيءٍ في هذا الشعر يدل على أن صاحبه ملك ؟ ألا يجوز أن يقول هذا القولَ سوقةٌ من أهل الحضر ، وكأنه يؤنِّب نفسه على التعلق بأعرابية ؟!

ولمّا عجز جميع مَنْ في حضرته ، قال : الشعر الذي يدلُّ على أنَّ قائله ملكٌ ، هو قول الخليفة الأموي الوليدُ بن يزيد بن عبد الملك (٨٨ ـ ١٢٦ هـ) :

إسْقِني مِنْ سُلافِ ريقِ سُلَيْمىٰ
واسْقِ هذا النديمَ كأساً عُقارا

أما ترى إشارته في قوله : «هذا النديم» ؟ فإنها إشارة ملك !![1] .

ولم يكن كثيراً على الخليفة المأمون ، وهو الملك الأديب الأريب ، أن يلمح قبلَ نُدمائه دلائل النُّبْلِ في شعر الملوك !!

مَثَلٌ سقناه للتدليل على نكهة شعر الملوك وطعومها[2] . ولكن ليس من المحتّم أن تكون كل أشعار الملوك أو بعضها دالةً على أصحابها ، أو أنْ تنُمَّ عن سمات الملك أو العظمة فيهم . لكن من

---

(١) انظر الأغاني ٣٧/٧ ـ ٣٨ مفصلة .
(٢) الطعوم : تعني تلاقح الثقافات .

الممكن أن يكون لشعر الملوك طابَع خاصّ مُميِّز ، وفي بعض الأحيان ، ليدلَّ على حياتهم المترفة ، المليئة بالنِّعم التي لا تتاح لغيرهم من الشعراء .

فقد حكىٰ ابن درستويه أنَّ لائماً لام ابن الرومي الشاعر علي بن العباس بن جريج الرومي ٢٢١ ـ ٢٨٣ هـ ، فقال له : «لِمَ لا تُشبِّهُ كتشبيهات ابن المعتز ، وأنت أشعر منه ؟ ، فقال : ألا أنشدْني شيئاً من قوله الذي استعجزْتني عن مثله ؟

فأنشده قول ابن المعتز في الهلال :

أُنظر إليه كزورقٍ من فضَّة
قد أثقلتْهُ حمولة من عَنْبَرِ

فقال : زِدْني !

فأنشده قوله في الآذريون الأصفر ، وهو زهر أصفر في وسطه خمل أسود ، وليس بطيِّب الرائحه ، والفُرس تعظِّمه بالنظر إليه ، وفرشه في المنزل :

كأنَّ آذريونَها
والشمسُ فيه كاليهْ
مداهِنٌ مِنْ ذَهبٍ
فيها بقايا غاليهْ[1]

---

(١) كالية : ضعيفة . غالية : نوع من الطيب أول من سماه بهذا الاسم سليمان بن عبد الملك الأموي .

فصاح ابن الرومي : واغوثاه !! تالله لا يُكلِّف الله نفساً إلاَّ وسعَها !! ، ذاك إنَّما يصف ما عونُ بيته ، فهو خليفة ، وابن خليفة .. وأنا أيَّ شيء أصف ؟»[1] .

وليس لازماً لشعر الملوك في أحيان أخرى ، أن يكون مُميزاً عن شعر بقية الناس ، لأنه قد يعرض لهم ما يعرض لبقية الخلق ، فيتأثرون ويحسّون كما تحس بقية الخلائق ، ويأسون ويتألمون ، ويفرحون وينشدون كالآخرين ، فيصفون هذا الفرح أو ذاك الألم كما يصفه غيرهم من البشر .. فهذا المعتمد بن عباد الملك الأندلسي الشاعر يصله نبأ مصرع ولديه وهما ينافحان عن حوزته فيرثيهما رثاءً سخيناً حاراً ، ويبكيهما بدموع لا ترقأ ، فيقول :

بكيتُ «فتحاً» فإذا ما رمتُ سلوتَه
ثوى «يزيدُ» فزادَ القلبَ نيرانا
يا فلذتَيْ كبدي ! يأبىٰ تقطُّعها
عن وجدِها بكما ما عشتُ سِلوانا
منِّي السلامُ ، ومن أمٍّ مفجَّعةٍ
عليكما ، أبداً ، مثنى ووحدانا
أبْكي وتَبكي وتُبكي غيرنا أسفاً
لدى التذكُّر نِسْوانا وولدانا

---

(1) ابن الرومى حياته وشعره لعباس محمود العقاد ، دار الكتاب العربي بيروت ٧٥ ـ ٧٦ .

وقد يصل الحب إلى قلوب الملوك كما يصل إلى قلوب الآخرين ، فتذلُّ للحبيب كما تذل قلوب غيرهم ، وتخضع لسلطان الحب ، وتتخلى له عن عظمة الملك وجلاله ، فيعمد هؤلاء الملوك إن كانوا يحبون الشعر ، ويحسنون نظمه ، إلى التعبير عن هذا الإحساس بشعرٍ لا يختلف عن شعر غيرهم من العشاق ، إلّا بإختلاف مواهبهم الشعرية ، ومميزاتهم الشخصية ، ولون تجاربهم الذاتية ، وثقافتهم الأدبية : فهذا الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي الثامن (٨٨ ـ ١٢٦ هـ) يُطلِّق زوجته سعدة بنت سعيد الأموى ، ثم يندم على طلاقها ، ويحاول ردَّها ، ولكنها تتأبّى عليه ، فتبدأ بذلك قصة حب طويلة تركت لنا شعراً غزلياً كثيراً ، يرشح بالحسرة والندم والشماتة والنوى ، فيخاطبها في بعض قصائده ، قائلاً :

أسعْدَةُ هل إليكِ لَنَا سبيلٌ ؟
وهل حتَّى القيامةِ مِنْ تَلاقي ؟
بَلَى ! ولعلَّ دهراً أنْ يُؤاتى
بموتٍ من حليلكِ ، أوْ طَلاقِ
فأُصبحُ شامتاً ، وتقرَّ عيني
ويُجمعُ شملُنا بعدَ افْتراقِ

حتى إن بعضهم ما كان ليشهر أو يعرف لولا شعره ، ورُبَّ ملك كان في مملكة الشعر أعظم منه في دولة السياسة والحكم ، وكان لسلطان الحب والشعر أثرٌ عليه ، فوق ما كان لسلطان التاج

وجلال الملك ! فقد شُهِر امرؤ القيس بقصيدته التي مطلعها «قِفا نبكِ ذكرى حبيب ومنزل» أكثرَ ممَّا اشتهر بتاجه وعرش أبيه .

ولماذا نبتعد كثيراً ، فهذا هو الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٤٨ ـ ١٩٣ هـ) ، وهو من هو رفعةً ومجداً لا يطاول ، وسمعة ومكانة لا تُرام ، وهيبة لا تقتحم ، قد أنطقه الحب لجواريه شعراً ، ذكر فيه أن سلطان الهوى أعزُّ من سلطانه وصولجان حكمه ، فقال في جواريه الثلاث :

ملكَ الثلاثُ الآنساتُ عِناني
وحلَلْنَ من قلبي بكلِّ مكانِ
مالي تُطاوعُني البريَّةُ كلُّها
وأُطيعُهُنَّ ، وهُنَّ في عِصياني
ماذاكَ إلَّا أنَّ سلطانَ الهوىٰ
ـ وبه قوين ـ أعزُّ من سُلطاني

ويتابع الراوي هذه القصة ، فيقول : وبلغ هذا الشعرُ الأندلسَ ، فعارضه ملك آخر هو الخليفة المستعين بالله سليمان بن الحكم المرواني ٣٥٤ ـ ٤٠٧ هـ ، فقال قصيدته المشهورة ، والتي مطلعها :

عجباً يَهابُ الليثُ حدَّ سِناني
وأهابُ لحظَ فواترِ الأجفانِ

حيث يقول فيها :

لا تعذِلُوا ملكاً تذلَّلَ للهوىٰ
ذُلُّ الهوىٰ عِزٌّ ومُلْكٌ ثاني

مـا ضرَّ أنـيِّ عبـدُهُـنَّ صَبابـةً
وبنـو الـزَّمـان وهُنَّ مِنْ عُبْـدانـي
إنْ لَمْ أُطِـعْ فيهُنَّ سلطـانَ الهـوىٰ
كَلَفـاً بِـهـنَّ ، فَلَسْـتُ مـنْ مَـروانِ

المدقق في شعر هؤلاء الملوك الخلفاء يلمس أن معظم شعرهم قيل في الغزل ، وبالجواري بالذات ، ويبدوا أنهم خضعوا لمثل هذا الحب واستسلموا لسلطانه ، لأنهنَّ كُنَّ ماهراتٍ بامتلاك قلوب الملوك ، وسحرهم بجمالهن كما سيمر معنا ، حتى بلغ حب ملكٍ لإحدى جواريه «يزيد بن عبد الملك بن مروان ٧١ ـ ١٠٥ هـ» أنه أبى أن يدفن جثمان جاريته «حبّابة» حين شرقت بحبة رمان خلال نزهتهما في رياض دمشق ، وقضت نحبها ، فكاد أن يموت حزناً عليها ، ولم تدفن إلّا بعد أن انتنت وانتشرت رائحتها ، ولم يلبث بعد دفنها حتى أمر بنبش قبرها ، وكشف عنها ، فصرفه الناس عنها ، ولم يلبث بعدها سوى خمْسَةَ عَشَرَ يوماً حتى مات وهو يتمثل بالبيتين التاليين :

لئن تَسْلُ عنكِ النفسُ أو تذهل الهوىٰ
فبـاليـأس يَسْلـو القلبُ لا بـالتجلُّـدِ
وكـلُ خليـلٍ زارنـي فـهـوَ قـائِـلُ
من أجْلِكِ : هذا هالكُ اليومَ أوْ غدِ

وقد نجد إلى جانب هذا الشعر الغزلي ، ألواناً أخرى من الشعر قيلت في الخمر أو الصيد ، أو الفخر ، أو في الشكوى من تقلّب الأزمان ، مثلما نجده عند يزيد بن معاوية ، والوليد بن

يزيد بن عبد الملك ، وعبدالله بن المعتز ، وتميم بن المعز ، والمعتمد بن عباد وغيرهم .

وقد رأيت أن أصنف كتابي هذا «تاريخ ملوك العرب والشعراء» وفقاً للأعصر التي تعارف عليها مؤرخو الأدب ، وفي سبعة أبواب ، استغرقني كتابته خمسة أعوام بحالها ، أعقبها عامان من المرض «باحتشاء القلب» وبعد الإبلال بإذنه تعالى ، وبمساعدة ملكين عظيمين من ملوك هذا العصر ، عدت لأقدم كتابي هذا في سبعة أبواب ، وعلى الشكل التالي :

١ ـ الباب الأول .. ويتناول العصر الجاهلي .

٢ ـ الباب الثاني .. يتناول العصر الراشدي .

٣ ـ الباب الثالث .. ويتناول العصر الأموي .

٤ ـ الباب الرابع .. ويتناول العصر العباسي .

٥ ـ الباب الخامس .. ويتناول الدولة الحمدانية بحلب .

٦ ـ الباب السادس .. ويتناول الدولة الفاطمية بمصر .

٧ ـ الباب السابع .. ويتناول العصر الأموي الأندلسي وملوك الطوائف .

وسأبدأ الباب بمقدمة مختصرة عن البيئة السياسية والاجتماعية تمهيداً لوضع الملوك الشعراء في الإطار التاريخي والاجتماعي لبيئتهم لِفَهْمِ نوازعهم الشعرية ومذاهبهم الفنية ، ونذكر حتى من لم نعثر لهم على شعرٍ حتى الآنَ .

ثم أقسِّمُ الباب الواحد إلى فصول تبعاً للحاجة وتسهيلاً للمراجعة . ومن ثم أتوسع في دراسة ملك شاعر في كل عصر من العصور ، معدداً فنونه الشعرية ، مستعرضاً موهبته الأدبية .

وأخيراً وضعت ثبتاً بمراجع الكتاب ، وفهارس فنية كاملة متكاملة .

فإن وفقت ، فهذه بغيتي ، وإلّا فهذا جهد المُقلِّ
وحسبي الله ونعم الوكيل .

درعا في ١/٥/١٤١٥ هـ
٥/١٠/١٩٩٤ م

علي المصري

الباب الأول

العصر الجاهلي

ويتضمن: لمحة سريعة عن

١ ـ البيئة السياسية في العصر الجاهلي.

٢ ـ الإمارات أو الممالك التي ظهرت حينذاك قبيل الإسلام

أ ـ الإمارة الغسانية ببلاد الشام.

ب ـ إمارة المناذرة في العراق.

ج ـ مملكة كندة في نجد.

٣ ـ الفصل الأول

امرؤ القيس الكندي

أ ـ حياته.

ب ـ شعره.

٤ ـ الفصل الثاني

عمرو بن كلثوم

أ ـ حياته.

ب ـ شعره.

العصر الجاهلي

١ ـ لمحة سريعة عن البيئة السياسية في العصر الجاهلي.
٢ ـ الإمارات أو الممالك التي ظهرت حينذاك قبيل الاسلام
آ ـ الإمارة الغسانية ببلاد الشام.
ب ـ إمارة المناذرة في العراق.
ج ـ مملكة كندة في نجد.

لمحة سريعة عن البيئة السياسية في العصر الجاهلي

لاتتوفر لدارس التاريخ معلومات ترسم أمامه أحداث العصور الجاهلية بكل تفاصيلها ودقائقها كما توفره المدونات الواردة عن العصور الإسلامية التالية، لأن عناية الجاهليين انصرفت إلى حفظ الأشعار والأنساب دون أن تهتم بحفظ الآثار التاريخية الأخرى، ولم يتعد هذا الحفظ الصدور إلى المدونات التي عرفتها الأمم الأخرى كالفرس واليونان، ومن هنا اتصفت بعض هذه المحفوظات بالتحريف والتصحيف الناتجينْ عمّا يعتري الذاكرة عادة مع الزمن من نسيان وخلط، وزاد في تشويه أخبار التاريخ الجاهلي بعضُ الرواة المسلمين الذين كانوا ينسبون إلى الشعراء الجاهليين كثيراً من الأشعار المنحولة والأخبار الملفّقة، لأسباب لامجال لذكرها هنا، وقد كان هؤلاء الرواة علماءً بأخبار العرب وأيّامهم، وبلغوا من البراعة في تقليد أساليب الشعراء حداً جعل من الصعوبة بمكان التمييز بين ماهو صحيح وماهو منحول مزيّف.

ومن هؤلاء الوضّاعين حمّادُ الراوية الكوفي الذي وصفته بعض المصادر[1]

---

(١) انظر الحيوان للجاحظ ٤٤٧/٤ والأغاني للاصبهاني ٧٤/٦ وأمالي المرتضى ١٣١/١ .

بالفسق والمجون والزندقة، ويروى عن المفضّل الضبّي، وهو أحدُ الرواة الثقاة، أنه قال: قد سُلِّطَ على الشعر من حماد الراوية ماأفسده، فلا يصلح أبداً.

فقيل له: وكيف ذلك؟ أيخطىء في روايةٍ، أم يَلْحَنُ؟

قال: لُيته كان كذلك! فإن أهل العلم يردُّون مَنْ أخطأ إلى الصواب، ولكنه رجل عالم بِلغات العرب وأشعارها، ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزالُ يقول الشعر يُشَبِّهُ به مذهبَ الرجل، ويُدخِلُه في شعره، فَيُحَمَلُ ذلك عنه في الآفاق، فتختلط أشعار القدماء. ولايتميَّزُ الصحيحُ منها إلا عند عالم نافذٍ، وأين ذلك؟[1]

ومن الوضّاعين الذين أفسدوا الشعر وزيّفوا الحوادث التاريخية، ابنُ كُنَاسة، وخلفُ الأحمر،وبرزخُ العروضي، وجنَّادٌ وغيرُهم.

وإذا كان إهمال التدوين، والنسيان، وتزييف الحوادث والأقوال من العلل التي كادت تفتك بالتاريخ الجاهلي، بل هي قد فعلت في نظر بعض المستشرقين والدارسين العرب، فمن أين نستمدّ معلوماتنا عن تلك الحقبة التي لايمكن تجاهلها لأهميتها البالغة في اطِّراد تاريخنا العربي؟

لقد لجأ المؤرخون لدراسة التاريخ الجاهلي إلى مصادرَ يكاد لايتطرق إليها الشك رغم اتِّصافها أحيانا بالغموض والإشارة دون التفصيل، وأهم هذه المصادر:

١ ـ القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف.

٢ ـ مدونات بعض الرواة الثقاة كالمفضّل الضبيّ، والأصمعي، وأبي زيد، وأبي سعيد السكري، وغيرهم من الرواة الذين اتصفوا بسعة العلم ودقّة الرواية وأمانة النقل.

(١) انظر الاغاني ٦/٨٩ ومعجم الأدباء ١٠/٢٦٥ .

٣ ـ التاريخ الفارسي واليوناني والسرياني وعن غيرها من التواريخ حيث نقل كثير من المؤرخين الذين استطاعوا أن يُصَفُّوا التاريخ الجاهلي من كثير من الشوائب التي علقت به.

٤ ـ بقايا القصور والإنشاءات التي ظلت مطمورةً تحت الرمال عهوداً طويلة، ثم جرى الكشف عنها بواسطة علماء الآثار في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، فقد وفَّرت هذه الحفرياتُ الأثرية بما حفظته من نقوش وكتابات مصدراً هاما لمعرفة بعض ماخفي من أحوال الملوك والشعوب واللغات التي تأثرت بها لغتنا وأخذت عنها خطَّها الذي تكتب به اليوم.

٢ ـ الإمارات أو الممالك التي ظهرت حينذاك قبيل الاسلام

وإذا انتقلنا بعد هذا التمهيد إلى الكلام على الإمارات، وإن شئت الممالك العربية التي سبقت الإسلام، فإننا سوف نقتصر الكلام على تلك التي بقيت حتى ظهور الإسلام أو قبله بقليل، فهي التي تعنينا في بحثنا الأدبي عن الملوك الشعراء. ونبدأ بالغساسنة.

أ ـ الإمارة الغسانية ببلاد الشام..

يُرجع النسابون العرب نسب الغساسنة إلى عرب الجنوب اليمنيين الذين هاجروا إلى الشمال في أعقاب انهيار سد مأرب المشهور، في أواخر القرن الثالث للميلاد[١]. ويزعم هؤلاء النسابون أن الغساسنة لم يرحلوا من اليمن إلى الشام مباشرة ولكنهم نزلوا على ماء في تهامة يقال له غسان، فحملوا اسمه، وقيل لهم من

---

(١) انظر تاريخ العرب لفيليب حتى ١٠٢/١.

يومها الغساسنة[1]. ويرى جرجي زيدان ـ ونحن لانثق بروايته لشعوبيته وكيده للعرب ـ أنّ الغسانيين انتحلوا الانتساب إلى عرب اليمن التماساً للفخر في ديار الشام التي رحلوا إليها، وإنما هم من عرب تهامة العدنانيين، أو غيرهم ممن ضاعت أنسابهم، ويستدل على ذلك من بداوتهم وترحلهم، لأن أهل اليمن كانوا أهل حضارة واستقرار، ومن معبوداتهم التي هي من معبودات أهل الشمال، وكذلك من أسمائهم التي تشبه أسماء الأنباط الذين سكنوا مشارف الشام قبلهم، كالحارث وثعلبة وجبلة والنعمان[2].

وسواء أكان الغساسنة من عرب اليمن أو من عرب الشمال العدنانيين فإنهم نزلوا في مايعرف اليوم بالبلقاء وحوران وبعد ترحل وتنقل في تلك الأنحاء تغلبوا على الضجاعمه[3] القضاعيين، وأسسوا لأنفسهم دولة كانت عاصمتها بصرى في حوران، وتعرف أنقاضها (بأسكي الشام)[4] أو بصرى الشام. ومكنوا لأنفسهم عند الروم الذين اتخذوا منهم أتباعا يستعينون بهم على الفُرْس أعدائم التقليديين، وعلى العرب البداة الذين كانوا يُغيرون على ممتلكاتهم بين الحين والحين.

وماذكره المؤرخون العرب عن ملوك هذه الدولة كان كثير الاختلاف والتناقض في مايتعلق بعددهم وأسمائهم وسنيِّ حكمهم. فعددهم في تاريخ أبي الفداء واحد وثلاثون، وفي مختصر تاريخ البشر لحمزة الأصفهاني اثنان وثلاثون،

---

(١) العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان ٢٤٦ .
(٢) انظر المرجع السابق ١٤٤ .
(٣) ربما بالعين المعجمة (الضجاعمه).
(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ٢٤٦ .

وفي كتاب المعارف لابن قتيبة أحد عشر، وكذا في مروج الذهب للمسعودي، أما جرجي زيدان فجعلهم تسعة[1].

ومثلما اختلفوا في عدد ملوكهم، اختلفوا في أول من ملك منهم، فسمّاه بعضهم؛ ثعلبة، وبعضهم الآخر؛ الحارث بن عمرو، وذكر غيرهم أن اسمه؛ جفنة، بينما ذكر آخرون غير ذلك[2]. ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فإن المصادر كلها تكاد تتفق على كون الحارث بن جبلة (٥٢٨ ـ ٥٦٩م) أول ملوك غسان الذين يقرهم التاريخ، بل هو أعظمهم على الإطلاق[3]. وقد حظي هذا الملك برضى الروم لما أبلاه في حروبهم ضد الفرس، فأنعموا عليه بلقب (بطريق) ولقب (فيلارك) وهو يعني شيخ القبيلة. وهذان اللقبان يعدّان من أعظم الألقاب في الدولة البيزنطية بعد لقب الامبراطور.

وأبلى الحارث هذا ايضا في حروبه ضد المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة، وقد أسر المنذرُ هذا في إحدى الوقفات أحدَ أبناء الحارث، فقدمه ضحية للعزى، ثم مالبث الحارث أن انتقم لنفسه في «يوم حليمة» المشهور ٥٥٤ م فقتل المنذر نفسهُ وأدرك ثأره منه.

ويذكر المؤرخون أن الحارث بن عمرو زار القسطنطينية، فاستقبل استقبالا حافلا، وقد أعجب الرومان بطلعته الوقورة وسيمائه البدوية المهيبة. وقد عمل الحارث أثناء زيارته هذه على تعيين يعقوب البردعي مطران الرها أسقفا على الكنيسة السورية العربية[4]، التي صارت تعرف فيما بعد بكنيسة اليعاقبة نسبة إليه.

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ٢٥١ وقارنه مع فيليب حتى ١٠٢/١ .
(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ٢٥١ .
(٣) فيليب حتى ١٠٣/١ .
(٤) انظر فيليب حتى ١٠٤ .

واستمر العصر الذهبي للغساسنة في عصر المنذر بن الحارث الذي دحر ملك الحيرة قابوس بن هند في موقعة «عين أباغ»، ثم عاد فأغار على الحيرة وأحرقها، وبلغ المنذر من القوة حدا جعله يتمرد على الروم مدة ثلاث سنوات ويضطرهم لاسترضائه في معاهدة عقدت بينه وبينهم في نحو سنة ٥٧٥ م في رصافة الشام، وقد زار بعدها القسطنطينية فاحتُفي به وأُنعم عليه بالتاج البيزنطي تكريما له وإعلاءً لشأنه. غير أن البيزنطيين مالبثوا أن تنكروا لحليفهم كما تنكروا قبلا لأبيه، فألقي القبض عليه ونفي إلى صقلية.

أما ابنه النعمان بن المنذر فقد أغار على بيزنطة بالذات وعاث فسادا في أراضيها[1]، غير أن الرومان عادوا فألقوا القبض عليه وسيق أسيراً إلى القسطنطينية.

وبعد النعمان بن المنذر شهد الغساسنة عصور تفكك واضمحلال استمرت حتى قيام جَبَلَةَ بن الأيهم آخر ملوكهم، الذي أعاد لعزهم بعض الانتعاش، وقد حارب جبلة هذا في صفوف الروم في معركة اليرموك الحاسمة بين العرب المسلمين والروم سنة ١٥ هـ ٦٣٦ م[2] ثم مالبث أن أسلم في أيام عمر بن الخطاب، ليعودَ فيرتد عن الإسلام، ويفرَّ هو وأصحابه إلى القسطنطينية، لما علم أن الإسلام سوف يساويه ببقية المسلمين، وهو أمر لم يكن ليرتضيه من جُبِلَ على الأبهة وجعل الناس عبيداً له.

لقد كان للغساسنة حضارة متميّزة قضت عليها الأيام وتنقصتها الأحداث، ولا تزال آثارهم الظاهرة في بصرى الشام شاهدةً على ما كان لهم من مدينة ظلَّت

(١) انظر المرجع السابق.

(٢) انظر ابن عساكر ٥٣٣/١، والطريق إلى دمشق لأحمد عادل كمال ٤٣٣.

زاهية مدة طويلة من الزمن ، استطاع الغساسنة خلالها إقامة السدود والأقنية والمسارح والمعابد والحمّامات العمومية إضافة إلى القصور الكثيرة وأقواس النصر .

وقد شدت هذه المدينة الرافهة شعراء الجاهلية إليها ، فتوافدوا عليها يمتدحون أمراءها ويشيدون بانتصاراتهم ، وكان من أشهر هؤلاء الشعراء لبيد بن ربيعة العامري ، والنابغة الذبياني ، وحسان بن ثابت .

ب ـ إمارة المناذرة في العراق ...

ويبدو أنّ المعلومات التي وصلتنا عن المناذرة كانت أوفر من تلك التي وصلتنا عن الغساسنة معاصريهم ، فهي ترسم لهم صورة أكثر وضوحاً وتفصيلاً ؛ وربما كان ذلك عائداً إلى المدونات التي وجدت في معابد الحيرة وأديرتها ، والتي يدعي ابن الكلبي أنه استخرج تاريخهم منها ، كما يمكن أن يكون هذا الوضوح عائداً أيضاً إلى أن ملوك الفرس دوّنوا تاريخهم ، فأخذه المؤرخون العرب .

ويعيد هؤلاء المؤرخون نسب المناذرة إلى لخم اليمنية التي هاجر أبناؤها إلى الشمال مثلما هاجر الغساسنة إثر انهيار سدّ مأرب ، وليس لدينا ما نستدل به على يمنية المناذرة سوى أقوال النسّابين[1] ، فلغتهم وأسماء ملوكهم وآلهتهم وبداوتهم تدل جميعها على أنّهم كانوا من عرب الشمال .

ومهما يكن من أمر نسبهم فقد نزل هؤلاء في وادي الفرات لجهة الغرب ، وسكنوا الخيام ، وعاشوا البداوة ثم تحولوا إلى قرية في الجنوب الشرقي من النجف وعلى بعد ثلاثة أميال من الكوفة وهي «الحيرة»[2] ، فاتخذوها قاعدة لهم ، وسَرعانَ

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ٢٤٤ .
(٢) هو تحريف للكلمة السريانية حرتا ومعناها المخيم أو الحصن .

ما تحولت هذه القرية إلى مدينة عامرة بالقصور والحدائق والأنهار ، إضافة إلى سهول الحبوب وأحراج النخيل .

ومثلما اصطنع الروم الغسانيين في الشام ، اصطنع الفرس المناذرة في العراق ، لحماية حدودهم من غارات العرب البدو ، ولقتال الروم وحلفائهم العرب في الشام، وهكذا فإنَّ الملوك المناذرة كانوا عُمَّالاً للفرس يُوَلَّوْنَ ويعزلون من قبل الملك الفارسي ، ويتمتعون بقدر من الحرية أقل من تلك التي كان يتمتع بها أندادُهم الغسانيون .

وأول من تزعم العرب في العراق قبل وصول اللخميين إلى الحكم كان مالك بن فهم الأزدي[1] ، ثم تلاه ابنه جَذِيمَةُ الأبرش الذي نسجت حوله الأساطير ، ومنها أنه أراد الزواج من الزباء (زنوبيا ملكة تدمر) بعدما قتل أباها عَمْراً[2] ، فاحتالت في الانتقام منه وقتلته بعدما أوهمته بأنها قد وافقت على زواجه منها ، وتمضي الأسطورة فتذكر الأسطورة أن خلفه ، وهو ابن اخته عمرو بن عدي احتال في الانتقام منها وقتلها بعدما سد أمامها باب الفرار عبر نفق كانت أعدته للهرب في الحالات الطارئة[3] .

وعمرو بن عدي هو أوَّل ملِكٍ لَخْمِيٍّ حكم من سنة ٢٦٨ ـ ٢٨٨ م ، فنسبُهُ في بني نصر ابن ربيعة بن لخم ، لذلك يُسمِّي المؤرخون أسرته التي توالت على الحكم من بعده باللخميين، أو النصريين، أو المناذرة على السواء ، وهو أول من استوطن الحيرة فصارت قاعدة لملكه ومُلكِ أبنائه من بعده .

---

(١) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لفيليب حتي .
(٢) انظر مجمع الأمثال للميداني ٢٣٣/١ المثل رقم-١٢٥٠ .
(٣) انظر المرجع السابق .

ويقال إن سابور الأول (٢٤١ ـ ٢٧٢ م)، الملك الفارسي، هو الذي عيَّن عَمْراً على الحيرة عاملاً من قِبله . ولكنَّ ابنه امرأ القيس بن عمروٍ الذي خلفه كان على ما يبدو يدين بالولاء للفرس والروم معاً ، ولم يسيطر الفرس سيطرة تامة على الملك في الحيرة إلا في عهود خلفاء امرىء القيس بن عمرو . وقد بلغ عدد الملوك المناذرة عشرين ملكاً ، حكموا ما يقارب ثلاثة قرون ، وكانوا جميعاً من نسل عمرو بن عدي ، إلا ستة منهم كانوا دُخلاءَ ، وهم : أوس بن قلام ، والحارث بن عمرو بن حجر الكندي ، وعلقمة بن يعفرة ، وإياس بن قبيصة ، وفيشهرت ، وزاديه الفارسيان[1] .

ويُعدّ النعمان الأول الملقب بالأعور أو السائح (توفي نحو سنة ٣٤٠م) من أشهر ملوك الحيرة ، وترتيبه السادس بينهم ، وورد ذكره في أشعار العرب الجاهليين ومدائحهم ، لما عرف عنه من الحزم والضبط ، إضافة إلى كثرة الجند ووفرة الأموال . وكان جيشه مؤلفاً من كتيبتين ، تعرف الأولى بالشهباء ورجالها من الفرس الأشداء ، وتعرف الثانية بالدواسر وأفرادها من أبناء قبيلته المخلصين . وكثيراً ما لجأ إلى استعمال جيشه هذا فأخضع القبائل العاصية في نجد ، وأدب الغساسنة في الشام .

وتذكر لنا المصادر أن الملك الفارسي يزدجرد الأول (٣٩٩ ـ ٤٢٠ م) أرسل ابنه بهرام إلى الحيرة لينشأ بين أحضان العرب فيأخذ عنهم شجاعتهم وفروسيتهم وفنون صيدهم . ولما توفي يزدجرد ، وحاول الفرس إقصاءَ بهرام عن العرش الفارسي ، انتصر النعمان هذا له ، ومكَّنه من العرش بجيشه القوي ، فحفظ

---

(١) انظر جرجي زيدان تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٦٥ .

بهرامُ هذا الصنيعَ للنعمان ولأبناء الحيرة ، وارتفعت مكانة الملك العربي ، وازدادت هيبته في نظر أعدائه ، ناهيك عن أصدقائه[1] .

وينسب إلى النعمان بناء قصْرَيْ الخورنق والسدير ، ويعدّ الأول من معجزات الفن المعماري ، وقد قام ببنائه كما يذكر مؤرخو الإسلام ، مهندس رومي يدعى سنمَّارَ ، وتروى الأساطير أن النعمان قتله بعد أن انتهى من القصر حتى لا يبني لغيره من الملوك ما يشبهه .

وبلغت الحيرة في عهد المنذر الثالث ابن امرىء القيس (تولى العرش في العقد الأول من القرن السادس الميلادي) ذروة المجد ، وهو الملك الثالث عشر من ملوك الحيرة ، ويعرف بابن ماء السماء ، وماء السماء لقب لأمه مارية .

وفي أيامه اعتنق الملك الفارسي قبَّاذ المذهب المزدكي الداعي إلى اشتراك الناس في الأموال والنساء ، وحاول إجبار رجال دولته على اعتناقه ، ولما أبى المنذر ذلك ، تغير عليه قباذ واضطره إلى الفرار من الحيرة ، وولى عليها الحارث بن عمرو بن حجر ملك كندة ، ومنافس المنذر في السيادة على عرب الشمال . ثم توفي قباذ وتولى ابنه أنوشروان المُلْك ، فحارب المزدكية ، وقضى على أتباعها ، وأعاد المنذر إلى عرش الحيرة .

ولم ينس المنذر للحارث الكندي فعلته ، فطارده وقضى عليهوعلى أولاده مستغلاً فرصة استيلاء الأحباش على اليمن ، وقضائهم على الحميريين أحلاف الملك الكندي ، وبعمله هذا دانت قبائل نجد للحيرة بالولاء .

---

(١) تذكر بعض المصادر أن من أعاد بهرام إلى العرش هو المنذر بن النعمان ، انظر تاريخ العرب لجرجي زيدان ٢٧٣ وفيليب حتي ١/١٠١ .

ونجد المنذر بعد ذلك يقود سلسلة من الحملات المظفرة على الغساسنة والروم ، فيوغل في الشام غزوا ونهبا في الوقت الذي كان أنوشروان يحمل على آسيا الصغرى ويكاد يفتح القسطنطينية .

وقد نسج العرب كثيراً من الأقاصيص حول المنذر الثالث هذا ، ومنها ما ذكروه حول يومَيْ نعيمه وبؤسه، فقد كان للمنذر حسبما يذكر القصاصون نديمان من بني أسد ، أمر بدفنهما حيَّيْنِ في ليلة من ليالي سكره ، فلما صحا وعلم بما فعل ، ندم وأمر ببناء صومعتين فوقهما ، وجعل لهما في السنة يوم نعيم ويوم بؤس ، يُنعم على من يأتيه في اليوم الأول ، ويذبح من يأتيه في اليوم الثاني ويطلي بدمه الصومعتين . وعرفت الحيرة في عهده ترفاً وبذخاً شديدين ، وصارت قِبْلَةَ الشعراء .

وفي عهد النعمان بن المنذر المكنى بأبي قابوس (الذي تولى في العقد الثامن من القرن السادس الميلادي ، والذي كان التاسع عشر من ملوك الحيرة) قد بدأ يفد إليه الكثيرون من الشعراء ، من أمثال أوس بن حجر ، والمنخل اليشكري ، ولبيد بن ربيعة ، والمثقب العبدي ، وحجر بن خاله ، والنابغة الذبياني وإليه نظم اعتذارياته المشهورة حينما غضب عليه الملك ، بعد امتداحه لخصومه الغساسنة .

ويروى عن النعمان هذا أنه نشأ في حجر عائلة نصرانية كان عديٌّ بن زيد ترجمان كسرى الثاني وكاتبه أحدَ أفرادها ، فلما توفي المنذر بن المنذر ، والد النعمان ، أشار عدي على كسرى بتولية صديقه الأمير النعمان من دون إخوته الاثني عشر ، فأجابه كسرى إلى ذلك ، ولكن النعمان لم يكن من الذين يعرفون الوفاء ، ذلك أنه استدرج عدي بن زيد إلى الحيرة ، وسجنه ، ثم أمر بقتله ، فأثار بذلك غضب كسرى الذي استدعاه إلى المدائن ، وألقاه في السجن ، وقيل إنه رمى به تحت أرجل الفيلة .

ولم تقم بعد النعمان للمناذرة قائمة ، فقد ولّى الفرس بعده ثلاثة حكام خضع لهم زعماء العرب حتى سنة ٦٣٣ هـ حين وقعت الحيرة في قبضة الجيش الإسلامي الذي كان يقوده خالد بن الوليد .

جـ ـ مملكة كندة في نجد ...

يعود نسب أبناء كندة إلى بطن من كهلان أي من عرب الجنوب كالمناذرة والغساسنة ، وكانت منازلهم في المناطق الواقعة إلى الغرب من حضرموت ، وقد ظل قسم منهم يقيم في هذه المواطن حتى مجيء الإسلام ، بينما غادرت جماعات منهم منازلها برئاسة زعيمها حجر بن عمرو الملقب بآكل المرار عندما عينه حسَّانُ بن تُبَّع الحميري على بعض القبائل في نجد في أواخر القرن الخامس الميلادي ، وعلى هذا فإن مملكة كندة تابعة لتبابعة اليمن المتأخرين[1] ، وبهم كانت تستعين في حروبها ضد المناذرة . وجاء بعد آكل المُرَّار ، ابنه عمرو المقصور ، وقد سمي كذلك لأنه اقتصر على مُلك أبيه[2] ، بل إن رقعة نفوذه تقلصت ، عندما نقضت بكرٌ وتغلبُ ولاءهما لكندة في عهده .

أما ابنُهُ الحارثُ بن عمرو ، فقد كان طموحاً واسع الآمال ، وفي عهده بلغت كندةُ ذروة مجدها عندما خضعت له قبال نجد ، ولجأت إليه تطلب منه أن يوليّ عليهم أبناءه ليحولوا دون تقاتلهم ، فوليَّ على أسد ابنه حُجْراً ، وعلى بكر بن وائل ابنه شُرَحْبيل ، وعلى قيس عَيْلانَ ابنه مَعْدِ يكَرِب ، وعلى تغلب ابنه سلمة . ثم عقد حلفا مع الإمبراطور البيزنطي ، ووجَّه همه لحرب المناذرة ، فانتصر عليهم في غير معركة .

---

(١) انظر تاريخ العرب لفيليب حتي ١/١١٤ .
(٢) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ٢٨٨ .

وعندما تغيّر قُبَاذ الملك الفارسي ، على مَلِكِ الحيرة المنذر بن ماء السماء وعزله ، عيَّنَ مكانَه الحارث بن عمرو ملكاً على الحيرة ، فعظم في أعين القبائل وازداد سلطانه قوة ورهبة ، ثم انقلبت الأمور رأساً عقب وساء حظ الحارث ، ذلك أنه بعد استيلاء الحبشة على اليمن وقضائها على نفوذ التبابعة أحلاف كندة ، توفي الملك الفارسي قُباذ وخلفه ابنه أنوشروان ، فعزل الحارثَ وأعاد ابن ماء السماء على عرش الحيرة . ويروى أن ابن ماء السماء أوقع بالحارث هزيمة منكرة ، وأسر ثمانية وأربعين من أمراء كندة فقتلهم ، أما الحارث ففر إلى بني كلب ومكث عندهم إلى أن مات قتلاً .

وبقي أولاد الحارث ملوكاً على القبائل ، غير أنهم ضعفوا في طبيعة الحال بزوال ملك أبيهم ، وقد عمل المنذرُ ، حسبما يذكر الرواة ، على إيقاع التفرقة بينهم ، وهكذا نشبت الحرب بين سلمة بن الحارث أمير تغلب ، وأخيه شرحبيل أمير بكر بن وائل ، وقُتل شرحبيل في معركة تعرف بيوم الكُلاب ، وتشرد سلمة ولجأ إلى بكر بن وائل يطلب الحماية ، ولكنه ما لبث أن قُتل في معركة جرت بين النعمان بن ماء السماء وبكر بن وائل .

وعندما رأى بنو أسد ما حل بالأخوين شرحبيل وسلمة ، ثاروا على أخيهم الثالث حُجْرٍ (وهو والد الشاعر المشهور امرىء القيس بن حجر الكندي) وقتلوه . وهكذا تضعضعت هذه المملكة ، إذ لم يبق من ملوكها إلا معد يكرب على قيس عيلان .

وكان على الشاعر الملك امرىء القيس أن يطلب ثأره ، ويعيد مجد آبائه ، وهو أول ملك شاعر ، وهذا ما سوف نترك الحديث عنه إلى القسم الثاني من هذا الفصل .

الفصل الأول

امرؤ القيس الكندي

أ ـ حياته
ب ـ شعره

ـ الأطلال
ـ المغامرات العاطفية
ـ وصف الطبيعة المتحركة
ـ وصف الطبيعة الصامتة
ـ الأغراض الشعرية الأخرى
ـ امرؤ القيس في رأي النقاد

امْرُؤُ القَيْسِ بنُ حُجْرٍ الكِنْدي

لقد أجمع مؤرخو الأدب العربي تقريباً على أن الشعر العربي بدأ بملك هو امرؤ القيس : وقال الأصمعي عن نسبه : هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حُجْرٍ آكل المرار بن معاوية بن ثور وهو من كندة[1] .

وقال ابن الأعرابي : هو امرؤ القيس بن حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن ثور وهو من كندة .

وقال محمد بن حبيب : هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الملك بن عمرو بن حجر آكل المرار بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن يَعْرُب بن ثور بن مُرْتِّع بن معاوية بن كندة[2] .

ولن نوغل في اختّلاف الرواة في سلسلة نسبه ، ونكتفي بأنهم قالوا جميعاً عن جده الأكبر : كندةُ هو كندة بن عُفَيْر بن عدي حتى بلغوا به سام بن نوح[3] .

---

(١) أنظر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٧٧/٩ .
(٢) مريع : ضبطه الحافظ في التبصير كَمُحْسِن ، وضبطه الصاغاني في العباب كمُحَدِّث .
(٣) انظر الأغاني ٧٧/٩ .

وأمُّ امرىء القيس هي فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زُهَيْرٍ أخت كليب ومهلهل ابني ربيعة التغلبيَّيْنِ . بصرف النظر عن الروايات الأخرى[1] .

أما اسمه فقد اختلف المؤرخون فيه كذلك ، فقالوا : إنه حُنْدُجُ . وقال آخرون : هو عَدِيٌّ ، أو مُلَيْكَةُ ، وكنِّي بأبي وهب ، وأبي زيد ، وأبي الحارث ، كما لُقِّب بذي القروح وذلك عندما تقرَّحَ جلدُه في طريق عودته من أنقرة ، حيث نقل عنه قوله :

وَبُدِّلْتُ قَرْحاً دَامياً بعدَ صِحَّةٍ   لَعَلَّ مَنَايَانَا تَحَوَّلْنَ أَبْؤُسا

ولُقِّب أيضاً بالملك الضِّلِّيل لحياته المضطربة أثناء سعيه لإسترجاع ملكه بعد مقتل أبيه .

آ ـ حياته ..

لقد اختلف المؤرخون في تاريخ مولده ، فقال صاحب شعراء النصرانية كان مولده سنة ٥٢٠ (م)[2] ، بينما ذكر رينان في كتاب تاريخ اللغات السامية أن مولده كان حوالي سنة ٥٠٠ م[3]، ويبدو ذلك أنه كان ببلاد بني أسد وغطفان حيث كان أبوه ملكاً ، ـ وكان يحد مملكة أبيه غرباً وداي القرى ، وشرقاً وشمالاً طيىء ، وجنوباً غنى وعامر بن صعصعة ـ وينقل صاحب الأغاني عن ابن حبيب قوله عن امرىء القيس أنه : كان ينزل المشقر من اليمامة ، وقد انتبه الدكتور أسعد ذبيان

---

(١) المرجع السابق .
(٢) أنظر شعراء النصرانية أمير الشعراء ٣٠ .
(٣) تاريخ اللغات السامية لرينان .

إلى خطأ هذا القول ، ذلك أن المشقر في هجر التي هي في أقصى الجنوب[1] ، وقال آخرون : إنه كان ينزل في حصن بالبحرين . والواقع أن هذا الشاعر الأمير كان كثير التنقُّل والترحُّل طلباً للَّهو والملذات ، فقد طاف أنحاء نجد وتهامة واليمن ، وهو أنَّى اتجه في هذه البلاد كان يجد مَنْ ينظر إليه من أبنائها بعين المهابة والتقدير ؛ كيف لا وأهله يحكمون البلاد فيأمرون مستبدين ، ويدفع لهم الأعراب والقبائل الإتاوات السنوية صاغرين ؟

وانطلق امرؤ القيس لاهياً عابثاً ماجناً ، ينتهب اللذات بنهم وكأنها ستفر منه ، فعليه أن يعب منها وينهل ويعتل مادامت أيامه مواتية ورياحه موائمة ، ولم يغفل عن ذكر تفاصيل هذه الحياة المستهترة ، فقد ضمن شعره وصفاً لهذه الحياة القائمة على الصيد ، وشرب الخمر ، والمغامرات النسائية المتهتكة ، مع النسوة اللواتي كان يلاحقهن في أخبيتهن وعلى الغدران وفي كل مكان ، من مثل أم مالك تلك التي قال فيها :

قِفَا نَسْأَلِ الأَطْلَالَ عَنْ أُمِّ مَالِكٍ   وَهَلْ تُخْبِرُ الأَطْلَالُ غَيْرَ التَّهَالُكِ

وكذلك أم جندب زوجته الطائية التي قال فيها :

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ   لِنَقْضِ لُبَانَاتِ الفُؤَادِ المُعَذَّبِ[2]

وسُليمى تلك التي تردد اسمها كثيراً ، وقال فيها :

سَمَا بِكَ شَوْقٌ بَعْدَمَا كَانَ أَقْصَرَا   وَحَلَّتْ سُلَيْمى بَطْنَ قَوٍّ ، فَعَرْعَرَا
كِنَانِيَّةٌ بَانَتْ وَفِي الصَّدْرِ وُدُّهَا   مُجَاوِرَةً غَسَّانَ ، والحَيُّ يَعْمُرَا

---

(١) أنظر المخصوص في المنتقى من النصوص ٢٧٠ الهامش ١ .
(٢) وروي البيت (نُقَضِ) وهي أفضل .

والخنساء التي قال فيها :

قَـالَتِ الخَنْسَـاءُ لَمَّـا جِئْتُهَـا   شَابَ بَعْدي رَأْسُ هَذا وَاشْتَهَبْ[1]
عَـهِـدَتْـنِي نَـاشِئـاً ذَا غُـرَّةٍ   رَجِـلَ الجُمَّـةِ ذَا بَـطْنٍ أَقَبْ[2]

ورقاش التي استبته بنحرها وجيدها ، فقال فيها :

قَامَتْ رَقَاشُ وَأَصْحَابِي عَلَى عَجَلٍ   تُبْدي لِيَ النَّحْرَ واللَّبَاتِ وَالجِيَدا

وَهِنْدُ وَالرَّبَابُ وَفَرْتَنَى وَلَمِيسُ اللَّواتي جَمَعَهُنَّ في قَوْلِهِ :

دَارٌ لِهِنْـدٍ وَالـرَّبَـابِ وَفَـرْتَنَى   وَلَمِيسَ قَبْـلَ حَـوَادِثِ الأَيَّـام
عُوجا عَلَى الطَّلَلِ المحيلِ لَعَلَّنَا   نَبْكي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابنُ خِذَامِ
حُـورٌ تُعَلَّلُ بِـالعَبـيرِ جُلُودُهَـا   بِيضُ الـوُجُوهِ نَـوَاعِمُ الأَجْسَـامِ

ووهر التي إذا افترَّت تكشفت ثناياها العذاب كأنها الخمر المسكرة تصيد قلوب الرجال ، قال :

وَهْـرٌ تَصِيدُ قُلُوبَ الـرِّجَـالِ   وَأَفْلَتَ مِنْهَا ابنُ عَمْرٍو وحُجُرْ
رَمَتْني بِسَهْـمٍ أَصَـابَ الفُـؤَادَ   غَـدَاةَ الـرَّحِيـلِ فَلَمْ أَنْتَصِرْ

وفاطمة بنت العبيد بن ثعلبة من عذرة الوحيدة التي بدت في شعره متأبية متعالية متدللة ، والوحيدة التي يقف مَعَها موقف رقة وتلطف فيقول :

أَفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ !   وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ صَرْمي فَأَجْمِلي[3]
وَإِنْ كُنْتِ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّي خَليقَةٌ   فَسُلِّي ثِيَابي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسُلِ[4]

---

(١) اشتهب : صار أشهب الرأس ، والشهبة بياض في سواد أي صار ذا شيب .
(٢) رجل الجمة : ممشط الشعر . الأقب : العالي المرتفع .
(٣) أزمعت : انتويت . صرمي : لهجري .
(٤) اسُلِّي ثيابك : كناية عن الافتراق .

ناهيك عن عنيزة التي طارحها الغرام في خدرها على ظهر هودجها ، فقال :

وَيَوْمَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ فَقَالَتْ : لَكَ الوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجِلِي
تَقُولَ وقَدْ مَالَ الغَبِيطُ بِنا مَعاً : عَقَرْتَ بَعيري ، يَا امْرأَ القَيْسِ ، فَانْزِلِ

ويتكرر اسم هَرٍ وَفَرْتنَى اللتين اعتاد امرؤ القيس أن يلقاهما ، وتعود أن يقبِّلَهما فيجد لفميهما طعم الخمر المعتقة ، فيغنيهما ويغنيانه ، فيقول :

أُغادي الصَّبُوحَ عِنْدَ هَرٍّ وَفَرْتَنَى وَليداً ، وَهَلْ أَفْنَى شَبَابِي غَيْرُ هَرّ ؟[1]
إِذَا ذُقْتُ فَاهَا قُلْتُ : طَعْمَ مُدَامَةٍ مُعَتَّقَةٍ مِمَّا يَجِيءُ بِهِ التّجُرُ[2]
هُمَا نَعْجتان مِنْ نِعَاجِ تُبَالَةٍ لَدىَ جُؤْذُرَيْنِ ، أَوْ كَبَعْضِ دُمَى هَكِرْ ؟[3]

وسلمى التي تبدو في أتم حسنها ، وأكمل زينتها ، وبسباسة التي تزعم أن الشاعر قد كبر ، فإنه يكذبها ، ويقول فيهما :

دِيَارٌ لِسَلْمَى عَافِياتٌ بِذِي خَالٍ أَلَحَّ عَلَيْها كُلُّ أَسْحَمَ هَطَّالِ[4]
وَتَحْسَبُ سَلْمَى لَا تَزَالُ تَرَى طَلاً مِنَ الوَحْشِ أَوْ بَيْضاً بِمَيْثَاءَ مِحْلَالِ[5]
وَتَحْسَبُ سَلْمَى لا تَزَالُ كَعَهْدِنَا بِوَادِي الخُزَامَى أَوْ عَلَى رَسِّ أَوْ عَالِ[6]
لَيَالِيَ سَلْمَى إِذْ تُرِيكَ مُنَصَّباً وَجِيداً كَجِيدِ الرِّئْمِ لَيْسَ بِمِعْطَالِ[7]
أَلا زَعَمَتْ بَسْبَاسَةُ اليَوْمَ أَنَّنِي كَبِرْتُ ، وَأَلَّا يُحْسِنَ اللَّهْوَ أَمْثَالِي
كَذَبْتِ لَقَدْ أُصْبِي عَلَى المَرْءِ عِرْسَهُ وَأَمْنَعُ عِرْسِي أَنْ يُزَنَّ بِهَا الخَالِي

---

(١) الصبوح : شرب الغداة .
(٢) المدامة : الخمر المعتقة . التجر : تجار الخمر .
(٣) النعجة : أنثى بقر الوحش . الجؤذر : ولد البقرة المتوحشة . تباله وهكر : موضعان .
(٤) الأسحم : السحاب الأسود .
(٥) طلا : ابن الظبية . الميثاء : طريق الماء .
(٦) الرسّ : البئر .
(٧) المنصب : الثغر المستوي .

وها هو يُسائل ماوية لِمَ لا تسمع نداءه ، وعفت رسومها فلا تُسْمِعْ ، واستعجمت فلا تجيب :

يَـا دَارَ مَـاوِيَـة بِـالحَـائـلِ فَـالسُّهْبِ فَـالخَبْتَيْنِ مِنْ عَـاقِـلِ
صُمَّ صَـدَاهَـا ، وَعَفَـا رَسْمُهَـا وَاسْتَعْجَمتْ عَنْ مَنطِقِ السَّائـلِ

وسلامة وقذور اللتان يقول فيهما :

عَفَـا شَـطَبٌ مِنْ أَهْلِهِ فَغرورُ فَمـرَه بُـولَـةٌ إنَّ الـدِّيَـارَ تَـدوُرُ
فَجَـزْعُ مُحَيَّاةٍ كَـأَنَّ لَمْ يَقُمْ بِهَـا سَـلاَمَـةُ حَـوْلاً كَـامِـلا وَقَـذُورُ

وكذلك أم هاشم ، وابنة عفزر ، وقد ذكر معهما البسباسة بنت يشكر :

لِمَشيمِ بَروق المُزْنِ أينَ مَصَـابُهُ وَلا شَيْءَ يَشْفى مِنْكِ يا ابْنَةَ عَفْزَرَا [1]
مِنَ القَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ مِنَ الذَرِّ فَوْقَ الإتْبِ منْها لأَثَّرَا [2]
له الويلُ إنْ أمسىٰ ولا أمُّ هاشمٍ قريبٌ ولا البسباسَةُ ابنةُ يشكُرا [3]

وسعاد لها نصيب في غزوات الشاعر الغرامية حيث يقول فيها :

لَعَمْرِي لَقَدْ بَانَتْ بِحَاجَةِ ذِي الهَوَىَ سُعَادُ وَرَاعَتْ بِالفِرَاقِ مُرَوَّعَـا [4]

وقد ذكر كثيراً من أسماء هاتيك النسوة بالكنى ، كقوله في أم الحويرث وأم الرباب :

---

(١) مصاب المزن : حيث يقع السحاب .
(٢) المحول من الذر : الصغير جداً . الاتب : قميص غير مخيط الجانبين .
(٣) له الويل : يعني امرؤ القيس نفسه .
(٤) بانت : ابتعدت ونأت .

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِها أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ [1]
إذا قامتا تضوع المسك منهما نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل [2]

وكثيرة هي الأسماء التي يوردها الشاعر امرؤ القيس في مغامراته وقصص شعره .

ولم يكن والده الملك ، على ما يبدو ، راضياً عن عبث ابنه ولهوه ، ولا سيما مع النساء العذارى اللواتي كثرت شكايات آبائهن من هتكه لأعراضهن وقوله الشعر فيهن . وقد حاول أبوه الملك ، على ما يحدثنا الرواة [1] ردعه عن ذلك ، ولكنّه لم يرتدع ، فطرده وحرم عليه الإقامة معه . ولكنَّ ذلك لم يثن أمرأ القيس عن حياة العبث واللَّهو ، فمضى يسير متنقلاً في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ طيىء وكلب وبكر بن وائل ، يقيم على الغدران والرياض ومواضع الصيد ، فيذبح لمن معه ما يصطاده ، ويشرب الخمر ، ويسمع القيان [3] . ومازال هذا دأبه حتى قُتِل أبوه ، فكان مقتله نهاية لهذه الحياة الماجنة المستهترة ، وبداية لحياة أخرى هي حياة الجد والسعي لاستعادة ملك أبيه .

وتختلف الروايات حول مقتل أبيه ، وحول موقف امرىء القيس حياله ، وقد روى لنا صاحب الأغاني أربعة أخبار في مقتل حُجْرٍ ملك أسد وغطفان .

الرواية الأولى عن ابن الكلبي قال : حدثني أبي : أن حُجْراً كان في بني أسد ، وكانت له عليهم إتاوة في كل سنة مؤقتّة ، فغبرَ ذلك دهرا . ثم بعث إليهم جابيَه الذي كان يجبيهم ، فمنعوه ذلك ـ وحجر يومئذ بتهامة ـ وضربوا رسله

---

(١) الدأب : العادة . مأسل : اسم موضع أو ماء بعينه .
(٢) تضوع : انتشر وفاح . الريّا : الرائحة الطيبة .
(٣) أنظر الأغاني للأصبهاني ٩/٧٧ .

وضرجوهم[1] ضرجاً شديداً قبيحاً. فبلغ ذلك حجرا، فسار إليهم بجند من ربيعة وجند من جند أخيه من قيس وكنانة، فأتاهم وأخذ سَرَاتَهم، فجعل يقتلهم بالعصا ـ فسُمُّوا عبيدَ العصا ـ وأباح أموالهم، وصيرهم إلى تهامة وآلى بالله ألَّا يساكنوهم في بلد أبدا، وحبس منهم عمرو بن مسعود بن كلدة[2] بن فَزَارة الأسدي وكان سيدا ـ وعَبيد بن الأبرص الشاعر. فسارت بنو أسد ثلاثا، ثم إن عَبِيدَ بن الأبرص قام فقال: أيها الملك اسمع مقالتي، وقد اخترنا منها الأبيات التالية:

يَـا عَـيـنُ فَـابْـكـي مـا بَـني ... أَسَـدٍ، فَهُمْ أَهْـلُ النَّـدَامَـهْ

... وَمَـنَعْـتَـهُـمْ نَـجْـداً فَـقَـدْ ... حَـلُّوا عَـلَى وَجَـلٍ تِهَـامَـهْ

... إمَّا تـرَكْتَ تَـرَكْـتَ عَفْــ ... ــواً، أَوْ قَتَلْتَ فَـلَا مَـلَامَـهْ

أَنْـتَ المَـلِيـكُ عَـلَـيْـهِـمُ ... وَهُـمُ العَـبِـيـدُ إلى القِـيَـامَـهْ

ذَلُّـوا لِـسَـوْطِـكَ مـثـل مَـا ... ذَلَّ الأُشَـيْـقِـرُ ذُو الخِـزَامَـهْ[3]

قال: فرق لهم حجر حين سمع قوله، فبعث في أثرهم فأقبلوا، حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة، تكهن كاهنهم، وهو عوف بن ربيعة بن سَوَادَة... فقال لبني أسد: يا عبادي! قالوا: لَبَّيْكَ رَبَّنَا.

قال: مَنِ الملكُ الأصهب، الغلَّاب غير المُغَلَّب، في الإبل كأنها الرَّبْرَبُ، لا يعلق رأسَهُ الصخب؟ هذا دمه ينثعب[4]، وهذا غدا أول من يسلب!

---

(١) ضرجه: أدماه أي جعل دمه يسيل من الضرب.

(٢) انظر تجريد الأغاني في ضبط الاسم.

(٣) الأشيقر تصغير الأشقر من الدواب وهو الأحمر. الخزامة: حلقة توضع في أنف البعير ليسهل قياده.

(٤) ينثعب الدم: يجري.

قالوا : من هو يا ربنا ؟

قال : لولا أن تجيش نفس جاشية ، لأخبرتكم أنه حُجْرٌ ضاحية . [1] .

فركبوا كل صعب وذلول ، فما أشرق النهار حتى أتوا على عسكر حجر فهجموا على قبته ، وكان حُجَّابُهُ من بني الحارث بن سعد يقال لهم بنو خَدَّان بن خَنْثَر منهم معاوية بن الحارث وشبيب ورُقَيَّة ومالك وحبيب ، وكان حجر قد أعتق أباهم من القتل ، فلما نظروا إلى القوم يريدون قتله خيموا عليه ليمنعوه ويجيروه . فأقبل عليهم علباء بن الحارث الكاهلي ، وكان حجر قد قتل أباه ، فطعنه من خَلَلهم فأصاب نَسَاهُ فقتله . فلما قتلوه قالت بنو أسد : يا معشر كنانة وقيس ! أنتم إخواننا وبنو عمنا ، والرجل بعيد النسب منا ومنكم ، وقد رأيتم ما كان يصنع بكم هو وقومه ، فانتهبوهم ، فَشَدُّوا على هجائنه فمزقوها ولفوه في رِيْطةٍ بيضاء وطرحوه على جنب الطريق . فلما رأته قيسٌ وكنانة انتهبوا أسلابه . ووثب عمرو بن مسعود فضم عياله وقال : أنا لهم جارٌ .

والرواية الثانية ، قال ابن الكلبي : وعدة قبائل من بني أسد يدَّعون قتل حُجْرٍ ويقولون : إن عِلْبَاءَ كان الساعي في قتله وصاحبَ المشورة ولم يقتله .

والرواية الثالثة ، عن أبي عمرو الشيباني قال : بل كان حُجْرٌ لمّا خاف من بني أسد ، استجار عُوَيْرَ بن شَجْنَةَ أحدَ بني عُطَارِد بن كعب بن سعد بن زيد مَنَاةَ بن تميم لبنته هند بنت حُجْرٍ وعياله ، وقال لبني أسد لمّا كَثَروه : أما إذا كان هذا شأنكم فإني مرتحل عنكم ومخليكم وشأنكم. فواعدوه على ذلك . ومال على خالد بن خدّان أحد بني سعد بن ثعلبة ، فأدركه عِلْبَاءُ بن الحارث أحدُ بني كاهل

---

(١) انظر الخبر كاملاً في الأغاني ٨٣/٩- ٨٤ .

فقال : يا خالد ! اقتل صاحبَك لا يُفلتْ فَيُعرَّكَ [1] وإيَّانا بشرٍّ . فامتنع خالد . ومر عِلْبَاءُ بِقِصْدةِ رمحٍ مكسوه فيها سنان ، فطعن بها في خاصرة حُجْرٍ وهو غافل عنه فقتله . ففي ذلك يقول الأسدي :

وَقِصْدَةُ عِلْبَاءَ بنِ قَيْسِ بنِ كَاهِلٍ مَنِيَّةُ حُجْرٍ في جَوارِ ابنِ خَدَّانِ

والرواية الثالثة بطريق آخر كما ذكر الهيثم بن عدي: أن حُجْراً لمّا استجار عُوَيْرَ بنَ شَجْنة لبنيه وقطينه [2] تحول عنهم فأقام في قومه مدة ، وجمع لبني أسد جمعاً عظيماً من قومه وأقبل مُدِلاً بمن معه من الجنود . فتآمر عليه بنو أسد بينهم وقالوا : والله لئن قهركم هذا ليحكُمنَّ عليكم حُكْمَ الصبي ! فما خير عيش يكون بعد قهرٍ وأنتم بحمد الله أشدُّ العرب ! فموتوا كراماً . فساروا إلى حُجْرٍ وقد ارتحل نحوهم فلَقُوه ، فاقتتلوا قتالا شديدا . وكان صاحب أمرهم عِلْبَاءُ بن الحارث ؛ فحمل على حُجْرٍ فطعنه فقتله ، وانهزمت كِنْدَةُ وفيهم يومئذ امرؤ القيس فهرب على فرس شقراء وأعجزهم ، وأسروا من أهل بيته رجالا وقتلوا وملأوا أيديهم من الغنائم ، وأخذوا جواريَ حُجْرٍ ونساءه وما كان معه من شيء فاقتسموه بينهم . [3]

والرواية الرابعة كما قال يعقوب بن السِّكِّيت : حدثني خالد الكِلابي قال : كان سببُ قتل حجر أنه كان وفد إلى أبيه الحارث بن عمرو في مرضه الذي مات فيه ، وأقام عنده حتى هلك . ثم أقبل راجعاً إلى بني أسد وقد كان أغار عليهم في النساء وأساء ولايتَهم ، وكان يُقَدِّمُ بعضَ ثقله أمامه ويُهيَّأ نزله ثم يجيء وقد هُيِّءَ له من ذلك ما يعجبه فينزل ، ويقدم مثل ذلك إلى ما بين يديه من المنازل فَيُضْربُ له في المنزلة الأخرى . فلما دنا من بلاد بني أسد وقد بلغهم موت أبيه فطمعوا فيه ،

(١) عَرَّهُ : أصابه بشر .
(٢) القطين : من يقطنون معه وهنا الحذم والحاشية .
(٣) الأغاني ٩/٨٥ وما بعده .

فلما أظلَّهم وضربت قبابه اجتمعت بنو أسد إلى نوفل بن ربيعة بن خَدَّان ، فقال : يا بني أسد ! مَنْ يتلقى هذا الرجل منكم فيقتطعه ؟ فإني قد أجمعت على الفتك به .

فقال له القوم : ما لذلك أحد غيرك .

فخرج نوفل في خيله حتى أغار على الثَّقَلِ فقتل من وجد فيه ، وساق الثقل وأصاب جاريتين قينتين لحُجْرٍ ، ثم أقبل حتى أتى قومه . فلما رأوا ما قد حدث وأتاهم به عرفوا أن حُجْراً يقاتلهم وأنه لا بدَّ من القتال ، فحشد الناسُ لذلك .

وبلغ حجراً أمرُهم ، فأقبل نحوهم ، فلما غشيهم ناهضوه القتالَ وهم بين أبرقين من الرمل في بلادهم يدعيان اليوم أبْرَقَى حُجْرٍ ، فلم يُلبِثوا حجراً أن هزموا أصحابه وأسروه فحبسوه ، وتشاور القوم في قتله ، فقال لهم كاهن من كهنتهم بعد أن حبسوه ليَرَوْا فيه رأيهم : أيْ قوم ! لا تعجلوا بقتل الرجل حتى أَزْجُرَ لكم .

فانصرف القوم لينظر لهم في قتله . فلما رأى ذلك عِلْبَاءُ خشي أن يتواكلوا في قتله ، فدعا غلاما من بني كاهل ، وكان ابنَ أخته ، وكان حُجْرٌ قتل أباه زوجَ أخت علباء ، فقال : يا بني ! أعندك خيرٌ فتثأرَ بأبيك وتنال شرف الدهر وإن قومك لن يقتلوك ؟! . فلم يزل بالغلام حتى حَرَّبَهُ ، ودفع إليه حديدة وقد شحذها وقال : ادخل عليه مع قومك ثم اطْعَنْهُ في مقتله .

فعمد الغلام إلى الحديدة فخبَّأها ثم دخل على حُجْرٍ في قبته التي حُبس فيها . فلما رأى الغلام غَفَلَةً وثب عليه فقتله ؛ فوثب القوم على الغلام . فقال بنو كاهل : ثأرنا في أيدينا . فقال الغلام : إنما ثأرت بأبي ، فَخَلُّوا عنه .

وأقبل كاهنهم المُزْدجِر فقال : أيْ قومٍ ! قتلتموه ! مُلْكُ شهر ، وذلُّ دهر ، أما والله لا تَحْظَوْنَ عند الملوك بعد أبداً .

وليس لدينا ما يثبت صدق واحدة من هذه الروايات ، إذ أن بعض ما فيها يوحي بالانتحال والوضع ، وتجعلنا نرجح مع الدكتور شوقي ضيف صحة الرواية الثالثة ، المنقولة عن الهيثم بن عدي ، ففي شعر عَبيدِ بن الأبرص إشارة إلى فرار امرىء القيس من المعركة التي قتل فيها أبوه ، وذلك في قوله :

وَرَكْضُكَ لَوْلَاهُ لَقيتَ الَّذي لَقُوا فَذَاكَ الَّذي أَنْجَاكَ مِمَّا هُنَـالِكَا

والله أعلم .

ويروي ابن السكيت كيف تلقى امرؤ القيس نبأ قتل والده ، فيقول : ولَمَّا طَعَنَ الأسديُّ حجراً ولم يُجْهِزْ عليه ، أوصى ودفع كتابهِ إلى رجل وقال له : انطلق الى ابني نافع ـ وكان أكبرَ ولده ـ فإن بكى وجزع فَالْهُ عنه ، واستقرهم واحداً واحداً حتى تأتيَ امرأ القيس ـ وكان أصغرَهم ـ فأيهم لم يجزع فادفعْ إليه سلاحي وخيلي وقدوري ووصيتي . وقد كان بَيَّنَ في وصيَّته مَنْ قتله وكيف كان خبره .

فانطلق الرجل بوصيَّته الى نافع ابنه ، فأخذ التراب فوضعه على رأسه . ثم استقراهم واحداً واحداً فكلهم فعل ذلك ، حتى أتى امرأ القيس فوجده مع نديم له يشرب الخمر ويلاعبه بالنرد ، فقال له : قُتل حُجْرٌ . فلم يلتفت إلى قوله ، وأمسكَ نديمه .

فقال له امرؤ القيس: اضربْ، فضَرَبَ، حتى إذا فَرَغَ قال: ماكنت لأفسدَ عليك دستك. ثم سأل الرسولَ عن أمر أبيه كله، فأخبره. فقال: الخمر عليَّ والنساءُ حرامٌ حتى أقتُلَ من بني أسد مئةً وأجُزَّ نواصيَ مئة، وفي ذلك يقول:

أَرِقْتُ وَلَمْ يَـأرَقْ لِمَـابِيَ نَـافِـعُ   وَهَاجَ لِي الشَّوْقَ الهُمُومُ الرَّوَادِعُ[1]

وقال ابن الكلبي: حدثني أبي عن ابن الكاهن الأسدي: أن حجرا كان قد طرد امرأ القيس وآلى ألا يقيم معه أَنَفَةً من قوله الشعر، وكانت الملوك تأنفُ من ذلك. فانطلق في أحياء العرب ليغرق بالملذات حتى أتاه خبرُ أبيه ومقتله وهو بدمون من أرض اليمن، أتاه به رجل من بني عجل يقال له عامر، الأعور أخو الوصاف، فلما أتاه بذلك قال:

تَـطَاوَلَ الَّلَيْـلُ عَـلَى دَمُّـونْ   دَمُّـونُ إنَّـا مَـعْشَرٌ يَمَـانِيُّـونْ
وَإِنَّنَا لأهْلِهَا مُحِبُّونْ

ثم قال: ضيَّعني صغيراً وحمَّلني دمَه كبيراً. لاصَحْوَ اليَوْمَ ولاسُكْرَ غداً. اليومُ خَمْرٌ، وَغداً أَمْرٌ. فذهبت مثلا، ثم قال:

خَليلَيَّ لافي اليَوْمِ مَصْحىً لِشَارِبٍ   وَلا في غَدٍ إذْ ذَاكَ مَا كَانَ يُشْرَبُ

ثم شرب سبعاً، فلما صحا آلَى ألا يأْكُلَ لحما، ولايشرب خمرا، ولايَدَّهِنَ بدهن. ولايصيب امراةً، ولايغسلَ رأسه من جنابة، حتى يدركَ بثأره، فلما أجنه الليل رأى برقا، فقال:

أَرِقْـتُ لِبَـرْقٍ بِـلَيْـلٍ أَهَـلّ   يُضِيءُ سَنَـاهُ بِـأَعْـلَى الجَبَـلْ
أَتَـانِي حَـدِيـثٌ فَـكَـذَّبْـتُـهُ   بِـأَمْـرٍ تَـزَعْـزَعُ مِنْـهُ القُـلَلْ
بِـقَـتْـلِ بَـنِي أَسَـدٍ رَبَّهُـمْ   أَلا كُـلُّ شَيْءٍ سِـوَاهُ جَـلَلْ[2]
فـأيـن ربيـعـة من ربهـا؟   وأيـن تميـمٌ وأيـن الخـول؟

---

(١) انظر الأغاني ٨٧/٩ .
(٢) حلل هنا: بمعنى هين.

فَـأَيْـنَ رَبِـيـعَـةُ عَـنْ رَبِّـهَـا؟ وَأَيْـنَ تَمِـيـمٌ وَأَيْـنَ الخَـوَلْ؟[1]
أَلا يَحْضُرُونَ لَـدَى بَـابِـهِ كَمَا يَحْضُرُونَ إِذَا مَـا أَكَـلْ؟[2]

ومهما يكن من أمر هذه الروايات فإن امرأ القيس ارتحل يطلب المساعدة من بكر وتغلب، ثم أقبل بجموعهم مغيرا على بني كنانة حيث التجأ بنو أسد، ففر هؤلاء عندما علموا بقدومه، فلحق بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، ولم يَحُلْ دون فنائهم إلا قدوم الليل الذي استغله الأسديون ستارا ليتواروا عن الأنظار، وعندما أقبل الصبح وأراد امرؤ القيس اللحاق بهم أبى حلفاؤه ذلك بحجة أنه أصاب منهم ثأره وشفى غليله.

ولم يكن امرؤ القيس ليقنع بهذا الانتقام، ذلك أن آماله على مايبدو كانت أبعدَ من ذلك، فقد كان يريد استعادة المُلْكِ، ملك آبائه وأجداده، لهذا نراه يرتحل إلى اليمن مُسْتنصراً أَزْدَ شَنُوءَةَ، وحين أحجم هؤلاء عن نَصرته، نزل بواحد من أقيال اليمن يدعى مَرْثَدُ الخير بن ذي جَدَنٍ الحميري ، فأمدَّه بخمسمئة رجل من حمير، سار بهم امرؤ القيس لقتال بني أسد .

ويحدثنا الوراة أن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة، عَدُوَّ الكِنْديين، وَجَّهَ الجيوش في طلب امرىء القيس، بعدما آنس منه قوة ونفوذاً، الأمر الذي أخاف الحميريين، فتفرقوا عن امرىء القيس وطلبوا النجاة لأنفسهم.

وهكذا صار الأمير الشاعر وحيدا يلتجىء إلى أسياد العرب متنقلا من واحد إلى آخر حتى انتهى به المطاف إلى السموْل بن عادياء صاحب حصن الأبلق المشهور، فاستودعه أهلَه وأمواله وما كان معه من سلاح، واتجه إلى الشام يستعين

---

(١) الخول: الخدم والتابعون للحاشية.
(٢) انظر الأغاني ٨٨/٩ .

بالغساسنة، وكان على الغسانيين آنئذٍ الحارث بن أبي شمر، فرحب به وأكرمه وأوصله إلى قيصر الروم جوستنيان، رفقه عمرو بن قميئة الشاعر، من بني قيس ابن ثعلبة، وأحد حجاب أبيه، وإليه يشير صراحة في أطول قصائده عن الرحلة:

أَرَى أَمَّ عَمْرٍو وَدَمْعُهَا قَدْ تَحَدَّرَا بُكَاءً عَلَى عَمْرٍو وَمَا كَانَ أَصْبَرَا

وكان معه الحارث بن حبيب السلمي، ولكنه لم يكمل الرحلة، فمات في الطريق قريباً من بصرى الشام، وبكاه امرؤ القيس بشعر حفظ لنا منه الرواة بيتين:

ثَوَى عِنْدَ الوَدِيَّة جَوْف بُصْرَى أَبُـو الأيتامِ والكُـلِّ العجافِ

فَمَنْ يحمي المُضـافَ إذا دَعَـاهُ ويحمـلُ خِـطَّةَ الأنَسِ الضِّعـافِ

وكان معه جابر بن حُنَيٍّ التغلبي،، وإليه أشار في قصيدة أخرى تتصل بالرحلة:

فَـإمَّا تَـرَيْني في رِحـالَـةِ جَـابـرٍ على حَرَجٍ، كالقرِّ تخفقُ أكْفاني

وكان معه على التأكيد آخرون من أهله ومعاونيه ورفاقه وخدمه.

ومن الرواة من يذكر أن جوستنيان رحب به وقلده إمرة فلسطين من دون أن يسعى في إعادة ملكه، الأمر الذي أزعجه، فعاد أدراجه وتوفي في طريق العودة سنة ٥٦٥ م على أصح تقدير في السنة التي توفي بها الامبراطور جوستنيان، بعدما أصابه مرض جلدي كأنه الجدري.

ومن الرواة مَنْ يذكر أن رجلا من بني أسد يقال له الطماح بن قيس الأسدي أوغر قلب جوستنيان على امرىء القيس، بعد أن كان قد زوده بجيش كبير، كيداً للخميين، فأخبره أن امرأ القيس راسل ابنته ونظم فيها الشعر وفضحها بين العرب، فبعث إليه حينئذٍ بِحُلَّةٍ ذهبية مسمومة ما أن ارتداها حتى تناثر لحمه

وتساقط جلده مع اننا نستبعد هذه الرواية كلياً. ويروى أن مرافقه جابر بن حيي التغلبي كان يحمله في مرضه على محفه، فلما بلغ انقرة احتضر بها، ونقل عنه قوله:

رُبَّ طَعْنَةٍ مُثْعَنْجِرَهْ وَجَفْنَةٍ مُتَحَيِّرَهْ[1]
وَقَصِيدَةٍ مُحَبَّرَهْ تَبْقَى غداً بِأَنْقَرَهْ[2]

كما يروى أن الشاعر رأى قبر أمرأة غريبة مدفونة عند سفح جبل اسمه عسيب، وقد قاربته المنية، فقال:

أَجَارتَنَا إنَّ المزارَ قريبُ وإنِّي مقيمٌ ما أقَامَ عَسيبُ
أجارتَنَا إنَّا غَرِيبانِ هَاهُنَا وكُلُّ غريبٍ للغريبِ نَسيبُ

وما لبث أن مات، فدفن بقرب هذه المرأة، ويذكر أن الامبراطور جوستينان أمر بنصب تمثال لامرىء القيس، بقي حتى أيام الخليفة المأمون، وأن الخليفة شاهده عند مروره من هناك لما دخل بلاد الروم غازيا في إحدى صوائفه.

ب ـ شعره..

شَكَّ النقاد قديما وحديثا في كثير من شعر امرىء القيس وأخباره، ولم يستثنوا من ذلك إلا معلقته الشهيرة، ومطولته التي مطلعها:

أَلا عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالي وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ في العُصُرِ الخَالي؟

وبعض المقوطعات التي لايتجاوز عددها أصابع اليد[3].

بل إن الدكتور طه حسين ذهب إلى رد شعر امرىء القيس برمته، محتجا

---

(١) مثعنجرة: السائلة يقال ثعنجر الدم فاثعنجر إذا صبه فانصب. متحيرة: ممتلئة، وتحيرت الجفنة إذا امتلأت طعاما.

(٢) محبرة: حسنة جيدة.

(٣) انظر تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي ٢٤٣ ومابعده للدكتور شوقي ضيف.

بكون هذا الشاعر يمنيا من كندة فلا يمكن أن تكون لغته قرشية كما هي الحال في شعره الذي وصل إلينا.

والحق إن امرأ القيس شبَّ في ديار بني أسد المعروفين بفصاحتهم وسلامة لغتهم، ومنهم الشاعر المعروف عَبِيدُ بن الأبرص، كما إن أمه هي فاطمة بنت ربيعة أخت مهلهل فارس تغلب وشاعرها يوم السباق، فهل يكون غريبا على هذا الشاعر أن يتقن لغة الشماليين وهو الذي رافقهم في حله وترحاله، وارتبط بهم بالخؤولة والمصاهرة؟.

إن شعر امرىء القيس مرتبط بحياته بمرحلتيها ـ قبل مقتل أبيه وبعده ـ أشد الارتباط، فهو يصوره في مرحلة شبابه عابثا مع نسائه، لاهيا في رحلات صيده، متأملا في بيئته الصحراوية بجفافها ومطرها وحيوانها وأوابدها. وفي مرحلته الثانية لاهثا وراء مجده الضائع وملكه الزائل، خائفا تارة وثائرا أخرى. ويمكن إرجاع شعر العبث واللهو والمغامرات الغرامية والوصف إلى القسم الأول من حياته، بينما يمكن لنا أن نرد ماتبقى من شعره إلى القسم الذي تلى مقتل أبيه، وأكثره في الفخر والشكوى والمدح والهجاء. وها نحن نلقي فيما يلي نظرة على أغراض امرىء القيس الشعرية لنرى معانيَهُ ونهجه.

الأطلال ..

يستهل امرؤ القيس كثيرا من قصائد ديوانه بالوقوف على الاطلال، وقفة قد تطول وقد تقصر حسبما تكون الظروف النفسية موائمة، فهو مثلا يستهل معلقته بقوله:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبيبٍ وَمَنْزِلِ   بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ[1]

---

(١) السقط: منقطع الرمل، وسقط اللوى والدخول وحومل وتوضح والمقراة: أسماء أمكنة بأعيانها.

فَتُوضَحَ فَالمِقْرَاةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا ... لِمَا نَسَجتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ
تَـرَى بَعَرَ الآرَامِ فِي عَـرَصَاتِهَـا ... وَقِيعَـانِهَا كَـأَنَّـهُ حَبُّ فُلْفُـلِ
كَـأَنِّي غَـدَاةَ البَـيْنِ يَـوْمَ تَحَمَّلُوا ... لَدَى سَمُراتِ الحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ[1]
وُقُوفاً بِهَـا صَحْبِي عَلَيَّ مِطِيُّهمْ ... يَقُـولُـونَ لاتَهْلِكْ أَسىً وتَجَمَّـلِ
وَإِنَّ شِفَـائِي عَبْـرَةٌ مُهْـرَاقَـةٌ ... فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

فهو كما رأينا يذكر أطلال الحبيبة، ويستوقف من معه ليعيناه في البكاء على ذكرى حبيب كان ينزل هذه الديار التي بقيت منها آثار نسجت عليها الرياح معالم الزوال، ولكنها لم تستطع أن تمحوَ مايذكر الشاعر بذلك اليوم الذي وقف فيه يتأمل القوم وهم يرتحلون بمن يحب، فتفيض دموعه غزيرة، ويكاد يهلك أسى ولوعة لولا صحبه الذين كانوا يواسونه ويخففون عنه، ويخلُص إلى القول بأن ماأصابه وأحزنه لاشفاء له إلا دموعا يصبها لتطفىء اللظى الذي يشعله، ولكنه يستدرك أنه لاطائل في البكاء عند تلك الرسوم، لأنه لايرد حبيبا ولايشفي غليلا. وهكذا نجد أن الشاعر ربط بين الطلل وبين تجربته الوجدانية التي عاشها، فبث الحياة في معانيه بما تضمنته من إشارات تميزت بما يشبه الحوار بين الشاعر ونفسه حول مأساة الحاضر المتمثلة بذكريات ماض لاتعيده الدمعة ولاتخفف من رجع أجراسه الحزينة كلمات المؤاساة.

وَعدَّ القدماءُ هذا المطلع من مبتكرات الشاعر وروائعه، إذْ وقف واستوقف وبكى واستبكى مَنْ معه، وذكرَ الحبيبَ والمنزل في بيت واحد.

ومثل هذا المطلع الطللي نلقاه في مطولته التي يبدأها بقوله:

---

(١) سمرات : شجرات الطلح جمع سمرة بضم الميم.

أَلا عِمْ صَبَاحاً أَيُّها الطَّلَلُ البَالي وَهَلْ يعِمَنْ مَنْ كَانَ في العُصرِ الخَالي؟[1]
وَهَــلْ يعِمَنْ إلا سعيــدٌ مُخَلَّدٌ قَليلُ الهُمُومِ مايَبيتُ بأَوْجَالِ؟[2]
وَهَلْ يَعِمْنَ مَنْ كَانَ أَحْدَثُ عَهْدِهِ ثَلاثينَ شَهْراً في ثَلاثَةِ أَحْوَالِ؟[3]
دِيَارٌ لِسَلْمَى عَافِيَاتٍ بِذِي خَالٍ أَلَحَّ عَلَيْهَا كُلُّ أَسْحَمَ هَطَّالِ[4]
وَتحْسَبُ سَلْمَى لاتَزَالُ تَرَى طَلًّا مِنَ الوَحْشِ أَوْ بِيْضاً بمَيْثَاءَ مِحْلالِ[5]
وَتحْسَبُ سَلْمَى لاتَـزَال كَعَهْدِنَـا بِوَادِي الخَزَامَى أَوْ عَلى رَسٍّ أَوْ عَالِ[6]
لَيـالي سَلْمَى إذْ تُريـكَ منَصَّباً وَجيداً كَجيدِ الرِّئمِ لَيْسَ بِمِعْطَالِ[7]
أَلا زَعَمَتْ بَسْبَـاسَةُ الْيَـومَ أَنَّني كَبِرْتُ وَأَلا يُحْسِنَ اللَّهْوَ أَمْثَـالي
كَذَبْتِ لَقَدْ أُصْبِي عَلَى المَرْءِ عِرْسَهُ وَأَمْنَعُ عِرْسي أَنْ يُزَنَّ بهَا الخَالِي[8]

ويقف الشاعر في هذا المطلع أمام مشكلة الزوال الذي يمثله طللٌ تُلْقَى عليه التحية فيعجزُ عن الرد، وكيف يردُّ مَن تعاورته عواملُ الزمن، فزال أُنسُه، وانهدَّ ركنه، وأمسى مرتعا للوحش؟ إذا فالشاعر هنا «يُحيِّي الأطلال ثم يأسُ لها، كيف يواتيها أن تنعم وقد تفرق أهلوها وذهبوا؟ فتغيرت بعدهم عما كانت عليه، إذ كانت الأطلال آسيةً للوداع، فالإنسان وَميْزَته الإحساس أشد تأثراً بها؛ فهو

(١) عم: دعاء للطلل بالنعيم.
(٢) الأوجال: جمع وجل وهو الفزع.
(٣) الأحوال: الأعوام.
(٤) الأسحم: السحاب الأسور، الهطال: المطر الدائم.
(٥) الطلا: ولد الظبية والبقرة. الميثاء: ميل الوادي أو الطريق إلى الماء. المحلال: مبالغة من حل الذي يحله الناس.
(٦) الرسيّ: البئر. أوعال: اسم مكان.
(٧) المنصّب: الثغر المستوي.
(٨) يزن: يتهم. الخالي: الذي لازوج له.

يتحدث عن الجهاد ليجد للحديث عن نفسه سبيلا، ويشفق عليه - على الطلل - ليمهد الطريق أمام مشاعره فتتدفق حائرةً متقلبة، تتأرجح بين التماسك والانهيار، بين الاعتزاز والتذلل: دعا للطلل بأن ينعمَ، ثم تراجع في دعائه، إذ وجده بقايا دارسه وكان بالأمس دياراً عامرة، ولايتأتى النعيم إلا لسعيد ضمن الخلود، وقلّت همومه، وآَمِنَ مِنَ الفزع. إن السعادة، أيَّةُ سعادةٍ، تبدأ حيث ينتهي الخوف، وكان آخر عهده بها من أعوام ثلاثة خلت! وذكر ديار سلمى، وقد عَفَّتْ دوارسها لإلحاح المطر عليها، ويخيل إليه، رغم ذلك كله، أنها لاتزال وحدها هناك مقيمة، تتأمل ماحولها من أولاد الظباء ومن بيض النعام، على العهد الذي أخذته معه، وكان يخيل إليه يومها، تفيض أملا وتشع اعتزازا، أن الحال لن يتغير، ماكان أجملها من ذكريات وسلمى تبدو في أتمِّ حسنها، وأكمل زينتها! ولقد زعمت (بسباسة) أني كبرتُ، وكذبتْ، فإني لأذهب بفؤاد العروس، وأسرق قلبها من زوجها. وأملأ وجدان عروسي وحياتها، فلا تستجيب لنظرة غيري» .

أما قصيدته التي يزعم الرواة أنه نظمها وهو في طريقه إلى قيصر الروم، فتبدأ بقوله :

سَمَا بِكَ شَوْقٌ بَعْدَمَا كَانَ أَقْصَرَا ... وَحَلَّتْ سُلَيْمَى بَطْنَ قَوٍّ، فَعَرْعَرَا[1]
كِنَانِيَّةٌ بَانَتْ وَفِي الصَّدْرِ وُدُّهَا ... مُجَاوِرَةً غَسَّانَ وَالحَيُّ يَعْمُرَا[2]
بِعَيْنَيَّ ظُعْنُ الحَيِّ لَمَّا تَحَمَّلُوا ... لَدَى جَانِبِ الأَفْلَاجِ مِنْ جَنْبِ تَيْمَرَا[3]
فَشَبَّهْتُهُمْ فِي الآلِ لَمَّا تَكَمَّشُوا ... حَدَائِقَ دَوْمٍ أَوْ سَفِيناً مُقَيَّرَا[4]

---

(١) قوّ، وعرعر: موضعان بأعيانهما.
(٢) بانت: ذهبت وابتعدت. غسان: اسم ماء. ويعمر: اسم حي.
(٣) الأفلاج: جمع فلج وهو النهر. تيمر: موضع. ظعن: الظاعنون أي المرتحلون.
(٤) الآل: السراب. الدوم: شجر معروف مقير: من القار أي مطلي بالقار.

أو المُكْرِعَاتِ مِنْ نَخيلِ ابنِ يَامنٍ دُوَيْنَ الصَّفَا اللاَّئِي يَلِينَ المُشْقَرَا[1]

سَـوَامِقَ جَبَّـارٍ أثيثٍ فُـرُوعُـهُ وَعَالِينَ قِنْوَاناً مِنَ البُسْرِ أَحْمَرَا[2]

حَمَتْهُ بَنُو الرَّبْدَاءِ مِنْ آلِ يامنٍ بِـأَسْيَـافِهِمْ حَتَّى أَقَـرَّ وَأَوفَـرَا[3]

وَأَرْضَى بَنِي الرَّبْدَاءِ وَاعْتَمَّ زَهْوُهُ وَأَكْمَـامُهُ حَتَّى إِذَا مـا تَهَصَّرَا[4]

أَطَافَتْ بِهِ جِيـلانُ عِنْد قِـطَاعِهِ تَـرَدَّدُ فيـهِ العَـيْنُ حَتَّى تَحَـيَّرا[5]

كَأَنَّ دُمَى سَقْفٍ عَلَى ظَهْرِ مَرْمَرٍ كَسَا مُزْبِدَ السَّاجُومِ وَشْياً مُصَوَّرا[6]

غَـرَائِرُ في كنٍّ وصَـوْنٍ وَنِعْمَـةٍ يُحَلَّيْنَ يَـاقُوتـاً وشَـذْراً مُفَقَّـرَا[7]

وَريـحَ سَناً فِي حُـقَّـةٍ حِمْيَـرِيَّـةٍ تُخَصُّ بِمَفْرُوكٍ مِنَ المِسْكِ أَذْفَرَا[8]

وَبَـاناً وَأُلْـوِيّاً مِنَ الهِنْـد ذَاكِيـاً وَرَنْـداً وَلُبْنَى وَالكِبَـاءَ المُقَـتَّرَا[9]

غَلِقْنَ بِرَهْنٍ مِنْ حَبيبٍ بهِ ادَّعَتْ سُلَيْمَى فَأَمْسَى حَبْلُهَا قَدْ تَبَتَّرَا[10]

وَكَانَ لَهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ خِلَّةٌ يُسَارِقُ بِالطَّرفِ الخِبَاءَ المُسَـتَّرا[11]

---

(١) المكرعات : النخيل المغروس في الماء . الصفا والمشقر : قطران بناحية اليمامة .

(٢) سوامق : مرتفعات . الأثيث الغزير . قنوان : جمع قنو وهو العذق . البسر : البلح .

(٣) أقرَّ : كمل حمله .

(٤) اعتم : كمل وتم . الزهو : الأحمر والأصفر من البلح . تهصر : تدلى وتثنى .

(٥) جيلان : عمال لكسرى في البحرين .

(٦) الساجوم : صبغ .

(٧) غرائر : غوافل عن الدهر .

(٨) السنا : ضرب من الطيب . الحقة : المجمرة . أذفر : قوي الرائحة .

(٩) اللبني : ضرب من الطيب . الكباء : كل ما يتبخر به . المقتر : المدخن عند مباشرة النار .

(١٠) تبتر : تقطع .

(١١) خلة : من الخليل .

إِذَا نَـالَ مِنْها نَـظْرَةً رِيعَ قَلْبُـهُ كَمَا ذَعَرَتْ كَأْسُ الصَّبُوحِ المُخَمَّرَا[1]
نَزِيفٌ إِذَا قَامَتْ لِـوَجْهٍ تَمَـايَلَتْ تُرَاشِي الفُؤَادَ الرَّخْصَ أَلَّا تَخَتَّرَا[2]
أَأَسْـمَاءُ أَمْسَى وُدُّهَـا قَـدْ تَغَـيَّرا سَنُبْدِلُ إِنْ أَبْدَلَتْ بـالوُدِّ آخَـرَا

والشاعر في مطلع هذه القصيدة يبث وجده في تضاعيف أبياتها ، ويضفي على معنى الفراق المرتبط بالطلل معنى الغربة والضياع ، حتى ليتحولَ حنينه إلى الطلل حنيناً إلى البادية كلها . وهكذا لا يبقى الطللُ عند امرىء القيس رمزاً يشير إلى الحبيبة فقط ، بل نراه يتعدّاها ، فيذكّره بأهله وإخوانه وحياته كلها ، وبمعنى آخر يذكّره بنفسه ، وهكذا يوحّدُ امرؤ القيس بين الذات والموضوع على الطريقة الرومانسية الحديثة ، ويرى في الجهاد معاني الحياة .

المغامرات العاطفية ..

ويُكثر امرؤ القيس من ذكر مغامراته العاطفية ، ويوفر لها إطاراً قصصياً يحدِّدُ فيه الزمان والمكان ، دون أن ينسى التمهيدَ والتعقيد والحل ، إضافة إلى الحوار ، وكشف نفسيات شخوص قصصه . وهو يعد في هذا أستاذُ الشاعر الأموي عمر بن أبي ربيعة الذي أخذ عنه الإطار القصصي لذكر مغامراته العاطفية ، دون أن يحذوَ عُهره وفُحشه ، فبيئة عمر الإسلامية لم تكن تسمح له بهذا الغزل الفاحش المكشوف . ولا مجال هنا لذكر أسماء الحشود من النسوة اللاتي ذكرهن امرؤ القيس في شعره وقد برَّح به حبهن حتى أبكينه ، أو تلهفن شوقاً للقائه والوصول إليه ، فقد مرّ ذلك معنا ، وسنقتصر هنا على ذكر بعض المغامرات التي خاضها امرؤ القيس للتمثيل على ذلك .

---

(١) المخمر : الثمل .
(٢) النزيف : السكران . تتراشي : تعطيه رشوة تداريه وتخاتله . التختر : الفتور والكسل .

من هذه المغامرات ما رواه الشاعر في معلقته عن الفتيات اللائي التقاهن بدارة جلجل . ومفاد القصة أن امرأ القيس كان يعشق عنيزة ابنة عمة شرحبيل ، فكان يتحين الفرص للإجتماع بها ، وجاءت الفرصة حين خرجت عنيزة برفقة صويحباتها للإبتراد في غدير يسمى دارة جلجل ، وهو من منازل كندة بنجد . ويبدأ الشاعر الرواية بقوله :

أَلَا رُبَّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٍ وَلَا سِيَّمَا يَوْمٍ بِدَارَةِ جُلْجُلِ

وخفية يتتبع الفتيات ، وهن لا يشعرن به ، حتى وردن الغدير ، فخلعن ثيابهن ونزلن الماء يتلاعبن فيه ويتراشقنه ، وكان امرؤ القيس يرقبهُن بشغف من مكمنه ، ثم إنه برزَ إليهن ، وجمع ثيابهن وجلسَ عليها ، وآلى ألا يُعطيَ الواحدة منهن ثيابها ، حتى تخرجَ إليه عاريةً . ولما تطاول عليهن الوقت ، وأيقنَّ أنه غير حانثٍ لقسمه ، خرجت إليه أجرأهُن فرمى إليها ثيابها ، ثم تتابعن عليه ، وكانت عنيزةُ آخرَ من خرج إليه من الماء فرآها مقبلةً مدبرة . وبعد أنْ لُمنه على فعلته الشنعاء ، راح يسترضيهُن إليه ، فذبحَ ناقته وقدمها للعذارى شِواءً ، كما سقاهن خمراً كان يحملها معه . وعند العودة تقاسمت الفتيات متاعَه بينهن ، أما هو فكان من نصيب عنيزةَ حملُه على مقدم هودجها مرغمةً . فكان يُدخل رأسه في الهودج فيشمها ويقبلها ويبثها أحاديث الهوى .

ثم نظم معلقته بدافع من هذا اليوم على ما يذكر الرواة ، وهي تقع في ثلاثة عشرَ بيتاً تبدأ بالبيت العاشر وتنتهي بالبيت الثاني والعشرين من المعلقة ، وها كها كما رواها القاضي الإمام أبو عبدالله الحسين بن أحمد الزوْزني :

أَلَا رُبَّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٍ وَلَا سِيَّمَا يَوْمٌ بِدَارَةِ جُلْجُلِ[1]

---

(١) دارة جلجل : اسم غدير بعينه .

وَيَـوْمَ عَقَّـرْتُ لِلْعَـذَارَى مَـطِيَّتِي ... فَيَا عَجَباً مِنْ كُورِهَا الْمُتَحَمَّلِ (١)
فَـظَلَّ العَذَارَى يَـرْتَمِـينَ بِلَحْمِهَـا ... وَشَحْمٍ كَهُدَّابِ الدِّمَقْسِ الْمُفَتَّلِ (٢)
وَيَوْمَ دَخَلتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ ... فَقَالَتْ : لَكَ الوَيْلَاتُ إِنَّك مُرْجِلِي (٣)
تَقُولُ وَقَدْ مَالَ الغَبِيطُ بِنَا مَعاً ... عَقَّرْتَ بَعيرِيَ يا أَمْرأَ القَيْسِ فأَنْزِلِ (٤)
فَقُلْتُ لَهَا سيري وَأَرْخِي زِمَـامَهُ ... وَلَا تُبْعديني مِنْ جَنَاكِ الْمُعَلَّلِ (٥)
فَمِثْلِكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقتُ وَمُرْضِعٍ ... فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَـائِمٍ مُحْوِلِ (٦)
إِذَا ما بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انْصَرَفَتْ لَهُ ... بِشِقٍّ ، وَتَحْتِي شِقُّهَـا لَمْ يُحَوَّلِ (٧)
وَيَوْماً عَلَى ظَهْرِ الكَثيبِ تَعَذَّرَتْ ... عَـلَيَّ وآلَتْ حَلْفَـةً لَمْ تَحَلَّلِ (٨)
أَفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هَذا التَّدَلُّلِ ... وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ صَرْمي فَأَجْمِلي (٩)
أَغَـرَّكِ مِنِّي أَنَّ حُبَّـكِ قَـاتِـلي ... وَأَنَّكِ مَهْمَا تَأْمُري القَلْبَ يَفْعَل
وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْك مِنِّي خَليقَةٌ ... فَسُلِّي ثيابي مِنْ ثِيابك تَنْسُلِ (١٠)
وَمَـا ذَرَفَتْ عَيْنَـاكِ إِلاَّ لِتَضْرِبي ... بِسَهْمَيْك في أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ (١١)

---

(١) عقرت : نحرت وذبحت . العذارى : جمع عذراء ويعني البكر التي لم تفتض . الكور : الرحل .
(٢) الهدابُ والهدبُ : ما استرسل من الشيء . الدمقس : الابريسم ونسميه اليوم البريم .
(٣) الخدر : الهودج ويجمع على خدور .
(٤) الغبيط ضرب من الرحال ، وعقر هنا : بمعنى دبر ظهره .
(٥) الجني : الثمر . المعلل : المكرر .
(٦) خفض مثلك على إضمار رب . المطروق : الإتيان بالليل . ذو التمائم : الطفل ، محول : ابن حول .
(٧) الشق : النصف .
(٨) التعذر : التشدد والإلتواء - آلت : حلفت .
(٩) مهلاً : رفقاً . أزمعت : وطنت .
(١٠) الثياب هنا : بمعنى القلب .
(١١) المقتل : المذلل .

ويروي لنا امرؤ القيس في معلقته مغامرة أخرى مع التي يسميها (وبيضة خدر) ويبدأ هذه القصة بقوله :

وَبَيْضَـةِ خِدْرٍ لَا يُـرَامُ خِبَاؤُهَـا تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُعْجِلِ[1]

ويمضي الشاعر يذكر لنا ما جرى له ، فيصور كيف اقتحم الأهوال ، وتجاوز الحراس إلى خبائها ليجدها قد نضت عنها ثيابها واستعدت للنوم ، ففاجأها قدومه ، ولكنه أقنعها بالخروج معه إلى ناحية من نواحي الحي ، فخرجت وهي تجر ذيل ثوبها على الرمال لتخفي آثار أقدامها ، حتى خلا بها متمتعاً بمفاتنها التي أفاض في وصفها بشكل لم يسبق له مثيل ، ثم ذكر أثر هذا الجمال الأنثوي في قلوب الرجال . وتتمة الأبيات كما في رواية الزوزني :

تَجَاوَزْتُ أَحْرَاساً إِلَيْهَـا وَمَعْشَراً عَلَيَّ حِرَاصاً لَوْ يُسِرُّونَ مَقْتَلِي[2]

إِذَا مَا الثُّرَيَّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ تَعَرُّضَ أَثْنَاءِ الوِشَاحِ المُفَصَّلِ[3]

فَجِئْتُ وَقَدْ نَضَتْ لِنَوْمٍ ثِيَابَهَا لَدَى السِّتْرِ إِلَّا لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ[4]

فَقَـالَتْ يَمِينَ اللهِ مَـالَـكَ حِيلَةٌ وَمَا إِنْ أَرَى عَنْكَ الغِوَايَةَ تَنْجَلِي[5]

خَـرَجْتُ بِهَا أَمْشِي تَجُرُ وَرَاءَنَـا عَلَى أَثَرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ[6]

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الحَيِّ وانتَحَى بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ[7] ذي حِقَافٍ عَقَنْقَلِ

---

(١) وبيضه : الوار واو ربَّ . وبيضة خدر : أي رب امرأة مخبأة لزمت بيتها .
(٢) أحراس : جمع حارس .
(٣) الأثناء : النواحي .
(٤) نضت : خلعت . اللبسة : حالة الملابس وهيئة لبسة الثياب .
(٥) اليمين : الحلف . الغوايّة والغي : الضلالة . تنجلي : تنكشف .
(٦) المرط : كساء طويل من الخز .
(٧) خبت : أرض مطمئة . حقف : رمل معوج . عقنقل : رمل متلبد .

هَصَرْتُ بِفَوْدي رَأْسَهَا فَتَمَايَلَتْ عَلَيَّ هَضيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ[1]

مُهَفْهَفَةٌ بَيْضَاءُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنْجَلِ[2]

كَبِكْرِ المُقَانَاةِ البَيَاضَ بِصُفْرَةٍ غَذَاهَا نَميرُ المَاءِ غَيْرُ المُحَلَّلِ[3]

تَصُدُّ وَتُبْدي عَنْ أَسيلٍ وتَتَّقي بِنَاظِرَةٍ مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ[4]

وَجيدٍ كَجيدِ الرِّئْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ إِذَا هِيَ نَصَّتْهُ وَلَا بِمُعَطَّلِ[5]

وَفَرْعٍ يَزِينُ المَتْنَ أَسْوَدَ فاحِمٍ أَثيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ المُتَعَثْكِلِ[6]

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلىٰ العُلا تَضِلُّ العِقَاصُ في مُثَنًّى وَمُرْسَلِ[7]

وَكَشْحٍ لَطيفٍ كَالجَديلِ مُخَصَّرٍ وَسَاقٍ كَأُنْبُوبِ السَّقيِّ المُذَلَّلِ[8]

وَتُضْحي فَتيتُ المِسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا نَؤُومُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ[9]

---

(١) الهصر : الجذب . الفود : جانب الرأس . الكشح : منقطع الأضلاع . وهضيم الكشح : ضامرة البطن . ريا : مؤنث ريان وهو الملآن المرتوي . المخلخل : موضع الخلخال أي الساق .

(٢) المهفهفة : اللطيفة الضامرة البطن الخفيفة الظل . المفاضة : كبيرة البطن مرتفعته المسترخية اللحم . الترائب : جمع تربية : ويعني موضع القلادة من الصدر والسجنجل : المرآة .

(٣) البكر من كل صنف : ما لم يسبقه مثله . المقاناة الخلط : النمير : الماء النامي في الجسد .

(٤) الإسالة : امتداد الخد وطوله المطفل : التي لها طفل .

(٥) الرئم : الظبي الخالص البياض والجمع آرام . النص : الرفع . معطل : خالي من الحلي .

(٦) الفرع : الشعر التام . الفاحم : الشديد السواد . الأثيث : الكثير . القنو : العثكول .

(٧) الغدائر : جمع غديرة وهي الخصلة من الشعر . الاستشزار : الرفع والإرتفاع جميعاً . العقيصة : الخصلة المجموعة من الشعر والجمع عقاص .

(٨) الجديل : خطام يتخذ من الأدم . مخصر : دقيق الوسط . الأنبوب : ما بين العقدتين من القصب . السقي : المسقي : المذلل : الكثير السقاية .

(٩) نؤوم الضحى : مرفهه مخدومة لا تنتطق للخدمة .

وَتَعْطُو برَخْصٍ غَيْرِ شَثْنٍ كَأَنَّـهُ أَسَارِيعُ ظَبيٍ أوْمَسَاوِكُ إِسْحِلِ[1]
تُضيءُ الظَّلاَمَ بِالعِشَاءِ كَأَنَّهَا مَنَارَةُ مُمْسَى رَاهِبٍ مُتَبَتِّلِ[2]
إلى مِثْلِهَا يَرْنُو الحَليمُ صَبَابَةً إِذَا ما اسْبَكَرَّتْ بَيْنَ دَرْعٍ وَمِجْوَلِ[3]
تَسَلَّتْ عِمَايَاتُ الرِّجَالِ عَنِ الصِّبا وَلَيْسَ فُؤَادِي عَنْ هَوَاكِ بِمُنْسَلِ[4]
أَلاَ رُبَّ خَصْمٍ فِيكَ أَلْوَى رَدَدْتُهُ نَصيحٍ عَلَى تَعْذالِهِ غَيْرِ مُؤْتَلِ[5]

أما في مُطوَّلته التي يبدأها بقوله :

أَلا عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالي وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ في العُصُرِ الخَالي ؟

وصفٌ فاحش لمغامرةٍ ثالثة ، تَمَّتْ هذه المرَّةَ في خباءِ مَنْ يُسمِّيها بسلمى ، يستهلُّ ذكرها بقوله :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَما نَامَ أَهْلَهَا سُمُوَّ حَبَابِ المَاءِ حَالاً عَلَى حَالِ

ومفاد هذه المغامرة أنه يمم خباءها متلصصاً وئيداً خطوة وراء أخرى بعدما نام أهلها فنبع لها وظهر من الفضاء كحباب الماء ينبع من الماء بعضه فوق بعض في سهولة ويسر ، فجزعت منه واضطربت لجرأته خوفاً من الفضيحة ، وقالت له : قاتلك الله ! إنك فاضحني ، ألم تر السمار مازالوا حَلَقا ، والناس يقظى . فيرد عليها مقسماً بأغلظ الأيمان لِيقطعَ لها كل رجاء ، بأنه لن يبرحَ مكانه ولو جاء من

---

(١) شثن : خشن . إسحل : نوع من الشجر. تعطو : تميل عنقها .
(٢) متبتل : منقطع إلى العبادة .
(٣) الحليم : الحكيم العاقل . اسبكرت : تمطت . درع : ثوب داخلي . المجول : الثوب الدي يليه .
(٤) بمنسل : غير تارك لهواها . الصبا : الجهل .
(٥) التعذال : من العذل : مؤتلي : غير آثم غير مقسم .

يقطعُ رأسَه ويمثل به ، ليشيعَ في نفسها الطمأنينة ، ويبلغَ ما يريده من لقائها ، فلا خير في لقاءِ حبيبةٍ خائفة ، مضطربةِ الجوانح ، موزَّعةِ الفكر . ويقسم لها ثانية يمينَ كاذبٍ فاجر ، بأنَّ السُّمَّار تفرقوا والناس ناموا ، فما من صوتٍ يسمع ، ولا حركة تحس . فلما اطمأنت ولانت له ثم أسمحت ، انقادت بعد صعوبة ، وسهلت بعد تمنع ، وانتقلا إلى ما يحبان من لهو الحديث ، ورق كلامهما ، ثم راضها فذلّت ، وأسرفت في الرضا بعد أن أسرفت في التمنُّع ، فانتزع هواها ، وخلب فؤادها فمالت إليه ، وكرهت زوجها وأدرك الزوجُ إهمالَها له ، وانصرافها عنه ، فعاد كاسف البال ، واختنق غيظاً وغطَّ غطيطَ جملٍ قويٍّ شُدَّ من خُناقه بحبل ، يريد قتله ، ولكن ذلك دون قدرته ، فليس في وسعه أن يقتلَ من لا يفارقُ سيفَه ، مسنون السهام ، مُحَدَّدَ الأزجَّة ، صافية كأنها أنياب غيلان ، وهو أي الزوج لا يملك رمحاً يطعن ، ولا سيفاً يشهر ، ولا نبالاً ترمى ، وحتى لو قتل الشاعر وأزاحه من طريقه فلن يسعد معها ، لأنَّ الشاعر ملك شغاف قلبها ، فهي تلذُّ كما تستلذ الناقة المهنوءةُ بالقطران ، يكاد يغشى عليها تلذُّذاً منه ، فليس من سبيل كي تحبَّ زوجها ، وربما أدى قتل حبيبها إلى قطيعة بينها وبين زوجها حزناً عليه ، لذا فهي ليست خائفة ولا مشفقة عليه ، لأنها تعرف مِنْ هذا الزوج ما لا يعلمه أحد ، ثرثاراً قوالاً يتحدث كثيراً ولا يعمل شيئاً . وهاكَ النص :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا ... سُمُوَّ حَبَابِ المَاء حَالاً عَلَى حَالِ

فَقَالَتْ : سَبَاكَ اللهُ إِنَّكَ فَاضِحي ... أَلَسْتَ تَرَى السُّمَّارَ وَالنَّاسَ أَحْوَالي ؟[1]

فَقُلْتُ : يَمِينَ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِداً ... وَلَو قَطَّعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالي

حَلَفْتُ لَهَا بِاللهِ حَلْفَةَ فَاجِرٍ ... لَنَامُوا فَمَا إِنْ مِنْ حَدِيثٍ وَلَا صَالِ[2]

---

(١) سباك : باعدك وفضحك .

(٢) صال : مصطلى بالنار أي يستدفىء .

فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الحَدِيثَ وَأَسْمَحَتْ هَصَرْتُ بِغُصْنٍ ذِي شَمَارِيخَ مَيَّالِ[1]
وَصِرْنَا إِلى الحُسْنَى ، وَرَقَّ كَلامُنَا وَرُضْتُ ، فَذَلَّتْ صَعْبَةً أَيَّ إِذْلَالِ[2]
فَأَصْبَحْتُ مَعْشُوقاً ، وَأَصْبَحَ بَعْلُهَا عَلَيْهِ القَتَامُ ، سَيِّءَ الظَّنِّ وَالبَالِ[3]
يَغُطُّ غَطِيطَ البَكْرِ شُدَّ خِنَاقُهُ لِيَقْتُلَنِي ، وَالمَرْءُ لَيْسَ بِقَتَّالِ[4]
أَيَقْتُلُنِي وَالمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ ؟[5]
وَلَيْسَ بِذِي رُمْحٍ فَيَطْعَنُنِي بِهِ وَلَيْسَ بِذِي سَيْفٍ ، وَلَيْسَ بِنَبَّالِ[6]
أَيَقْتُلُنِي وَقَدْ شَغَفْتُ فُؤَادَهَا كَمَا شَغَفَ المَهْنُوءَةَ الرَّجُلُ الطَّالِي[7]
وَقَدْ عَلِمَتْ سُلْمَى وَإِنْ كَانَ بَعْلُهَا بِأَنَّ الفَتَى يَهْذِي وَلَيْسَ بِفَعَّالِ

ولم تكن المغامرة من جانب الشاعر دوماً ، يقتحم على صاحباته منازلهن فيخرجن معه ويسعدن به ، وإنما كن يمضين إليه أيضاً ، أو يرسل في دعوتهن ، وها نحن نعرض صورة لمغامرة من هذا القبيل دقيقة الحوادث واضحة الوصف .

فصاحبته التي يحبها هذه المرة خفرة حييةٌ «ذات طفلٍ ترعاه ، موزعةُ القلب بينهما ، تخشى إذا تخلّفت عنه أن يسيء بها الظن ، ويسوؤها إذا جاءته أن تدعَ وليدها يبكي . فلما أبطأت أرسل في طلبها ، حين لفّ الظلامُ الحيَّ ، خشية أن يراها أحدٌ ، فلبت دعوته ، وأقبلت قَطُوفَ الخطا ، هيابة السُرى ، كاعبَ

(١) أسمحت : لانت ورضيت . هصرت : جذبت . الغصن : أراد قوامها الأملود . ذي شماريخ : ذي شعر طويل .
(٢) رضت : من روض يروّض أي يسوس .
(٣) القتام : العبوس أو الغبار .
(٤) يغط : يحشرج بصوت . البكر : الفتي من الابل .
(٥) المشرفي : السيف . المسنونة : السهام . الأغوال : جمع غول وهي السعالي .
(٦) نبال : رامي النبل .
(٧) المهنوءة : المطلية بالقطران .

النهد ، ممتلئةَ الكفلِ ، تمشي مبهورةَ النفس قلَقاً وحذَراً ، كَثَمِلٍ خالط عقلَه مع الخمرِ بقيةٌ من نُعاس .

ويجري بينهما حديث شيِّقٌ ، تقول له مرتاعةً مذعورة ، وهو يُجردها من ثيابها ، دقيقةَ التقاسيم ، طويلةَ العنق : لو أنَّ امرأً آخر تطلَّب أن أفارقَ بيتي في هذه الساعة من الليل ، وأدعَ وليدي وحيداً ، لما اعرته أيَّ اهتمام ، أما مشيئتُكَ فلا أستطيعُ لها دفعاً . وقضيا الليل قتيلين لا يعرف لهما الناس مصرعاً ، تُسْعِدُه وتدفع عنه الهمَّ ، ويمتِّعها وينأى بها عن الملل ، ثم انقطع بينهما عادي الحديث ، وحلَّ مكانه آخر أخفتُ صوتاً ، وأرقُّ همساً ، وأعذبُ معنى ، ولفتهما الستائر ، فإذا أخذتها هِزَّةُ الرَّوْع ، أمسكتْ بذراعيه ، ذراع رجل مقدام ، وهاك النص :

وَمِنْهُنَّ سَوْفِي الخَوْدَ بَلَّلَهَا النَّدَى تُرَاقِبُ مَنْظُومَ التَّمَـائِمِ مُرْضَعَـا(١)
يَعِـزُّ عَلَيْهَـا رِيبَتِي ، وَيَسُـوءُهَـا بُكَاهُ ، فَتَثْنِي الجِيد أَنْ يَتَضَوَّعَا(٢)
بَعَثْتُ إِلَيْهَـا وَالنُّجُـومُ طَـوَالِـعٌ حِـذَاراً عَلَيْهَا أَنْ تَقُـومَ فَتُسْمَعَا
فَجَاءَتْ ، قَطُوفَ المَشْيِ ، هَائِبَةَ السُّرَى يُـدَافِعُ رُكْنَـاهَا كِـوَاعِبَ أَرْبَعَـا(٣)
يُزَجِّينَهَا مَشْيَ النَّزِيفَ وَقَدْ جَرَى صُبَابُ الكَرَى في مُخِّهِ فَتَقَطَّعَا(٤)
تَقُولُ ، وَقَدْ جَـرَّدْتُهَا مِنْ ثِيَـابِهَا كَمَا رُعْتَ مَكْحُولَ المَدَامِعِ أَتْلَعَا(٥)

---

(١) ساف : شمَّ ، والسوف : الشم ـ الخود : المرأة الخفرة الحيية . التمائم : جمع تميمة وهي العوذ ، ويريد بها قلادة صبيها .

(٢) ريبتي : شكي ، يتضوع : يشتد بكاؤه ، ومعناه ألاّ يتضوعا .

(٣) قطوف المشي : مشيها متقارب ، السرى : السير بالليل ، ركناها : جنباها ، الكواعب : جمع كاعب وهي الصبية التي نهد ثديها ، ويقصد بكواعب أربع : نهديها وردفيها الممتلئين .

(٤) يزجي : يسوق ، النزيف : السكران ، صباب الكرى : بقية النعاس .

(٥) مكحول المدامع : ولد الظبية . أتلع : طويل العنق .

أَجَدِّكَ لَوْ شَيْءٌ أَتَانَا رَسُولُهُ   سِوَاكَ ، وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعَا
فَبِتْنَا نَصُدُّ الوَحْشَ عَنَّا كَأَنَّنَا   قَتِيلَانِ ، لَمْ يَعْلَمْ لَنَا النَّاسُ مَصْرَعَا(1)
تَجَافَى عَنِ المَأْثُورِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا   وَتُدْنِي عَلَيْهَا السَّابِرِيَّ المُضَلَّعَا(2)
إِذَا أَخَذَتْهَا هِزَّةُ الرَّوْعِ أَمْسَكَتْ   بِمَنْكِبِ مِقْدَامٍ عَلَى الهَوْلِ أَرْوَعَا(3)

وتبين لنا مما تقدم أن امرأ القيس لم يكن عاشقاً مولها بقدر ما كان فاحشاً يفتش عن اللذة الجسدية غير عابىء بما تجره مغامراته على الفتيات والنسوة من فضائح وأضرار ، فهو أسيرُ اللذات ، وعبدُ الرغبات ، ويظهر واضحاً جلياً في الصفات التي يختارها ؛ فمحبوبتُه بيضاء اللون ، ناعمةُ الملمس ، خفيفة اللحم ، مصقولة النحر كالمرآة ، ذات شعر متشابك كأعناب الدوالي أو قنو النخلة المتعثكل، وهي مترفة نؤومة الضحى ، فُتاتُ المسك منثورة فوق فراشها ، وطيبُ القرنفل يتضوَّعُ منها . والمرأة على ما يذكر امرؤ القيس في شعره تتعشقُهُ فتشقى للقائه ، وتخاطرُ بسمعتها من أجل ذلك ، بل إنها تخونُ زوجها معه على مرأى منه ومسمع ، وتذهب في عشقها إلى درجة تنسىٰ فيها حملَها ورضيعَها :

فَمِثْلِكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعٍ   فألهيتها عن ذي تمائِمَ مُحْوِلِ

بهذا كان امرء القيس أستاذَ الغزل الإباحي الفاحش على المدى ، وكلُّ مَنْ شُهِر بعده لم يصل إلى ما وصله من تعهُّرٍ وفجور ، وحسبه أنه كان صادقاً مع نفسه ، وهذا ما ارتضاه شاعر كندة للتزود من مباهج الحياة من ملذات وخمر ونساء .

---

(1) الوحش : من الوحشة الهم .
(2) السابري : ضرب من الثياب .
(3) الهزة : الحركة والإرتعاد، الروع : قمة الشهوة ولذتها .

وصف الطبيعة المتحركة ..

«تستنفِدُ الطبيعة من شعر امرىء القيس نصفَ ديوانه ، على حين لا يشغَل الغزل منه ، وبه شُهر ، غير رُبْعِهِ ، وبقيته تعكس هموم الشاعر ؛ شاباً ضائعاً ، أو طالبَ ثأرٍ مقاتلاً . وعَبْرَ حياته جابَ الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، لاهياً أو طريداً ، فخبِرَ مسالِكَها وشعابها ، وجبالَها ووديانها ، وعاش تلفُّه رياحُها وسحبها وأمطارُها ، واصطادَ حيوانَها وطائرها ، وتروَّح على غدرانها وفي جنانها ، ووجد عندها ما افتقده في أسرته ، وتجاوبت معه على نحو لم يدركْه في مغامراته ، وفتحت له قلبها ، فهام بها ، وانفعل بأسرارها ، وأثرى الأدب العربي بجميل أفكاره ، وروائع صوره ، وكأمير فارس كان الفرسُ أوَّلَ ما استحوذ على إعجابه منها» .

فقد صوره في معلقته فخصَّ سرعته بجانب ، وخِلْقَتَهُ بجانب آخر :

ففي الجانب الأول : وصَفه بأنه يغدو بكرةً مرحاً نشيطاً ، سريعَ العدو ، إذا أدرك قطيعاً من الأوابد كان كالقيد لها لا تستطيع منه إفلاتا ، لأنه يسبقها فيمنعها من الفوت . وهو ضخم شديد الحركة ، مِكَرٌ لا يسبق ، مِفرٌ لا يلحق ، مقبلٌ حين تريد إقباله فلا يصد ، مدبر إذا رغبت في إدباره فلا يرد ، كأنه في سرعته وصلابته جلمودُ صخري هوى به السيل من قمة جبل مرتفع . أما ظهره فأملسُ مكتنزُ اللحم ممتلىءُ ، ينزلق اللبد عن متنه إنزلاق الهابط على صخرة ملساء، يصب العدْوَ صباً ، ويأتي بأفانين منه حين يدرك غيره من الجياد السابحات الونىُ والكلال فتثيرُ الغبار في الأرض الصلبة بحوافرها إعياءً . ضامرٌ ذابل كثير الجيشان ، حتى لتخـال تكسّرَ صوته إذا حميَ جيشانُ الماء في قدر يغلي ، لا يهدأ ولا يتوقف ، يردي براكبه عن ظهره إذا كان غلاماً ناشئاً خفيفاً غير فارس ، ويرمي بأثوابه إذا كان فارساً حاذقاً ماهراً ، وهو في سرعة عدوه وشدة انسيابه ،

أشبه بلعبة الخذروف يلهو بها الصبيان ، خذروفٌ لُعِبَ به كثيراً حتى خفَّ ودقَّ وتقطع خيطُه فوصل ، وهاك النص :

وَقَدْ أَغْتَدي وَالطَّيْرُ في وُكُنَاتِهَا ... بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ[1]

مِكَرٍّ مِفَرٍّ ، مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً ... كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ[2]

كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ ... كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمُتَنَزِّلِ[3]

عَلَى الذَّبْلِ جَيَّاشٍ كَأَنَّ اهْتِزَامَهُ ... إِذَا جَاشَ فيهِ حَمْيُهُ غَلْيُ مِرْجَلِ[4]

مِسَحٍّ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الوَنَى ... أَثَرْنَ الغُبَارَ بِالكَدِيدِ المُرَكَّلِ[5]

يُطيرُ الغُلامَ الخِفَّ عَنْ صَهَوَاتِهِ ... وَيُلْوِي بِأَثْوَابِ العَنِيفِ المُثَقَّلِ[6]

دَرِيرٍ كَخُذْرُوفِ الوَلِيدِ أَمَرَّهُ ... تَتَابُعُ كَفَّيْهِ بِخَيْطٍ مُوَصَّلِ[7]

ثم ينتقل ليصف لنا في الجانب الثاني تكون فرسه الخَلْقي : ففرسه ضامر كالظبي ، صلب الساقين قصيرهما ، طويل الفخذين كالنعامة ، يجري رخياً كالذئب ، ويثب قريباً كالثعلب ، عظيم الأضلاع ممتلىء الجنبين ، إذا تأملته مستدبراً رأيت ذيله يسد الانفراج الذي بين قائمتيه ، وفويق الأرض ليس بالطويل ولا القصير . أملس الظهر ، إذا نزع عنه سرجه بدا ظهره لامعاً كأنه مداك عروس

---

(١) الوكنات : جمع وكنة وهي عش الطائر . منجرد : قصير الشعر ، هيكل : ضخم .

(٢) الجلمود : الصلب .

(٣) كميت : أحمر اللون ، يزل : ينزلق ، حال متنه : موضع ظهره ، الصفواء : الصخرة الملساء .

(٤) الذبل : الضخور . جياش : مضطرب . اهتزامه : صوته ، حميه : غليه ، المرجل : القدر الكبيرة .

(٥) مسح : عداء : السابحات : الخيل تبسط يديها في جريها ، الونى : البطء والفتور ، الكديد : الأرض الصلبة المطمئنة ، المركل : الذي يركل بالرجل .

(٦) صهوات : جمع صهوة .

(٧) درير : سريع ، أمره : أحكم فتله .

أو صِلاية حَنضلٍ ، جميل المنظر ، رشيق البدن ، متأهبٌ دوماً ، يمضي النهار في شغل به ، فإذا كان المساء يمعن فيه النظر إعجاباً ، يتمثل محاسنه جُملةً ، ولكن هذه المحاسن لجلالها وكثرتها لا تتيح له بلوغَ .ما يصبوا إليه ، فتبقى عينه زائغة بين أعلاه وأسفله :

لَهُ أَيْطَلا ظَبْيٍ ، وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ ، وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ[1]

ضَلِيعٍ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ سَدَّ فَرْجَهُ بِضَافٍ فُوَيْقَ الأَرْضِ ، لَيْسَ بِأَعْزَلِ[2]

كَأَنَّ عَلَى الكَتِفَيْنِ مِنْهُ إِذَا انْتَحَى مَدَاكُ عَرُوسٍ أَوْ صِلَايَةُ حَنْظَلِ[3]

وَبَاتَ عَلَيْهِ سَرْجُهُ وَلِجَامُهُ وَبَاتَ بِعَيْنِي قَائِماً غَيْرَ مُرْسَلِ[4]

وَرُحْنَا يَكَادُ الطِّرْفُ يَنْغُضُ رَأْسَهُ مَتَى مَا تَرَقَّ العَيْنُ فِيهِ تَسَهَّلِ[5]

وعندما كان مجاوراً في طيء ، نزل به علقمة بن عبدة التميمي ، فقال كل واحد منهما لصاحبه : أنا أشعر منك . فقال علقمة : قد حكَّمْتُ امرأتَكَ أمَّ جُندب بيني وبينك .

فقال امرؤ القيس : قد رضيت .

فقالت أُمُّ جندب : قُولاَ شعراً تصفان فيه الخيل علي رَوِيٍّ واحدٍ ، وقافيةٍ واحدة .

---

(١) أيطلا ظبي : خارتا غزال ، إرخاء سرحان : عدو ذئب . تتفل : ولد الذئب ، فقد جمع أربع تشبيهات في هذا البيت .

(٢) ضليع : عظيم الأضلاع ، ضاف : سابغ ، استدبر : نظر من الخلف ، الفرج : الفضاء بين الرجلين ، الأعزل : مائل ذنبه في ناحية والعرب تتشاءم من ذلك .

(٣) الكتفين أو المتنين رواية الزوزني، انتحى : من اللإنتحاء : الاعتماد والقصد ، المداك : السحق ، الصلاية : الحجر الأملس يسحق به الحنضل .

(٤) غير مرسل : غير مهمل .

(٥) الطرف : بكسر الطاء : الفرس السريع .

فقال امرؤ القيس قصيدته التي أوَّلها :

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدُبِ   نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤَادِ المُعَذَّبِ

وبعد المقدمة رجع إلى وصف الحصان على نحو مفصل ، فقال : إنه غلَّسَ قبل خروج الطيور من أوكارها ، في ليل كثير المطر ، تسيل منه المذانب ، بفرس قصير الشعر ، سريع العدو ، يصبح كالقيد للأوابد إذا لقيها ، أَضْمرْتهُ ملاحَقَةُ الهوادي من الوحش ، واتِّباعه لها أشواطاً طويلة ، فهو سريع بعد فتور ، وكان أعلاه ضامراً ومسرعاً ، كأعظم الشجر في الأماكن العالية ، إشرافاً وارتفاعاً وعِظَم خِلْقةٍ ، يباري حمارَ الوحش في سرعته ونشاطه ، صلب أملس كأنه عودُ مِشجبٍ . له خاصرتا ظبي وساقا نعامة وظهرُ عَيْرٍ واقف على مرقب . وحوافره صُمٌ صِلاب ملس كحجارة يتخللها الماء وعلاها الطحلب ، فاصفرت وصلبت . أما كفله فأشبه بكثيب من الرمل لبَّده الندى ، وحارِكُهُ في سعته وارتفاعه مثل قتب الهودج وهو مشرف من عل . وعيناه مجلوتان براقتان أبدا ، نظيفتان كمرآة سيدة تُعنى بهندامها تديرها لترى هل استقر خمارها المنقب في مكانه من محجزها أم لا ؟ وأذناه دقيقتان محدَّدتان كأذني بقرة وحشية ذُعِرتْ فنصبتْ أُذنيها ، وهما علامتان على كرم أصله . طويل العنق مشرف كأن عنانه معلق في رأس جذع مشذب ، أسود الذيل ريانة ، غزير الشعر كأنه قنو نخلة مثمرة في أرض مروية ، فإذا ما زجره وحركة بساقة وضربه بالسوط ، فجرى طَلَقَيْنِ ابتَلَّ جانبه من العرق ، وسمعتَ له خفقاً ، تقول هزيز الريح مرت بشجر الأثأب الشبيه بالأثل :

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا   وَمَاءُ النَّدَى يَجْرِي عَلَى كُلِّ مِذْنَبِ[1]

بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابِدِ لاحَهُ   طِرَادُ الهَوَادِي كُلَّ شَأْوٍ مُغَرِّبِ[2]

---

(١) أغتدي: أبكر. وكنات: أعشاش. مذنب: مسيل الماء إلى الروضة.

(٢) منجرد: قصير الشعر، لاحه: اضمره. الهوادي: المتقدمة من قطيع الوحش. الشأو: الطلق. المغرب: البعيد.

عَـلَى الأَيْنِ جَيَّاشٍ كَـأَنَّ سَرَاتَهُ عَلَى الضُّمْرِ وَالتَّعدَاءِ سَرْحَةُ مَرْقَبِ[1]
يُبَـارِي الخَنُوفَ المُسْتَقِـلَّ زَمَاعُـهُ تَرَى شَخْصَهُ كَأَنَّهُ عُودُ مِشْجَبِ[2]
لَهُ أَيْطَلا ظَبْيٍ ، وَسَـاقَا نَعَـامَةٍ وَصَهْوَةُ عَيْرٍ قَائِمٍ فَوْقَ مَرْقَبِ[3]
وَيَخْـطُو عَلَى صُمٍّ صِـلابٍ كَأَنَّهَا حِجَارَةُ غَيْلٍ وَارِسَاتٌ بِطُحْلَبِ[4]
لَهُ كَفَلٌ كَالدِّعْصِ لَبَّدُه النَّدَى إِلَى حَارِكٍ مِثْلِ الغَبِيطِ المُذَأَبِ[5]
وَعَـيْنٌ كَمِرْآةِ الصَّنَـاعِ تُديـرُهَـا لِمَحْجَـرِهَا مِنَ النَّصِيفِ المُنَقَّبِ[6]
لَـهُ أُذُنَـانِ تَعْـرِفُ العِتْقَ فِيهِـمَا كَسَا مِعَتِيْ مَذْعُورَةٍ وَسْطَ رَبْرَبِ[7]
وَمُسْتَفْلِكُ الـذِّفْرَى كَـأَنَّ عِنَـانَـهُ وَمَثْنَاتَهُ فِي رَأسِ جِذْعٍ مُشَذَّبِ[8]
وَأَسْحَمَ رَيَّـانُ العَسِيبِ كَـأَنَّـهُ عَثَا كِيلُ قِنْوٍ مِنْ سُمَيْحَةَ مُرْطِبِ[9]

---

(١) الأين: الفتور والتعب. جياش: يغلي. سراته: أعلاه. سرحة: ماعظم من الشجر وطال. المرقب: ماعلا وأشرف من الأرض.

(٢) الخنوف: الذي يرمي بيديه في السير، صفة لحمار الوحش. الزماع: شعر الظلف. المشجب: مايعلق عليه من أردية.

(٣) الأيطل: الخاصره. الصهوة: الظهر.

(٤) الصم: هنا الحوافر. الغيل: الماء الجاري. الوارسات: المصفرات.

(٥) الكفل: العجز. الدعص: الكثيب الصغير من الرمل. الحارك: ملتقى الكتفين. الغبيط: قتب الهودج. المذأب: الموسع.

(٦) الصناع: الحاذقة بالعمل. المحجر: مااستدار من العين، النصيف: الخمار أوالعباءة. المنقب: المقنع به.

(٧) الربرب: القطيع من البقر والعتق: الأصيلة.

(٨) المستفلك: المستدير كالفلكة. الذفري: عظم ناتىء خلف الأذن. المثناة: الحبل المطوى.

(٩) الاسحم: الذيل الأسود. ريان: ممتلىء. العسيب: جلد الذنب. عثا كيل: شماريخ. القنو: العذق. سميحه: اسم بئر.

فَلِلسَّاقِ أُلْهُوبٌ، وَلِلسَّوْطِ دِرَّةٌ وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقْعُ أَهْوَجَ مُنْعَبِ[1]
إِذَا مَاجَرَى شَأْوَيْنِ وَابتَلَّ عِطْفُهُ تَقُولُ هَزِيزُ الرِّيحِ مَرَّتْ بِأَثْأَبِ[2]

وقال علقمة قصيدته التي مطلعها:

ذَهَبْتَ مِنَ الهِجْرَانِ في كُلِّ مَذْهَبِ وَلَمْ يَكُ حَقّاً كُلُّ هَذَا التَجَنُّبِ

فقالت لامرىء القيس: علقمة أشعر منك.

قال: وكيف؟

قالت: لأنك زجرتَ فرسكَ، وحركته بساقكَ، وضربته بسوطكَ، في قولك:

فَلِلسَّاقِ أُلْهُوبٌ، وَلِلسَّوْطِ دِرَّةٌ وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقْعُ أَهْوَجَ مُنْعَبِ

أما علقمة فأدرك الصيد ثانياً من عنان فرسه، لم يضربْه بسوطه، ولم يمره بساقه، ولم يزجره، حين قال:

فَأَقْبَلَ يَهْوِي ثَانِياً مِنْ عِنَانِهِ يَمُرُّ كَمَرِّ الرَّائِحِ المُتَحَلِّبِ

فقال لها: ماهو بأشعر منّي، ولكنكِ له عاشق! ثم طلَّقها.
وخلفَهُ عليها علقمةُ، فسُمِّي الفحل لذلك.

وإذا أردنا أن نقتفي قصائد امرىء القيس لوجدناه يصف فرسه أروع وصف كما في قصيدته التي مطلعها:

أَحَارِ بن عمروٍ كأَنِّي خَمِرْ وَيَعْدُ وعَلَى المَرْءِ مَا يَأْتَمِرْ

---

(١) الهوب: حركة. درة: ضربة. منعب: الذي يستعين بعنقه في الجري ويمده.
(٢) الشأو: الطلق. الأثأب: شجر كالأثل.

فيقدم لنا فيها وصفا رائعا، في بناءٍ متكامل لحصان الصيد والمتعة، والترف والجاه، دون أن ينضبَ لوصفه معينٌ أو يخفَ تدفُقُه.

أمَّا صفةُ فرس الحرب في شعره، فقليلة، إذْ تضيق عليه سبل القول، وتكاد تنضب مشاعره، وتتوقف المقاطع في فمه، فقد وصف فرس الحرب هذه في ثلاثة أبيات:

وَلَمْ أَشْهَدِ الخَيْلَ المُغيرَةَ بِالضُّحا عَلَى هَيْكَلٍ نَهْدِ الجُزَارَةِ جَوَّالِ(١)

سَليمِ الشَّظَى، عَبْلِ الشَّوىَ، شَنِجِ النَّسَا لَهُ حَجَبَاتٌ مُشْرِفَاتٌ عَلَى الفَالِ(٢)

وَصُمٌّ صِلابٌ مَا يَقِينَ مِنَ الوَجىَ كَأَنَّ مَكَانَ الرِّدْفِ مِنْهُ عَلَى رَالِ(٣)

وأكثر ماجاء وصف الفرس عنده وصفا كأداة للصيد، ومطية للسفر، وأخيراً كسلاح للحرب. ولم يسبقه في وصف الفرس إلا أبو دوادَ الذي كان سائساً على خيل المنذر، يعرف من أمرها كل شيء، وهذا باب كبير ليس هذا موضعه.

ـ وكما وصفَ امرؤ القيس الفرسَ، وصفَ الناقةَ أيضاً. وإذا كان الفرس أداةً من أدوات لهوه، ومظهراً من مظاهر عِزِّه، فإنَّ الناقةَ هي وسيلته للانتقال عبر الصحراء حين تصعب الأرض، وتتكاثف الرمال، وتنعدم الغياض، وينقطع الكلأ.

أما قصائد شعره في المرحلة الأولى من حياته فتخلو تماماً من ذكر الناقة، وأول إشارة لها نجدُها في قصيدته التي بارى بها علقمةَ بن عبدَةَ، ولم تَرِدْ إلا في بيتٍ واحد، حيث شبَّهها بحمار الوحش، ثم انتقل إلى وصف الحمار ليسرفَ في وصفه:

---

(١) نهد: عالي. الجزارة: القوائم.

(٢) الشظا: عظم في يد الفرس. الشوى: القوائم. النسا: عرق. الحجبات: رؤوس الأوراك. الفال: الفائل. عرق عن يمين أصل الذنب ويساره.

(٣) الصم: الحوافر. الوجى: المشي. الرأل: ولد النعامة.

وَإِنَّكَ لَمْ تَقْطَعْ لُبَانَةَ عَاشِقٍ بِمِثْلِ غُدُوٍّ أَوْرَوَاحٍ مُؤَدِّبِ[1]
بِأَدْمَاءَ حُرْجُوجٍ كَأَنَّ قُتُودَهَا عَلَى أَبْلَقِ الكَشْحَيْنِ لَيْسَ بِمُغْرَبِ[2]

ثم ترد الناقة واضحة في شعر المرحلة الثانية بعد الشباب، يتسلى عن هموم حبّه بالرحلة على ناقة شديدة سريعة، لايضنيها حرُّ الهاجرة حين تعيا الإبل ويفتر سيرُها، بل تطوي ماانخفض من الأرض واطمأن، وتعلو ماارتفع منها وصلب، ويسربلُها السراب وقت الظهيرة بكسوة من ملاءٍ أبيض منشر.

فَدَعْ ذَا وَسَلِّ الهَمَّ عَنْكَ بِجَسْرَةٍ ذَمُولٍ إِذَا صَامَ النَّهَارُ وَهَجَّرَا[3]
تَقَطَّعُ غِيطَاناً كَأَنَّ مُتُونَهَا إِذَا أَظْهَرَتْ تُكْسَى مِلاءً مُنَشَّرَا[4]

ينتقل بعد ذلك إلى صفاتها الخَلْقية، فيصفها بأنها واسعة الصدر، تباعد مابين عضديها فاكتمل خلقها تعدو مسرعةً كأن هِرّاً قد ربط إلى حزامها فيخدشها وينفرها. فتطاير الحصى من خلفها وأمامها، ترمي به رجلاها في كل صوب وعلى غير نظام، كأنه رمي أعسر. وصوت الحجارة المترامية كصوت دراهم زائفة ينقدها صيرف من عبقر:

بَعِيدَةِ بَيْنَ المَنْكِبَيْنِ كَأَنَّهَا تَرَى عِنْدَ مَجْرَى الضَّفْرِ هِرّاً مُشَجَّرَا[5]
تُطَايِرُ ظُرَّانَ الحَصَى بِمَنَاسِمٍ صِلابِ العُجَى مَلْثُومُهَا غَيْرُ أَمْعَرَا[6]

(١) لبانة: حاجة.
(٢) أدماء: الناقة البيضاء. الحرجوج: الطويلة. القتود: أدوات الرحل. أبلق: أبيض. مغرب: أبيض الأشفار والوجه وهو عيب.
(٣) الجسرة: الناقة النشيطة. الذمول: ذات السير السريع، صام النهار: قام واعتدل.
(٤) غيطان: ماانخفض من الأرض عكس المتون. أظهرت: وقت الظهر.
(٥) المنكبين: الكتفين. الضفر: حبل مفتول يشدُّ به البطان. المشجر: المربوط إليها.
(٦) ظرّان: جمع ظرر وهو الطويل من الحصى. المناسم: جمع منسم وهو الخف للبعير. العجي: جميع عجية أو عجاية وهو عصب صغير في اليدين والرجلين. غير أمعر: أي مايصيب أرجلها من الحجارة لايؤثر فيها ولايذهب بشعرها.

كَأَنَّ الحَصى مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا   إِذَا نَجَلَتْهُ رِجْلُهَا خَذْفُ أَعْسَرَا[1]
كَـأَنَّ صليلَ المَرْوِ حينَ تُـطيرُهُ   صَليـل زُيُوفٍ يُنْتَقَـدْنَ بِعَبْقَرَا[2]

وفي القصيدة الخامسة عشرة حظيت الناقة بخمسة أبيات[1] حث فيها ناقته على السير، فأسرعت في خطو متقارب كنعامة في طريق حامية. ثم يصفها طويلة العنق، سامية الرأس، دامية الخف، قوية نشيطة رغم ماتلقى من عنت ومشقة. تتمايل في كل جهة لشدة سيرها، تكاد تصرعه، ولكنْ هيهاتَ! وتبدو له وهو على ظهرها وكأنها بدرٌ بكتيفة وغيره من الأمكنة التي اعتاد أن يرى البدرَ فيها. ثم يدعو لها بالخير في حِلِّها وترحالها، والعودة سالمة:

وَمُجَـدَّةٍ نَسَّـأْتُهَـا فَـتَكَـمَّـشَتْ   رَتْكَ النَّعَامَةِ في طَرِيقٍ حَـامِ[3]
تَخْدِي عَلَى العِلاتِ سَامٍ رَأْسُهَا   رَوْعَـاءُ مَنْسِـمُهـا رَثِـيمٌ دَامِ[4]
جَالَتْ لِتَصْرَعَني فَقُلْتُ لَهَا اقْصِرِي   إِنِّي امْـرُؤٌ صَرْعي عَلَيْكِ حَـرَامُ
وَكَـأَنَّمَـا بَـدْرٌ وَصيـلُ كُتَيْفَـةٍ   وَكَـأَنَّمَـا مِنْ عَـاقِـلٍ أَرْمَـامُ[5]
فَجُزِيتِ خَيْرَ جَـزَاءٍ نَاقَـةِ وَاحِدٍ   وَرَجَعْتِ سَـالِمَةَ القَـرَا بِسَـلامِ[6]

---

(١) نجلته: فرقته. الخذف: الرمي.
(٢) المرو: الحجارة. الزيوف: الرديء المزيف. عبقر: موضع باليمن كانت دراهمه الصحة زيوفا.
(٣) ومجدة: الواو واورب، مجدة: قويه نشطة. نسأتها: حملتها على السير. تكمشت: أسرعت. رتك النعامة: تقارب خطوها في سرعة.
(٤) تخدي: من الوخد وهو ضرب من السير، وتخدي على العلات: تسرع على مابها من مشقة. روعاء: تفزع من كل شيء فهي مرموعة. المنسم: باطن خف البعير. رثيم: من الرثم وهي العقور التي تحدث من الحجارة.
(٥) كتيفة وعاقل وأرمام: أسماء أمكنة.
(٦) القرا: الظهر.

وفي قصيدة أخرى نراه راح يُعزي نفسه عن ذهاب الأحبة بالابتعاد عن مضاربهم على ناقة قوية متينة طويلة كبنيان اليهودي. إذا زجرها استجابت له وأسرعت، وامتدّ عنقُها كأنه عِذق من غراس ابن مُعنِق. تتابع سيرها لينة هينة كسحاب متفرق يدفع بعضه بعضاً لاتتوقف في عدوها. وكأن إلى جانبها هراً تجرُّه يخدشها أثناء الطريق وعند كل منحنى.. وفي الجزء الثاني يرى نفسه فوقها وقرابُه ونُمرقُه وهي مسرعة كأنه يمتطي ظليما من النعام فزعاً نافراً ذا زوائد في رجليه. يروح من أرض لأرض بعيدة لأنه تذكر صغاراً له في حفرة، وبقايا بيضٍ مفلّقٍ، وآخر يوشك أن يفقس.

يُطوِّف بآفاقَ البلادِ مغرباً ... تُسحِّقُه ريحُ الصَّبا كُلَّ مَسْحقِ

فَعَزَّيْتُ نَفْسي حِينَ بَانُوا بِجَسْرَةٍ ... أَمُونٍ كَبُنْيَانِ اليَهُودِيِّ خَيْفَقِ[1]

إذَا زُجِرَتْ أَلْفَيْتَهَا مُشْمَعِلَّةً ... تُنِيفُ بِعِذْقٍ مِنْ غِرَاسِ ابْنِ مُعْنِقِ[2]

تَرُوحُ إذَا رَاحَتْ رَوَاحَ جَهَامَةٍ ... بِإِثْرِ جَهَامٍ رَائِحٍ مُتَفَرِّقِ[3]

كَأَنَّ بِهَا هِرّاً جَنِيباً تَجُرُّهُ ... بِكُلِّ طَرِيقٍ صَادَفَتْهُ وَمَأْزِقِ[4]

....

كَأَنِّي وَرَحْلي وَالقِرَابَ وَنُمْرُقي ... عَلَى يَرْفَئِيٍّ ذِي زَوَائِدَ نَقْنَقِ[5]

تَرَوَّحَ مِنْ أَرْضٍ لأَرْضٍ نَطِيَّةٍ ... لِذِكْرَةِ قَيْضٍ حَوْلَ بَيْضٍ مُفَلَّقِ[6]

---

(١) الجسرة: الناقة ـ خفيق: طويلة.
(٢) مشمعلة: سريعة، تنيف: تشرف.
(٣) الجهامة: السحابة.
(٤) المأزق: الطريق الضيق.
(٥) القراب: وعاء من الأدم. نمرق: بساط وماأشبهه يرفىء: الظليم وهو ذكر النعام. النقنقة: صوت ذكر النعام.
(٦) نطية: بعيدة. القيض: فلق البيض وقشوره.

يَجُـولُ بِـآفَـاقِ البِـلادِ مُغَـرِّباً وَتَسْحَقُهُ رِيحُ الصَّبَا كُلَّ مَسْحَقِ(١)

وينحو مثل هذا النحو في قصيدته (الصادية) حيث يسلّي النفس على تذكر الحبيبة بناقة خفيفة، ويسرفُ بعد ذلك في وصفها وعرض شمائلها وسرعتها ووخدها واستجابتها لرغبته، وينتقل منها إلى الظليم فحمار الوحش بما يتجاوز الخمسة عشر بيتاً، وهكذا نجدُ امرأ القيس يتخذ الناقة معبراً ليصف لنا النعامة والظليم أو الحمار الوحشي، كما اتّخذ الفرس مطية ينقلنا بها إلى عالم الصيد. بوسائله وحيوانه، ومغامراته، ومايدور فيه من صراع بين الإنسان والحيوان، أو بين الحيوان والحيوان.

ويشغلُ الصيدُ حيزاً كبيراً من ديوان امرىء القيس، ففي معلقته وهي أول قصيدة في ديوانه، تتضمن وصفاً موجزاً لواحدة من رحلات صيده، إذ يتعرض فيها لوصف قطيع من بقر الوحش اعترض طريقه، إذ تمشي إناثه مطمئنة على مهل وفي تناسق، كأنهن عذراواتٌ حسان يُطفْنَ بصنم من الأصنام مما كان يعبد في الجاهلية. وقد اعترضهُنَّ فرسُه، فردهن على أعقابهن، فدُرن حيارى، وتناثرن كقلادة من جزع ثمينٍ يلبسها صبي مُعَمٌّ ومُخْوَلٌ. ثم أدرك الفَرسُ أوائل الوحش، وبقيت أواخرها هادئة لم تتفرق، وكأنها لسرعة فرسه لم تشعر بما أصاب هواديها، فما ذعرت ولاتفرقت. ثم تبع ثوراً ونعجة فأدركهما في مشوار واحد، لم يعرق لفرسه بدن فيغسل، ولطخ صدره دم الوحش الذي تمكن من صيده، وكأن الدم في صدره عصارة حناء صُبغ بها شيبٌ، وظل الطهاة يعالجون لحم صيده، فمنهم من يشوي، ومنهم من يطبخ في القدر يتعجل إنضاج طبخه:

---

(١) مغرباً: بعيداً. تسحقه: تذهب به بعيداً.

فَعَنَّ لَنَا سِرْبٌ كَأَنَّ نِعَاجَهُ عَذَارَى دُوَارٍ فِي مُلاءٍ مُذَيَّلِ[1]
فَأَدْبَرْنَ كَالجَزْعِ المُفَصَّلِ بَيْنَه بِجِيدِ مُعَمٍّ فِي العَشِيرَةِ مُخْوَلِ[2]
فَأَلْحَقَنَا بِالهَادِيَاتِ وَدُونَهُ جَوَاحِرُهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تَزَيَّلِ[3]
فَعَادَى عِدَاءً بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ دِرَاكاً وَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلِ[4]
كَأَنَّ دِمَاءَ الهَادِيَاتِ بِنَحْرِهِ عُصَارَةُ حِنَّاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلِ[5]
فَظَلَّ طُهَاةُ اللَّحْمِ مِنْ بَيْنِ مُنْضِجٍ صَفِيفَ شِوَاءٍ أَوْ قَدِيرٍ مُعَجَّلِ[6]

وفي قصيدة أخرى نقع على معانٍ أجمَل بياناً، وأدق تفصيلاً، فيقول لنا إنه خرج إلى الصيد مبكراً على فرس ضامرة قوية، فذعَّرَ بها قطيعاً من بقر الوحش، بيضاواتِ الجلود، موشياتِ الكوارع، مثل خالٍ من برود يمانية. فلما أحست به أجهدت العدو في المكان المسمى جمزى، كأنها خيلٌ عليها أجلال بيض. ثم لاذت بالفحل يحميها، فحلٍ مسن، أخنسِ الأنف، ممتدِّ الظهر، طويلِ القرن، جعلته مما يلي الصائد ليذبَّ عنها، بينما ركز الصائد عينه على ثور ونعجة من سِمان القطيع، يلاحقها على فرس تبذل أقصى سرعتها، ويُعطي هو من فنه حتى لايفلت الوحش منها.

ذَعَرْتُ بِهَا سِرْباً نَقِيّاً جُلُودُهُ وَأَكْرُعُهُ وَشْيُ البُرُودِ مِنَ الخَالِ[7]

---

(١) عَنَّ: عرض. سرب: قطيع، نعاج: جمع نعجة وهي إناث الحمر الوحشية، دوار: صنم جاهلي. مُلاء: ملاحف، مذيل: طويل الذيل مهدب.
(٢) الجزع: العقد، المفصل: الذي فصل بين لؤلئة. الجيد: العنق.
(٣) الهاديات: المتقدمات. الجواحر: المتأخرات. الصرة: الجماعة. لم تزيل: لم تتفرق.
(٤) دراكا: مداركة.
(٥) النمر: الرقبة وأعلى الصدر.
(٦) قدير: مايطبخ في القدر.
(٧) الخال: ضرب من برود اليمن.

كَأَنَّ الصُّوَارَ إِذْ تَجَهَّدَ عَدْوَهُ عَلَى جَمَزَى خَيْلٌ تَجُولُ بِأَجْلالِ[1]
فَجَالَ الصُّوَارُ وَاتَّقَيْنَ بِقَرْهَبٍ طَوِيلِ القَرَا والرَّوْقِ أَخْنَسَ ذَيَّالِ[2]
فَعَادَى عِدَاءً بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ وَكَانَ عِدَاءُ الوَحْشِ مِنِّي عَلَى بالِ[3]

ثم ينتقل إلى وصف العُقاب مُتخذاًمن الفرس وسرعتها جِسراً يمرُّ عليه، فهو لايقنع من العُقاب بعد ذلك بمجرد ذكرها، وبما يوحي به من سرعة وانقضاض، وإنما يرسم صورة واضحة لحركتها وطباعها وهدفها وربما مشاعرها، وللأرض التي تجعل منها ساحة لنشاطها، ووكرها الذي تتخذُه مسكناً لها ولفراخها التي تسعى لإطعامها دون كلال، تنقضُّ على أرانب الفلات ضحوة، وقد أدركت الثعالبُ خطرَها فاختفت خوفاً. فيزدحم وكرها بقلوب الطير التي جاءت بها كغذاء لفراخها فالتهمتها، قلوبٌ رطبة لينة قريبةُ عهدٍ لم تزلّ طازجةً، وأخرى يابسة جافة مضى عليها حين من الدهر فبليت. وهذه صورةٌ بارعة أعجبَتْ الأقدمين ومازالت تُثير الأعجابَ:

كَأَنِّي بِفَتْخَاءِ الجَنَاحَيْنِ لِقُوَةٍ صَيُودٍ مِنَ العِقْبَانِ طَأْطَأْتُ شِمْلَالِ[4]
تَخَطَّفُ خِزَّانَ الشَّرَبَّةِ بِالضُّحَى وَقَدْ جَحَرَتْ مِنْهَا ثَعَالِبُ أَوْرَالِ[5]

---

(١) الصوار: قطيع بقر الوحش. الجمزي: اسم موضع.
(٢) قرهب: فحل مسن من البقر. أخنس: قصير الأنف. القرا: الظهر. الروق: القرن، زيال: سابغ الذيل.
(٣) على بال: موضع اهتمام الشاعر.
(٤) الفتخاء: اللينة الجناحين. اللقوة: السريعة من العقبان. طأطأت: دانيت وحفضت. الشملال: الخفيفة السريعة.
(٥) خزان: جمع خزن بضم الخاء وهو ذكر الأرنب. الشربة: اسم موضع. جحرات: اختفت. أورال: اسم موضع.

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطباً وَيَابِساً   لَدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ وَالحَشَفُ البَالي [1]

وامرؤ القيس في رحلات صيده لا يقف عند نوع معين من الوحش ، وإنما يلاحق ألواناً متعددةً منه ، بعضها بقرٌ أبيض الجلود أنيس ، وبعضها الآخر أُتُنٌ بيداءَ نفورٌ ، ذات ولدٍ تخشى عليه فهي مذعورةٌ أبداً . ومرةً يَلقىٰ نعاجاً يتبخترن في خميلة كعذراوات في أرديةٍ بيضاء مهدبة . فتنادىٰ الصيادون ، وشدَّ كل واحد عذارَ فرسه عَجِلاً ، وعَدَتْ جماعاتُ البقر ، وأدركَ الرفاقُ أن امرأ القيس وحده حيالها ، فنبَّهوه : سبقنك فاعجلْ بهن . فتقدَّم إليها ومعه غلامه على ظهر فرس قوي مجدول الظهر ، في يديه انحناء ، وهي صفة محببة . وجهِدَ الغلامُ ليكونَ على مستوى عدْوِ سيده ، بينما اندفع فحلُ القطيع كمطرٍ منهمرٍ في العشيات ، وتبعته النعاجُ موليات يخرجن من أرض ندية خصبة . والفرس يلاحقهن ، والفارسُ من فوقه يلهبه بساقه ، ويدرّه بسوطه ، ويزجُره بصوته ، فيندفعُ مجنوناً أهوجَ سريعاً يعينه عنقُه في ذلك . مسرعاً في الأرض حتى إن الفئران في منخفض الوادي أحسَّتْ بها وظنتها مطراً ينهمرُ ويوشك أن يغرقَ جحورها . فتدكها مسرعة تخط لها طريقاً على جددِ الصحراء حيث الأرض مستوية وصلبة :

فَيَوْماً عَلَى سِرْبٍ نقيٍ جُلُودُهُ   وَيَوْماً عَلَى بَيْدَانَةٍ أُمِّ تَوْلَبِ [2]

فَبَيْنَا نِعَاجٌ يَرْتَعِينَ خَمِيلَةً   كَمَشْيِ العَذَارَى في المُلَاءِ المُهَدَّبِ [3]

فَكَانَ تَنَادِينَا وَعَقْدَ عِذَارِهِ   وَقَالَ صِحَابِي : قَدْ شَأَوْنَكَ فَاطْلُبِ [4]

---

(١) العناب : شبيه بثمر الكرز . الحشف : رديء التمر ويابسه .

(٢) بيدانة : أتان البيداء . التولب : الولد الصغير .

(٣) النعاج : إناث بقر الوحش . الخميلة : هنا رملة فيها شجر . الملاء : الملاحف البيض ، المهدب : ذات الهدب .

(٤) شأونك : سبقنك .

فَـلأياً بِـلأيٍ مَا حَمَلْنَـا وَلِيدَنَـا عَلَى ظَهْرِ مَحْبُوكِ السَّرَاةِ مُحَنَّبِ [1]
وَوَلَّى كَشُؤْبُـوبِ العَشيِّ بِـوابِـلٍ وَيَخْرُجْنَ مِنْ جَعْدٍ ثَرَاهُ مُنَصَّبِ [2]
فَلِلسَّـاقِ أُلْهُـوبٌ وللسَّـوْطِ دِرَّةٌ وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقْـعُ أَهْوَجَ مِنْعَبِ
تَرَى الفَأْرَ في مُسْتَنْقَعِ القَاعِ لَاحِباً عَلى جَدَدِ الصَّحْرَاءِ مِنْ شَدٍّ مُلْهَبِ [3]
خَفَـاهُنَّ مِنْ أَنْفَـاقِهِنَّ كَـأَنَّمَـا خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِنْ عَشيٍّ مُجَلِّبِ [4]

ونجد الشاعر بعد أن بلغ هذا القدر من رحلة الصيد ، راح يرسم لنا صورة أخّاذةً ، نابضة بالحياة والحركة ، بين الفرس وبين ثورٍ ونعجة ومعهما شنبوبٌ هو فحل القطيع وأسنُّه والمدافعُ عنه . لحقها الفرس وأراد أن يصرعها جميعاً ، بينما بقية الثيران تضرب في الرمل ، تُلاحقها رماح مشدودة ، فيسمع لها غمائم ، صُرِعَ بعضُها فانكبَّ على وجهه ، واتّقاها بعضُها الآخر بقرونٍ حديدية كأنها حدُّ المخرز .

فلما فُصِلَت المعركة ، أمر الفتيان بالنزول ، ودعاهم إلى نصب الخباء ، فجعلوا دروعَهم أوتادَه ، ورماحَهم عمدَه فيها أسنَّةُ زوجٍ ردينةَ . وحبال إبلهم أطنابه ، وفضل أثوابهم اليمانية ستاره . حتى إذا نُصِبَ دخلوه ، وأسندَ كل منهم ظهره متعباً إلى رحل جديدٍ منمق مصنوع في الحيرة . وحوله أُسند الوحش ميتا ، وتبدو عيونه وقد انقلبت فبدا فيها السواد والبياض كخرز لم يثقب . ثم أكلوا من لحمها شواء نصفَ مُنضج ، ومسحوا أكفهم في أعراف الخيل ، ثم حملوا بقية اللحم معهم ، في الحقائب قسمٌ منه ، والآخر في خروجٍ تحتهم على الخيل التي

(١) المحبوك : القوي المجدول . السراة : الظهر . المحنب : في يديه إنحناء .
(٢) شؤبوب : دفقه من المطر . الجعد : شديد النداوة .
(٣) لاحب : مسرع . ملهب : شديد العدو . الجدد : ما استوى من الأرض .
(٤) الودق : المطر . المجلب : ذو الجلبة .

ضاقت بما فيها ، وكأنهم كما لو عادوا من قرية جؤاتي الشهيرة بالتمر الجيد ، بينما الفرس يندفع نشيطاً كتيس من الظباء في رملة مخصبة ، ينفض رأسه ، ضيقاً من ريح عرقه وتأذياً منه :

فَعَادَى عِدَاءً بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ ... وَبَيْنَ شُبُوبٍ كَالقَضِيمَةِ قَرْهَبِ [1]

وَظَلَّ لِثِيرَانِ الصَّرِيمِ غَمَاغِمٌ ... يُدَاعِسُهَا بِالسَّمْهَرِيِّ المُعَلَّبِ [2]

فَكَابَ عَلَى حُرِّ الجَبِينِ وَمُتَّقٍ ... بِمَدْرِيَةٍ كَأَنَّهَا ذَلْقُ مِشْعَبِ [3]

وَقُلْنَا لِفِتْيَانٍ كِرَامٍ أَلاَ انْزِلُوا ... فَعَالُوا عَلَيْنَا فَضْلَ ثَوْبٍ مُطْنبِ [4]

وَأَوْتَادُهُ مَاذِيَّةٌ ، وَعِمَادُهُ ... رُدَيْنِيَّةٌ فيها أَسِنَّةُ قَعْضَبِ [5]

وَأَطْنَابُهُ أَشْطَانُ خُوصٍ نَجَائِبٍ ... وَصَهْوَتُهُ مِنْ أَتْحَمِيٍّ مُشْرَعَبِ [6]

فَلَمَّا دَخَلْنَاهُ أَضَفْنَا ظُهُورَنَا ... إِلى كُلِّ حَارِيٍّ جَديدٍ مُشَطَّبِ [7]

كَأَنَّ عُيُونَ الوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا ... وَأَرْحُلِنَا الجَزْعَ الَّذي لَمْ يُثَقَّبِ [8]

نَمُشُّ بِأَعْرَافِ الجِيَادِ أَكُفَّنَا ... إِذَا نَحْنُ قُمْنَا عَنْ شِوَاءٍ مُضَهَّبِ [9]

---

(١) الشبوب : الثور المسن . القضيمة : الصحيفة البيضاء . القرهب : المسن .

(٢) الصريم : القطعة من الرمل . الغماغم : الأصوات . يداعسها : يطاعنها . السمهري : الرمح الشديد . المعلب : المشدود بالعلباء وهو مايوضع في أسفل الرمح لتقويته .

(٣) كاب : سقط . المدرية : القرن . ذلق : حد . مشعب : مخرز .

(٤) عالوا : رفعوا ، مطنب : مشدود بالأطناب وهي حبال الخباء .

(٥) الماذية الدروع الصافية ، الردينية : رماح نسبت الى ردينة ، قعضب : زوج ردينة كان يعمل الأسنة ،

(٦) أشطان : حبال الخباء وهو بالأصل جمع شطن : حبل الرشأ أو حبل الناقة . الخوص : النوق الغائرة العيون . أتحمي : برديماني . مشرعب : مصنف .

(٧) حاري : رحل منسوب إلى الحيرة .
المشطب : الذي فيه خطوط وطرائق .

(٨) الجزع : خزريماني فيه بياض وسواد .

(٩) نمش : نمسح . المضهب : الذي لم يدرك نضجه .

وَرُحْنَا كَأَنَّا مِنْ جُؤَاثي عَشِيَّةٍ نُعَالِي النِّعَاجَ بَيْنَ عِدْلٍ وَمُحْقَبِ [1]
وَرَاحَ كَتَيْسِ الرَّبْلِ يَنْفُضُ رَأْسَهُ أَذَاةً بِهِ مِنْ صَائِلٍ مُتَحَلِّبِ [2]

وهكذا نجد امرأ القيس وصف لنا الفرسَ يصيدُ به ، والناقةَ يحمل عليها رحاله،والحمرَ الوحشية يصطادها ، والثيرانَ يطاردها ، والنعاجَ ينحرها ، ومَنْ صَحِبَهُ عبر هذه الرحلات على امتداد الصحاري ، وكذلك غلمانه يرسلهم يصيدون له وهو من ورائهم يوجههم ،ولم ينسَ أن يصف لنا نوعاً آخر من الصيد عرفته العربُ وهو استخدام الكلابِ السلوقيةِ المدربةِ على الصيد ، وقد قدم لها بوصفِ الحمار الوحشي ، ثم انتقل لوصفها فقال :

فَصَبَّحَتْهُ عِنْدَ الشُّرُوقِ غُدَيَّةً كِلَابُ ابْنِ مُرٍّ أَوْ كِلَابُ ابْنِ سِنْبِسِ [3]
مُغَرَّثَةً زُرْقاً كَأَنَّ عُيُونَهَا مِنَ الذَّمْرِ وَالإِيحَاءِ نُوَّارُ عِضْرِسِ [4]
فَأَدْبَرَ يَكْسُوهَا الرَّغَامَ كَأَنَّهُ عَلَى الصَّمْدِ والآكَامِ جَذْوَةُ مُقْبِسِ [5]
وَأَيْقَنَ إِنْ لَاقَيْنَهُ أَنَّ يَوْمَهُ بِذِي الرَّمْثِ إِنْ مَا وَتْنَهُ يَوْمُ أَنْفُسِ [6]

---

(١) جؤاثي : قرية بالبحرين تمتاز بالتمر الجيد ، عدل : عين الخرج الواحدة . محقب : وضع في الحقيبة .
(٢) الربل : نبات يطلع في آخر الصيف ، التيس : الذكر من الظباء . الصائك : العرق الثقيل الرائحة ، متحلب : من تحلُّب العرق إذا سال .
(٣) ابن مرّ وابن سنبس : رجلان لهما كلاب مدربة .
(٤) مغرثة : مجموعة . الذمر : الزجر والإغراء . العضرس : شجر أحمر النور .
(٥) الرغام : التراب . الصمد : المكان المرتفع ، الآكام : جمع أكمة الهضبة أو المكان المرتفع ، مقبس : طالب القبس من نار .
(٦) الرمث : اسم موضع في شجرا لرمث الشبيه بالغضا . ما وتته : جالدته وصابرته . يوم أنفس : يوم إزهاق الأنفس .

فأدْرَكْنَهُ يَـأْخُذْنَ بِـالسَّاقِ وَالنَّسَـا كَمَا شَبْرَقَ الوِلْدَانُ ثَوْبَ المُقَدِّسِ (١)
وَغَوَّرْنَ فِي ظِلِّ الغَضَـا وَتَرَكْنَـهُ كَقِرْمِ الهِجَانِ الفَادِرِ المُتَشَمِّسِ (٢)

ذلك هو امرؤ القيس مع الطبيعة المتحركة ، إذْ ندركُ بداهة أن مظهرين منهما كانا مَناطَ إعجابه وموضعَ إعزازه ؛ الخيلُ والصيدُ . فلقد كانت الفروسية بمظاهرها المتباينة ؛ صيداً وسباقاً وسيادة هواياته المفضلة .

وصف الفرس في حالاته المختلفة ، أمَّا حديثُه عن الناقة فيصدر عن تقدير لدورها في حياة الصحراء . ووصف أوابد الصحراء وحيوانها وماله بالصيد صله ، فصوَّر الحمارَ في خلْقه وفي طِباعه ، وصوَّر الثور بقوته واندفاعه ، والعقابَ بسرعته واقتداره ، وصورُه كلُّها تفيضُ باللفتات الإنسانية الذكية ، والخبرة الواسعة بالحيوان وطباعه . وبقي علينا أن نُلقيَ نظرة على موقفه من الطبيعة الصامتة .

وصف الطبيعة الصامتة ..

ونعني بالطبيعة الصامتة ، ما يُصادفنا من مظاهر الكون من سماء وأفلاك ، ونجومٍ وكواكبَ ، وسحب وأمطار ، ورعدٍ وبرق ، وليل ونهار . وكان حظ بلاد العربِ منها وافراً ومتلوناً ، وفي شعر امرىء القيس معالم بارزة لهذه الطبيعة التي كانت إلفَه ، وتوأمَ روحه ، ومتاعَ بصره ، ومجالَ فكره ، هام في محاسنها ، وتفيأ ظلالها ، صادَ وحشها ، وألِفَ شعابها ، وقضى فيها جُلَّ أيام عمرِه ولياليه ، حتى أصبحت جزءاً من ذاته ، وخديناً لحياته . تأملها ملياً فأدركَ خفاياها ، وفتحت له

---

(١) النسا : عصب من الورك إلى الكعب . شبرق : مزق ، المقدس : زائر القدس .
(٢) غورن : سرن في أرض منخفضة من الغور . قرم هجان : الفحل الكريم . الغادر : الممسك عن الضراب . المتشمس : الشموس النفور .
بعاج : أثقال . العياب : المتاع .

قلبها فعرف أسرارَها ، وحلت من قلبه وفكره مكاناً وسيعاً ، فتغنى بها ، وغنى لها .

ولو ألقينا نظرة على معلقته لوجدناه يصف لنا السحابَ ، وتحدث عن البرق والرعد والمطر ، على نحو بديع وجميل ، وراح يتأملُها ويتابع تحركها حتى وافت الرياض وأطلعت الكلأ والزهر والألوان .

فالبرقُ يلمع وسط سحب متراكمة مستديرة كلمع اليدين تتحركان بسرعة خاطفة . أو يضيءُ سناه كمصباح راهب أمال الزيت على فتيلته ، فغذاها ، فتوهّجَ ضوؤها . ثم قعد وصحبه يتأملون ذلك البرق ما بين ضارجَ والعذيب ويا بُعْدَ ما رأى ! وينظرون من أين يجيىء المطر ؟ لقد رأوا مطراً غزيراً شمل جهات مترامية ، فكان يمينه على جبل قطن ، ويساره على جبلي الستار ويذبل . فغطّى السيل ناحية كتيفة ، واكتسح سيله الأشجار الضخمة العالية التي اعترضت طريقه ، وقلبها ، فجعل أعاليها أسافلها . ومر على جبل القنان برشاشه فأجبر الوعول المستقرة به على النزوح عنه . ولم يترك بتيماء جذع نخلة قائماً فأسقطها جميعاً ، ولم يبق من أبنيتها إلا ما كان قويا مشيداً بالجنادل والصخور الضخمة . وغدا جبل ثبير حين غطاه الماء الكثير وجلله أشبه بشيخ متدثر متزمل في كساء مخطط . وعرّى رأس جبل المجيمر من التراب والنبات ، ودار السيل حوله بما احتمله من الغثاء الأسود والبقايا ، فكان كرأس فلكة المغزل . واستحال في أودية أخرى إلى سيل جارف ، فأغرق السباع ، واحتملها طافية على وجه الماء مقلوبة على ظهورها ، بادية خراطيم رؤوسها وأطرافها ، وكأنها على البعد جذور بصل بري . ثم ألقى هذا المطر أثقاله على صحراء الغبيط ، فأنبت نباتاً حسناً ، مختلف الزهر واللون ، فكان نزوله فيها كنزول التاجر اليماني إذا جاء محملاً بعياب فيها ثياب ملونة ، ينشرها أمام الناس ترغيباً لهم في شرائها .

لقد أحال المطر هذا الوادي إلى روضة من النبات والزهر ، تغرد فيه الطيور طربة مبتهجة كأنها سكارى ، بدأت صباحها بشرب رحيق سلاف مغلغل .

أَصَاحِ ! تَرَى بَرْقاً أُرِيكَ وَمِيضَهُ ... كَلَمْعِ اليَدَيْنِ في حَبِيٍّ مُكَلَّلِ (١)
يُضِيءُ سَنَاهُ ، أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ ... أَمَالَ السَّلِيطَ بِالذُّبَالِ المُفَتَّلِ (٢)
قَعَدْتُ لَهُ وَصُحْبَتِي بَيْنَ ضَارِجٍ ... وَبَيْنَ العُذَيْبِ بُعْدَمَا مُتَأَمَّلِ ! (٣)
عَلَا قَطَناً بِالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ ... وَأَيْسَرُهُ عَلَى السِّتَارِ فَيَذْبُلِ (٤)
فَأَضْحَى يَسُحُّ المَاءَ حَوْلَ كُتَيْفَةٍ ... يَكُبُّ عَلَى الأَذْقَانِ دَوْحَ الكَنَهْبَلِ (٥)
وَمَرَّ عَلَى القَنَّانِ مِنْ نَفَيَانِهِ ... فَأَنْزَلَ مِنْهُ العُصْمَ مِنْ كُلِّ مَنْزِلِ (٦)
وَتَيْمَاءَ لَمْ يَتْرُكْ بِهَا جِذْعَ نَخْلَةٍ ... وَلَا أُطُماً إِلَّا مَشِيداً بِجَنْدَلِ (٧)
كَأَنَّ ثَبِيراً في عَرَانِينِ وَبْلِهِ ... كَبِيرُ أُنَاسٍ في بِجَادٍ مُزَمَّلِ (٨)

---

(١) أصاح : الهمزة لنداء القريب . وصاح : منادى مرخم مبني على الضم المقدر على الياء المحذوفة في محل نصب على النداء . الوميض : لمع البرق . الحبي : المرتفع . المكلل : الذي بعضه فوق بعض .
(٢) السليط : الزيت . الذبال : الفتائل .
(٣) ضارج والعذيب : اسما موضعين .
(٤) قطن : جبل في بلاد بني أسد . الستار ويذبل : جبلان مما يلي البحرين .
(٥) يسح : يصب . كتيفة : اسم موضع . يكب : يقلب . دوح : جمع دوحة وهي كثيرة الورق والأغصان . الكنهبل : هو ما عظم من الشجر .
(٦) القنان : جبل لبني أسد . النفيان : ما فاض من مجتمع السيل . العصم : يعني الوعول جمع وعل وهو تيس الجبل .
(٧) تيماء : بلدة شمال يثرب . الأطم : الحصون المبنية بالجنادل أي الحجارة الضخمة .
(٨) ثبير : جبل بمكة . عرانين : أوائل . وبل : جمع وابل وهو المطر الشديد . البجاد : الكساء المخطط . مزمل : ملتف .

كَأَنَّ ذُرَى رَأْسِ المُجَيْمِرِ غُـدْوَةً مِنَ السَّيْلِ وَالغُثَّاءُ فَلْكَةُ مِغْزَلِ [1]
كَـأَنَّ السِّبَاعَ فيـهِ غَرْقَى عَشِيَّـةً بِأَرْجَائِهِ العُصْوَى أَنَابِيشُ عُنْصُلِ [2]
وأَلْقَى بِصَحْـرَاءِ الغَبِيطِ بَعَاعَـهُ نُزُولَ اليَمَانِيِّ ذِي العِيَابِ المُحَمَّلِ [3]
كَـأَنَّ مَكَـاكِيَّ الجُـوَاءِ غُـدَيَّـةً صُبِحْنَ سُلَافاً مِنْ رَحيقٍ مُغَلْغَلِ [4]

أمَّا الليل الذي يصفه لنا في معلقته فهو ليلُ العاشق الطويل الثقيل الذي يحاكي أمواج البحر في تجهمه ، وقد أرخى على الشاعر ستورَ ظلامه الملبدة بالأحزان ، والملفَّعة بالهموم ، ليختبرَ صبره على الشدائد والنوائب . ولمَّا أفرط ذلك الليل بطوله وازدادت مآخيره امتداداً عن أوائله ، قال له : انكشف أيُّها الليلُ وتنحَّ ، لصباح يزيل بضيائه ظلامكَ ، ثم يتراجع الشاعر ليعبر عن كثافة الهموم التي أناخت عليه فيقول : لكنَّ ذلك الصبح ليس بأفضل منك ، لأن الشاعر سيقاسي الهموم نهاراً كما عاناها ليلاً ، ولأنَّ نهاره أظلمَ في عينيه من ليله لازدحام الهموم عليه . ثمَّ يَعجبُ الشاعرُ من هذا الليل الطويل الجاثم على قلبه ، ونجومه التي لا تريم ، ولا تريد أن تغرب ، وكأنما شُدَّت بحبال قوية الفتل إلى جانب جبل يذبل الرابض منذ الأزل . وكأن الثريا في سماء ذلك الليل علقت بأمراس من الكتان ، فهي ساكنة لا تتحرك ، سُمِّرت في مكانها لا تسير ، قال :

---

(١) ذرى : جمع ذروة وهي أعلى الشيء . المجيمر : اسم جبل . الغثاء : ما يحمله السيل من رغوة وأشياء .
(٢) أرجاؤه : نواحيه . أنابيش : جمع أنبوش وهو الغراس المقلوعة ، عنصل : بصل رديء .
(٣) الغبيط : اسم مكان منخفض بأطراف عالية .
(٤) المكاكي : جمع مكاء وهو طائر . الجواء : اسم موضع . السلاف : أول ما يعصر من الخمر . الرحيق : الخمر .

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ   عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الهُمُومِ لِيَبْتَلِي(١)
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ   وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ(٢)
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي   بِصُبْحٍ وَمَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ(٣)
فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ   بِكُلِّ مُغَارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ(٤)
كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ في مَصَامِهَا   بِأَمْرَاسِ كَتَّانٍ إِلى صُمِّ جَنْدَلِ(٥)

لقد رسم امرؤ القيس لنا في هذه الأبيات صورةً أدبية مجسَّمة لليلٍ تنبض بالحياة والحركة ، وصوَّر الهمَّ ينيخُ عليه بكل قواه ، فيسحقُه تحته سحقاً ، لا يترك له بارقةً من أمل تحمل إليه الطمأنينة أو شعاعاً من الرجاء ، ولانا فِذَّةً للخلاص يتخذُها مهرباً إلى عالم الهدوء الرحيب . ورسم لوحته هذه بمادة عمادها الحقيقة والمجاز والاستعارة والأرداف . وأُعجِبَ النقادُ القدامى بما فيها من ألوان البيان ، وكانت عندهم المثل الأعلى للإستعارة .

وكان امرؤ القيس نسيجاً وحده في الحديث عن ليله وعن همومه بين معاصريه ، ولم يجارِهِ منهم غير النابغة الذبياني ، وقصر دونه ، وكان عالة عليه ، في أبياته التي يقول فيها :

---

(١) وليل : الواو واو رب . سدوله : ستوره . الإرخاء : الإرسال . الإبتلاء : الاختبار .
(٢) تمطى : تمدد ، والمطا : الظهر . الصلب : الوسط . الإرداف : الإتباع . الأعجاز : المآخير . ناء : مقلوب نآي بمعنى بَعُدَ .
(٣) الإنجلاء : الإنكشاف . الأمثل : الأفضل .
(٤) مغار الفتل : الحبل المبروم بشكل جيد . شدت : ربطت . يذبل : جبل بعينه في جزيرة العرب .
(٥) المصام : الوسط . الأمراس : جمع مرس وهو الحبل . الصم : الصخور الصلبة . الجندل : وتجمع على جنادل وهي الصخور .

كِلِيني لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ   وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الكَوَاكِبِ[1]
تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ   وَلَيْسَ الَّذي يَرْعَى النُّجُومَ بِآيِبِ[2]
وَصَدْرٍ أَرَاحَ اللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ   تَضَاعَفَ فِيهِ الحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ[3]

الأغراض الشعرية الأخرى ..

إذا انتقلنا إلى الكلام على أغراضه الشعرية التي تناولها بعد مقتل أبيه وجدنا الحزنَ والألم العميق ، إضافةً إلى شكوى الدهر والحديث عن المصير . فقد كان امرؤ القيس صاحبَ هم في صباه ، وطريدَ هموم في رجولته ، والهمُّ منشؤه القلق ، والقلقُ وراء كل إبداعٍ عبقري ، كيف لا ! والأحلام التي راودته قد تبخَّرت ، وأيامُ السعادة التي تمناها تلاشت ، وليس أمامه إلا العدمُ الذي يشدُّ إليه الناس الرحال ، وهكذا غيَّرتِ التجاربُ شخصيةَ الشاعر ، فهو يفصح عن ذات نفسه ؛ إن وراء متاعبه أمالاً كباراً يسعى لها ، تؤرقه ويَشقى بها ، لو كان يطلب مجرد العيش لكفاهُ قليلٌ من المال ، ولكنه طالبُ مجدٍ ، ودون المجدِ أهوالٌ ، ومادام لا يدركُ أواخر الأمور ، ولا ينالُ غايةَ الآمال ، ولا يتأتّى له كل ما يريد ، فلن يألوَ جهداً ، ولن يُقصِّرَ عن طلب ، ما بقيَتْ فيه حياة :

فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لأدْنَى مَعيشَةٍ   كَفَاني ، وَلَمْ أَطْلُبْ ، قليلٌ منَ المَالِ
وَلَكِنَّما أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ   وَقَدْ يُدْرِكُ المَجْدَ المُؤَثَّلَ أَمْثَالي[4]
وَمَا المَرْءُ مَادَامَتْ حُشَاشَةُ نَفْسِهِ   بِمُدْرِكِ أَطْرَافِ الخُطُوبِ وَلاَ آلِ

---

(١) كليني : دعيني . أُميمة : اسم لحبيبة الشاعر مرخمة . ناصب : متعب . بطيء الكواكب : لا يغور كواكبه .
(٢) يرعى النجوم : قصد به الذي يرعاها وهو نفسه .
(٣) أراح الهم : ردَّه إليه . العازب : البعيد .
(٤) المؤثل : العريق المتوارث .

وكانت رحلته إلى بيزنطة هماً خالصاً ، وقصيدته فيها تصويرٌ دقيق لهذا الهم ، حين تُلاحقه الآلام فيسقطُ مريضا ، وتقسو عليه الغربةُ فيواجهها وحيداً ، ويلقاه الناس في مُدُنِ الشام وما بعدَ الشام ، فلا يرون فيه إلا عابرَ سبيلٍ ، يُثير الفضولَ . ويلفِتُ النظر ، ثم يمضي في طريقه ، لا يهُمُّهم أمرَه من أين قدم وإلى أين يمضي . رحلَ إلى القسطنطينية ، رافقه عمرو بن قميئة الشاعر ، وجابرُ بن حنّا التغلبي ، والحارثُ بن حبيب السُلمي وآخرون من أهله ومعاونيه ورفاقه وخدمه ، يهدف من وراء ذلك إلى إستعادة عرشه ، ويُصرِّح بذلك قائلاً :

فَقُلْتُ لَهُ : لَا تَبْك عَيْنُكَ إِنَّمَا ... نُحَاوِلُ مُلْكاً ، أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

ومن الشعر الذي يتّصل بالرحلة إلى قيصر ثلاثُ قصائد ، الأولى منها قالها وهو في طريقه إلى القسطنطينة ، وفيها إشارات واضحةٌ إلى الرحلة وأحداثها ، بدأها بمقدمة طللية طويلة ، وأتبعها بغزلٍ وقورٍ حيي على غير العادة ، ثم انتقل إلى تذكُّر أهله الصالحين وقد بعُدَ به الطريق ، وتجاوز خَملى وأَوْجَرَا من بلاد الشام ، فلما أشرف على حوران بدا له كل شيء جديداً وغريباً ، فلما عبرَ حماةَ وشيزرا تقطعت به أسباب الذكرى يأساً ، وشغل بما فيه من شدة وعناء ، ولم ينس صويحباته هناك فذكرهن :

تَذَكَّرْتُ أَهْلِي الصَّالِحِينَ وَقَدْ أَتَتْ ... عَلَى خَمْلَى خُوصُ الرِكَابِ وَأَوْجَرَا[1]
فَلَمَّا بَدَتْ حَوْرَانُ فِي الآلِ دُونَهَا ... نَظَرْتَ فَلَمْ تَنْظُرْ بِعَيْنَيْكَ مَنْظَرَا[2]
تَقَطَّعَ أَسْبَابُ اللُّبَانَةِ وَالهَوَى ... عَشِيَّةَ جَاوَزْنَا حَمَاةَ وَشَيْزَرَا[3]

---

(١) خملى وأوجرا : موضعان قبل الشام .
(٢) حوران : منطقة تمتد بين الشام والبلقاء حاضرتها درعا أو أذرعات الآل : السراب .
(٣) اللبانة : الحاجة . حماة وشيزر : من بلاد الشام .

أَخُو الجَهْدِ لاَ يُلْوِي عَلَى مَنْ تَعَذَّرَا ... بِسَيْرٍ يَضِجُّ العَوْذُ مِنْهُ ، يَمُنُّهُ[1]
وَخَمْلاً لَهَا كَالقَرِّ يَوْماً مُخَدَّرَا ... وَلَمْ يُنْسِنِي مَا قَدْ لَقِيتُ ، ظَعَائِناً[2]
وَدَونَ الغُمَيْرِ عَامِدَاتٍ لِغَضْوَرَا ... كَأَثْلٍ مِنَ الأَعْرَاضِ مِنْ دُونِ بِيشَةٍ[3]

ثم وصف ناقتَه التي تحملُ على ظهرها فتى لم تحملِ الأرضُ مثلَه ، وفاءً بما عاهد عليه ، وصبراً على ما يلقى ، واستعرض بعض ما صنعَ من أجل الثأر لأبيه ، وفخرَ بقومه من اليمن . ولمَّا أحسَّ عمرو بن قميئة ، بقسوة الرحلة ، وعذابِ الوحدة ، وضبابِ الغد ـ وكان شيخاً معمّراً ـ هدَ هدّ امرؤ القيس آلامه ، وسلاّه عن أحزانه ، بقوله :

وَأَيْقَنَ أَنَّا لاَحِقَانِ بِقَيْصَرَا ... بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ
نُحَاوِلُ مُلْكاً ، أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا ... فَقُلْتُ لَهُ : لاَ تَبْكِ عَيْنُكَ ، إِنَّمَا
بِسَيْرٍ تَرَى مِنْهُ الفُرَانِقَ أَزْوَرَا ... وَإِنِّي زَعِيمٌ إِنْ رَجَعْتُ مُمَلَّكاً

وهكذا بدَّلت تجارب الحياة نظرةَ الشاعر إلى الناس ، فالأصدقاءُ تخلوا عنه ، ورجالُ المنذر ملك الحيرة يجدون في طلبه ، والكفاحُ حيث لا فائدة ترجى منه ، ذلك نلقاه في أكثر من قصيدة . كتلك التي تبدأ بقوله :

وَنُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ[1] ... أَرَانَا مُوضِعِينَ لأَمْرِ غَيْبٍ

وكان من الطبيعي أن يمتدحَ امرؤ القيس من أجاره وأغاثه في أيام ضيعته ، فحين نجا من المنذر ومعه يزيد بن معاوية بن الحارث ، وابنته هند ، وأدرعه

---

(٤) العوذ : الجمل المسن وفيه بقية . يمنه : يجهده . ولا يلوي : لا ينتظر .
(٥) الظعائن : جمع ظعينة وهو الهودج وفيه امرأة . الخمل : ريش النعام . القر : الهودج مخدرا : من الخدر .
(٦) الأثل : شجر ضخم . الأعراض : الوديان . بيشه وغضور : موضعان فيهما ماء .
(١) موضعين : مسرعين . ويريد بالغيب : الموت .

وسلاحه ، ونزل على سعد بن الضباب الإيادي ، سيد قبيلة إياد فأجاره ، فشكر له امرؤ القيس نصره :

مَنَعْتَ اللَّيْثَ مِنْ أَكْلِ ابْنِ حُجْرٍ   وَكَادَ اللَّيْثُ يُودِي بِابْنِ حُجْرِ
مَنَعْتَ وَأَنْتَ ذُو مَنٍّ وَنُعْمَى   عَلَيَّ ، ابنَ الضبَّابِ بحَيْثُ تَدْرِي
سَأَشْكُرُكَ الَّذِي دَافَعْتَ عَنِّي   وَمَا يُجْزِيكَ عَنِّيَ غَيْرُ شُكْرِي
فَلاَ جَارٌ بِأَوْثَقَ مِنْكَ عَهْداً   فَنَصْرُكَ لِلطَّرِيدِ آعَزُّ نَصْرِ

ولمَّا تحوَّلَ الشاعر إلى المعلى بن تيم من جديلة طيء ، وقد شعر في جواره بالأمن والطمأنينة فقال فيه ما لم يقله في أحد ممن استجار بهم :

كَأَنِّي إِذْ نَزَلْتُ عَلَى المُعَلَّى   نَزَلْتُ عَلَى البَوَاذِخِ مِنْ شَمامِ(1)
فَمَا مَلِكُ العِرَاقِ عَلَى المُعَلَّى   بِمُقْتَدِرٍ ، وَلاَ مَلِكُ الشَّآمِ
أَصُدُّ نَشَاطَ ذِي القَرنَيْنِ حَتَّى   تَوَلَّى عَارِضُ المَلِكِ الهُمَامِ(2)
أَقَرَّ حَشَا امْرِىءِ القَيْسِ بنِ حُجْرٍ   بَنُو تَيْمٍ مَصَابِيحُ الظَّلاَمِ(3)

وكذلك لم ينسَ امرؤ القيس لبني حنضلة موقفهم منه ، وتخليهم عنه وقومه ، فاتَّخذهم مثلاً للغدرِ والخذلان والخبثِ والشر ، تهددهم بالفضيحة والذل :

أَحَنْضَلُ لَوْ حَامَيْتُمُ وَكَرُمْتُمُ   لأَثْنَيْتَ خَيْراً صَادِقاً وَلأَرْضَانِي
وَلَكِنْ أَبَى خِذْلاَنُكُمْ فَافْتَضَحْتُمُ   وَخَبَّثْتُمُ مِنْ سَعْيِكُمْ كُلَّ إِحْسَانِ
وَقَدْ كَانَ أَصْفَاكُمْ بِأَخْلَصَ وُدِّهِ   عَلَى غَيْرِكُمْ ، فَكُنْتُمْ شَرَّ خُلْصَانِ

---

(1) البواذخ : جمع باذخ وهو الشامخ العالي . شمام : اسم جبل .
(2) العارض : السحاب المعترض في السماء ويريد الجيش .
(3) أقرّ حشا : اطمأنت نفسه ولم تضطرب أحشاؤه فزعا .

أَحَنْضَلُ لَاشُكْرٌ بِصَالِحِ فِعْلِهِ وَلَا عِفَّةٌ ، إِذْ نَصُرُكُمْ خَاذِلٌ وَانِ
فَأُلْفِيتُمُ عِنْدَ الْجِوَارِ أَذِلَّةً وَعِيدَانُكُمْ فِي الْجَهْدِ أَخْوَرُ عِيدَانِ

وكما شقي امرؤ القيس بهمومه وآماله ، كان شقياً بأصحابه كذلك ، وكلّما لقيَ إنساناً ورجا منه الصحبة ، وأمل فيه خيراً ، وجد منه عند الاختبار ما لا يرضاه ولا تقرُّ به عينُهُ ، فيستبدلُ به آخر ، لكن التالي ليس بأفضلَ من السابق ، ذلك حظُّه مع الناس ، لا يتّخذ منهم صاحباً إلاّ خانه وتغيّر :

إِذَا قُلْتُ هَذَا صَاحِبٌ قَدْ رَضِيتُهُ وَقَرَّتْ بِهِ الْعَيْنَانِ بُدِّلْتَ آخَرَا
كَذَلِكَ جَدِّي ، مَا أُصَاحِبُ وَاحِداً مِنَ النَّاسِ إِلاَّ خَانَنِي وَتَغَيَّرَا[1]

«إنَّ طيبَ الحياة أسكرنا ، فغفِلنا عن رحلة نسرعُ فيها إلى المجهول ، وتنتهي بنا إلى غيبٍ لا نعلمُ من أمرِه شيئاً . والإنسان في جانبه المادي كالعصافير والذباب والدود ضعفاً وتهالكاً ، وينمازُ عنها بالإرادة القوية ، والعزيمة الصادقة ، والعقل المفكر ، ذلك هو ما يجعلُه أشدَّ جرأةً من ذئب عنيد . لقد أقلع عن لهوه ومغامراته ، وركَن إلى مكارم الأخلاق ، وكفاه أمامَ لائمية تجربته مع الدنيا ، وتاريخ أسلافه .

من التراب جاء ، وإليه يعود ، وهذا الموت يسلبه شبابَه ونفسَه وجرمه ، فيستحيلُ تُرابا ، كأنه لم يُهزِل مطاياهُ بطولِ السفر ، ودؤوبِ السيرِ بكل فلاة منخرقة ، لم يَسِرّ علَى رأسِ جيشٍ لَهامٍ ، ولم يظفرْ من الغنائم بالكثير الغالي ، ثم كانت النهاية أن يرى في العودةَ ، مجردَ العودة ، بلا ظفرٍ ولا غنيمة ولا فائدة ، أملاً يُرتجى . لقد ذهبَ الحارثُ جَدّهُ ، ومن بعدِه قُتل حجرٌ أبوه ، وعمُه شُرَحبيل ،

---

(١) جدي : حظي .

فما ينتظر بعدهم ليناً من صروف الدهر ، وإنها لقادرة على تفتيت الصخرة ، وسينتهي على نحو ما انتهوا» :

أَرَانَا مُوضِعِينَ لأَمْرِ غَيْبٍ وَنُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ[1]
عَصَافِيرٌ ، وَذِبَّانٌ ، ودُودٌ وَأَجْرَأُ مِنْ مُجَلِّحَةِ الذِّئَابِ[2]
وَكُلُّ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ صَارَتْ إِلَيْهِ هِمَّتِي وَبِهِ اكْتِسَابِي
فَبَعْضُ اللَّوْمِ عَاذِلَتِي فَإِنِّي سَتَكْفِينِي التَّجَارِبُ وَانْتِسَابِي
إِلىٰ عِرْقِ الثَّرَى وَشَجَتْ عُرُوقِي وَهَذَا المَوْتُ يَسْلُبُنِي شَبَابِي[3]
وَنَفْسِي سَوْفَ يَسْلُبُهَا وَجِرْمِي فَيُلْحِقُنِي وَشِيكاً بِالتُّرَابِ[4]
أَلَمْ أُنْضِ المَطِيَّ بِكُلِّ خَرْقٍ أَمَقِّ الطُّولِ لَمَّاعِ السَّرَابِ[5]
وَأَرْكَبُ فِي اللَّهَامِ المَجْرَ حَتَّى أَنَالَ مآكِلَ القُحَمَ الرِّغَابِ[6]
وَقَدْ طَوَّفْتُ فِي الآفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الغَنِيمَةِ بِالإِيَابِ
أَبَعْدَ الحَارِثِ المَلِكِ بنِ عَمْرٍو وَبَعْدَ الخَيْرِ حُجْرٍ ذِي القِبَابِ ؟
أُرَجِّي مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ ليناً وَلَمْ تَغْفُلْ عَنِ الصُّمِّ الهِضَابِ !
وَأَعْلَمُ أَنَّنِي عَمَّا قَلِيلٍ سَأُنْشَبُ فِي شَبَا ظُفْرٍ وَنَابِ[7]
كَمَا لَاقَى أَبِي حُجْرٌ وَجَدِّي وَلَا أَنْسَى قَتِيلاً بِالكُلَابِ !

---

(١) موضعين : مسرعين .
(٢) المجلحة : المصممة على الشيء ، لا ترجع عما تريد .
(٣) وشجت : اشتبكت واتصلت .
(٤) الجرم : البدن الهيكل . الوشيك : السريع .
(٥) أنضو : أهزل . الخرق : الأرض الواسعه . الأمق : الطويل .
(٦) اللهام : الجيش الكبير . المجر : الكثير العدد . القحم : جمع قحمة ويعني الدفعة . الرغاب : الواسعة المكينة .
(٧) شبا كل شيء : حده :

امرؤ القيس في رأي النقاد ..

تلك هي أهم أغراض امرىء القيس ومعانيه الشعريه، عرضناها بإيجاز ليدرك القارىء السبب الذي من أجله اعتبره نقاد الأدب في القديم والحديث من شعراء الطبقة الأولى، وها نحن نسوق جملةً من آرائهم وكلماتهم تؤكد إمارته على عرش الشعر، وتدل على المواطن التي رفعت شأنه وبوّأته هذه السدّة الرفيعة بين فحول عصره والعصور التالية.

فقد قيل للفرزدق: من أشعرُ الناس؟

فقال: ذو القروح حيث يقول:

وَقَاهُمّ جَدُّهُمْ ببني أَبيهم   وَبالأشْقَيْنِ مَاكَانَ العَذَابُ

ومرَّ لبيُد بن ربيعة العامري بالكوفة في بني نهد، فسألوه: من أشعر الناس؟

فقال: الملك الضلّيل.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يصف امرأ القيس: رأيته أحسنهم نادرةً، وأسبقهم بادرةً، وأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة.

وقال الحطيئة: امرؤ القيس أشعر العرب حيث يقول:

فَيَالَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهَ   بِكُلِّ مُغَارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

وقيل لكُثيِّر عزَّةَ: من أشعر الناس؟

فقال: امرؤ القيس إذا ركب، وزهيرٌ إذا رغب، والنابغةُ إذا رهب، والأعشى إذا طرب.

وكان أبو عبيدة يقول: افتُتح الشعر بامرىء القيس.

وقال ابن سلام: إن امرأ القيس سبق شعراء العرب إلى أشياء ابتدعها، واستحسنها العرب، واتّبعه فيها الشعراء؛ استيقاف صحبه، والبكاء على الديار،

ورقة النسيب، وقرب المأخذ، وتشبيهه النساء بالظباء والبيض، والخيل بالعقبان والعصي، وهو أوّلُ من قيد الأوابد، وأجاد في التشبيه.

وقال الآمدي في الموازنة: ... وبهذه الخلة دون ماسواها فُضِّلَ امرؤ القيس، لأن الذي في شعره من دقيق المعاني، وبديع الوصف، ولطيف التشبيه، وبديع الحكمة، فوق مااستعار سائرُ الشعراء من الجاهلية والإسلام، حتى أنَّه لاتكاد تخلوله قصيدة واحدة من أن تشتمل من ذلك على نوع وأنواع، ولولا لطيف المعاني واجتهاد امرىء القيس فيها وإقباله عليها لما تقدم على غيره، ولكان كسائر شعراء أهل زمانه، إذ ليس له فصاحة توصف بالزيادة على فصاحتهم، ولا لألفاظه من الجزالة والقوة ماليس لألفاظهم.

ألا ترى أن العلماء بالشعر إنما احتجوا في تقديمه بأن قالوا: هو أول من شبَّه الخيل بالعِصيِّ، وذكر الوحش والطير، وأوّل من قيد الأوابدَ، وأول من قال كذا وقال كذا، فهل هذا التقديم إلا لأجل معانيه؟

وقال يونس النحوي: قدم علينا ذو الرمة من سفر، وكان أحسن الناس وصفا للمطر، فاختار قول امرىء القيس:

وَدِيْمَـةٌ هَـطْلاءُ فيـهـا وَطَـفٌ ... طَـبَقُ الأرْضِ تَحَـرَّى وَتُـدَرّ[1]

تُخْـرِجُ الـوَدَّ إذَا مَـا أَشْجَـذَتْ ... وَتُـوَارِيـهِ إذَا مَـا تَـشْتَـكِـرْ[2]

وقال صاحب كتاب شعراء النصرانية: إن هذا أحسن شعر جاء في وصف الغيث.

---

(١) الديمة: السحابة الماطرة بسكون دون برق ورعد. الهطلاء: كثيرة المطر. الوطف: استرخاء السحابة ودنوها من الأرض تحرى: تتحرى المكان. تدر: يكثر ماؤها.

(٢) الود: الوتد في لغة نجد. أشجذت: أقلعت وسكنت. تشتكر: تحتفل ويكثر مطرها.

وقال خلف الأحمر: لم أرَ بيتاً أفاد وأجاد وساد وزاد وقاد وعاد، ولا أفضل من قول امرىء القيس.

لَـهُ أَيْطَلا ظَبْيٍ وَسَـاقَا نَعَـامَـةٍ وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ، وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ[1]

فقد شبه أربعةَ أشياء بأربعةِ أشياء مع إحسانه في ذلك، فمما امتاز به امرؤ القيس حسن التشبيه ودقته.

وذكر ابن قتيبة أن أشرافاً من الناس والشعراء اجتمعوا عند عبد الملك بن مروان، فسألهم عن أرق بيت قالته العرب، فاجتمعوا على قول امرىء القيس:

وَمَـا ذَرَفَتْ عَيْنَاكِ إلا لِتَقْـدَحي بِسْهْمَيْكِ في أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

وقال الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن: وأنت لاتشكُّ في جودة شعر امرىء القيس،ولا ترتابُ في براعته، ولاتتوقفُ في فصاحته، وتعلم أنه قد أبدع في طُرق الشعر أموراً فيها من ذكر الديار، والوقوف عليها، إلى مايتصل بذلك من البديع في شعره، والتصرف الكثير الذي تصادفه في قوله، والوجوه التي ينقسم إليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومتانة ورقة وأسباب تحمد وأمور تؤثر وتمدح.

وروى ابن الكلبي أن قوما أقبلوا من اليمن، يريدون النبي صلى الله عليه وسلم، فضلوا، ووقعوا على غير ماء، ومكثوا ثلاثاً لايقدرون عليه، فجعل الرجل منهم يستذري بفيء السمر والطلح، فبينا هم كذلك، أقبل راكب على بعير، فأنشد بعض القوم بيتين من شعر امرىء القيس:

لَمَّـا رَأَتْ أَنَّ الشَّرِيعَـةَ هَمُّهَـا وَأَنَّ البيَاضَ مِنْ فَرائِصِهَا دَامي

تَيَمَّمَتِ العَيْنَ الَّتي عِنْدَ ضارِجٍ يَفيءُ عَلَيْهَا الظِلُّ عَرْمَضُها طَامي

---

(٢) الأيطل: الخاصرة والجمع أياطل وأطال. الإرخاء: نوع من سير الذئب. السرحان: الذئب. التقريب: وضع الرجلين موضع اليدين في العدو. التتفل: ولد الثعلب.

فقال الراكب: من يقول هذا الشعر؟

قال: امرؤ القيس.

قال: والله ماكذب! هذا ضارج عندكم، وأشار لهم إليه.

فأتوه فإذا ماء غَدَقٌ، وإذا عليه العرمض والظلُّ يفيىء عليه. فشربوا منه وارتووا. حتى إذا بلغوا النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبروه وقالوا: أحيانا بيتان من شعر امرىء القيس.

قال النبي: ذاك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها، منسي في الآخرة خامل فيها، يجيىء يوم القيامة ومعه لواء الشعراء يقودهم إلى النار.

وهي رواية مشهورة عند الاخباريين والأدباء، فقد أوردها ابن قتيبة في كتابيه عيون الأخبار، والشعر والشعراء. ورواها الأصفهاني في كتابه الأغاني، ونقلها ياقوت الحموي في معجم البلدان.

وذكره عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: سابق الشعراء، خسف لهم عين الشعر، فافتقر عن معان عور أصح بصرا.

فقد أعجب أبو عمرو بن العلاء، والأصمعي، وأبو عبيدة، وحماد الراوية بقوله «قيد الأوابد» في بيته:

وَقَدْ اَغْتَدِي وَالـطَّيْرُ في وَكَنَاتِهَا ... بِمُنْجَـرِدٍ قَيْـدِ الأوَابِـدِ هَيْكَـلِ

وتلك هي بعض الأقوال التي قيلت في شعر امرىء القيس، ولئن كان بعضها مُجْملاً عاماً، فقد اتصف البعض الآخر بالتفصيل والتعليل، فكانت خلاصات تعبر عن خصائصه.

الفصل الثاني

عمرو بن كلثوم

أ ـ حياته.

ب ـ شعره.

ـ معلقته

ـ أغراضه الشعرية الأخرى

عمرو بن كلثوم
١٩٠ ـ ٤٠ ق . هـ(*)
٤٣٤ ـ ٥٨٤ م

آ ـ حياته..

هو أبو عَبَّاد عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب التغلبي، وأمه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة، أخي كليب الذي يضرب به المثل في العز. وأم ليلى هندٌ بنتُ بعج بن عتبة بن سعد بن زهير[1] وهو من أصحاب المعلقات.

وكان عمرو بن كلثوم سيداً من سادات العرب، وشاعراً فارساً معدوداً من الفتاك العرب، وهو الذي فتك بعمرو بن هند، وأخوه مُرَّةُ هو الذي قتل المنذرَ بن النعمان، وابنُهُ عبَّادُ هو قاتلَ بِشْرَ بنَ عَمْرِو بن عُدَسَ[2].

(*) جاء في الأعلام للزركلي انه توفي حوالي سنة ٥٨٤م ونحو ٤٠ ق هـ في الصفحة ٨٤ ج٥ .
كما جاء في الموسوعة العربية صفحة ١٢٣٨ أنه توفي حوالي سنة ٥٨٤م.
(١) انظر الأغاني ٥٢/١١ ، وشرح المعلقات السبع للزوزني ١٥٦ .
(٢) الأغاني ٥٥/١١ ، وشرح المعلقات العشر للشنقيطي ٣٣ .

نبوءة جده وأمه . . في خبر عن النسَّابة الأخْذَرِ رواه رجل من بني تغلب من بني عتاب قال: لما تزوج مهلهل هِنْداً بنت بعج بن عتبة، أهديت إليه[1]، فولدت له ليلى بنت المهلهل. فقال مهلهل لمرأته هند: اقتليها، فأمرت خادما لها أن تُغيِّبها عنها. فلما نام مهلهل، هتف به هاتف يقول:

كَمْ مِنْ فَتىً يُؤَمَّلْ وَسَيِّدٍ شَمَرْدَلْ[2]
وَعُدَّةٍ لا تُجْهَلْ في بَطْنِ بِنْتِ مُهَلْهَلْ

واستيقظ فقال: ياهند! أين بنتي؟

قالت: قتلتها.

قال: كلا وإله ربيعه! ـ فكان أول من حلف بها ـ فأصدقيني ! فأخبرته.

فقال: أحسني غذاءها.

فتزوجها كلثوم بن مالك بن عتاب. فلما حملت بعمرو بن كلثوم قالت: إنه أتاني آت في المنام فقال:

يالَكِ لَيْلَى مِنْ وَلَدْ يُقْدِمُ إِقْدَامَ الأسَدْ
مِنْ جُشَمٍ فيهِ العَدَدْ أَقُولُ قِيلاً لا فَنَدْ[3]

فولدت غلا ما فسمته عمراً. فلما أتت عليه سنة قالت: أتاني ذلك الآتي في الليل، فإني أعرفه، فأشار إلى الصبي وقال:

---

(١) أهديت إليه العروس: زُفَّت إليه.
(٢) الشمردل : القوي الفتي الطويل الحسن الخَلْقِ .
(٣) قولاً بدلاً من قيلاً كما في رواية الشنقيطي .

إنّي زَعيمٌ لَكِ أُمَّ عَمْرو   بِمَاجِدِ الجَدِّ كَريمِ النَّجَرِ[1]
أَشْجَعَ مِنْ ذِي لِبَدٍ هِزَبْرِ   وَقَّاصِ أَقْرانٍ شَديدِ الأسْرِ[2]
يَسُودُهُمْ في خَمْسَةٍ وَعَشْرِ

قال الأخذر: فكان كما قال، ساد وهو ابن خمسة عشر، ومات وله مئة وخمسون سنة[3].

وكان عمرو بن كلثوم شجاعا، مظفرا، مقداما، وبه يضرب المثل في الفتك، فيقال: أفتك من عمرو بن كلثوم، وذلك لفتكه بعمرو بن هند. فقد أخبر ابن قتيبة قال: إن عمرو بن هند ـ وهو ملك الحيرة أنذاك ـ قال ذات يوم لندمائه: هل تعلمون أحداً مِن العرب تأنف أمه من خدمة أمي؟

فقالوا: نعم! أمُّ عمرو بن كلثوم.

قال: وَلِمَ؟

قالوا: لأن أباها مهلهلُ بن ربيعة، وعمُّها كُلَيْبُ أَعَزُّ العرب، وبعلها كُلْثومُ بن مالك أَفْرَسُ العرب، وابنها عمرو وهو سيِّدُ قومه.

فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره، ويسأله أنْ يُزِيرَ أُمَّهُ أُمَّهُ. فأقبل عمروٌ من الجزيرة إلى الحيرة في جَماعة بني تغلب، وأقبلت ليلى بنت مهلهل في ظعن. من بني تغلب.

---

(١) الماجد: السيد. النجر: الأصل.
(٢) اللبد: شعر الأسد الذي على كتفه. الهزبر: من أسماء الأسد. وقاص: من الوقص: الكسر والدق. شديد الأسر: غير مسترخ.
(٣) انظر الأغاني ١١/٥٢ ـ ٥٣.

وَأَمَرَ عمرو بن هند بِرِوَاقِهِ فَضُرِب فيها بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا في وجوه بني تغلب. فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رِواقه[1]، ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرِّواق.

وهند أم عمرو هذه هي عَمَّةُ امرىء القيس بن حُجْرٍ الشاعر. وكانت أمُّ ليلى بنت مهلهل، هندا بنت بعج أخي فاطة بنت ربيعة التي هي أم امرىء القيس، وبينهما هذا النسب.

وكان عمرو بن هند أَمَرَ أُمَّهُ أن تُنحِّيَ الخَدَمَ إذا دعا بالطرف[2] وتستخدمَ ليلى. فدعا عمرو بمائدة ثم دعا بالطرف. فقالت هند: ناوليني ياليلى ذلك الطبق.

فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها.

فأعادت عليها وألحت، فصاحت ليلى: واذلاه! يالتغلب!

فسمعها ابنها عمرو بن كلثوم، فثار الدم في وجهه، ونظر إليه عمرو بن هند فعرف الشرَّفي وجهه؛ فوثب عمرو بن كلثوم إلى سيفٍ لعمرو بن هند معلقٍ بالرِّواق ليس هناك سيفُ غيره، فضرب به رأس عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب، فانتهبوا ما في الرواق. وساقوا نجائبه[3]، وساروا نحو الجزيرة[4].

ففي ذلك يقول عمرو بن كلثوم معلقته:

أَلا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبِحينَا وَلا تُبْقِي خُمُورَ الأَنْدَرِينَا

---

(١) رواق: بكسر الراء وضمها: البيت من الشعر والوبر.

(٢) الطرف: أرديه من خز مربعة لها أعلام واحدها مطرف يضم الميم وكسرها وتجمع أيضاً على مطارف. وقيل: الطرف: جمع طرفة وهي الملحة ويراد بها هنا مايقدم بعد الطعام من حلوى وفاكهة انظر أدباء العرب لبطرس البساني ١٥٣/١ .

(٣) نجائب: جمع نجيبه وهي الكريمة من الإبل.

(٤) انظر الأغاني ٥٣/١١ ـ ٥٤ .

وكان قام بها خطيباً بسوق عُكَاظَ في موسم مكة. وبنو تغلب تعظِّمها جِداً، ويرويها صغارهم وكبارهم، حتى هُجُوا بذلك، فقال بعض شعراء بكر بن وائل يهجوهم:

أَلْهَى بني تَغْلِبٍ عَنْ كُلِّ مَكْرُومَةٍ   قَصِيدَةٌ قَالَهَا عَمْرُو بنُ كُلْثُومِ
يَرْوُونَهَا أَبَداً مُذْ كَانَ أَوَّلُهُمْ   يَا لَلرِّجَالِ لِشِعْرٍ غَيْرِ مَشْئُومِ

وقال أُفْنُونٌ صُرَيْمٌ التغلبي[1] يفخر بفعل عمرو بن كلثوم، في قصيدة له، منها قوله:

لَعَمْرُكَ مَاعَمْرُو بن هِنْدٍ وَقَدْ دَعَا   لِتَخْدُمَ لَيْلَى أُمَّهُ بِمُوفَّقِ
فَقَامَ ابنُ كُلْثُومٍ إلى السَّيْفِ مُصْلِتاً   فَأَمْسَكَ مِنْ نَدْمَانِهِ بِالْمُخَنَّقِ[2]
وَجَلَّلَهُ عَمْرٌو عَلَى الرأسِ ضَرْبَةً   بِذِي شُطَبٍ صَافِي الحَدِيدَةِ رَوْنَقِ[3]

وقال الفرزدق يرد على جرير في هجائه الأخطل التغلبي:

مَا ضَرَّ تَغْلِبَ وَائِلٍ أَهَجَوْتَهَا   أَمْ بُلْتَ حَيْثُ تَنَاطَحَ البَحْرَانِ
قَوْمٌ هُمُ قَتَلُوا ابْنَ هَنْدٍ عَنْوَةً   عَمْراً وَهُمْ قَسَطُوا عَلَى النُّعْمَانِ[4]

وكان لعمرو بن كلثوم أخ يقال له: مُرَّةُ بن كلثوم، فقتل المنذرَ بنَ النعمان وأخاه؛ وإياه عنى الأخطل بقوله لجرير:

أَبَنِي كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّيَّ الَّلذا   قَتَلا الْمُلُوكَ وَفَكَّكَا الأَغْلالا

---

(١) أُفنون: لقب صُرَيم.
(٢) مصلتا: أصلت السيف؛ جرَّده من غمده فهو مصلت بكسر اللام والسيف مصلت بفتحها.
(٣) شطب السيف: طرائقه في متنه من شدة بريقه والواحدة شطبة. الرونق: ماء السيف وصفاؤه وحسنه.
(٤) قسطوا: جاروا، ويقال: أقسط إذا عدل، وقسط: إذا جار، انظر الأغاني ١١/٥٤.

وكان لعمرو بن كلثوم ابن يقال له عَبَّادُ، وهو قاتل بشر بن عمرو بن عُدَسَ. ولعمرو بن كلثوم عَقِبٌ باقٍ، ومنهم كلثوم بن عمرو العتابي الشاعر صاحب الرسائل[1].

نشأ عمرو بن كلثوم بالجزيرة الفراتية بين ذوي الحسب واللباب من تغلب، وشبَّ على خلال العظماء عزيزَ النفس، أبيَّ الضيم، ذَرِبَ اللسان. وما كاد يناهز الخامسةَ عشرةَ من عمره حتى كان طريقةَ قومه وقائدَ قبيلته. وكان قطباً لرحى الحروب التي دارت بين بكر وتغلب من جراء البسوس، وأبلى فيها البلاء الحسن، حتى تصالح الحيان لآخر مَرَّة على يد عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة من آل المنذر[2].

وأما يوم التقاضي الذي يعتبر الباعث الرئيس لقول معلقه عمرو بن كلثوم فيتلخص في أن الملك المنذر والد عمر بن هند، أصلح بين قبيلتي بكر وتغلب بعد عداء دام أربعين سنة سميت بحرب البسوس، وخشي أن تعود القبيلتان إلى الاقتتال، فأخذ من كل حي منهما مئة غلام رهينة، حتى إذا اعتدت إحداهما على الأخرى أقاد[3] من الرهائن.

وحذا عمرو بن هند حذو أبيه في الارتهان، وصادف أن سير ذات يوم ركبا من تغلب وبكر إلى جبال طِّيءٍ في أمر من أموره، فنزلوا أرضا لبني شيبان أحلاف البكريين، وقيل إنهم أجلوا التغلبيين عن الماء، ودفعوهم إلى مفازة فتاهو وماتوا عطشا. فلما بلغ بني تغلب ذلك، غضبوا وطلبوا ديات أبنائهم من بني بكر، فأبت

---

(١) الأغاني ١١/٥٥ .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات ٦٤ .

(٣) أقاد: من القود وهي دية القتيل.

أداءها، فاحتكموا إلى عمرو بن هند، فقال لهم: ماكنت لأحكم بينكم حتى تأتوني بسبعين رجلا من أشراف بكر بن وائل فأجعلهم في وثاق عندي، فإن كان الحق لبني تغلب دَفَعْتُهم إليهم، وإن لم يكن لهم حق خليت سبيلهم.

ففعلوا وتواعدوا ليوم بعينه يجتمعون فيه. ولما كان يوم التقاضي انتدبت تغلب للدفاع عنها شاعرها وسيدها عمرو بن كلثوم. وانتدبت بكر للدفاع عنها أحد أشرافها وهو النعمان بن هرم.

وكان عمرو بن هند يؤثر التغلبيين على البكريين، ويميل إلى انصافهم، فجرى بينه وبين النعمان بن هرم جدال، غضب له الملك فطرد النعمان من حضرته. وأنشد عمرو بن كلثوم مطولته فافتخر على خصومه، مندفعا مع العاطفة في التبجج على ملك العراق، منددا به، مهددا إياه حتى أحفظه. ثم وقف الحرث بن حلِّزة البكري فردَّ عليه بمطولته، واستمال الملك بدهائه فحكم للبكريين[1].

ب ـ شعره ..

لم يصلنا من شعر عمرو بن كلثوم شيء يستحق الذكر غير المعلقة، وأما مابقي فأبيات ومقطعات قليلة، تتوزع على ثلاثة مواضيع:

آ ـ فمنها أبيات في الافتخار بنفسه وبقومه.

ب ـ ومنها في مدح يزيد بن عمر بن شِمْرٍ.

ج ـ ومنها ماجاء في هجاء عمرو بن هند، والنعمان أبي قابوس[2].

---

(١) انظر أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام لبطرس البستاني ١٥٢/١ .

(٢) أنظر أدباء العرب لبطرس البستاني ١٥٧/١ .

وهو في شعره كله غَمْرُ البديهة، رائق الأسلوب، نبيل الغرض، إلا أنه شاعر مُقِلٌّ حسب ماوصل إلينا، ولأنه لم يتقلب في فنون الشعر، فلم يرخ العنان لسليقته، ولم يطع لسان قريحته[1].

معلقته ..

تعتبر معلقة عمرو بن كلثوم الخامسة بين المطولات، وهي تتجاوز المئة بيت، وقد مرّ معنا أنه وقف بها خطيباً في سوق عكاظ وفي موسم مكة. ويستدل من دراستنا لأبيات المعلقة أنها بنيت على قسمين، نظما في زمانين متباعدين؛ أحدهما يوم التقاضي، والآخر بعد مقتل عمرو بن هند[2]. ويمكننا أن نستأنس بالبيت التالي إلى ماذهبنا إليه، وهو قوله مخاطبا عمرو بن هند:

تُهَــدِّدُنَــا وَتُــوعِــدُنَــا رُوَيْــداً مَــتَى كُنَّــا لأمِّــكَ مَـقْـتَـوِينَـا

وقوله: متى كنا لأمك مقتوينا أي خادمين، أظنه تفسيراً لقصة ليلى وهند.

في حين أن الأصمعي يزعم أنها قيلت يوم التحكيم دفعة واحدة، ويدعم هذا الرأي تتبعنا المعلقة إلى آخرها بعد الأبيات التي يأتي فيها ذكر عمرو بن هند، نرى أنها متصلة كل الاتصال بيوم التقاضي، فيها مفاخرة بالقبيلة ومنافسة للبكريين كما تقضي شروط المنافرة والتحكيم في العصر الجاهلي، مما يؤيد أن المعلقة قيلت دفعة واحدة كما ذكر الأصمعي[3].

ويمكننا أن نتفحص المعلقة بصورة سريعة فنرى أنها تتألف من الأقسام التالية:

---

(١) أنظر تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات ٦٤ .
(٢) أنظر أدباء العرب لبطرس البستاني ١/١٥٨ .
(٣) المرجع السابق ١٥٩ .

١ - يبتدىء الشاعر عمرو بن كلثوم معلقته بوصف الخمرة وتأثيرها في شاربيها، موجهاً قولَه إلى الساقيه يحضها على أن تُقدم لهم شراب الصبوح بقدحها الكبير، وينهاها ألا تدخرَ خمورَ الأندرين، ممزوجة بالماء، مصبوغة بالورس، تردّ صاحب الحاجة عن حاجته ذاهلاً عنها وتنسيه همومه فيلين ويسلس، ويرخص كل شيء أمام مذاقها فحتى البخيل يبذل ماله حالما تُدار عليه.

ثم يعتبُ على هذه الساقية التي صرفت عنهم الكؤوس، ويناديها هذه المرّة بكنيتها «أمّ عمرو» فكانت الكؤوس تدار على اليمين، فأجرتها على اليسار، وهو ليس شر الثلاثة الذين تسقيهم، فلِمَ أخرته؟ وتركت سقايته شراب الصبوح؟ فرب كأس شربها ببعلبكّ وأخرى في دمشق وثالثة في قاصرين، فلا تثريب عليهم لأن المنايا ستطالهم، فهي مرسومة بمقدار ومُعدّة على قدر يقدرونه بأنفسهم:

أَلا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبحينَا ... وَلا تُبْقِي خُمُورَ الأَنْدَرِينَا[1]

مُشَعْشِعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فِيهَا ... إِذَا مَا المَاءَ خَالَطَهَا سَخينا[2]

تَجُوزُ بِذي اللُّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ ... إِذَا مَاذَاقَهَا حَتىّ يَلينَا[3]

تَرَى اللَّحِزَ الشَّحيحَ إِذَا أُمِرَّتْ ... عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهينَا[4]

صَبَنْتِ الكَأسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو ... وَكَانَ الكَأْسُ مَجْرَاهَا اليَمينَا[5]

وَمَا شَرُّ الثَّلاثَةِ أُمَّ عَمْرٍو ... بِصَاحِبِكِ الَّذي لا تَصْبَحِينَا

---

(١) هب: استيقظ. الصحن: القدح الكبير أو العظيم والجمع صحون. الصبوح: شراب الصبح عكس الغبوق. الأندرين: من قرى الشام.

(٢) شعشع الشراب: إذا مزج بالماء. الحص: الورس وسخين: حار أو من السخاء.

(٣) تجوز: تميل. اللبانة: الحاجة.

(٤) اللحز: الضيق الصدر. الشحيح: البخيل.

(٥) صبنت: صرفت والفعل صبن يصبن.

وَكَـأْسٍ قَـدْ شَـرِبْتُ بِبَعْلَبَـكٍّ   وَأُخْـرى في دِمَشْقَ وَقَـاصرِينَـا[1]
وَإنَّـا سَـوْفَ تُـدْرِكُنَا المَنَـايَـا   مُـقَـدَّرَةً لَـنَـا وَمُـقَـدِّرِيـنَـا

ثم ينتقلُ بعد هذه المقدمة الخمرية إلى الغزل، ويرى بعض الدارسين أن مطلع القصيدة يبتدىء في هذا القسم الغزلي، ولكن هكذا وردتنا المعلقة. يبتدىء هذا القسم؛ فيستوقف صاحبته ليحدثها عن شؤون الحرب وأهوالها شأنه في ذلك شأن الشعراء الفرسان، قبل أن تقسوا عليهم سطوة التفرق. ثم ينثني ليسألها هل أحدثت صرماً؟ أو خانت عهداً؟ لذاك الذي يؤتمن على حبها، وهل دعتها سرعةُ التفرق إلى القطيعة أو الخيانة، ثم يعود إلى حديث الحرب ليخبرَها بيوم كثُرَ فيه الضرب والطعن حتى أقرَّ مواليك عيونهم وفازوا ببغيتهم، والأيام رهن بما لايحيطه علمك.

ثم ينتقل ليصف لنا هذه المرأة الظاعنة، والتي لو دخلْتَ عليها بعيداً عن عيون الحساد لشاهدْتَ ذراعيها البضتين الجميلتين، وصدراً ممتلئا بثديين نافرين كحقين من العاج طاهرين لم يمسَّهما إنس ولاجان، وقامةً هيفاء سامقة الطول، وردفين ممتلئين ثقيلين يُعيقانها عن النهوض. وتُريك وركاً يضيق الباب عند دخولها عنها لعظمها وضخامتها، إنه وركٌ استباه وخلب لبه فجنَّ به جنوناً. وتريك ساقين أملودين كأسطوانتين من عاجٍ أو رخام بياضاً ورونقاً وريّا، وتسمع لهسهسة الخلاخِل عليهما رنيناً مستحباً يأسرُ الألباب.

ثم يصف لنا بعد ذلك حُزنه لفراق هذه الغادة الموصوفة حزناً لايُدانيه حزنُ ناقةٍ أَضَلَّت ولدَها وردَّدت صوتَها مع توجعها في طلبه، ولاحزن عجوز شمطاء

[1] بعلبك ودمشق وقاصرين: قرى بالشام.

فقدت أولادَها التسعةَ وقد غيبتهم القبورُ يداني حزنَه على فراق محبوبته الغائبة ومعشوقته الظاعنة.

ثم يعود بنا الشاعر ليستعرضَ شريطَ الصبا الندي حينما رآها في هودجها ظاعنةً، فتذكر أيام العشق والهوى الخوالي، وشدُّه الشوق إليها عند الأصائل حيث تصفو النسائم والنفوس، وترقُّ القلوب وتبتل المآقي، حتى بدت لنا قرى اليمامة وارتفعت أمام أعيننا كأسياف بأيدي رجال:

قِفِي قَبْلَ التَّفَرُّقِ يَا ظَعِينا ... نُخَبِّرْكِ اليَقِينَ وتُخْبِرِينَا![1]
قِفِي نَسْأَلْكِ هَلْ أَحْدَثْتِ صَرْماً ... لِوَشْكِ البَيْنِ أَمْ خُنْتِ الأمينَا؟[2]
بِيَوْمِ كَرِيهَةٍ، ضَرْباً وَطَعْناً ... أَقَرَّ بِهِ مَوَالِيكِ العُيُونَا[3]
وَإِنَّ غَداً، وَإِنَّ اليَوْمَ رَهْنٌ ... وَبَعْدَ غَدٍ بِمَا لا تَعْلَمينا
تُرِيكَ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى خَلاءٍ ... وَقَدْ أَمِنَتْ عُيُونَ الكاشحينا[4]
ذِرَاعَيْ عَيْطَلٍ أَدْمَاءَ بِكْرٍ ... هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنينا[5]
وَثَدْيَاً مِثْلَ حُقِّ العاجِ رَخْصاً ... حَصَاناً مِنْ أَكُفِّ اللامِسينا[6]

---

(١) ياظعينا: منادى مرخم، والظعينة: المرأة في الهودج، من ظعنت مع زوجها: إذا سافرت وغادرت. فهي معيلة بمعنى فاعله، وشاع استعمالها حتى اطلقت على المرأة عامة حتى وهي في بيت زوجها.

(٢) الصرم: القطيعة بفتح الصاد وضمها. الوشك: السرعة.

(٣) الكريهة: اسم من أسماء الحرب والجمع كرائه. (طعناً وضرباً): منصوبان على المصدريه.

(٤) الكاشح: المضمر العداوة في كشحه (والكشح موضع الكبد).

(٥) العيطل: الطويلة العنق من النوق. الأدماء: البيضاء منها. البكر: الناقة الفتية. هجان اللون: بيضاء خالصة البياض. لم تقرأ جنينا: لم تحمل في رحمها ولدا.

(٦) رخصا: ليناً. حصانا: عفيفة.

وَمَتْنَيْ لَـدْنَـةٍ سَمَقَتْ وَطَـالَتْ رَوَادِفُهَـا تَنُـوءُ بِمَـا وَلِـيـنَـا[١]
وَمَـأكَمَـةٍ يَضِيقُ البَـابُ عَنْهَـا وَكَشْحاً قَدْ جُنِنْتُ بِهِ جُنُونَـا[٢]
وَسَـارِيَـتَي بِـلَنْطٍ أَوْ رُخَـامٍ يَـرِنُّ خَشَـاشُ حَلْيهِـمَا رَنِينَـا[٣]
فَمَا وَجَدَتْ كَـوَجْدِي أُمُّ سَقْبٍ أَضَـلَّتْـهُ فَـرَجَّعَتِ الحَنِيـنَـا[٤]
وَلا شَمْطَاءُ لَمْ يَتْرُكْ شَقَـاهَـا لَهَـا مِنْ تِسْعَـةٍ إلا جَنِينـا[٥]
تَـذَكَّـرْتُ الصِّبَـا وَاشتَقْتُ لَمَّـا رَأَيْتُ حُمُولَهَا أُصُـلاً حُـدينا[٦]
فَـأعْـرَضَتِ اليَمَـامَـةُ واشْمَخَـرَّتْ كَـأَسْيَـافٍ بِـأَيْـدِي مُصْلَتِينَـا[٧]

وينتهي هنا القسم الأول من المعلَّقة وقد تضمَّن وصفَ الخمرة وتأثيرَها في شاربها، ثم وصف صاحبته: ذراعيها وصدرَها وقامَتها وحمائل ظعنها وشوقَه إليها، وانتقل بعد ذلك إلى القسم الثاني الذي قالَهُ في قصر عمرو بن هند. إذ بدأ بمخاطبته مباشرة وأخذ في الافتخار والتهديد والوعيد، ويستغرق هذا القسم واحداً

---

(١) اللدن: اللين والجمع لدن والمعنى: أي ومتني قامة لدنه. السموق: الطول والفعل سمق يسمق الرادفتان والرانفتان: فرعا الاليتين والجمع روادف. تنوء: تنهض في تثاقل. الولى: القرب من ولي يلي.
(٢) المأكمة: رأس الورك والجمع مآكم. الكشح: ما بين الخاصر إلى الضلع أي الخصر.
(٣) السارية: الاسطوانة وكنى بها عن الساق. البلنط: العاج. خِشاش: صوت الحلى.
(٤) السقب: ابن الناقة. وأم السقب: الناقة. وجدت: من الوجد الحزن. الترجيع: ترديد الصوت. الحنين: صوت المتوجع.
(٥) الشمط: بياض الشعر، والشمطاء: العجوز المسنة. الجنين: هنا المستور في القبر جَنَّ وأجَنَّ.
(٦) حمول: جمع حامل وهي الابل التي تحمل عليها الظعائن. أصلا: جمع أصيل وهو وقت الأصيل. حُديثا: من الحُداء أمام الابل لحثها على السير.
(٧) اعرضت: ظهرت. اشمخرت: ارتفعت. أسياف: جمع قلة لسيف. أصلت السيف: إذا سلّه من غمده.

وثلاثين بيتاً من البيت الثالث والعشرين إلى البيت الثالث والخمسين حسب رواية الزوزني [1].

ونلمس في هذا القسم من المعلَّقة فَخْرَ عمروٍ بن كلثوم وحماستَهُ، فهو سيِّدٌ في قومه، يعتزُّ بسيادته وسيادةِ قبيلته، وينتصرُ لتلك السيادة نزقاً حاداً لايوقف انْدفاعَهُ شيءٌ، وَلا يَحْتَرِمُ حضورَ الملك، ولايُقيمُ له كبيرَ وزْنٍ. فتراه مندفعَ العَاطفة حتى الغلُّو المُتَطَرِّفِ كقوله:

مَتَى نَنْقُلْ إلى قَوْمٍ رَحَانَا　　يَكُونُوا في اللِّقَاءِ لَهَا طَحِينَا
يَكُونُ ثِفَالُهَا شَرْقِيَّ نَجْدٍ　　وَلُهْوَتُهَا قُضَاعَةَ أَجْمَعِينَا

ونلمس في هذا القسم الصِّلَةَ الواضحة بين شعره وشعر جَدِّه المهلهل، إذْ يخرجه فخراً وحماسةً متمازجين، يُعْمِلُ خياله التصويري قليلاً، وأقل منه عمل الفكر والصنعة، وتراه شعوراً متدفقا، وحميَّةً تشتعل، ونفساً ثائرة تتخطى الحواجز والحدودَ، لايوقف تدفقَها شيءٌ، مرتديةً من الألفاظ ثوباً نسجتْه على هواها، لم تمتدّ إليه يَدُ صَناعٍ فتشدّ سداه ولحمته، وتحكم وَشْيَهُ وتخطيطه، فخرج على سجيته من حَسَنٍ ورديء كقوله[1]:

بِأَنَّا نُورِدُ الرَّايَاتِ بيضاً　　وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قَدْ رَوينَا[2]
وَأَيَّامٍ لَنَا غُرٍ طِوَالٍ　　عَصِينَا المَلْكَ فيها أَنْ نَدِينَا

ولو دقَّقنا شعره لوجدناه عصبيَّ المزاج في تركيبه، تتدافع حروفه تدافعَ الأمواج الجائشة، فيها صخبٌ ولينٌ، وعودٌ وتكرار، وتفككٌ واتصالٌ، لكنه إجمالاً يصدر عن نفس غذّاها العزّ، وأشبعها المجدُ، فتدفقت تلك النفس تدفق

---

(١) انظر شرح المعلقات السبع للزوزني ١٥٧ - ١٧٠ .
(٢) ادباء العرب لبطرس البستاني ١٥٩/١ .

سيلٍ هائج تقذف بكل ما جاش في داخلها ، وإذا ذلك الشعر مندلعٌ صاحبٌ فيه ثورةُ العاطفة وهياجُ الفكر وجموحُ الخيال ، كقوله :

نَعُمُّ أُنَاسَنَا وَنَعِفُّ عَنْهُمْ وَنَحْمِلُ عَنْهُمُ مَا حَمَّلُونَا[2]
نُطَاعِنُ مَا تَرَاخَى النَّاسُ عَنَّا وَنَضْرِبُ بِالسُّيُوفِ إذَا غُشِينَا
بِسُمْرٍ مِنْ قَنَا الخَطِّيِّ لُدْنٍ ذَوَابِلَ ، أوْ بِبِيضٍ يَخْتَلِينَا[3]
كَأَنَّ جَمَاجِمَ الأَبْطَالِ فِيهَا وُسُوقٌ بِالأَمَاعِزِ يَرْتَمِينَا[4]
نَشُقُّ بِهَا رُؤُوسَ القَوْمِ شَقّاً وَنَخْتَلِبُ الرِّقَابَ فَتَخْتَلِينَا[5]

وإذا ، انتقلنا إلى القسم الأخير من المعلقة ، وهو القسم الذي قاله بعد قتلِ الملك عمرو بن هند ، والثورة عليه لوجدناهُ يستغرق الأبيات الخمسين الباقية ، وفيها يفخر فخراً يتجاوز كلَّ حدٍّ ، وفيها انتفاضٌ ورفض قاطع لقبول العار ، فإذا الأفكار تطفرُ طفراً ، وتتكررُ ، ولا تخضعُ لنظام غيرَ نظام العاطفة الجامحة ، ومنطق الكبرياء العارمة التي لا تعرفُ لكلامها حداً ، واندفاعة الخيال الجامح الذي لا ينطق إلاّ مُغالياً غلواً مَلْحَمِيّاً ، في نَفَسٍ شِعري ملحميّ ؛ فهم ملأوا البرَّ والبحرَ حتى ضاقتْ بهم ، وأصبحت الدنيا ومن عليها ملكَ أيمانهم يبطشون متى شاؤوا وينعمونَ وقت ما يرغبون ، لدرجة أن صبيَّهم حال فطامه يُصبحُ ملكاً سيداً فتسجدُ له بقية الملوك والجبابرةُ في هذا الكون :

---

(١) أدباء العرب لبطرس البستاني ١٥٩/١ .
(٢) نعم : نُنْعِمُ .
(٣) السمر: صفة الرماح . الخطي : منسوبة الى الخط حيث تصنع الرماح . لدن : لينة وهي صفة مستحبة في الرماح . بيض : صفة للسيوف نابت عن الموصوف . يختلينا : يقطعن .
(٤) وسوق : جمع وسق وهو حمل بعير . الأماعز : كثرة الوعر في الأرض .
(٥) اختلب : قطع الشيء بالمخلب أو المنجل . الاختلاء : قطع الرطب .

مَـلأنَـا الـبَرَّ حَتَّى ضَـاقَ عَنَّـا وَظَـهْـرَ البَـحْـرِ نَمْلَؤُهُ سَـفِينَـا
لَنَـا الدُّنْيَـا وَمَنْ أَضْحَى عَلَيْهَـا ونَبْـطِشُ حِـينَ نَبْطِشُ قَـادِرِينَا
إِذَا بَـلَغَ الفِـطَامَ لَنَـا صَبِيٌّ يَخِـرُّ لَـهُ الجَبَـابِرُ سَـاجِدِينَـا

وخياله المُغالي يتَّخذ الأسلوبَ القَصَصي والتصويرَ الحسي على ما نشهده في أُسلوب الملاحم[1] . وإذا تابعنا أبيات المعلقة فواجدون حتماً إرثه عن جَده المهلهل أكثر ميزاته ، ولوجدناها معرضاً من معارض الحياة الجاهلية آنذاك ، فهو يذكر لنا مثلاً كيف كانت النساء تتبع الرجال في الحروب ، وتقوتُ جيادهم ، وتحثُهم على الصبر في القتال :

عَـلَى آثَـارِنَـا بِـيضٌ حِـسَـانٌ نُحَـاذِرُ أَنْ تُقَـسَّمَ أَوْ تَهُـونَـا
أَخَـذْنَ عَـلَى بُعُـولَتِهِنَّ عَهْـداً إِذَا لاقَـوْا كَتَـائِبَ مُعْلِمِـينَـا[2]
يَقُتْنَ جِيَـادَنَـا ، وَيَقُلْنَ لَسْتُمْ بُعُـولَتَنَـا إِذَا لَمْ تَمْـنَـعُـونَـا

ويطلعنا في هذه المعلقة على شيءٍ من صناعات العرب ، وملاهي أولادهم ، وتصوير الحياة البدوية ، وما فيها من كرٍ وفرٍ ووصفٍ للخيل الجياد والدروع السابغة ، والسيوف اليمانية :

يُـدَهْدُونَ الـرُّؤُوسَ كَمَا تُـدَهْدَى حَـزَاوِرَةٌ بِـأَبْـطَحِهَـا الكُـرِينَا[3]
عَلَيْنَـا البِيْضُ وَالـيَلَبُ الـيَمَانِي وَأَسْـيَـافٌ يَقُـمْنَ وَيَـنْحَـنِينَـا[4]

---

(١) تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري ١٢٢ .
(٢) انظر شرح المعلقات السبع للزوزني ١٧٧ .
(٣) يدهدون : يدحرجون . الحزاورة : جمع الحزور وهو الغلام الشديد . الأبطح : المكان المطمئن من الأرض . الكرينا : الكرات .
(٤) البيض : الخوذ على الرأس . اليلب : سيور جلدية تلبس تحت الخوذة .

عَلَيْنَا كُلُّ سَابِغَةٍ دِلَاصٍ تَرَى فَوْقَ النِّطَاقِ لَهَا غُضُونَا[1]
وَتَحْمِلُنَا غَدَاةَ الرَّوْعِ جُرْدٌ عُرِفْنَ لَنَا نَقَائِذَ وَافْتُلِينَا[2]

ولو دقّقنا النظر في أبيات هذه المعلقة ، لوجدنا عاطفةَ الشاعر تتبدّى في معناها ومبناها ، فألفاظها تجري كخيولٍ في ميدان سباق ، لكنها ليّنةٌ سهلة لأنها تنبعث من وحي العاطفة الثائرة التي يضيقُ بها الوقت عن الاختيار والتنقيح[3] .

ومن مجموع هذه الألفاظ تتصاعدُ موسيقى حربيةٌ مؤثرة ، وكأن قصيدته نشيدٌ قومي حماسي ، نُظِمَ لينشدَهُ جمهورٌ ، لافرد . وقد تغنّى الشاعر بجميع المثل التي يفتخر بها العرب الجاهليون من كرم وعزة وذود عن الجار ، ويذكر الجدود ويعددهم :

وَرِثْنَا مَجْدَ عَلْقَمَةَ بنِ سَيْفٍ أَبَاحَ لَنَا حُصُونَ المَجْدِدِينَا
وَرِثْتُ مُهَلْهِلاً وَالخَيْرَ مِنْهُ زُهَيْراً نِعْمَ ذُخْرِ الذَّاخِرِينَا
وَعَتَّاباً وَكُلْثُوماً جَمِيعاً بِهِمْ نِلْنَا تُرَاثَ الأَكْرمينا
وَذَا البُرَةِ الَّذي حُدِّثْتَ عَنْهُ بِهِ نُحْمَى وَنَحْمِي المُحجَرِ يِنَا
وَمِنَّا قَبْلَهُ السَّاعِي كُلَيْبٌ فَأَيُّ المَجْدِ إلَّا قَدْ رَوينَا
وَنُوجَدُ نَحْنُ أَمْنَعُهُمْ ذِمَاراً وأَوْفَاهُمْ إذَا عَقَدُوا يَمِينَا[4]
نَحْنُ غَدَاةَ أُوْقِدَ في خَزَازَى رَفَدْنَا فَوْقَ رِفْدِ الرَّافِدينَا[5]

---

(١) سابغة : الدرع الواسعة . الدلاص : البراقة . الغضون : جمع غضن وهو التجعد .
(٢) الروع : الحرب والفزع . الجرد : الخيل التي قصر شعر جسدها . النقائذ : جمع منقذة المخلّصة من الأعداء . الغلو والاختلاء : الفطام .
(٣) انظر تاريخ الأدب لحنا الفاخوري ١٢٢ .
(٤) الذمار : العهد والذمة .
(٤) خزازى : مكان بعينه ويقصد : نحن غداة أوقدت نار الحرب في خزازى أعنا نزاراً فوق إعانة المعينين .

وتعتبرُ هذه المعلقة أغنى الشعر الجاهلي على الإطلاق بالعناصر الملحمية ، والفوائد الاجتماعية والتاريخية ، وقد بلغت هذه المعلقة على منزلتَها الأدبية ، منزلةً قومية ، لم تبلغها قصيدةٌ سواها ، وامتدحها النقادُ والدارسون منذ القدم وحتى اليوم ، فقد قال المفضل الضبي عنها : لله در عمرو بن كلثوم لو أنه رغب في ما رغب فيه أصحابه من كثرة الشعر ! ولكن واحدته أجود من مئتهم .

وروى أبو زيد القرشي في جمهرته عن عيسى بن عمر قوله : لو وضعت أشعار العرب في كفة ، وقصيدة عمرو بن كلثوم في كفة لمالت بأكثرها .

أغراضه الشعرية الأخرى :

تعتبر معلقةُ عمرو بن كلثوم ذات شهرة واسعة في دنيا الأدب القديم ، لما فيها من نَفَسٍ شعريٍ ملحمي ، يُسطِّر أمجاد قبيلة كانت من أكبر القبائل العربية ، وكان بنو تغلب صغاراً وكباراً يحفظونها ، ويتغنون بها ، لأنها حوت أمجادَهم القومية ، وحماستَهم القبلية ، ومفاخرَهم العربية . أمَّا في العصر الحديث فقد نالت حظاً وافراً من الدراسة والطباعة ، وقد تُرجمت إلى الألمانية والفرنسية والانكليزية واللاتينية .

وأمَّا بقيةُ شعره ، فأكثره في الفخر ، وأقلُّه في المدح والهجاء[1] . فالفخرُ عند عمرو بن كلثوم يُظهر لنا شخصيته البدوية في تيهها وكبرها واعتدادها ، في تهوُّرها واندفاعها وغليان مشاعرها . وفخره يخرج بصورة جلية ليعبرَ عن نفسية سيدٍ عربي عريق يستأثر بالفضائل الجاهلية ، والقيم البدوية ، ويتكلم بصيغة الأنا والنحن ؛ أنانياً بصيغة المفرد ، أميراً بصيغة الجمع ، مناقبه غنيةٌ في ذاته ، ومناقبُ قومه

---

(١) تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري ١٢٠ .

مردودة إليه[1] . وزعموا أن بني تغلب حاربوا المنذر بن ماء السماء فلحقوا بالشام خوفاً منه ، فمر بهم عمرو بن أبي شمر الغساني ، فتلقاه عمرو بن كلثوم ، فقال له : يا عمرو ! ما منع قومك أن يتلقوني ؟

فقال له : يا عمرو يا خير الفتيان ! فإن قومي لم يستيقظوا لحرب قط إلا علا فيها أمرهم ، واشتد شأنهم ، ومنعوا ما وراء ظهورهم[2] .

فقال له[3]: كأنك تتوعدني! أما والله لتعلمن إذا جالت غطاريف غسان الخيلَ في دياركم ، أن أيقاظ قومك سينامون نومة لا حلم فيها ، تجتث أصولهم ، وينفي فلَّهم[4] إلى اليابس الجرد والنازح الثمد[5] فانصرف عمرو بن كلثوم وهو يقول :

أَلَا فَـاعْلَمْ ؛ أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَنَّـا عَـلَى عَمْـدٍ سَنَـأْتِي مَـا نُـرِيـدُ
تَـعَـلَّمْ ؛ أَنَّ مَحْـمَـلَنَـا ثَـقِيـلٌ وَأَنَّ زِنَـادَ كَبَّـتِنَـا شَـدِيـدُ[6]
وَأَنَّـا لَـيْسَ حَيٌّ مِـنْ مَـعَـدٍّ يُـوَازِينَـا إِذَا لُـبِسَ الحَـدِيـدُ

وفي فخره يبذلُ المال ولا يبالي ، فإذا لامته العاذلة وحذرته من العوز ، أراها مُهْرَهُ يكرُّ على الأحياء يغزو ويغنم :

يُخْلِفُ المَـالَ ، فَـلَا تَسْتَيْئِسِي ، كَرِّيَ المُهْرَ عَلَى الحَيِّ الحِلَالِ[7]

(١) أدباء العرب لبطرس البستاني ١/١٦٠ .
(٢) انظر الأغاني ١١/٥٧ .
(٣) أما التكملة فهي من الكامل لابن الأثير .
(٤) الفلّ : القوم المنهزمون .
(٥) الجرد : الأرض التي لا تنبت . الثمد : الماء القليل الذي لا مادّ له .
(٦) الكبة : بفتح الكاف الحملة في الحرب والدفعة في القتال .
(٧) الحي الحلال : القوم النازلون في مكان .

«والعاذلة في الشعر العربي شخص رمزي يقرعُ أبوابَ الفخر والمدح والغزل ، يلومُ المفتخر والممدوح والعاشق على الإتلاف والتبذير وإلقاء النفس في المخاطر ، وعلى التمادي في الصِبا والغواية ، فيردُّه الأول والثاني ، ويرده الثالث لا يقبلون منه نُصحا ، وفي ذلك منتهى الكرم والشجاعة والهيام ، وقد رد عمرو بن كلثوم عاذلته :

لَا تَلُومِينِي ، فَإِنِّي مُتْلِفٌ ... كُلَّ مَا تَحْوِي يَمِينِي وَشِمَالِي

وحقيقٌ بمثله أن يردَّها ، فعنوان الكرم عندهم عذل ورد . ونفسه الجبارة يطيب لها أن تتحدث بأَنَا عن كرمها وبأسها ، كما تتحدث بنحن عن مفاخر قومها . وفي هذا وذاك لا تتحرَّج أن تغالي وتُفرِط في المغالاة حتى الكذب»[1] .

وَنَحْنُ الحَابِسُونَ بِذِي أَرَاطَى ... تَسَفُّ الجِلَّةُ الخُورُ الدَّرِينَا
وَنَحْنُ الحَاكِمُونَ إِذَا أُطِعْنَا ... وَنَحْنُ العَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا
وَنَحْنُ التَارِكُونَ لِمَا سَخِطْنَا ... وَنَحْنُ الآخِذُونَ لِمَا رَضِينَا[2]

وأما مدحه على قِلَّته فهو يمثل شخصَه خيرَ تمثيل ، وقصته مع يزيد بن عمرو بن شِمْرٍ سيد بني سُحَيْمٍ من بني حنيفة ، حينما أسره هذا ، ثم سار به حتى أتى قصراً بِحَجْرٍ من قصورهم ، وضرب عليه قبة ، ونحر له ، وكساه وحمله على نجيبة وسقاه الخمر ، فلما أخذت برأسه تغنى :

أَأَجْمَعَ صُحْبَتِي السَّحَرَ ارْتِحَالاَ ... وَلَمْ أَشْعُرْ بِبَيْنٍ مِنْكِ هَالاَ[3]
وَلَمْ أَرَ مِثْلَ هَالَةَ فِي مَعَدٍّ ... أُشَبِّهُ حُسْنَهَا إِلَّا الهِلاَلاَ

---

(١) أدباء العرب للبستاني ١/١٦٠ .
(٢) شرح الزوزني ١٧١ .
(٣) هالا : منادى مرخم من هالة وقد حذف أداة النداء .

أَلَا أَبْلِغْ بَنِي جُشَمَ بنِ بَكْرٍ ... وَتَغْلِبَ كُلَّمَا أَتَيَا حِلَالَا[1]

بِأَنَّ المَاجِدَ القَرْمَ ابنَ عَمْرٍو ... غَدَاةَ نَطَاعِ قَدْ صَدَقَ القِتَالَا[2]

كَتِيبَتُهُ مُلَمْلَمَةٌ رَدَاحٌ ... إِذَا يَرْمُونَهَا تُفْنِي النِّبَالَا[3]

جِزَى اللهُ الأَغَرَّ يَزِيدَ خَيْراً ... وَلَقَّاهُ المَسَرَّةَ وَالجَمَالَا

بِمَأْخَذِهِ ابْنَ كُلْثُومِ بنِ عَمْرٍو ... يَزِيدَ الخَيْرِ نَازَلَهُ نِزَالَا

بِجَمْعٍ مِنْ بَنِي قُرَّانَ صِيدٍ ... يُجِيلُونَ الطِّعَانَ إِذَا أَجَالَا[4]

يَزِيدُ يُقَدِّمُ السُّفَرَاءَ حَتَّى ... يُرَوِّي صَدْرَهَا الأَسَلَ النِّهَالَا[5]

أما هجاؤه فعلى قِلَّته ، انْصَبَّ على النعمان بن المنذر بالذات ، فقد بلغ عَمْرَو بن كلثوم أن النعمان بن المنذر يتوعده ، فدعا كاتباً من العرب ، فكتب إليه :

أَلَا أَبْلِغ النُّعْمَانَ عَنِّي رِسَالَةً ... فَمَدْحُكَ حَوْلِيٌّ وَذَمُّكَ قَارِحُ[6]

مَتَى تَلْقَنِي فِي تَغْلِب ابْنَةَ وائِلٍ ... وَأَشْياعِهَا تَرْقَى إِلَيْكَ المَسَالِحُ[7]

وقد هجاه مرة أخرى يعيِّره بأُمِّه سلمى التي تنقلت من يد إلى يد ومن قوم إلى قوم ، فهي منحدرة من أصول دنيئة ومن طبقة الصناع ، لذلك فلا يوجد أحراس على بابها ، ولا تتشح بالحرير والخز كبقية الحرائر ، وإنما تمشي بمخازيها يحف بها اللؤم كما يمشي المقيد على أرض مفروشة بالشوك والحاج :

---

(١) حلالا : بكسر الحاء مجتمع البيوت ومجتمع القوم .

(٢) نطاع : إسم أرض .

(٣) الكتيبة : فرقة من الجيش . ململمة : مجتمعة . رداح : ثقيلة جرارة .

(٤) قران : حصن باليمامة .

(٥) الأغاني ٥٧/١١ .

(٦) الحولي : ما أتى عليه الحول . القارح : الذي شق نابه .

(٧) المسالح : جمع مسلحة وهي القوم ذوو سلاح .

حَلَّتْ سُلَيْمَى بخَبْتٍ بَعْدَ فِرْتَاجِ   وَقَدْ تكُون قَديماً في بَني نَاجِ[1]
إذْ لَا تُرَجِّي سُلَيْمَى أَنْ يَكُونَ لَهَا   مَنْ بِالخَوَرْنَقِ مِنْ قَيْنٍ وَنَسَّاجِ[2]
وَلَا يَكُـون عَـلَى أَبْـوَابِهَـا حَـرَسٌ   كَـمَا تَلَفَّفُ قِبْـطِيٌّ بِـدِيبَـاجِ
تَمْشي بِعِدْلَيْنِ مِنْ لُؤْمٍ وَمَنْقَصَةٍ   مَشْيَ المُقَيَّدِ في اليَنْبُوتِ والحَاجِ[3]

وقال أيضاً يهجو النعمان ويعيِّره برداءة أصله ، بعد أن عيَّره بأمه وطعنَ بنسبها ، ووصفه هذه المرة باللؤم الذي ورثه عن أمه وأخواله ، وأبيه وأعمامه . وركز على أخواله الذين يعملون في الحدادة وينفخون في الكير ، ويصنعون الأقراط والشنوف بيثرب ، فهم والحالة هذه من اليهود :

لَحَا الله أَدْنَانَـا إلى اللُّؤْمِ زُلْفَةً   وَأَلأَمَنَـا خَـالًا وَأَعْجَـزَنَـا أَبَـا[4]
وَأَجْدَرَنَا أَنْ يَنْفُـخَ الكيرَ خَـالُهُ   يَصُوغُ القُروطَ وَالشُّنُوفَ بِيثْرِبَا[5]

---

(١) الخبث : الأرض المطمئنة واسم لعدة مواضع . فرتاج : اسم موضع . بنو ناج : بطن من عدوان .
(٢) القين : الحداد . الخورنق : قصير بالحيرة .
(٣) الينبوت : نبات ذو شوك . وكذلك الحاج . الأغاني ١١/٥٩ .
(٤) الزلفة : بالضم القرابة والدرجة والمنزلة .
(٥) الشنوف : ما يوضع في أرنبة الأنف من حلي . الأغاني ١١/١٦٠ .

الباب الثاني
العصر الراشدي

ويتضمن :

١ ـ تمهيداً عن آخر ملوك اليمن .

٢ ـ مآل الملك في الحيرة .

٣ ـ مآل الملك في بلاد الشام .

٤ ـ الحكم عن الأعراب في بواديهم .

٥ ـ إستقرار القبائل في مكة والمدينة .

٦ ـ وحياة النبي الكريم وأعماله .

٧ ـ أثر هجرة الرسول إلى المدينة .

٨ ـ حكومة الرسول في المدينة .

٩ ـ أهم الأحداث في حياته الشريفة .

أ ـ البعثة النبوية

ب ـ بدء الدعوة سراً

جـ ـ الدعوة جهراً

د ـ المؤامرة تعقبها الهجرة

هـ - حياته التشريعية بمكه

و - حياته التشريعية بالمدينة خلال السنوات التالية

١٠ - تشكيله للسلطات في المدينة

١١ - بعض المقتطفات من كتابه بين أهل المدينة من مسلمين ويهود

١٢ - بعض المقتطفات من العهد الذي كتبه لأحد عماله .

١٣ - بعض أحاديثه في أدب الحكم وأصوله .

الفصل الأول
الخلافة الإسلامية

١ - تعريفها

٢ - شعار الخلافة وشاراتها

٣ - وجوب الخلافة

٤ - وحدة الخلافة

٥ - شروط الخلافة

٦ - اختيار الخليفة

٧ - حصر الخلافة

٨ - مقارنة بين الخلافتين : الراشدية والأموية .

٩ - القضاء .

١٠ - قيادة الجيوش .

١١ - الخراج والجبانة .

١٢ - الغنائم .

الفصل الثاني
نظام الخلافة بين الواقع والمثال

الفصل الثالث
الخلفاء الراشدون

٢ ـ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ٤١ ق هـ ـ ٢٣هـ/ ٥٨٠ ـ ٦٤٣ م

٣ ـ أمير المؤمنين عثمان بن عفان ٤٨ ق هـ ـ ٣٥ هـ/٥٧٣ ـ ٦٥٦ م

٤ ـ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ١٨ ق هـ ـ ٤٠هـ/ ٦٠٢ ـ ٦٦٠ م

٥ ـ يلحق بهم : الحسن بن علي ٣ ـ ٥٠هـ/٦٢٤ ـ ٦٧١ م

العصر الراشدي

ويتضمن :

١ ـ تمهيداً عن آخر ملوك اليمن .
٢ ـ مآل الملك في الحيرة .
٣ ـ مآل الملك في بلاد الشام .
٤ ـ الحكم عند الأعراب في بواديهم .
٥ ـ إستقرار القبائل في مكة والمدينة .
٦ ـ حياة النبي الكريم وأعماله .
٧ ـ أثر هجرة الرسول إلى المدينة .
٨ ـ حكومة الرسول في المدينة .
٩ ـ أهم الأحداث في حياته الشريفة .
أ ـ البعثة النبوية
ب ـ بدء الدعوة سراً
جـ ـ الدعوة جهراً
د ـ المؤامرة تعقبها الهجرة
هـ ـ حياته التشريعية بمكه

و ـ حياته التشريعية بالمدينة خلال السنوات التالية
١٠ ـ تشكيله للسلطات في المدينة
١١ ـ بعض المقتطفات من كتابه بين أهل المدينة من مسلمين ويهود
١٢ ـ بعض المقتطفات من العهد الذي كتبه لأحد عماله .
١٣ ـ بعض أحاديثه في أدب الحكم وأصوله .

العصر الراشدي

١ ـ آخر ملوك اليمن ..

إن الأخبار تتضارب في أوائل مَنْ ملكَ من العرب في أرض اليمن، ولا يمكننا الوثوق بما ورد من أخبار عنهم[1] ، وعلى الرغم من هذا نستطيع أن نقول بعد غربلة تلك الأخبار : إن ممن اشتهر من ملوك اليمن يوسف ذو نواس ، وكان يهودياً ، أمر بإحراق بعض أهل نجران من رعيته ، من الذين اتّبعوا النصرانية وذلك سنة ٥٣٤ م .

ولمّا علم بذلك جوستنيان أمبراطور الرومان ، أمر النجاشي صاحب الحبشة المتدين بالنصرانية ، أن ينتقم من ذي نواس . فبعث إليه جيشاً ، نصّب على رأسه قائداً اسمه أرياط ، فاحتلّ صنعاء وحكم البلاد باسم ملك الحبشة ، وبذلك قُضي على مملكة ذي نواس باليمن .

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٣٩ وما بعدها بتصرف .

ثم قام قائدٌ من قواده اسمه أبرهة ، فاغتاله ، وحكم بدله ، بعد أن استرضى ملك الحبشة . وأبرهة هذا ، هو الذي جنَّد الجنود لهدم الكعبة ، ليصرف العرب عنها إلى بيعته التي تفنَّن في بنائها بصنعاء ، ليضمن السيطرة على الجزيرة العربية ، فأصابه ما تحدَّثَ عنه سبحانه وتعالى في سورة الفيل . وحكم بعد أبرهة يكسوم ، ثم ابنه الثاني مسروق .

وكان في ذلك الوقت من أولاد ملوك اليمن القحطانيين مَنْ يتطلَّع إلى نيل المُلك ، ولا يقعدُه إلاَّ العجزُ ، وهو سيف بن ذي يزن الحميري ، فاستنجد هذا بكسرى أنوشروان ، فوعده المساعدة ، ثم شُغل عنه ، حتى مات سيف بن ذي يزن ، فذهب ابنه معد يكرب إلى كسرى يستنجده من جديد ، فأمدَّه بجنود على رأسهم أحد الأساورة واسمه وهرز الذي انتصر على جيوش الحبشة ، وأجلاهم عن البلاد ، وتوَّجَ معد يكرب ملكاً على اليمن[1] ، وأبقى معه جنداً من الفرس كانوا يسمون بعدئذ بالأبناء ، وينسب إليهم فيقال : أبناوي .

وقد وفدت الوفود على ابن ذي يزن يُهنِّئون بعودة الملك ، وَمِمَّنْ وفد عليه عبدُ المطلب بن هاشم شيخ مكة ، وكان معد يكرب قد أبقى عنده خدماً من الحبشة ، فاغتالوه يوما ، وبذلك انقطع الملك من بيت ذي يزن ، فعاد وهرز الفارسي وملك اليمن باسم كسرى ، ومازالت الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن كان آخرهم باذان الذي استجاب إلى الإسلام .

---

(١) من المؤرخين من يروي أن سيفاً هو الذي ملك اليمن لا ابنه .

٢ ـ مآل الملك في الحيرة ..

بعد أن انهزم ، دارا ، ملك الفرس أمام الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ ق.م انحطت المملكة الفارسية ، وتولَّاها ملوك يُعرفون في تاريخ الفرس ؛ بملوك الطوائف ، وقد استمرَّ هؤلاء في حكمهم حتى سنة ٢٣٠ م ، وفي آواخر عهد ملوك الطوائف هؤلاء كانت هجرة العرب من اليمن بعد كارثة سيل العرم ، وانسياحهم نحو الشمال ، فاحتلوا جزءاً مهماً من ريف العراق ، وكان قبل مُلكاً للدولة الفارسية ، ثم لحقهم بعد استقرارهم مَنْ هاجر من ولد عدنان ، فزاحموهم في تلك الجهات ، وسكنوا جزءاً مهماً من الجزيرة الفراتية .

فلما نبغَ أرشيرُبن بابك ، وشكَّلَ الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفة بالدولة السَّاسانية أو دولة الأكاسرة ، وأدخل جميع مخالفيه من الفرس تحت طاعته ، رجع إلى العرب المقيمين على تخوم ملكه فاستولى عليهم ، وصاروا من رعيته ، وكان هذا سبباً في رحيل جمعٍ من قضاعة إلى الشام ، ودانَ له أهل الحيرة والأنبار .

وفي عهد أردشير ، كانت ولايةُ جَذِيمَةَ الوضاح على الحيرة وسائر مَنْ ببادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر . وكان أردشير يُبقي عند ملك الحيرة كتيبةً من جند الفرس يستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية ، وكان يطلق على تلك الكتيبة دَوْسَرُ ، تعريبٌ للكلمه «دوشير» وهما أسدان شارة على راية الفرس .

وبعد موت جَذِيمَةَ الوضاح وَلِيَ أمرَ العرب عمرُوبن عدي بن نصر اللَّخمي ، وهو أول ملوك اللَّخميين بالحيرة ، وحكموا من سنة ٢٦٨ م إلى سنة ٦٣٢ م وهي السنة التي فتح فيها خالد بن الوليد مدينة الحيرة ، وعلى ذلك تكون

مدة حكمهم ٣٦٤ سنة ، إلاَّ أنَّ المُلْكَ قدِ انقطع عنهم مرتين . وكان إبتداء ملك عمرو في عهد سابور بن أردشير ، ولم تزل الملوك من بني نَصْرٍ تتوالى على الحيرة حتى وليَ الفرسَ قباذُ بن فيروز الذي كان يدين بمذهب مزدك الإباحي ، فدعا ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء إلى مذهبه ، فأبى ، فعزله وولى بدله الحارث (الحرث) بن عمرو بن حُجْرٍ الكندي ، ولم يزل هذا ملكاً حتى مات قباذ ، وخلفه كسرى أنوشروان ، وكان يكره هذا المذهب ، فقتل مزدك ، وأعاد المنذرَ إلى ولاية الحيرة . واستمر المُلْكُ في عَقب المنذر حتى كان النعمانُ بن المنذر الملقب بأبي قابوس صاحب النابغة الذبياني ، وهو الذي غضب عليه كسري بسبب وشاية دبَّرها زيدُ بن عدي العِبَادِي إنتقاماً منه بحبسه أباه حتى مات .

فلمَّا أرسل كسرى يطلب النعمان ، خاف هذا عاقبه الأمر ، وأيقن أنه هالك ، فذهب ينتقل في أحياء العرب يطلب الحماية ، فأبت عليه القبائل ذلك ، ولم يزل متنقِّلاً حتى ورد ذاقار ونزل حتى بني شيبان سِرّاً ، فلقي هانىءَ بن مسعود الشيباني ، فأودعه أهلَه وماله ، وتوجه إلى كسرى ، فحبسه حتى مات ، وولَّى على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائي ، وهو من أشراف طيء ، وأمره أن يرسل إلى هانىء بن مسعود فيلطبّ منه تسليم ما عنده ، فأبى ذلك هانىء ، وآذنوا الملك بالحرب . فأمر كسرى إياساً أن يسيرَ إليهم بالجنود ومعه مرازبة كسرى وكتائبه ، ولما دنت الفرس من بني شيبان ، جرت بين الفريقين موقعةٌ هائلة انتصر فيها بنو شيبان ، وانهزمت الفرس هزيمةً منكرة ، وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم ، وهو بعد مبعث الرسول ﷺ بقليل ، فإنه عليه الصلاة والسلام بعث لثمانية أشهر من ولاية قبيصة على الحيرة .

وكان مع إياس قائد من قواد الفرس ، وبعد موته ، ولَّى كِسْرى على البلاد حاكماً فارسياً ، كما فعل في بلاد اليمن بعد موت معد يكرب . وفي سنة ٦٣٢ م

عاد المُلْكُ إلى آل لخم فتولَّى منهم المنذرُ الملقَّبُ بالمغرور ، وكانت ولايتُه إلى أن قدم خالد بن الوليد ثمانية أشهر وهو آخر من بقي من بني نصر بالعراق .

وجاء الإسلام ، ومُلْكُ العرب بالحيرة ضعيفٌ جداً ، لأن المَلِكَ كان عاملاً للفرس يأتمر بأمرهم ، ولم يكن سلطانُهم على قبائل البدو سلطاناً تاماً ، وإنما كان اسمياً ، لأنَّ العرب كثيراً ما كانوا يخالفون أمره . ومما يدلّ على مقدار سلطانهم على رؤساء العشائر العربية أن عمرو بن المنذر بن ماء السماء ، وأمه هند بنت الحارث بن عمرو الكندي : قال يوماً لجلسائه :

هل تعلمون أحداً من العرب يأنف أن تخدمَ أُمُّهُ أمي ؟

قالول: مانعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي ، فإن أمه ليلى بنت مهلهل،وعمها كليب وائل، وزوجها كلثوم، وابنها عمرو.. وبقية القصة معروفة، أشار إليها عمرو في معلقته.

٣ ـ مآل الملك في الشام ..

في الزمن الذي سار فيه عربُ اليمن إلى ريف العراق، كانت من قضاعة قبائل تسيرُ إلى مشارف الشام، واستقرت بها لخصوبتها؛ وكانوا في معظمهم من بني سَلِيح بن حلوان الذين منهم بنو ضَجْعَمِ بن سعد بن سليم. وكانت بلاد الشام تلك تحت حكم الرومان بعد غزوات الاسكندر المقدوني وفتوحاته، فاصطنعهم الرومان ليمنعوا عربَ البراري وكذا الفرس من الاعتداء عليهم.

ومكث الضجاعمة عهداً طويلاً حتى أقبل عليهم بنو جفنةَ الغسانيون ومن معهم من عشائرهم فانتصروا على الضجاعمة، فولَّتِ الرومُ جفنة بنَ عمروٍ ملكاً على عرب الشام. ولم تزل الملوك تتوالى من آل جفنة على الشام ومايليه من بادية

العرب بصفتهم عمالاً لملوك الروم حتى جاء الإسلام، وكانت واقعةُ اليرموك سنة ١٣هـ، فانقاد للإسلام آخرُ ملوكهم جَبَلَةُ بنُ الأيهم في عهد الخليفة الراشدي عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه.

وكان لبني جفنة في الشام مدنية اقتبسوها من الروم فبنوا فيها كثيراً من المصانع والأديرة هي بُصرى الشام من أعمال حوران، وكان حسّان بن ثابت الأنصاري كثيراً مايمدحهم لأنه ينتمي إلى أصلهم وهم من الأزد، ومن ذلك قوله:

أَوْلادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِم ... قَبْرِ ابنِ مَارِيَةَ الكَريمِ المُفْضِلِ[1]
يُغْشَوْنَ حَتَّى مَاتَهِرُّ كِلابُهُمْ ... لايَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ المُقبِلِ[2]
يُسْقَوْنَ مِنْ وَرْدِ البَرِيصِ عَلَيْهِمُ ... بَرَدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحيقِ السَّلْسَلِ
بِيضُ الوُجُوهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابُهُمْ ... شُمُّ الأُنُوفِ مِنَ الطِّرازِ الأَوَّلِ

وكذلك وفَدَ عليهم النابغةُ الذبياني ومدحهم بقصائد ظلَّت خالدة على الدهر، ومنها قصيدته التي يبدأها بقوله:

كِلِيني لِهَمٍّ يَاأُمَيْمَةُ نَاصِبِ ... وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الكَوَاكِبِ

وفيها يقول مادحاً عمرو بن الحارثِ المعروف بالأعرج الغساني:

رِقَاقُ النِّعالِ طَيِّبٌ حُجزَاتُهُمْ ... يُحَيَّوْنَ بِالرَّيْحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِبِ[3]
تُحَيِّيهِمُ بِيضُ الوَلائِدِ بَيْنَهُمْ ... وَأَكْسِيَةُ الإِضْرِيجِ فَوْقَ المَشَاجِبِ[4]

---

(١) أولاد جفنة: الغساسنة. ماريه: هي بنت الأرقم بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقاء بن عامر وهو ماء السماء من حارثة.
(٢) يغشون: تطرقهم الأضياف. تهر: تنبح. البريص وبردى: نهران بدمشق.
(٣) الحجزات: جمع حجزة التكة من السروال. السباسب: عيد الشعانين عند النصارى،
(٤) الاضريح: الخز الأحمر. المشاجب: أعواد لتعليق الثياب.

يَصُونُونَ أَجْسَاداً قَدِيماً نَعِيمُهَا بِخَالِصَةِ الأَرْدَانِ خُضْرِ المَنَاكِبِ
وَلاَيَحْسَبُونَ الخَيْرَ لاشَرَّ بَعْدَهُ وَلاَيَحْسِبُونَ الشَرَّ ضَرْبَةَ لازِبِ[1]
حَبَوْتُ بِهَا غَسَّانَ إِذْ كُنْتَ لاحِقاً بِقَوْمِي وَإِذْ أَعْيَتْ عَلَيَّ مَذَاهِبِي

ولآل جفنة مواقف معدودة انتصروا فيها للروم على الفرس، كما وصدُّوا عنهم ملوك الحيرة من آل نصر، فكان بين البيتين أيامٌ هائلة؛ منها يوم عين أُباغ ـ وهي واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام ـ بين المنذر بن ماء السماء وبين الحرث الأعرج بن أبي شمَّر جبلة، وهو من أعظم ملوك الغسانيين، وكانت الغلبة في هذا اليوم لآل جفنة، وكان سبب الحرب محاولة المنذر إجبار الغساسنة على دفع الفدية له، ممَّا يعني إذ لا لهم واسقاطهم أمام الروم.

ولما تولَّى الأسودُ بن المنذر بعد أبيه، حاول الانتقام فجهز جيشا سار به إلى مرج حليمة، حيث قابلة الغساسنة وانتصروا عليه[2].

٤ ـ الحكم عند الأعراب في بواديهم..

كانت القبائل في نجد تَبَعاً لِمُلْكِ العرب بالحيرة، أو لِمُلْكِ آل جفنة بالشام، إلا أن هذه التَّبعية بالنسبة لقبائل البادية كانت اسميَّة لا فعلية، لأن العرب لايطيقون أن يُحكموا حكماً ملكياً يُقيِّد من حريتهم التي ليس عندهم مايَعْدِلُها.

وكان لهذه القبائل رؤساءُ منها تُسوِّدهم القبيلةُ لما يظهر على أيديهم من الفِعَالِ والخلال الحميدة، وكان أهمها عندهم؛ الشجاعة والكرم، والحلم

(١) عارفون تعرف الزمان.
(٢) انظر تاريخ الأمم الاسلامية للخضري ٤٨ ومابعدها.

والثروة، والنجدة والعدد، فمتى وُجدت هذه الصفات في رجل ساد العشيرة كلَّها، وكانت تبعاً لرأيه يوجهها أنَّى شاء، تقيم بإقامته، وتظعن بظعنه، وإذا دعاها لحربٍ لاتتأخر عنه، وإذا غنمت القبيلة أخذ حقوق الرئاسة والسيادة من الغنيمة، فكان له المرباع، وهو ربع الغنيمة. والصفي، هو مايصطفيه الرئيس لنفسه قبلَ القسمة. والنشيطة، ماأصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصل إلى بقية القوم. والفضول وهو مافضل من القسمة مما لاتصح قسمته على عدد الغزاة.

وقد يورث الأبُ الرئاسة لابنه، فإذا توالى من البيت الواحد ثلاثةُ رؤساء، عُرِفَ البيت بالشرف والمجد. وكان بيت قيس في الجاهلية في بني فزارة، ومركزه حذيفة بن بدر. وبيت تميم في بني دارم، مركزه حاجب بن زرارة. وبيت ربيعة في آل ذي الجدين. ومركزه قيس بن مسعود الشيباني.

وكان لهؤلاء الرؤساء من السلطان مايشبه سلطان الملوك في رعاياهم، إلا أنهم كانوا لايُتَوَّجون. وكان في بعض الأحيان يَعْظُمُ قدر الرئيس فيخضِع بعض القبائل ويجعلها تؤدي له خراجاً كلَّ سنة، كما كان زهيرُ بن جُذيمة سيد عبس من قيس، مع هوزان وهم بطون من قيس، فإنهم كانوا يُؤتونه الإتاوة كل سنة بعكاظ. وكان النعمان بن المنذر قد صاهره وتزوج ابنته المتجردة.

وممَّن ساد من العرب هَوْذَةُ بن علي الحنفي سيد بني حنيفة باليمامة. والمنذر بن ساوي التميمي سيد عبد القيس وتميم بالبحرين.

٥ ـ استقرار القبائل في مكة والمدينة..

كان عرب الحجاز بدواً، ومتى ذكرنا البدو فما ينبغي لنا أن نذكر الحكومة والنظام، لأنهما شئيان متناقضان،[1] مع البداواة.

أمّا الحالة في مكة والمدينة والطائف، فكانت مرحلةً وسطاً بين البداوة والحضارة، أو بين المدينة والقبيلة.

كانت مكة مثلاً، مقراً للقبائل القرشية، فكانت كل قبيلة من قريش تحتل حياً من أحيائها، وقد أوجد هذا التجاور بينها نوعاً من الاتحاد، ونوعا من توزيع العمل، ولكنها بقيت حريصة على استقلالها، معتزةً بشخصيتها، تأبى أن يندمج بعضها ببعض، ولذلك لم تصل إلى مرحلة المدينة الحديث، ولم تخضع إلى سلطة عامة، ولم يعرف فيها الرجل بأنه «مكي» ينتمي إلى مكة، وإنما كان يعرف من خلال انتمائه إلى قبيلةٍ ما.

فالوطنية كانت وطنية قبيلته، والمفاخر مفاخر قبيلته، وربما كُتِبَ لبعض الزعماء شيءٌ من ذيوع الصِّيت بين القبائل، ولكنه لم يكن يستطيع أن يفرض رئاسته على قبائل مكة كلها، ولو لقَّبوه بشيخ قريش وكبيرها!.

وقيل: وماكانت تجتمع على قيادة واحدة إلا في الحرب، فإذا ماانتهت الحرب عادت سيرتها الأولى، يسيطر على كل قبيلة شيخُها وَزعيمُها.

وكانت الوظائف فيها موزعة على الشكل التالي:

---

(١) عبقرية الاسلام للعجلاني.

١ ـ الحجابة . . وهي السدانة، وصاحبها يفتح باب الكعبة المشرفة للناس، وآلت إلى بني هاشم.

٢ ـ السقاية . . ويتولّى صاحبها سقاية الحجاج في حياض من جلد توضع في فناء الكعبة، وتنقل إليها المياه من الآبار على ظهور الإبل، وآلت السقاية لبني هاشم.

٣ ـ الرفادة . . وهي إطعام الفقراء مّما كان مفروضاً على قريش من أموال كانت تخرجها في كل موسم، وآلت الرفادة إلى بني نوفل ثم إلى بني هاشم.

٤ ـ اللواء . . أو الراية، وكانت لقريش راية تُسمَّى العقاب يخرجونها إذا أرادوا الحرب، ويسلمونها لمن يجتمع رأيهم عليه، وإلا فإنهم يسلمونها إلى صاحبها، وكانت الراية بعد قصي لبني عبد الدار.

٥ ـ الندوة . . وهي مكانُ اجتماع كبار قريش، دارٌ بناها قُصيٌّ بجانب الكعبة للتشاور، وكانت دار الندوة بعد وفاة قصي في أيدي بني عبد الدار.

٦ ـ حياة النبي الكريم ..

قبل الحديث عن هجرة الرسول الكريم ﷺ يجدر بنا أن نحيط بإلمامة مقتضبة عن حياته الشريفة ونسبه الكريم وأعماله العظيمة.

فهو عليه الصلاة وأتم التسليم: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي ، بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب. فتجتمع مع أبيه عبد الله : في كلاب.

ولد صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول من عام الفيل، الموافق لليوم

العشرين من نيسان سنة ٥٧١ ميلادية، في دار عبد المطلب، وكانت قابلته: الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف.

٧ ـ أثر هجرة الرسول ﷺ الى المدينة ..

مكث الرسول ﷺ في مكة من بدء النبوة ونزول الوحي عليه إلى أن هاجر إلى المدينة اثنتي عشرة سنة وخمسة أشهر وواحد وعشرين يوماً إذا اعتبرنا آخر يوم لها هو يوم الوصول إلى قباء، أُنزل عليه في اثنائها معظم القرآن الكريم، والذي نزل منه بمكة ثلاث وتسعون سورة، والباقي وهو واحدة وعشرون سورة نزلت بالمدينة. وكان ذلك سنة ٦٢٢م المصادف ١هـ.

٨ ـ حكومة الرسول ﷺ في المدينة ..

إن محمداً عليه الصلاة وأتم التسليم لم يدعُ قط، وهو في مكة، إلى إنشاء حكومة إسلامية تحل محلّ السلطات القبلية التي كانت قائمة آنذاك، وإنما كانت دعوته دينية خالصة.

٩ ـ أهم أحداث حياته الشريفة ..

ـ توفي والده عبد الله بعد الحمل به بشهرين، ودفن بالمدينة عند أخوال أبيه بني عدي بن النجار. وسماه جده عبد المطلب محمداً، ولم يكن هذا الاسم شائعاً عند العرب من قبل، ولكن الله ألهمه عبد المطلب، تحقيقاً لمعنى ماجاء في الإنجيل.

ـ توفيت والدته ﷺ ، بالأبواء بين مكة والمدينة، وهي عائدة من زيارة أخوال أبيه بالمدينة، وكانت سنه إذ ذاك ست سنوات، فحضنته أم أيمن بعد مرضعته حليمة السعدية، وكفله جده عبد المطلب.

---

(١) عبقرية الإسلام للعجلاني ٨٦ ـ ٨٨ ومايليه.

ـ توفي جده عبد المطلب بعد عامين من وفاة أمه، فكفله عمه أبو طالب شقيق والده. وكان به رحيماً عطوفاً، فبارك الله له في ماله.

ـ رحل مع عمّه أبي طالب إلى الشام للتجارة وسنّه اثنتا عشرة سنة، فالتقى بهما راهب قرب بصرى من بلاد، وعلم عمه أبو طالب مما ذكر الراهب من أوصاف، أن ابن أخيه هو النبي المنتظر، فحافظ عليه حرصاً على سلامته.

ـ ولما بلغ الخامسة والعشرين سافر إلى الشام في تجارة لخديجة بنت خويلد الأسدية، وكانت سيدة شريفة ذات مال، تضارب بمالها، وتستأجر الرجال في سبيل ذلك على جزء من الربح، فلما سمعت بأمانة المصطفى ﷺ استأجرته على أن يكون له أكثر مما تعطي غيره. فسافر على بركة الله مع غلامها ميسرة، وعاد بربح عظيم، وشاهد ميسرة من بركته ﷺ ماحببه فيه، وأخبر بذلك سيدته خديجة، فكان هذا وذاك من الأسباب التي دعت خديجة أن تخطبه لنفسها، وتم زواجهما بحضور عمه أبي طالب(1).

ولما بلغ ﷺ العشرين من عمره اشترك في حرب الفجار، التي قامت بين كنانة ومعها قريش،وبين قيس. ثم انتهت بالصلح ودفع الديات.

ـ وخرجت قريش من حرب الفجار تدعو إلى حلف الفضول ، فتم هذا الحلف في دار عبدالله بن جُدعان ، أحد رؤساء قريش ، واشترك فيه النبي ﷺ ، ويحدثنا عليه السلام عن ذلك فيقول : «لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار

---

(1) انظر ١/ ٣٠ ومابعد من الفتح المبين من طبقات الأصوليين للشيخ عبد الله المراغي، دار الكتب العلمية بيروت.

عبدالله بن جدعان ، ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو دعيت إليه في الإسلام لأجبت»[1] .

ـ ولما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، كانت قريش تُجدِّد بناء الكعبة ، فلما بلغوا موضع الحجر الأسود ، اختلفوا فيمن ينال شرف وضعه مكانه ، حتى كادت نار الحرب أن تشب بينهم ، ودام الخصام أربع ليال ، ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل عليهم ، فكان هو المصطفى ﷺ ، فصاحوا فرحين : هذا الأمين ، رضيناه حكما .

وأخبروه الخبر . فبسط رداءه ووضع فيه الحجر ، وأمر كل رئيس قبيلة أن يأخذ بطرف ، وأمرهم أن يرفعوا الرداء ، حتى انتهوا إلى موضع الحجر من الكعبة ، فأخذه ووضعه بيده وبذلك انتهت هذه المشكلة التي أوشكت أن تشعل حرباً هائلة بين العرب .

آ ـ البعثة النبوية ..

ولما بلغ الأربعين من عمره الشريف نزل عليه الوحي ، وذلك في السابعَ عشرَ من رمضان سنة ثلاث عشرة قبل الهجرة ، وأربعين سنة من عام الفيل ، الموافق الأول من شباط سنة ٦١٠ م عشر وستمئة من الميلاد ، وكان يومئذ بغار حراء مختلياً .

---

(١) تنظر الفتح المبين في طبقات الأصوليين للشيخ عبدالله مصطفى المراغي صفحة ٣٢/١ وما بعد .

ب ـ بدء الدعوة سراً ..

قام عليه الصلاة والسلام يدعو إلى الله سراً ، وكان أوّلُ من استجاب لدعوته : خديجة بنت خويلد زوجه ، وعلي بن عمه أبي طالب ، وزيد بن حارثة مولاه ، وأبو بكر الصديق صديقه وصفيّه .

جـ ـ الدعوة جهراً ..

استمر رسول الله ﷺ يدعو قومه سراً ، حتى نزل عليه قول الله تعالى﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾[1] فجهر بالدعوة ، فقابلته قريش بالأذى والسخرية والاستهزاء ، فكان هذا سبباً في إسلام عمه حمزة بن عبد المطلب ، أسد قريش ، أدركته الحمية والغيرة على كرامة ابن أخيه ، فكان من أشد الناس إيماناً دفاعاً عن رسول الله وعن المسلمين ، حتى لقب «أسد الله» .

واشتد أذى المشركين على النبي وأصحابه ، فهاجر بعض المسلمين إلى الحبشة ، في أثناء ذلك أسلم عمر بن الخطاب ، فأعزّ الله به الإسلام . قال ابن مسعود : «مازلنا أعزة منذ أسلم عمر» . ثم قاطعت قريش بني هاشم وبني عبد المطلب أو يعطوهم محمداً ، ودامت المقاطعة ثلاث سنوات ، حتى أكلوا ورق الشجر . وفي أثناء ذلك أمر الرسول ﷺ المسلمين بالهجرة إلى الحبشة ، حتى يساعد بعضهم بعضاً ، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة ، وهذه هي الهجرة الثانية إلى الحبشة . وشاء الله أن يقوم بعض كفار قريش بنقض هذه المعاهدة الباغية ، فذهب المطعم بن عدي إلى الكعبة ، وشق الصحيفة ، وكانت الأَرَضَهُ قد أكلتها .

---

(١) الحجر ١٥/٩٤

ـ قبيل الهجرة النبوية الشريفة بقليل أسرى الله بعبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، فعرج به إلى فوق السماوات ، حيث فرضت عليه الصلاة . وعاد فأخبر قومه بالحادث ، فمنهم من صدق ، ومنهم من كذب . فكان هذا الحادث امتحاناً للناس وليزداد الذين آمنوا إيماناً .

جـ ـ العقبة الأولى والثانية ..

ثم بدأ يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج . فالتقى بجماعة من أهل المدينة وكانوا ستةً ، فعرض عليهم الأسلام فأسلموا ، ووعدوه المقابلة في الموسم القادم . فلما كان العام التالي التقى باثني عشر منهم ، عند العقبة من منىً ، فأسلموا ، وهذه بيعة العقبة الأولى .

ولما رجعوا إلى المدينة بدأ الإسلام يظهر فيها ، فلما كان العام الذي بعده ، قدم مكة من أهل المدينة الكثيرون ، فالتقى رسول الله ﷺ بجماعة منهم عددهم اثنان وسبعون رجلاً وامرأتان ، فبايعوه على أن يؤوه ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم ، وهذه بيعة العقبة الثانية .

وما أن علم كفار قريش بذلك ، حتى أخذوا يفكرون في العاقبة ، وإذا رسول الله يأمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة ، فيهاجرون[1] .

د ـ المؤامرة تعقبها الهجرة ..

أخذ المشركون يدبرون مؤامرة لقتل الرسول ﷺ بعد أن أعيتهم الحيل في حمله على ترك دعوته الجديدة ، فاختاروا من كل قبيلة شاباً جلداً ، ليحاصروا دار

---

(١) انظر الفتح المبين في طبقات الأصوليين للمراغي ٣٧ وما بعد .

الرسول عليه الصلاة والسلام ، حتى إذا خرج عليهم ضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يستطيع بنو عبد مناف قتال القبائل ، فيرضون بديته .

ولكن الله سبحانه وتعالى أعلم رسوله بما تآمروا عليه ، فأمره بالهجرة ، فتوجه إلى دار أبي بكر وأخبره بذلك ، فقال : الصحبة يا رسول الله . قال : نعم .

وفي الليلة التي حددها المشركون لتنفيذ مؤامرتهم ، خرج الرسول في كنف الله ورعايته ، والتقى بأبي بكر وساروا حتى دخلا غار ثور ، فاختفيا فيه ثلاثة أيام ، وأعمى الله أبصار أعدائه عنه ، ثم خرجا من الغار ، وسارا حتى دخلا المدينة بين ترحاب أهلها وفرحهم . وكانت الهجرة في ربيع الأول في العام الثالثَ عشرَ من الدعوة .

هـ ـ حياته التشريعية بمكة ..

كانت حياته ، عليه السلام ، التشريعية في مكة ، قائمة على ثلاث دعائم :

الأولى : الدعوة إلى توحيد الله .

الثانية : الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر .

الثالثة : الصلاة ، وقد نزل معظم القرآن الكريم بمكة ، وتمتاز الآيات المكية غالباً بقصرها ، وتضمنها الدعوة[1] .

---

(١) المرجع السابق .

و ـ حياته التشريعية بالمدينة ..

بهجرته إلى المدينة تبدأ حياته التشريعية الثانية التي ملأت بقاع الأرض هداية ونوراً . فشرع الأذان ، والصوم ، والزكاة ، وصلاة العيد . والحج ، والقتال ، وكثيراً من المعاملات ، والأحوال الشخصية ، والفرائض وغيرها ، والنظم الإجتماعية ، والحربية ، والإدارية ، والإقتصادية لسياسة الجماعة والدولة[1] .

ـ السنة الأولى من الهجرة . .

في السنة الأولى من الهجرة عقد ﷺ حلفاً ومعاهدة بين ساكني المدينة من مسلمين ويهود ومشركين ، في أن يكونوا يداً واحدة في الداخل والخارج . وتكفل الحرية للجميع. وفيها شرع الأذان، وكان أحد المنادين عبدالله بن زيد بن عبدربه الأنصاري ، قدر رأى في منامه من علمه ألفاظ الأذان ، فأخبر بها الرسول ، فأقرها ، ثم قال له : علم بلالاً ما رأيت . فعلمه ، وبينما بلال يؤذن إذ أقبل عمر بن الخطاب يقول : والله لقد رأيت مثله يا رسول الله . وفيها شرع الله القتال بقوله : ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير﴾[2] . وفي هذه السنة أرسل الرسول سريتين لقتال المشركين[3] .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) الحج ٩/٢٢ .

(٣) السرية: جماعة من الجيش لا يخرج فيها النبي . وأما الغزوة فهي التي يخرج فيها النبي مع الجيش .

- السنة الثانية من الهجرة . .

وفيها حوّلت القبلة إلى الكعبة ، بعد أن مكث الرسول عليه السلام ستة عشر شهراً يصلي إلى بيت المقدس . وكان نزول الوحي بتحويل القبلة بعد صلاة الظهر ، فصلوا العصر إلى الكعبة . وفيها فرض الصوم ، وشرعت زاكاة الفطر ، وصلاة العيد ، وفرضت زكاة المال .

وفيها كانت غزوات ، أشهرها : غزوة بدر الكبرى التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً باهراً . وكانت قصة الأسرى من المشركين ، إذا استشار الرسول ﷺ الصحابة ، فكان لعمر بن الخطاب رأياً وهو القتل ، فلم يأخذ به رسول الله ، وكان لأبي بكر رأي أخذ به رسول الله وهو الفداء . وفي هذا الحادث عاتب الله رسوله بقوله : ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض . تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم﴾[1] .

- السنة الثالثة من الهجرة . .

وفيها كانت بعض الغزوات والسرايا ، وأهمها غزوة أحد ، حيث هزم فيها المسلمون لمخالفتهم أمر رسول الله . وقد عاتبهم الله في ذلك[2] . وفي هذه السنة حرمت الخمر تحريماً قاطعاً[3] .

- السنة الرابعة من الهجرة . .

وفيها كانت بعض الغزوات والسرايا ، أشهرها : غزوة بني النضير ، وهم

---

(١) الأنفال ٦٧/٨ .
(٢) انظر الآية ١٥٢ من سورة آل عمران .
(٣) انظر الآية ٩٠ و٩١ من سورة المائدة .

جماعة من اليهود في ضواحي المدينة ، نقضوا العهد وائتمروا على قتل الرسول ، فتحصنوا بحصونهم فلم يجرهم فطلبوا من رسول الله أن يحقن دماءهم ، على أن يجلوا تاركين أموالهم وأسلحتهم ، ففعل وفعلوا .

ـ السنة الخامسة من الهجرة . .

وفيها كانت غزوة الخندق ، أو غزوة الأحزاب ، وفيها نصر الله المسلمين . وبعد الإنصراف من هذه الغزوة منتصراً أمر أصحابه بالتوجه إلى بني قريضة وهم أيضاً جماعة من اليهود في ضواحي المدينة ، نقضوا العهود وتحالفوا مع الأحزاب ، فاستسلموا وحكم فيهم سعد بن معاذ .

وفي هذه السنة نزلت آيتا الحجاب . وفيها فرض الحج .

ـ السنة السادسة من الهجرة . .

وفيها كانت سرايا وغزوات ، أشهرها عمرة الحديبية وفيها عقد صلح الحديبية المشهور وهو :

١ ـ وضع الحرب بين الفريقين عشر سنوات[١] .

٢ ـ من جاء من المسلمين إلى قريش كافراً قبلوه . ومن جاء من قريش إلى المسلمين مؤمناً ردوه .

٣ ـ أن يرجع الرسول ومن معه هذا العام بدون عمره ، ثم يأتي في العام القابل لأدائها ، على أن لا يدخلوا مكة بأسلحة إلّا السيوف في قربها ، وأن لا يمكثوا إلّا ثلاثة أيام .

---

(١) بين مسلمي المدينة وكفار مكة .

٤ ـ ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل في حلف محمد دخل فيه .

وفي هذه السنة أرسل الرسول كتبه إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام .

ـ السنة السابعة من الهجرة . .

وفيها كانت غزوات وسرايا أهمها : خيبر التي انتصر فيها المسلمون على اليهود في وكرهم وكسروا شوكتهم وأمنوا كيدهم . وفيها حَرَّمَ الله نِكَاح المتعة وهو النكاح المؤقت ، وكان شائعاً في الجاهلية وصدر الإسلام ، ونهي عن أكل لحوم الحمر الأهلية .

ـ السنة الثامنة من الهجرة . .

وفيها كانت غزوات وسرايا أهمها : غزوة فتح مكة التي هي الفتح المبين . وغزوة حنين ، وهي قرية قرب الطائف ، بدأت بهزيمة المسلمين ، وانتهت بنصرهم وإحراز مغانم كثيرة .

السنة التاسعة من الهجرة . .

وفيها كانت غزوات وسرايا ، أهمها : غزوة تبوك . وفي هذه السنة بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق أميراً على الحج . ثم نزل على رسول الله أوائل سورة براءة . وفيها توفي عبدالله بن أبي سلول رئيس المنافقين ، فصلى عليه وشيعه بإجتهاد منه تطيباً لقلب ولده عبدالله وكان من خيار المسليمن ، ولكن الله أنزل

بعد ذلك قوله على رأي عمر : ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره﴾[1] .

ـ السنة العاشرة من الهجرة . .

وفيها كانت بعض السرايا ، وأوفد معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن قاضيين ، وفيها كانت حجة الوداع التي خطب فيها خطبته الجامعة .

ـ السنة الحادية عشرة . .

بعث بعض السرايا ، ووفد عليه كثير من الوفود معلنين دخولهم الإسلام . وفيها مرض رسول الله ﷺ . فلما ثقل استخلف أبا بكر في إمامة الصلاة . ثم توفي ﷺ في ضحوة يوم الإثنين الثالث عشر من ربيع الأول من هذه السنة الموافق الثامن من حزيران سنة ٦٣٣ م ، وعمره ثلاث وستون سنة هجرية كاملة ، وثلاثة أيام ، بعد أن بلغ الراسلة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وضرب للناس أحسن الأمثال في مكارم الأخلاق ، وسداد الحكم ، وبالغ العدل ، وجليل الفضائل[2] .

وعندما هاجر عليه الصلاة والسلام ، عرف المسلمون فضل الهجرة فاتّخذوها مبدأ لتاريخهم . والواقع أن الهجرة كانت مرحلة عظيمة في حياة الإسلام ، وهي في نظر الذين يؤرخون للحكم الإسلامي المرحلة الحاسمة في نشوء الحكومة الإسلامية .

---

(١) التوبة ٨٤/٩ .
(٢) انظر الفتح المبين في طبقات الأصوليين للشيخ عبدالله مصطفى المراغي ١/٤٠ ـ ٤٥ .

ولم يكد النبي ﷺ يستقر في المدينة حتى أقام أسس «الدولة الإسلامية» فقد جمع الأنصار والمهاجرين وآخى بينهم ، ثم جمع المسلمين وغير المسلمين من سكان المدينة ، وكتب بينهم كتابا ، هو الدستور الأول للدولة الإسلامية[1] .

وقد يكون في ألفاظ الكتب التي وصلت إلينا ، شيء من التحريف ، ولكن الأمر الثابت الذي لم يختلف فيه اثنان هو أن محمداً ﷺ كتب كتابا بين أهل يثرب ، وأن هذا الكتاب أقام بين أهلها حلفاً وجعلهم أمةً واحدة ، وجعل النبي عليه الصلاة والسلام بمقام الرئيس الأعلى فيهم .

فكان الكتاب في الواقع دستوراً مختصرا ، يعلِّم الناس «واجباتهم المدنية» الأولى ، بصفتهم «مواطنين» يتناصرون ويتوفر بعضهم على حرمات بعض ، ويقومون جميعاً على من بغى وظلم ولو كان ولد أحدهم . . وإذا حاربوا حاربوا جميعاً ، وإذا سالموا سالموا جميعاً ، ولم يجز لقبيلة منهم أو أفراد معدودين أن يعقدوا صلحاً منفرداً . . وإذا قَتَل أحدُهم صاحبَه قُتِل به ، وليس لقبيلته أن تحميه وتتعصب له ، لأنّه خرج بعمله ذاك على نظام المسلمين كلهم . .

وضمن الرسول ﷺ بهذا الكتاب ليهود المدينة حريتهم الدينية ، وجعلهم حلفاء للمسلمين ، يحاربون من يحاربهم ، ويشاركونهم في الغنم كما يشاركونهم في النفقة ، ويحتكمون إليه ﷺ في كل حدث أو اشتجار يخاف فساده . وهكذا لم يقتصر عمل الرسول عليه الصلاة والسلام على التوحيد بين المسلمين ، وإنما وحّد بينهم وبين اليهود ، وجعل لهم مرجعا واحداً في خلافاتهم . وبذلك أوجد السلطة العامة التي لم تكن العرب تعرفها من قبل ، وأنشأ الدولة الإسلامية ، جامعة في

---

(١) عبقرية الإسلام للعجلوني ٩٠

حصنها المسلمين وغير المسلمين ، ضامنة لهم حرية العقيدة ، وكرامة الحياة ، وحرية الجوار ، وحق الأخوة والتناصر[1] .

١٠ ـ تشكيله للسلطات في المدينة ...

أوجد النبي عليه الصلاة والسلام السلطةَ التنفيذية ، فكان يجبي الصدقات ، ويقود المعارك ، ويوزع الغنائم ، ويولّي الأمراء .

ثم أوجد السلطة القضائية ، فكان يحكم بين المتخاصمين ، وكان حكمه مُلزما . .

وأما السلطة التشريعية التي تسن للناس قواعد السلوك في حياتهم الإجتماعية ، فقد استطاع الرسول الكريم أن يفرضها على الناس أيضاً بما ينزل إليه من الوحي .

وهكذا أخضع النبي ﷺ الناس لسلطة عامة ، لا عهد لهم بها ، وهذه السلطة العامة هي «الحكومة» ولولاها لبقيت العرب قبائل[2] .

نشوء الجهاز الإداري لحكومة الرسول ﷺ . .

كان النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة رئيساً مدنياً ، مثلما هو رئيس ديني .

لا نستطيع أن نتحدث عن إدارة جديدة أنشأها النبي ﷺ في المدينة بمعناها

---

(١) المرجع السابق صفحة ٩٣ .
(٢) عبقرية الإسلام للعجلوني ٩٥ وما بعد .

الذي نعرفه اليوم ، لكننا نستطيع التحدث عن نوع من الإدارة يقوم على إدارة الجيوش الغازية ، وما يتبعُ ذلك من قسمة للغنائم وما يتبعها .

وكان أول من سمّاه النبي ﷺ على المدينة سعد بن عبادة ، ولكننا من تتبعنا أحوال هؤلاء الولاة ، نجد أن عملهم كان قاصراً على النيابة عن الرسول الكريم مدة غيابه عن المدينة أثناء الغزوات ، وكانوا يقومون بالإمامة في الصلوات ، وأكبر الظن أن ظهور الولاة والعمال إنما بدأ بعد فتح مكة ، واتّساع رقعة البلاد التي تسيطر عليها حكومة النبي الكريم ، وكان ذلك قبل وفاته عليه الصلاة والسلام بسنتين فقط .

وكان يُساعده ﷺ في عمله عدد من الكتاب ؛ أربعة لكتابة الوحي ، واثنان للكتابة له في مراسلاته وحوائجه ، واثنان يكتبان ما بين الناس ، واثنان يكتبان بين القوم وقبائلهم وأحيائهم ، وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء . وكان من كتاب الوحي زيد بن ثابت الأنصاري ، يكتب إلى الملوك أيضاً . ووُكل كاتب ثان نيابة عن كل كاتب يغيب ، وحفظ خاتمه[1] .

أمّا مجلس الشورى فكان يتألف من أحد عشر صحابياً هم : حمزة ، وجعفر ، وأبو بكر ، وعمر ، وعلي ، وابن مسعود ، وعمار ، وحذيفة ، وأبو ذر ، والمقداد ، وبلال .

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشياري صفحة ١٢ .

نموذجان من كتب الرسول ﷺ :

١١ - بعض المقتطفات من كتابة عليه السلام بين أهل المدينة بين مسلمين ويهود ..

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي ، ﷺ ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثربَ ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم[١] يتعاملون بينهم وهم يَفْدون عانيهم بالمعروف ، والقسط بين المسلمين .

وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً[٢] بينهم ، أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل . وأن المؤمنين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولدَ أحدهم . ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا يَنْصُرُ كافراً على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة ، يُجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض . وإنه مِنْ تَبِعَنَا يهود ، فإن لهم النصر والاسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محارَبين ، وأن يهود بني عوف أمةٌ مع المؤمنين ، إلاّ من ظلم وأثم فإنه لا يوتخ[٣] إلاّ نفسه وأهل بيته . وإن يهود بني النجار ، ويهود بني الحرث ، ويهود بني ساعدة ، ويهود بني جشم ، ويهود بني الأوس ، ويهود بني ثعلبة ، مثل ما ليهود بني عوف .

---

(١) أي الحال التي جاء الإسلام وهم عليها ، عاداتهم في أحكام الديات والدماء .
(٢) مفرح : المثقل بالديون .
(٣) لا يوتخ : لا يهلك .

وإن يثرب حرامٌ جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وأن الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث واشتجار يُخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عزوجل وإلى محمد رسول الله ﷺ[1] .

١٢ ـ بعض المقتطفات من العهد الذي كتبه الرسول عليه السلام لعامله عمرو بن حِزام وفيه مهامُ الأمير :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا بيانٌ من الله ورسوله ؛ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، عهد من النبي محمد رسول الله لعمرو بن حزام حين بعثه إلى اليمن ، أمَرَه بتقوى الله في أمره كله ، فإن الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون .

وأمره أن يأخذ الحق كما أمره الله ، وأن يبشرَ الناس بالخير ، ويأمرهم به ، ويعلم الناس القرآن ، ويفقههم فيه ، وينهى الناس فلا يمس القرآن إنسان إلاّ وهو طاهر ، ويخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم ، ويلين للناس في الحق ، ويشتد عليهم في الظلم ، فإن الله كره الظلم ونهى عنه ، فقال : ألا لعنة الله على الظالمين .

ويبشر الناس في الجنة وبعملها ، وينذر الناسَ النارَ وعملها ، ويتألف الناس حتى يفقهوا في الدين ، ويعلم الناس معالم الحج وسنته وفريضته وما أمر الله به ، والحج الأكبر ، والحج الأصغر هو العمرة . وينهى الناس أن يصلي أحد في ثوب واحد صغير . . . وينهى إذا كان بين الناس هيج ، عن الدعاء إلى القبائل والعشائر . وليكن دعاؤهم إلى الله عزوجل وحده لا شريك له . . . ويأمر الناس

بإسباغ الوضوء وجوههم وأيديهم إلى المرافق . . . وأَمَرَهُ أن يأخذ من المغانم خُمْسَ الله ، وما كتب على المؤمنين في الصدقة من العقار عُشر ما سَقَتِ العين وسقتِ السماء . . .[1] .

١٣ - بعض أحاديث الرسول عليه السلام في آداب الحكم وأصوله ..

سأل أبو ذرٍ رسولَ الله ﷺ أن يوليَهُ إمارةً ، فأجابه : «يا أبا ذرٍ إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خِزي وندامة ، إلّا من أخذها بحقها وأدى الذي عليها فيها»[2] .

وقال ﷺ «مَنْ وليَ من أمر المسلمين شيئاً ، فأَمَّرَ عليهم أحداً محاباةً ، فعليه لعنة الله»[3] .

وقال عليه الصلاة والسلام : «أحبُّ الناس إلى الله تعالى يوم القيامة ، وأدناهم منه مجلساً ، إمام عادل . وأبغض الناس إلى الله تعالى يوم القيامة ، وأبعدهم منه مجلساً ، إمام جائر»[4] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢٦٥ .
(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٦) ، والبيهقي في السنة الكبرى (١٠/٩٥) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٣٦٨٢) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣١٧/٨) والهندي في كنز العمال (١٤٧٠١) و(١٤٦٤٧) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (١٦٠/٣) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٦/١) والحاكم في المستدرك (٩٣/٤) والهيثمي في مجمع الأمثال (١٩٤/٤ و ٢٣٢/٥) والهندي في كنز العمال (١٤١٦٨) و(١٤٧٤٢) و(١٤٧٤٣) و(١٤٧٤٩) وابن أبي حاتم الرازي في علل الحديث (٢٧٤٣) .
(٤) أخرجه الهندي في كنز العمال (١٤٦٠٤) .

وقال ﷺ : «كُلّكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته»[1] .

وقال ﷺ : «ما من عبد يسترعيه الله رعيةً ، يموت يوم يموت وهو غاشٌ لرعيته ، إلّا حرَّم الله عليه الجنة»[2] .

وقال ﷺ : «من وَلّاهُ الله من أمور المسلمين شيئاً فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم ، احتجب الله تعالى دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة»[3] .

وقال عليه الصلاة والسلام : «إذا أراد الله بالأمير خيراً ، جعل له وزيرَ صدق ، إنْ نسيَ ذكره ، وإنْ ذكر أعانه . وإذا أراد الله به غيرَ ذلك ، جعل له وزيرَ سوء ، وإنْ نسيَ لم يذكره ، وإنْ ذكره لم يُعنْه»[4].

وقال ﷺ «مَنَ استعملناه على عمل فكتمنا مخيطاً فما فوقه ، كان غلولاً يأتي به يومَ القيامة»[5] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٧/٩) ومسلم في الإمام (٢٠) والترمذي في مسنده (١٧٠٥) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣١٤/٥) وابن حجر في فتح الباري (١١١/١٣) ، والعراقي في المغني عن حمل الأشعار (٣٢/٢) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٣٦٨٥) وأبو نعيم في الحلية (٢٨١/٨) والهيثمي في مجمع الزائد (٢٠٧/٥) .

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة (٧٠/١٠)

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٢٩٤٨) وابن كثير في البداية والنهاية (١٢٦/٨) وجمعه الألباني في الأحاديث الصحيحه (٦٢٩) .

(٤) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٣٧١/٧) ، وورد في ميزان الإعتدال (١١٥٣١) .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة (٣٠) ، وأحمد في المسند (١٩٢/٤) ، والبيهقي في السنن الكبرى (١٥٨/٤) وابن أبي شيبة في مصنفه (٥٤٨/٦ و ٥٤٩) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٦٣/١) والتبريزي في مشكاة المصابيح (ج١٧٨٠) ، والهندي في كنز العمال (١١٠٨٥) و(١١٠٩٥) .

الفصل الأول

الخلافة الاسلامية واداراتها

١ ـ تعريفها .
٢ ـ شعار الخلافة وراياتها .
٣ ـ وجوب الخلافة .
٤ ـ وحدة الخلافة .
٥ ـ شروط الخلافة .
٦ ـ اختيار الخليفة .
٧ ـ حصر الخلافة .
٨ ـ مقارنة بين الخلافتين ؛ الراشدية والأموية .
٩ ـ القضاء .
١٠ ـ قيادة الجيوش .
١١ ـ الخراج والجباية .
١٢ ـ الغنائم .
١٣ ـ النقود .

١٤ ـ الذميون والوظائف .

١٥ ـ شمولية الإسلام كنظام للدين والدولة .

١٦ ـ الوزارة .

١" ـ نوعا الوزارة .

٢" ـ مستوى الوزارة .

١٧ ـ تاريخ الإمارة .

١٨ ـ اختيار الأمراء .

١٩ ـ ما المقصود بالأمير .

الخلافة الاسلامية واداراتها

١ ـ تعريفها :

عرّفها الماوردي ؛ بأنها خلافة عن النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا . وعرفها العجلاني بقوله : هي سلطة مطلقة ، يُحِدُّ منها الدين والتقاليد ، وهيبة العلماء ، وقوة الرأي العام .

وكان الخلفاء يتصرفون في أمور الدولة تصرفاً يكاد يكون مطلقاً في بعض الأوقات ، ولكننا لا نستطيع أن نجري على لسانهم كلمة لويس الرابع عشر الذي قال : «الدولة هي أنا» لأن للخلافة صفة دينية تمنع صاحبها من هذا اللون من التفكير ، وإذا كان للخليفة سلطان كبير في إدارةالدولة ، فإنه إنما أعطيه ليستعمله في خدمة الرعية ، فهو وكيل مؤتمن وليس سيداً مسيطراً[1] .

---

(١) عبقرية الإسلام للعجلاني ١٦٦ وما بعدها .

والواقع أنّ الخليفة يجمع السلطتين ؛ الدينية والدنيوية ، فهو إمام المسلمين في صلاتهم ، وأميرهم في جهادهم ، ورئيسهم في إدارتهم وقضائهم ، وبالجملة صاحب الولاية العامة عليهم(1) .

والخلافة كما نرى ليست دكتاتورية مطلقة ، فالخليفة مقيد :

١ - بالنصوص التشريعية ، ومصادرها القرآن والسيدة النبوية الشريفة .

٢ - وبالشورى التي تضم كبار الصحابة .

بدأت الخلافة بأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، الذي لقب بخليفة رسول الله ﷺ ، ثم جاء بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلقب بأمير المؤمنين ، وهو أول من تلقب به ، ثم ابتدع لقب الإمام ، ثم الألقاب الخاصة للخلفاء في العصور التالية .

٢ - شعار الخلافة وراياتها :

١" - الألوان : الأمويون ؛ كانت راياتهم بيضاء .

والعباسيون : راياتهم سوداء .

والعلويون : راياتهم خضراء .

والعثمانيون : رياتهم حمراء .

٢" - البزدة : وهي بردة النبي التي كساها لكعب بن زهير ، واشتراها معاوية ثم تدوولت بعده .

---

(١) عبقرية الإسلام للعجلاني ١٢٢ .

٣" ـ **القضيب** : وهو عود كان يأخذه النبي بيده[1] .

٤" ـ **الخاتم** : الأصل فيه أنه قيل للنبي عليه السلام : إن الملوك لا يقرؤون كتاباً غير مختوم ، فاتخذ خاتماً من فضة ، وجعل نقشه «محمد رسول الله» . واتخذ الخلفاء بعد ذلك خواتيم ، لكل خاتمٍ نقش يخصّه ، حتى انقراض الخلافة من بغداد .

٥" ـ **السكة** : أخذ الخلفاء منذ أواسط العهد الأموي حتى آخر العصر العباسي يضربون الدنانير والدراهم بأسمائهم ، ويجعلون معها في الأكثر آية صغيرة من القرآن ، أو دعاءً قصيراً .

٦" ـ **الخطبة** : كان الأئمة في الجوامع يدعون للخليفة القائم في خطبتهم ، ويلتمسون له من الله سبحانه وتعالى النصر والتأييد . وتوفيقه لما فيه خدمة المسلمين .

وقد أتى زمان على الخلفاء حُرموا فيه كلَّ سلطة حقيقية ، ولم يبق لهم إلّا الخطبة ، والسكة ، وكانا شيئين رمزيين[2] .

٣ ـ وجوب الخلافة :

اختُلِفَ في وجوبها ؛ أكان بالعقل أم بالشرع ؟

---

(١) صبح الأعشى .
(٢) عبقرية الإسلام للعجلاني ١١٦ .

فقيل : وجبت بالعقل لأن الناس قد يهملون أحكام الله تعالى ، ويرتكبون المظالم ، ويتنكرون لأصحاب الحقوق ، فلابد لهم والحالة هذه من رئيس .

وقالت الكثرة ؛ الإمامة إنما عُرف وجوبُها بالشرع ، لأن أصحاب رسول الله عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر ، وتسليم النظر إليه في أمورهم ، وكذا في كل عصر من بعد ذلك ، ولم يتركِ الناس فوضى في عصر من الأعصار ، واستقر ذلك «إجماعاً» دالاً على وجوب نصب الإمام[1] .

وقد ورد في القرآن الكريم ، والحديث الشريف كثير من النصوص التي تدعو إلى طاعة أولياء الأمر ، قال تعالى ؛ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم[2] .

وقال النبي الكريم : من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعصِ الأمير فقد عصاني[3] .

٤ ـ وحدة الخلافة :

أجمع الفقهاء على وحدة الخلافة ، مثل إجماعهم على وجوبها .

ومعنى هذه الوحدة :

١ ـ أنه لا يجوز أن يكون للمسلمين إمامان في وقت واحد يشتركان في إدارة أمور المسلمين ، وتصدر الولايات عنهما مجتمعين .

٢ ـ أنه لا يجوز أن يكون للمسلمين إمامان أو أكثر ، يستقل كل واحد منهم في الولاية على جزء من البلاد الإسلامية .

---

(١) انظر تاريخ ابن خلدون .

(٢) النساء ٤/٥٩ .

(٣) عبقرية الإسلام للعجلاني ١٢٠ .

أمّا الأمر الأول ؛ فلاة سابقة له .

وأما الأمر الثاني ؛ فالتاريخ يدل على مخالفته .

٥ ـ شروط الخلافة :

اتفق جمهور الفقهاء على الشروط التي لابد من توفرها في كل خليفة ، وهي : الحرية ، الذكورة ، البلوغ ، سلامة العقل ، سلامة البدن ، وهذه هي الشروط الأصلية[1] .

واستوجب بعض الفقهاء أربعة شروط ، وهي : العلم ، النزاهة ، الشجاعة ، الرأي ، وهذه هي الشروط الكمالية .

وكثر اختلاف الأمة ، وانقسمت فرقاً في شرط أخير ، وهو : النسب .

أ ـ فالذكورة : لقوله ﷺ «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة» قاله عليه السلام لما بلغه أن الفرس ملكوا عليهم بنت كسرى .

ب ـ البلوغ : وهو أمر ضروري ومشروع للرجولة والاكتمال ، وشذ على ذلك الفاطميون ، ومن العباسيين المقتدر ، وقد اتفق الكتاب والقضاة والخاصة والعامة على خلعه فخلع ، ولكنه عاد وكانت خلافته أطول خلافة .

وكانت قضية السن قضية خطيرة عند العرب ، حتى لقب الرئيس عندهم بالشيخ كاف وحده للدلالة على أهمية السن في موضوع الرئاسة[2] .

---

(١) عبقرية الإسلام للعجلاني ١٢١ .

(٢) عبقرية الإسلام للعجلاني .

٦ ـ اختيار الخليفة :

عرف العرب المسلمون ثلاث طرائق في تولية الخلافة :

١" : الاختيار : كما حصل في اجتماع السقيفة حين اختير أبو بكر رضي الله عنه، أو في كل مرة كان الخليفة ولاسيما العباسي ، يقتل أو تُسمل عيناه ، فلا يعود صالحاً شرعاً للخلافة .

٢" ـ العهد : كما فعل أبو بكر حين عهد بالخلافة لعمر بن الخطاب ، رضي الله عنهما ، ثم كما حصل في خلافة بني أمية ، وبني العباس ، حين كان يعهد الخليفة في حياته لابنه ، أو لأحد أقربائه .

٣" ـ الشورى : وقد حصلت مرة واحدة في تاريخ الخلافة الإسلامية ، حين عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حين أصيب بطعنة أبي لؤلؤه الفارسي ، وأحس بموته ، إلى ستة من كبار الصحابة الذين مات رسول الله وهو راض عنهم ، ليتشاوروا في اختيار خليفة منهم ، وهم : علي وعثمان ابنا عبد مناف ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص خالا رسول الله ، والزبير بن العوام ابن عمة الرسول الكريم وحوارييه ، وطلحة الخير بن عبيد الله . وجعل معهم ابنه عبدالله بن عمر ، يشير من دون أن يكون له من أمر الخلافة شيء .

ومتى تعينّ الخليفة بالعهد ، أو الشورى ، أو الاختيار ، دُعيت الأمة إلى البيعة له ، أي لإظهار الرضا به ، والخضوع إليه ، والتسليم بالواقع الذي حصل ، وقد حرص الخلفاء على أخذ البيعة من أكبر عدد يقدرون عليه من الأمة ، وذلك لخوفهم من انتقاض الأمة عليهم ، وشيوع الفتن والاضطرابات .

وكان الناس في صدر الإسلام يهرعون إلى البيعة بصدور ملؤها الإيمان والأمل والرغبة ، ولكن الناس في العهود المتأخرة ، كانوا ربما سيقوا إلى البيعة بالسياط[1] .

وكانت البيعة في عهد النبي ﷺ ، والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، شفهية ، وقد تتم بالمصافحة باليد . وربما جموعوا بين المصافحة وترديد كلمات البيعة المألوفة كقولهم : بايعناك على العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ، أو نحو ذلك .

ولما تولّى الخلافة عبد الملك بن مروان ، وولى الحجاج بن يوسف الثقفي إمارة العراق ، أخذ البيعة لعبد الملك بالعراق ، ورتّب أيماناً مغلظة تشتمل على الحلف بالله تعالى والطلاق والعتاق ، والأيمان المحرجات ، يحلف بها على البيعة ، واشتهرت بين الفقهاء «بأيمان البيعة» واطّرد أمرها في الدولة العباسية بعد ذلك[2] .

٧ ـ حصر الخلافة :

قال أبو داود الطيالسي في مسنده : حدثنا سكين بن عبد العزيز ، عن سيار بن سلامة عن أبي برزة أن النبي ﷺ قال : الأئمة من قريش ما حكموا فعدلوا ، ووعدوا فوفوا ، واسترحموا فرحموا ، أخرجه الإمام أحمد وأبو يعلي في مسنديهما والطبراني .

وقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا الحاكم بن نافع ، حدثنا اسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة ، عن شريح ، عن كثير بن مرة ، عن عتبة بن

---

(١) كتاب عبقرية الإسلام للعجلاني ١٤٠ ـ ١٦٥ .

(٢) المرجع السابق .

عبدان ، أن النبي عليه السلام قال : الخلافة في قريش ، والحكم في الأنصار ، والدعوة في الحبشة . رجال موثقون .

٨ ـ مقارنة بين الخلافتين : الراشدية والأموية :

ليست الخلافة في عهد الدولة الأموية مَظْهَرَ الملك وأبهته، واستشعرت سطوة الحكم وعظمته فحسب ، فبعد أن كان الخلفاء الراشدون للناس كافة لا يمنعهم دون الخليفة حجاب ، وُجد في العهد الأموي الحجّاب ، والمقاصير في المساجد الجامعة .

فبعد أن كان عمر بن الخطاب من على منبر الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : من رأى منكم فيَّ اعوجاجاً فَلْيُقَوِّمْهْ . . قال عبد الملك بن مروان في خطبته بعد مقتل ابن الزبير : ولا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلاّ ضربت عنقه .

وبعد أن كان الخليفة يختلط بالناس كأحدهم في الأسواق والمجامع يأمر وينهي ويربي ويؤدب ، رأينا الوليد بن عبد الملك تُصرف له الناس من المسجد النبوي حينما أراد مشاهدته ، وأثر الصناعة فيه .

وبعد أن لم يكن للخليفة شارة يمتاز بها ، صِرنا نقرأ في الروايات عن قضيب الخلافة وخاتمها ، وننشد للوليد بن يزيد بن عبد الملك حين جاءه نعي عمه هشام بن عبد الملك :

طَابَ يَوْمي ، وَلَذَّ شُرْبُ السُّلاَفَهْ ... وَأَتَانَا نَعْيُ مَنْ بِالرُّصَافَهْ
وَأَتَانَا البَرِيدُ يَنْعى هِشَاماً ... وَأَتَانَا بِخَاتَمٍ لِلْخِلاَفَهْ

وبعد أن كانت الخلافة تختار من بيوت متعددة ، رأيناها في هذا العصر قد انحصرت في البيت السفياني في الخلفاء الثلاثة الأوَل ، ثم انتقلت للبيت المرواني حتى نهاية حكمهم ، وأخذ يختار كل خليفة منهم ولي عهده من أهل بيته ، ويبايع له في حياته[1] .

٩ ـ القضاء :

كان القضاء عملاً من أعمال الخليفة الأساسية ، لأن معناه فض الخصومات والمنازعات وفقاً للقانون الشرعي المأخوذ من الكتاب والسنة . فكان الخلفاء يباشرون هذا العمل بأنفسهم ، ويستفتون في الحكم إن كانت هناك حاجة إلى الإستفتاء أ والمشورة .

ولما كثرت المشاكل ، واتسعت البلاد بفعل الفتوحات ، فوضوا هذا العمل إلى من في مِكنتهم الإستنباط ، ولكنهم لم يتسموا باسم القضاة ، إلاّ من عَهِدَ إليهم عمر بن الخطاب ، فإنه بعث قضاةً إلى الأمصار ، ووضع لهم نموذجاً يسيرون عليه ، واستمر الحال على ذلك إلى آخر عهد الخلفاء الراشدين .

ولم يكن لأمراء الأمصار سلطان عليهم في قضائهم ، وكانَ تعيينهم من قبل الخليفة مباشرة ، وأحياناً يكتب الخليفة إلى الأمير أن يولي فلاناً قضاء بلده .

ويظهر لنا مما قرأناه من أخبار القضاة ، أنهم قلما يحتاجون القوة للتنفيذ ، لأن من يحكم عليه كان يبادر فوراً بتنفيذ ما قُضي عليه به من الحقوق ، فكان المتنازعون أقرب إلى المستفتين منهم إلى المتخاصمين .

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٦٣١ .

ويبدو لنا أن قضاء القضاة في عهد الراشدين كان قاصراً على فصل الخصومات المدنية أما القصاص والحدود ، فكانت ترجع إلى الخلفاء وولاة الأمصار[1] .

١٠ ـ قيادة الجيوش ..

كانت قيادة الجيوش من أعمال الخلافة ، فأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاد أول عملية في حروب الردة ، ولما لم يعد يمكنهم قيادة جميع الجيوش المرسلة ، أخذ الخلفاء يختارون لقيادة الجيوش أصحاب الكفاءات العالية ، وتكون طاعتهم واجبة كطاعة الخليفة ، طيلة عمليات الحملة والقتال ، وبعد إنتهاء الفتح وإستقرار الأمن ، يكون سلطان القواد قاصراً على تدبير أمور الجنود والنظر في معدّاتهم .

ولم تكن أسماء الجند ومعداتهم محصورة في ديوان ، إلّا في عهد عمر بن الخطاب ، فهو الذي بنى الدولة ودوَّن الدواوين لها ، وأحصاهم ، حتى صار يعرف جنود كل وجهة منم التحق منهم ومن تأخر عن وجهته ، ورتب لهم عمر الأرزاق من بيت المال ، ولم يكن لهم قبل ذلك رزق معين ، ثم أصبح لكل جند عرفاء يلون أمرَ الجنود ويقبضون أرزاقهم ويوزعونها عليهم . أما تعبئة الجيوش فقد استبعدَتْ طريقة الكر والفر ، ووضع للجند نظاماً ؛ وكان للجيش مقدمة تبدأ المناوشات ، وتستكشف ، وقلبٌ وفيه يكون أمير الجند ، ومجنبتان يمنى ويسري أو جناحان ، وساقة هي القوة الداعمه للجيش . ولكل فرقة من هذه الفرق الخمس أمير يأتمر بأمر القائد[2] .

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٤٥٥ وما قبل .
(٢) المرجع السابق ٤٥٨ .

١١ ـ الخراج والجباية ..

كان الخلفاء إبتداءً من عهد عمر يعينون عمالاً للجباية مستقلين عن العمال والقواد ، وقليلاً ما كانوا يكلون أمر الجباية إلى العمال . وكانوا يدفعون مما يجبون أرزاق الجند ومصاريف ما يأمر به الخليفة مما تقتضيه المصالح العامة ، والباقي يرسل إلى دار الخلافة ليصرف في اتجاهاته الشرعية .

وكانت هناك إيرادات ثابتة أو إعتيادية ، وإيرادات غير ثابتة .

أما الأولى : فهي الخراج ، والعُشر ، والصدقات ، والجزية .

ـ فالخراج ؛ وهو ما كان يوضع على الأراضي التي امتلكها المسلمون عُنوةً ، وتركوها في أيدي أهلها ، من ضرائب تؤخذ منهم ، وكأنها أجرة للأرض التي أبقيت في أيديهم . ولم يكن مقدارُ الخراج معروفاً في عهد الراشدين .

ـ أما الأراضي التي أسلم أهلها عليها ، وهي من أرض العرب أو العجم ، كالمدينة واليمن ، أو ملكها المسلمون عنوة وأهلها لا تقبل منهم الجزية كعبدة الأوثان من العرب ، فهذه أرضُ عشرٍ ، ومثلها الأراضي التي امتلكها المسلمون عُنوة وقسمت بين الغانمين . والعُشرُ : وهو عشر ما يخرج من الأرض .

ـ وأما الجزية : فهي ما كان يوضع على رؤوس أهل الذمة من الرجال دون النساء والأولاد ، وكانت تؤخذ منهم لقاءَ حمايتهم ، ودفعِ العدو عنهم ، وما يتمتعونَ به من مرافق الدوله ، ولم تكن تؤخذ من المسكين ولا من العاجز . وكانوا يقدرون الجزية على حسب أحوال الناس ويسارهم على ألّا تزيدِ عن ٤٨ درهماً في السنة ، ولا تنقص عن ١٢ درهماً .

ـ وأمّا الصدقات فكانت تؤخذ من المسلمين من جميع أموالهم ، وقد بينت الشريعة لكل نوع من الأموال نصاباً معيناً .

ـ العشور : عندما صار التجار المسلمون يدفعـون في أرض الحرب ضريبة بضائعهم التجارية ، كتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب يخبره بأن التجار المسلمين يؤخذ منهم عشر أموالهم ، فكتب إليه عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين ، فكان عمر بن الخطاب أول مَن عشَّرَ أهلَ الحرب .

١٢ ـ الغنائم :

أمّا الغنـائم فكانت تقسم أربعة أخماس على الغانمين ، والخمس الباقي يرد إلى بيت المال ليصرف في أوجهه الشرعية[1] .

١٣ ـ النقود :

كان العرب قبل الإسلام يتعاملون بنقود فارس من الذهب والفضة ، ولم يكن لهم سكة خاصة بهـم ، ولما جاء الإسلام لم يتغير هذا التعامل ، بل سار على تلك الحال مدة حكم الرسول وأبي بكر وقسماً من مدة عمر ، فلما افتتحت الفتوح على عهد عمر وتدفق الخير العميم رأى بثاقب بصره أن يعين وزن الدراهم ، لأنه نظر فرأى الدراهم الكسروية المسكوكة مختلفة الأوزان ، فمنها ما كان على وزن المثقال عشرين قيراطاً ، ومنها ما كان وزنه اثني عشر قيراطاً ، ومنها درهم وزنه عشرة قراريط .

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٤٦١ .

فأخذ عمر جميع هذه الأوزان الثلاثة وهي ٢٠ + ١٢ + ١٠ = ٤٢ قيراطاً ، وأخذ ثلثها وهو ١٤ قيراطاً من قراريط المثقال ، وضرب الدرهم على ذلك ، فكان كل عشرة دراهم تزن سبع مثاقيل لأن كلاً منها يساوي ١٤ فصارت النسبة بين الدرهم والمثقال كنسبة ١٠/٧ .

ويروى أنه رضي الله عنه زاد في نقش بعضها «الحمد لله» ووفي بعضها «لا إله إلاّ الله وحده» وعلى أخرى «عمر» ، ولما بويع عثمان ضرب في خلافته دراهم ونقشها «الله أكبر»[1] .

١٤ ـ الذميون والوظائف :

قال آدم متز : من الأمور التي تعجب لها كثرة عدد العمال والمتصرفين من غير المسلمين في الدولة الإسلامية ، فكان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الشام ، وقد قُلِّدَ ديوانَ جيش المسلمين لرجل نصراني مرتين أثناء القرن الثالث ، فوجه اللوم للوزير لأنه «جعل أنصار الدين وحماة البيضة يُقبِّلون يده ويمتثلون أمره» وكان المتصرفون النصارى واليهود يقسمون اليمين شأنهم شأن المسلمين[2] .

وقال : وكان الحسين بن القاسم يسعى دهره في طلب الوزارة ، وكان يتقرب إلى النصارى والكتاب من أجل الحصول على هذا المنصب .

وقال : ولما خرج الوزير عزّ الدولة إلى البصرة عام ٩٦٧ م استخلف أبا العلاء صاعد بن ثابت النصراني بالحضرة . و كذلك كان للخليفة الطائع كاتب

---

(١) المرجع السابق ٤٦٧ .

(٢) عبقرية الإسلام للعجلاني .

نصراني . وفي النصف الثاني من القرن الرابع اتخذ كل من عضد الدولة في بغداد ، والخليفة العزيز بالقاهرة وزيراً نصرانياً . . وقد ولّى المأمون على مدينة بورة بمصر عاملاً مسيحياً ، فكان إذا جاء يوم الجمعة لبس السواد وتقلد بالسيف والمنطقة، وركب برذوناً وقدامه أصحابه، فإذا وافى باب المسجد وقف ودخل خليفته (أي وكيله) وكان مسلماً ، فيصلي بالناس ويخطب للخليفة ثم يخرج إليه . . . .

وقال : وفي عهد العزيز بالله زاد بلاط الخليفة في إكرام النصارى ، وذلك أنه كان للعزيز أصهار مسيحيون منهم أرستس خال السيدة ابنة العزيز بالله ، وقد صُيِّر بطريركاً على بيت المقدس ، وصيَّر أخاه أرمانيوس مطراناً على القاهرة ومصر .

وقال : فلا عجب بعد، أن نجد الشاعر الحسن بن بشير الدمشقي يقول تعريفاً بهذه الحالة :

تَنَصَّرْ فَالتَّنَصُّرُ دِينُ حَقٍّ عَلَيْهِ زَمَانُنَا هَذَا يَدُلُّ

وقد يستنتج من أقوال الماوردي في كتابه «الأحكام السلطانية» ألا يجوز للذمي أن يكون وزير تفويض ، ولا أميراً ، ولا والياً للمظالم ، ولا قاضياً ، ولا محتسباً ، وإنما يستطيع ، أن يكون وزير تنفيذ ، وقاضياً بين أهل ملته ، وبالتالي موظفاً فنياً أو قائماً بعمل تنفيذي ، لا يكسبه سلطانا على المسلمين .

والواقع أن الخلفاء والملوك والأمراء كانوا يسترشدون أحياناً في تسمية الموظفين من أهل الذمة برأي الفقهاء ، ولكنهم لم يقيدوا أنفسهم دائماً بهذه الآراء ، وربما وجدوا في اختلافها ما يسَّر لهم الإستعانة في أعمال الدولة بمن أحبوا من النصارى واليهود . وتروي لنا كتب الفقه والسياسة أن أبا موسى الأشعرى ، عامل عمر بن الخطاب على البصرة ، استخدم أحد النصارى كاتباً له ، فقال له

عمر : قاتلك الله ، وليت ذمياً على المسلمين ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لي كتابته ، وله دينه !

فقال عمر : لا أُكرمهم إذْ أهانهم الله ، ولا أُدنيهم إذْ أقصاهم الله .

ورووا لعمر بن الخطاب أيضاً هذه المقولة «لا تستعملوا اليهود والنصارى ، فإنهم أهل رشا في دينهم ، ولا تحل في دين الله الرشا»[1] .

ومع ذلك ، فقد أشركوا المسيحيين واليهود في أعمال دولتهم ، وكانت هذه المشاركة تشتد أحياناً حتى تكاد تطغى . ومن ذلك أن معاوية استعمل على ديوان الخراج سرجون بن منصور ، وكان نصرانياً ، وابن أوثال النصراني على ديوان خراج حمص[2] .

١٥ ـ شمولية الإسلام كنظام للدين والدولة :

لقد انطوت نصوص الدين الإسلامي وتعاليمه على مبادىء أساسية في التشريع الإقتصادي والإجتماعي والعسكري ، وأثبتت الوقائع التاريخية أن الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية ، فمنذ تكونت دولته الأولى في عصر رسول الله ﷺ وبرز إلى الوجود مجتمعه الأصيل ، بأسلوبه الخاص في التنسيق بين الروحيات والزمانيات ، وبين العقيدة والتشريع ، وبين العبادات والمعاملات[3] .

---

(١) عبقرية الإسلام للعجلاني .
(٢) عبقرية الإسلام للعجلاني .
(٣) النظم الإسلامية للدكتور صبحي الصالح .

١٦ ـ الوزارة ..

الوزارة منصب رفيع يتولاه الوزير ، وهو أكبر الولاة ، ورئيس الدواوين ، وصاحب المشورة ، وأدنى الناس مجلساً من الخليفة[١] . وقد بلغ أمره في العصر العباسي أن أصبح الحاكم الأحد. فلمّا تقلد هارون الخلافة ، دعا يحيى بن خالد ، وكان يخاطبه بالأبوة ، وعلى ذلك أجراه في خلافته فقال له : يا أبت أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك ، وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقي إليك ، فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، فإني غير ناظر معك في شيء[٢] هذا هو الوزير ، كما عرفه لنا هارون الرشيد : نائب مفوض يحكم البلاد كلها باسم الخليفة ، وقد أطلقت يده في التولية والعزل ، والعطاء والحرمان ، لا يشاركه في ذلك أحد . وهذا أعلى ما وصل إليه الوزير في عصور الخلافة المختلفة ، ولكنه لم يكن دائماً على هذه الحال[٣] .

وقال ابن طباطبا : الوزارة التي لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلاّ في دولة بني العباس ، وأمّا قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فإذا حدث أمر استشار ذوي الآراء الصائبة والحجج المقنعة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير . فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة ، وسمي الوزير وزيراً ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً[٤] .

---

(١) عبقرية الإسلام للعجلاني ٢١٢ .
(٢) نقلاً عن كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري .
(٣) عبقرية الإسلام .
(٤) المرجع السابق ٢١٤ .

ويقول فريق من المؤلفين ، كصاحب التراتيب الإدارية «الكتاني» : إن الوزارة ظهرت في عهد النبي ﷺ ، وهم يحتجون بهذا الرأي بحديث جاء فيه : «وزيراي من أهل السماء جبريل وميكائيل ، ووزيراي من أهل الأرض أبو بكر وعمر» أخرجه الترمذي ، ولعله مصنوع .

ويرجع مؤلفون آخرون بأن الوزارة ظهرت مع الخلافة الأولى ، فكان عمر وزير أبي بكر ، وعثمان وعلي وزيري عمر ، وعلي ثم مروان بن الحكم وزيري عثمان ،وعمرو بن العاص وزياد وغيرهما وزراء معاوية بن أبي سفيان .

أما أكثر المؤلفين فيتفقون على أن الوزارة لم تظهر إلّا في العصر العباسي ، وقد يزعم بعضهم أن العرب إنما قلدوا ملوك فارس من آل ساسان ، وأخذوا عنهم في ترتيب الوزارة كل شيء .

وقد جاءت كلمة وزير في القرآن الكريم ، واستعملت العرب هذه الكلمة في صدر الإسلام ، فإن الرسول ﷺ إذا صح الحديث السابق ، فقد لقب أبا بكر وعمر بلقب الوزارة ، ولما خطب أبو بكر الأنصارَ في سقيفة بني ساعدة ، قال لهم : «نحن الأمراء ، وأنتم الوزراء» . وكان غير واحد من الأمراء الأمويين يخاطب أو يوصف بلقب وزير .

فالكلمة قديمة ، ما في ذلك شك ، ولكنها إنما تعني المشير والمؤازرة ، ولم تعن الموظف المخصوص ، الذي ولّاه الخليفة إدارة الدولة[1] .

وأول وزير بالمعنى الأخير هو «أبو سَلَمَةَ الخلال» استوزره الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح ، وكان أبو سلمة قبل ذلك رئيس دعاة العباسيين .

---

(١) عبقرية الإسلام للعجلاني ٢١٢ .
(٢) المرجع السابق ٢١٣ .

وكان الخلفاء الغباسيون بعد ذلك يستعملون وزيراً واحداً ، يدير أمور الدولة كلها تحت إشراف الخليفة الأعلى . ولم يعرف تعدد الوزراء إلاّ في أواخر العهد العباسي ، زمن عضد الدولة ، وبعض من ورث السلطان عنه ، وكان ذلك من البدع التي لم يقدَّر لها أن تعيش طويلاً .

أما بلاد الأندلس فقد كان تعدد الوزراء فيها من الأمور المألوفة[1] .

وقال ابن خلدون : « . . وأما دولة بني أمية بالأندلس ، فألفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا خطته أصنافاً ، وأفردوا الكل صنف وزيراً ، فجعلوا لحسبان المال وزيراً ، وللترسيل وزيراً ، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً ، وللنظر في أحوال الثغور وزيراً . . وأفردوا للتردد بينهم وبين الخليفة واحداً منهم ، ارتفع عنهم بمعاشرة السلطان في كل وقت ، فارتفع مجلسه عن مجلسهم ، وخصوه باسم (الحاجب) ، ولم يزل هذا الشأن إلى آخر دولتهم ، فارتفعت خطة الحاجب على سائر الرتب .

١" ـ نوعا الوزارة :

وقد قسم الماوردي في كتابه «الأحكام السلطانية» الوزارة إلى ضربين :

١ ـ وزارة تفويض : وهي أن يستوزر الإمام من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وامضاءها على اجتهاده .

٢ ـ ووزارة تنفيذ : وهي التي لا يكون لصاحبها تدبير الأمور باجتهاده ، وإنما يكون عمله فيها قاصراً على تنفيذ أوامر الخليفة والتزام آرائه ، وهذا الوزير وسيط بين الخليفة وبين الرعايا والولاة ، يؤدي عنه ما أمر ، وينفذ ما ذكر ، ويمضي

---

(١) المرجع السابق .

ما حكم ، ويخبر بتقليد الولاة ، وتجهيز الجيش والحماة ، ويعرض عليه ما ورد منهم ، فهو معينٌ في تنفيذ الأمور وليس بوال عليها ولا متقلدٍ لها[1] .

ويستوجب «الماوردي» من وزير التفويض أن يكون جامعاً للخصال المطلوبة في الخليفة ، وينقص عنه في واحدة ، وهي النسب ، ويزيد في واحدة وهي المعرفة بأمري الحرب والخراج ليباشرهما بنفسه ، أو يختار منا يباشرونها تحت اشرافه[2] .

ولا يشترط الفقهاء في وزير التنفيذ أن يكون حراً ، ولا أن يكون عالماً ، ولكنهم اشترطوا أن يكون رجلاً ، وأجازوا أن يكون من أهل الذمة[3] .

٢" ـ مستوى الوزارة :

كان الوزراء يختارون من بين أصحاب الأقلام أو السيف أو المعرفة بالمسائل المالية ، وأكثر الوزراء في أوائل العهد العباسي كانوا من الأدباء ومن محبي الأدب .

ثم كان انحطاط الدولة ، فرأينا في الوزارة من لا توجد بين صفاته وبين شروط الفقهاء صلة ، لا قريبة ولا بعيدة .

وحدثنا التاريخ أن الخليفة المقتدر بالله مثلاً ، استوزر الخاقاني ، فكان سيىء الرأي ، سيّىء التدبير ، سيّىء الضمير ، فقال فيه «الصابي» إن دستنبويه أم ولد المعتضد بالله ، هي التي قامت بأمره مع الخليفة المقتدر لأنه بذل له مئة ألف دينار[4] .

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي وعبقرية الإسلام للعجلاني ٢٢١ .
(٢) عبقرية الإسلام للعجلاني ٢٢٢ .
(٣) المرجع السابق ٢٢٣ .
(٤) المرجع السابق ٢٢٥

١٧ ـ تاريخ الإمارة :

كان معظم الأمراء في العهد الأموي يجمعون بين الصلاة والخراج ، وأما في العهد العباسي ولاسيما في عهد المنصور ، فقد كانوا يستثنون أحياناً الخراج من ولاية الأمير ، ويجعلونه لعامل مخصوص يسمى صاحب الخراج ، أو أن يكون له اسم آخر[١] .

والتفريق بين الصلاة والخراج ، أو بين سلطة السياسة وسلطة المال القديم يعود إلى أيام النبي عليه الصلاة والسلام ، فقد استعمل فروة بن سهيل على مراد وزبيد ومذحج ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة[٢] .

أمّا القضاء فقد كان الخلفاء الأوائل ربما وَلُّوا القضاء في الأقاليم قضاةً من قبلهم ، يقتصر عملهم على الفصل في الخصومات الدينية ، ولم يكن هذا مما يكترث له الأمراء ويرغبون فيه ، وكانو هم أنفسهم يدفعونه إلى قضاة يختارونهم ، إذا لم يفعل ذلك الخليفة ، ثم نشأ منصب قاضي القضاة ، فكان حق تولية القضاة في الإمارات ، راجعاً إلى صاحب هذا المنصب[٣] .

وكان الخليفة إذا ولّى أميراً على جهة ما ، كتب له بذلك كتاباً يسمى «التقليد» أو «العهد» يحدد له فيها مهمته ويوصيه بالآداب التي ينبغي له التجمل بها ، والسياسة التي يلزمه اتباعها .

ومن صور ذلك ما كتبه علي بن أبي طالب إلى الأشتر النخعي : «هذا ما أمر به عليٌ أمير المؤمنين ، مالكَ بن الحرث الأشتر ، في عهده إليه حين ولّاه مصر ،

---

(١) عبقرية الإسلام للعجلاني ٢٨٢ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق ٢٨٤ .

جباية خراجها ، وجهاد عدوها ، واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها ، آمره بتقوى الله وإيثار طاعته ، واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسنته التي لا يسعد أحد إلّا باتباعها»[1] .

ومن صور ذلك في العصر العباسي العهد الذي عمله «الصابي» عن الخليفة الطائع لله إلى فخر الدولة بن بويه ، وقد ذكرت فيه ولايات الأمير كلها وأغفلت ولاية القضاء المدني . .

وهذه فقرات من هذا العهد :

«هذا ما عهد به عبدالله عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين إلى فخر الدولة أبي الحسن بن ركن الدولة أبي علي ، مولى أمير المؤمنين ، حيث عرف غناءه وبلاءه ، واستصحح دينه ويقينه . . فقلَّدَهُ : الصلاة ، وأعمال الحرب ، والمعاون ، والأحداث ، والخراج ، والأعشار ، والضياع ، والمظالم ، وأسواق الرقيق ، والعيار في دور الغرب . . أَمَرَهُ بتقوى الله ، التي هي العصمة المتينة ، والجنة الحصينة . . وأن يتأدب بآداب الله في التواضع والأخبات ، والسكينة الوقار . . وَأَمَرَهُ أن يراعي أحوال مَنْ يليه من طبقات جند أمير المؤمنين ، ومواليه ، ويطلق لهم الأرزاق في وقت الوجوب والاستحقاق . . وأمره بأن يعمد لما يتصل بنواحيه من ثغور المسلمين ، ورباطات المرابطين . . ويختار لها أهل الجلَد والشدة .

وأمره أن يعرض مَن في حبوس عمله ، فمن كان اقراره واجب أقره ، ومن كان اطلاقه سائغاً أطلقه ، وأن ينظر في الشرطة والأحداث نظر عدل وإنصاف ، ويختار لها من الولاة من يخاف الله ويتقيه .

(١) المرجع السابق ٢٩٠ .

١٨ ـ اختيار الامراء :

كان عمر بن الخطاب يختار أمراءه من أصحاب الأمانة والزهد ، وكان لا يولي كبار أصحاب النبي وأقربائه ، ولا يستعمل الرجل الذي يطلب الإمارة .

وفي العهد الأموي كانوا يرغبون في الرجل القوي ، وقد وفق بعض خلفاء بني أمية في اختيار عمالهم توفيقاً عظيماً ، وربما استعملوا أبناءهم وأقرباءهم لولائهم المضمون .

وجاء العباسيون ، فجروا على سنة الأمويين في تفضيل الأقرباء ، إلاّ أنهم اعتمدوا غير العرب فاستعملوا الموالي والأعاجم .

١٩ ـ ما المقصود بالأمير :

كان علماء السياسة الشرعية يستعملون كلمة أمير في موضعين اثنين :

الأول : أمير الجيش ، أي قائده .

الثاني : أمير البلاد . وهو كالوالي في العصر التركي ، والمحافظ في العصر الحاضر ، وكانوا يستعملون كلمتي عامل ، ووالٍ ، في هذا المعنى أيضاً .

ولعل كلمة أمير الإدارية مأخوذة من الإمارة الحربية ، فإن الخليفة كان يأمر الرجل على جيش الفتح ، فإذا كتب الله له الظفر فقديستبقيه عاملاً على البلاد المفتوحة ، فيسميه الناس باسمه الذي عرفوه به من قبل[1] .

وكان الخليفة يدير الأمور في عاصمة ملكه ، وأما البلدان والأقاليم القريبة والبعيدة فكان يحكمها الأمراء . ومن يتصفح كتب التاريخ يجدْها تستعمل في كلامها على ولاية الأمراء تعبيرين :

---

(١) عبقرية الإسلام للعجلاني ٢٨١ .

الأول : الإمارة على الصلاة والخراج .

الثاني : الإمارة على الصلاة وحدها .

ولم تكن كلمة الصلاة لتعني في نظر المؤرخين إمامة الناس في صلواتهم فقط ، وإنما كانت تعني الولاية عليهم في جميع الأمور ، الدينية ، والسياسية ، والحربية ، والقضائية ، والإدارية ، باستثناء جباية الأموال .

فإذا جمع الأمير الصلاة والخراج كانت إمارته عامة في لغة السياسة الشرعية . وإن قصروا إمارته على الصلاة ، فهي إمارة خاصة[1] .

---

(١) عبقرية الإسلام للعجلاني ٢٨٢ .

الفصل الثاني
نظام الخلافة بين الواقع والمثال

أولاً - الواقع والمثال .
ثانياً - بذور ديمقراطية .
ثالثاً - من الخلافة إلى الملكية المستبدة .
رابعاً - الطاغيه العباسي .
خامساً - الخاتمة .

نظام الخلافة بين الواقع والمثال

أولاً ـ الواقع والمثال :

لابدُ لنا ونحن نتحدثُ عن الخلافة الإسلامية ، أو الدولة الإسلامية ، أن نُفرق بين الدولة التي يُقرها الإسلام ، أو الصورة المثالية الرائعة للدولة الإسلامية ، كما يستخرجها الفقهاء والمفكرون من الكتاب والسنة ، وبين الدولة الإسلامية الواقعية على نحو ما ظهرت عليه في مجرى التاريخ ، أو بين ما يسمى في الإصطلاحات القانونية «جانب التطبيق العملي ، وجانب التشريع النظري»[1] .

فإذا ما تحدث بعض الفقهاء والمفكرين عن نظام الحكم في الإسلام ، الذي يوجبُ إسناد الأمر إلى إمام فاضل عالم حسن السياسة . . . الخ ، يمنع الظالم وينصف المظلوم ، وأن يكون عادلاً لئلّا يجورَ ، عاقلاً ليصلح التصرفات ، بالغاً لقصور عقل الصبي ، ذكراً إذِ النساء ناقصات عقل ودين ، حراً لئلا تشغلَه خدمة السيد ، فهذه الصفات مشروطة بالإجماع[2] ؛ كان علينا أن نكون على وعي بأن

(١) الطاغية للدكتور إمام عبد الفتاح إمام عالم المعرفة العدد ١٨٣ .
(٢) نظام الحكم في الإسلام للدكتور محمد يوسف موسى صفحة ٢٥ ـ ٥٧ دار الكتاب العربي .

هذه الصفات شروط مثالية ، تتحدث عما ينبغي أن يكون عليه . ويستخرجها المفكرون من الكتاب والسنة لتشكيل صورة مثالية لما ينبغي أن تكون عليه الدولة في الإسلام . وهي صورة تختلف كثيراً عن الدولة التي ظهرت طوال التاريخ الإسلامي ، والتي قد نجد فيها ألواناً من الظلم لا حدَّ له[1] وقد نجد من الحكام من لا يعرف من العدل شيئا ، لاسيما في معاملة خصومه ، كما فعل السفاح مع بني أمية ، وقد يأسر الخليفة عمه ، ثم يقتله ! وقد يكون غادراً كالمنصور ، فأول ما فعل عندما تولى الخلافة أن قتل أبا مسلم الخراساني صاحب دعوتهم وممهد مملكتهم[2] ، وقد يكون قاسياً جباراً كالوليد بن يزيد (١٢٥ ـ ١٢٦ هـ) الجبار العنيد . . . فرعون ذلك العصر والدهر المملوء بالمصائب ، الذي يأتي يومَ القيامة يتقدم قومه فيوردهم النار ، ويصفه السيوطي بأنه كان فاسقاً شريباً للخمر منتهكاً حرمات الله ، أراد أن يحج ليشرب فوق ظهر الكعبة ، فمقته الناس لفسقه[3] . وكالوليد بن عقبة ـ أخو عثمان لأمه ـ الذي عينه عثمان بن عفان والياً على الكوفة ، وكان يشرب الخمر مع ندمائه ومغنيه من أول الليل إلى الصباح ، فلما أذَّنَ المؤذنُ تقدم إلى المحراب في صلاة الصبح ، فصلى بالناس أربعاً ثم استدار قائلاً لهم : أتريدون أن أزيدكم ؟ فقال له من كان خلفه في الصف الأول : ما تزيد ، لا زادك الله من الخير ، والله لا أعجب إلاّ ممن بعثك إلينا والياًوعلينا أميراً[4] . وإلى غير ذلك مئات المئات من القصص والأحداث التي تروي عن الحكام طوال تاريخنا ، ممَّن لم يكن ينطبق عليهم قطُّ الشروط المثالية للحاكم المسلم . بل إننا يمكن أن

(١) ضحى الإسلام ص٤٣ لأحمد أمين .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٦٠ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٥٠ ـ ٢٥٢ .
(٤) مروج الذهب للمسعودي ٣٤٤/٢ .

نستمر في سرد وقائع التاريخ في الدولة الإسلامية لنجد أن المرأة حكمت بالفعل ، كما حدث في مصر أيام شجرة الدر في نهاية الدولة الأيوبية وبداية عصر المماليك الذين يخالف حكمهم شرطاً آخر ، هو أن يكون الحاكم حراً لا عبداً !

وليس في ذلك انتقاص لنظام الحكم في الإسلام ، فهذه كلها ضروب من الحكم اتخذت زياً إسلامياً في ظرهرها ، لكنها لم تكن كذلك في الحقيقة ، لأن الإسلام يوجب العدل ، والشورى ، ورضا الناس عن الحاكم . . . الخ .

ونقول مرةً أخرى ؛ علينا ألاّ نخلطَ بين الصورة المثالية لما ينبغي أن تكون عليه الدولة في الإسلام ، والصورة الواقعية التي ظهرت في مسيرة التاريخ الإسلامي . بل إن من الباحثين من يفرق في الجانب النظري نفسه و بينْ ما يمكن أن يسمى نظريات إسلامية ، كالأفكار التي قررها علماء الفقه والكلام والمؤرخون ، وكانت مصادرها القرآن أو السنة أو الإجماع . . وبين مجموعة النصائح والحكم والإرشادات العملية التي تُوجَّه إلى الملك أو الأمير أو الحاكم تَهْدِيهِ إلى أن يجعل سياسته حسنة مع الرعية ، وتبين له الطريقة التي ينجح بها أو يستبقى بها ملكه ، ويمكن أن تسمى (بالآداب السياسية) وهي في الغالب مأخوذة من حكم الفرس أو الروم أو الهند[1] .

إن الخلط بين هذين الجانبين (ما ينبغي أن يكون) و (وما كان وما هو كائن) يجعلنا نخطىء كثيراً في فهم الواقع الذي نعيشه ، وفي تصورنا للمستقبل الذي نرسمه ، مما يترتب عليه الكثير من المجادلات التي هي مضيعة للوقت والجهد .

---

(١) النظريات السياسية الإسلامية ص ٧ لمحمد ضياء الدين الريس مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٢ .

ويحذِّرُ فقيه مصر الأول الدكتـور عبد الرزاق السنهوري من الخلط بين هذين الجانبين ، بحيث نعتبر المثالَ مسؤولاً عما حدث في أرضِ الواقع ، يقول : «نظام الخلافة لا يمكن أن يكون مسؤولاً عن الفتن التي حدثت في الدولة الإسلامية ، أو عن عدم إحترام الحكام لقواعده وأحكامه ، كما أن وقوع الفتن والخلافات ظاهرة يتسم بها تاريخ الدول جميعاً ، ولا يمكن القول إن المسلمين كانوا يشذون عن هذه الظاهرة ، أو إنهم أخذوا بنظام آخر للحكم . في رأينا أنه لا محل للزعم الخاطىء والذي يردده كثيرون قائلين : إن الخلافة كانت هي مصدر المساوىء التي شهدها التاريخ الإسلامي . فالحقيقة هي أنه إذا بحثنا عن سبب الإستبداد الذي مارسته بعض الحكومات الإسلامية زمناً طويلاً ، فإنه لم يكن نظام الخلافة ، بل هو خروج هؤلاء الحكام عن مبادئه وأهدافه»[1] .

وإذا كان هناك «واقع ومثال» في الدولة الإسلامية ، فإن ما يهمنا في هذا البحث هو الواقع ، أو ما حدث خلال التاريخ الإسلامي الطويل ، وذلك لثلاثة أسباب :

١"ـ إن ما حدث في تاريخ الدولة الإسلامية هو الذي أثّر فينا ، ولايزال ، بل ترسَّب في أعماقنا ، حتى أصبحنا ندهش إنْ قال لنا أحد : إن هناك ألواناً أخرى من الحكم اسمها «الحكم الديمقراطي» وقلنا له : إنه نظام غربي ، لا يصلح لنا ! . . . أو لجأنا إلى المثال لنقول : إن عندنا هذا الضرب من الحكم بأسماء أخرى .

٢"ـ إن هناك من يطالب بعودة مثل هذا النوع من الحكم ـ بدافع البحث عن هوية تمكننا من مواجهة النظم العالمية ـ مع الخلط المستمر بين الواقع والمثال ،

---

(١) فقه الخلافة وتطورها ص ٣٩ .

والإنتقال بحرية من أحدهما إلى الآخر . فمعرفة الواقع تساعدنا كثيراً على معرفة أسباب انحرافه عن المثال .

٣" ـ إن الدراسة المتأنية للواقع التاريخي لهذه الحقبة تكشف لنا أنها كانت حلقة وسطى بين تاريخنا القديم في الشرق ، حيث ساده طُغيان الحاكم المتأله ؛ في مصر ، وبابل ، وأشور ، وفارس . . . الخ ، وبين الطغيان الحديث والمعاصر الذي تألّه فيه الحاكم أيضاً في هذه البلدان نفسها ! ، وبالتالي فقد ساد الطغيان في تاريخنا القديم ، والوسيط ، والحديث ، مما جعل الطغيان الشرقي نموذجاً أعلى للطغيان في العالم ، وخلق عند المواطن الشرقي طبيعة خاصة تجعله يستسلم بسهولة لمثل هذا اللون من الحكم الظالم ، بل ويتقبله ، وأحياناً يسعى إليه دون أن يجد في ذلك حرجاً ولا غضاضة ! .

لقد كان أرسطو يقول : إن الرجل الحرَّ لا يستطيع أن يتحمل حكم الطاغية ، ولهذا فإن الرجل اليوناني لا يطيق الطغيان ، بل ينفر منه . أمّا الرجل الشرقي فإنه يجده أمراً طبيعياً ، فهو نفسه طاغية في بيته ، يعامل زوجته معاملة العبيد ، ولهذا لا يدهشه أن يعامله الحاكم هو نفسه معاملة العبيد .

وغرضنا هنا أن نهتم بالطغيان في تاريخنا الوسيط ـ تاريخ الدولة الإسلامية ـ الذي ارتدى فيه الحاكم عباءة الدين ! إذْ يكفي هنا أن نقول مع الدكتور السنهوري :

«نحن لا نحاول إنكار الحقائق التاريخية ، فتاريخ الخلافة الناقصة ، منذ عهد الأمويين ومَنْ بعدهم ، مليء بأنواع إساءة السلطة . وإن كان هذا الإستبداد مصدره خروج هؤلاء الحكام على قواعد الخلافة الشرعية»[1] .

---

(١) فقه الخلافة الإسلامية للدكتور السنهوري صفحة ٣٩ .

وعلينا أن نتبين بوضوح وجلاء ما يقوله لنا هذا الفقيه النابه ، رغم دفاعه القوي عن الخلافة ، ومحاولته تطويرها لتصبح عصبة أمم شرقية ، من أن : «ما نسميه اليوم بطريقة الإنتخابات لم يعرفها العالم الإسلامي في صورة عملية واضحة ، وسبب تقصير فقهاء المسلمين في كل ما يتعلق بالإنتخابات هو : تحول الخلافة الشرعية إلى ملكية وراثية في وقت مبكر»[1] .

ثانياً ـ بذور ديمقراطية :

توفي النبي ﷺ دون أن يحدد من يخلفه ، فثار الخلاف بين المسلمين على منصب الحاكم قبل أن يوارى الثرى جثمانُه الطاهر . والواقع أن هذا الخلاف كان أمراً طبيعياً ، وظاهرة صحية بين المهاجرين والأنصار ، فكأننا أمام أحزاب سياسية تتناقش وتتجادل ، وتنتهي إلى رأي تأخذ به الأغلبية . على هذا النحو اجتمع الفريقان تحت سقيفة بني ساعدة ، ليختاروا خليفة . فرشح الأنصار من بينهم بسيد الخزرج سعد بن عبادة الذي قام فيهم خطيباً ، فقال : «يا معشر الأنصار لكم سابقة في الدين ، وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب . . نحن أنصار الله ، وكتبة الإسلام ، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط نبينا . .»[2] . وأسرع أبو بكر وعمرو مجموعة من المهاجرين إلى السقيفة خشية ألّا ينظر الأنصار في الأمور إلّا من جانب واحد هو جانبهم ، ودار نقاش طويل حاول البعض أن يصل فيه إلى حل وسط ، فدعا الحباب بن المنذر إلى رأي ثالث ، هو إمكان اقتسام السيادة ، أو تعدد الإمارة ، أي أن يكون هناك خليفتان ، وذلك حين

(١) المرجع السابق صفحة ١٣٥ حاشية ١ .

(٢) تاريخ الإسلام ٣٥٢/١ للدكتور حسن إبراهيم حسن مكتبة النهضة ١٩٩١ .

قال : «منا أمير ومنكم أمير» وكثُـر اللغط وتعالت الأصوات على حدِّ قول ابن كثير[1] .

وما درى الحاضرون في هذا الإجتماع أنهم يعقدون أهم إجتماع أو مؤتمر في تاريخ الإسلام كله . وما أشبهه بجمعية وطنية أو تأسيسية تبحث مصير أمة لأجيال عديدة لاحقة ، وتضع دستوراً يكون أساساً لحياتها في المستقبل[2] . إلى أنْ حسمَ عمرُ بن الخطاب النقاش بحجج قوية ، منها أن رسول الله أمر أبا بكر أن يؤُمَّ الناس ، وأنه ثاني اثنين إذْ هما في الغار ، ثم تساءل في براعة : من منكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر ؟

فقالت الأنصار : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر !![3]

فقال : ابسط يدك يا أبا بكر نبايعك .

فبسط يده فبايعه ! ثم بايعه المهاجرون والأنصار تحت السقيفة فيما يسمى بالبيعة الأولى ، أو البيعة الخاصة ، أو الصغرى .

وقد وصف الأستاذ ماكدونالد B.D.Macdonald إجتماع السقيفة بقوله : «إن هذا الإجتماع يذكِّر إلى حد بعيد بمؤتمر سياسي دارت فيه المناقشات وفق الأساليب الحديثة»[4] .

---

(١) البداية والنهاية ٢١٦/٥ عام ١٩٨٥ .
(٢) النظريات السياسية الإسلامية ص ٢٣ للدكتور محمد ضياء الدين الريس مكتبة الأنجلو المصرية عام ١٩٥٢ .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٢١٦/٥ .
(٤) نقلاً عن النظريات السياسية الإسلامية ص ٢٤ .

ثم وقف أبو بكر في اليوم التالي ـ فيما يسمى بالبيعة العامة ـ خطيباً يلقي على الناس بياناً يحدد فيه برنامجه السياسي : «أيُّها الناس ! إني قد وُلِّيت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإنْ أسأتُ فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أزيح عنه علته إنْ شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . . .»[1] .

ورغم نجاح الخليفة الأول بالأغلبية المطلقة ، فقد كانت هناك ضروب كثيرة من المعارضة . ويحاول البعض إخفاءها دون أن ندري لذلك سبباً ، مع أنها ظاهرة صحية ، وكأن أي ضرب من المعارضة أو الرأي المخالف شذوذ لايجوز ذكره !!

كانت هناك آراء معارضة لإختيار أبي بكر ، فلم يبايعه سعد بن عبادة وخرج إلى الشام ، وكذلك الزبير بن العوام ـ ابن عمة الرسول ـ وكذلك علي بن أبي طالب الذي قال لأبي بكر معترضاً : «لقد أفسدت علينا أمرنا ، لم تستشر ولم ترع لنا حقاً . . .»[2] .

ولم يغضب أبو بكر أو ينفعل ، أو يجد في هذا القول جريمة لا تغتفر ، بل أجاب في هدوء الرجل الديمقراطي الذي يتقبل الرأي الآخر بصدر رحب : «بلى ! ولكني خشيت الفتنة ، وكان للمهاجرين والأنصار يوم السقيفة خطب طويل ، ومجاذبة في الإمامة . . .»[3] .

---

(١) ابن كثير في البداية والنهاية ٢١٨/٥ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٦٩ .
(٢) مروج الذهب للمسعودي ٣٠٧/٢ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٠٨ .

وعلى الرغم من أن خلافة أبي بكر لم تستمر أكثر من عامين وثلاث أشهر ، كانت الدولة فيها لاتزال تتخلق ، فإنها وضعت الكثير من البذور الديمقراطية المهمة :

آ ـ فأبو بكر لم يتول الحكم بحد السيف ، على نحو ما فعل الأمويون والعباسيون فيما بعد ، وإنما بعد نقاش ديمقراطي حر كانت فيه حرية الرأي مكفولة للجميع ، فدار بين الفريقين نقاش طويل أدلى فيه كل فريق بدلوه ، وعرض حججه في الهواء الطلق .

ب ـ كانت هناك معارضة حقيقية ، فبعض المسلمين رفض أن يبايع أبا بكر ، والبعض الآخر بايعه بعد فترة طويلة ؛ دون أن يكون المعارض شاذاً أو هادماً للنظام أو متآمراً . . . إلى آخر الألقاب التي ظهرت بعد ذلك ، واستمرت معنا حتى الآن .

جـ ـ وفي خطابه بعد البيعة ، وضع أبو بكر أساساً مهماً من أسس الديمقراطية ، وهو مراقبة الشعب للحاكم ومحاسبته إنْ أخطأ ، وذلك يعني بالطبع بقاء الحاكم رهن بسيرته وبرضا الناس عنه .

د ـ نحن أمام نظام جديد للحكم لايزال يتشكل ، بعد عهد النبوة ، فليس هناك لقب معروف للحاكم ، أو اسم متفق عليه من الجميع .

هـ ـ ولك أن تقول الشيء نفسه بالنسبة لدخل الحاكم أو راتبه ، فمن أين ينفق ؟ وكم من المال يأخذ ؟ تلك مسألة بالغة الأهمية ظهرت في عهد أبي بكر وعمر ، ولم تظهر بعد ذلك قط ، إذ كان بيت المال هو بيت الخليفة أيضاً ، فلم يحدث أن حدد مبلغ من المال ـ بعد عهد الخلفاء الراشدين ـ للخليفة الأموي أو

العباسي ، أو من جاء بعد ذلك طوال التاريخ الإسلامي . فهو من حقه أن يغرف من بيت المال كما يشاء .

أمّا فيما يتعلق بلقب الحاكم ، فبعد أن بويع الصدّيق ناداه بعض الناس : «يا خليفة الله !» لكن أبا بكر نهى عن ذلك ، وقال : «لست خليفة الله ، لكني خليفة رسول الله ، لأن الإستخلاف حق في الغائب ، أمّا الحاضر فلا»[1] .

أمّا فيما يتعلق براتبه ، فلما بويع الخليفة الأول ، أصبح وعلى ساعده أبراد وهو ذاهب إلى السوق ، فالتقى به عمر بن الخطاب وسأله : أين تذهب ؟
قال : أبو بكر : إلى السوق .
فقال : وماذا تصنع في السوق ، وقد وُلِّيت أمر المسلمين ؟!
قال أبو بكر : فمن أين أطعِمُ عيالي ؟
فقال : انطلق يفرض لك أبو عبيدة .
ففرضوا له قوت رجل من المهاجرين ، وكسوة للشتاء وأخرى للصيف . . . الخ[2] .

مرة أخرى لابد أن نضع في أذهاننا أن نظام الحكم في هذا العهد المبكر كان يتخلق ويتشكل ، بعد عهد للنبوة لا قياس عليه ، ويسير سيراً حثيثاً نحو بناء الدولة وقيام حكومة لم يعرفها العرب في الجاهلية «فلم يكن للعرب نوع من الحكومات المعروفة الآن ، ولم يكن لهم قضاء يحتكمون إليه ، أو شرطة تُقِرُّ الأمن والنظام ، أو جيش يدرأ عنهم الأخطار الخارجية»[3] فهذه كلها أمور جديدة أضف

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٢/٣٠٩ .
(٢) تاريخ الخلفا للسيوطي ص ٧٨ .
(٣) تاريخ الإسلام ١/٤٦ للدكتور حسن إبراهيم حسن .

إليها : كيف يتولى الحاكم ؟ وكيف يكون لقبه ؟ وكيف يحاسب على أعماله ؟ وكيف يتحدد راتبه ؟ وكيف تكون البيعة ؟

ولما أحسَّ أبو بكر أنه موشك على لقاء ربه جمع الناس ، وقال لهم : «إنه قد نزل بي ما ترون ، ولا أظنني إلاّ ميتاً لما بي من مرض ، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي ، وحل عنكم عقدتي ، وردَّ عليكم أمركم ، فأمـرّوا عليكم من أحببتم . .»[1] .

ومعنى ذلك أن أبا بكر عندما شعر بقرب وفاته ، دعا الناس إلى اختيار حاكم جديد يرتضون حكمه ونزاهته دون أن يفرض عليهم أحداً ، وهو يرى أن بيعته انتهت ، وهُم في حلٍ منها . غير أن المسلمين بعد أن تشاوروا في الأمر لم يستطيعوا الإجماع على إسناد الحكم إلى واحد منهم ، فرجعوا إليه ووكلوه في أن يختار لهم من يرى فيه صلاحاً وخيراً للأمة . فطلب إمهاله حتى ينظر في الأمر . وراح يجري مشاوراته مع أولي الأمر ، وكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار معاً ، فجعل يدعوهم واحداً بعد الآخر ، ليقف على آرائهم في هذا الأمر الخطير ، ثم خرج عثمان بن عفان ليعلن على المسلمين أن الرأي قد استقر على ترشيح عمر بن الخطاب ، وسألهم إذا كانوا يقبلون مبايعته ، فأقبل أكثرهم على بيعته ، ولم يحاول أحدٌ فرض رأيه على من رفض البيعة .

والحق أنّ أبا بكر عندما رشح عمر بن الخطاب ، وضع مبادىء أساسية في الحكم الديمقراطي ، بعضها جديد تماماً ، عندما قال في كتابه : «إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ، فإنْ برَّ وعدل فهذا علمي به ، وإنْ جار وبدَّل فلا علم لي بالغيب ، والخيرَ أردت . .» .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٧٨ .

ويلاحظ في اختيار عمر بن الخطاب أمران خطيران :

الأول : أن أبا بكر علّق خلافة عمر على رضا الناس .

الثاني : أن أبا بكر لم ينتخب أحداً من أبنائه أو أقاربه[1] .

فضلاً عن أن أبا بكر لم يعلن أن عمر لا يخطىء ، بل قال : «إنْ برَّ وعدَل» فهذا ما أعرفه عنه ، وإن جار وتغيَّر سلوكه ، فهو احتمال لا يعلمه إلاّ الله .

وعندما تولى عمر الخلافة ، حدّد سياسته في هذه العبارة الجامعة : «ألا مَن رأى منكم فيَّ اعوجاجاً ، فلْيقوِّمه ، ما أنا إلاّ أحدكم ، منزلتي منكم كمنزلة وليّ اليتيم منه ومن ماله» .

وقد كان عمر شخصية فذة ، فمثلاً لم يكن هناك قضاء في عهد أبي بكر ، «ولكن عندما تولى أبو بكر الخلافة ، أسند القضاء إلى عمر بن الخطاب ، فظل سنتين لا يأتيه متخاصمان لما عرف به من الشدة والحزم[2] .

وفي بداية عهد عمر ظهرت مشكلة تسمية الحاكم مرة أخرى ، فَبِمَ ينادونه ؟

قال له المغيرة : يا خليفة الله .

قال له عمر : ذاك نبي الله داود .

فقال : يا خليفة رسول الله .

قال : ذاك صاحبكم المفقود .

قال : يا خليفة خليفة رسول الله .

---

(١) تاريخ الإسلام ١/٣٥٥ للدكتور حسن إبراهيم حسن مكتبة دار النهضة طبعة ١٣ عام ١٩٩١ .

(٢) المرجع السابق صفحة ٣٩٥ .

قال : ذاك أمر يطول .

قال : يا عمر !

قال : لا تبخس مقامي شرفه ، أنتم المؤمنون وأنا أميركم .

فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين .

وبذلك كان عمر أول من تلقَّب بهذا اللقب .

وكذلك جمع عمر الناس بعد توليه وقال : كنت تاجراً ، وقد شغلتموني بأمركم هذا ، فما ترون يحل لي من هذا المال ؟

فقال علي : ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ، ليس لك من هذا المال غيره .

فقال : القول ما قال علي .

والذي يعنينا هنا هو تحديد راتب للخليفة يكفيه هو وأهله حتى يتفرغ لخدمة الأمة وإدارة شؤونها ، وهو أمر حيوي حتى نفصل بين المال العام والخاص . وإنْ كان عمر نفسه مثالاً نادراً للحاكم الزاهد الناسك الذي يقول : «لا يحل لي من مال الله إلّا حلتان ؛ حلة للشتاء ، وحلة للصيف ، وقوت أهلي كرجل من قريش ليس بأغناهم . .»[1] فلك أن تقارن ذلك باستمتاع هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) بالكساء ، حتى أنه «لم يلبس ثوباً قط وعاد إليه . . حتى أن ملابسه لا يحملها إلّا سبعمائة بعير من أجلد ما يكون من الإبل ، وأعظم ما يحمل عليها من الجمال . . وكان مع ذلك يتقللها ! ولقد أحصى أحد الفقهاء والمقربين من هشام - في خزائنه - بعد موته اثني عشر ألف قميص. وقيل: لم يكن في ملوك بني مروان أعطر ولا ألبس من هشام ، خرج حاجاً فحمل ثياب ظهره ستمائة جمل»[2] .

---

(١) البداية والنهاية ١٣٨/٧ لابن كثير .

(٢) الوليد بن يزيد للدكتور حسين عطوان ص ١٦٨ - ١٦٩ دار الجيل ببيروت ١٩٨١ .

وكان عمر رضي الله عنه وأرضاه يضع إزاراً فيه اثنتا عشر رقعة ، وكان في عام الرمادة لا يأكل إلاّ الخبز والزيت حتى اسودَّ جلده ، ويقول لنفسه : «بئس الوالي أنا إنْ شبعت والناس جياع !» إلى آخر تلك القصص الكثيرة التي رواها ابن كثير في البداية والنهاية ، كما رواها غيره[1] .

وكان عمر إذا أراد أن ينهى الناس عن شيء ، تقدَّم إلى أهله فقال : «لا أعلمن أحداً وقع في شيء مما نهيت عنه إلاّ أضعفت له العقوبة»[2] .

وما يهمنا الآن ، هو أن هذه البداية الممتازة للحكم الإسلامي ، بذرت الكثير من البذور الديمقراطية .

١" ـ منها أن بيعة الحاكم مرهونة برضا الناس ، وأن موافقة الشعب هي الأساس في بقاء حكمه ودوامه .

٢" ـ ومنها أهمية رقابة الناس للحكام ومحاسبتهم وتوجيههم إنْ أخطأوا ، فليس ثمة تأليه للحاكم ، وإنما هو بشر يخطىء ويصيب .

٣" ـ ومنها تحديد راتب معين للحاكم ، أي الفصل بين المال العام والخاص .

٤" ـ ومنها حرية الفكر والتعبير عن الرأي ، وحرية النقد والمعارضة بل والترحيب بها ، حتى قال عمر لمن نقده : «ويل لكم إنْ لم تقولوها ، وويل لنا إنْ لم نسمعها» !

فالحريات في ذلك العصر الأول كانت مكفولة للأفراد ، حتى كان من واجبات كل مجتهد أن يبدي معارضته أو نقده لأخطاء غيره ، حتى لو كان ذلك الغير هو الخليفة ذاته[3] . وقصة المرأة التي اعترضت عمر وهو ينهى عن المغالاة في

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٣٩/٧ .

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٣٩ .

(٣) أزمة الفكر الإسلامي د . عبد الحميد متولي ٤٤ ـ ٤٥ الهيئة المصرية .

المهور في إحدى خطبه في المسجد معروفة مشهورة ، حتى قال : «أصابت امرأة وأخطأ عمر !» .

ومن المبادىء الأساسية الأخرى التي وضعها عمر ، أنه كان يحصى أموال عماله قبل توليتهم ، فإذا انتهت ولايتهم أحصى ثروتهم من جديد ، وما زاد ، صادرة وردّه إلى بيت المال ، إلّا إذا اتضح له أن هذه الزيادة أتت إلى العامل بطرق مشروعة ، وهو ما نسميه الآن بإقرار الذمة المالية والكسب غير المشروع .

غير أن هذه المبادىء الأساسية ، لسوء الطالع ، توقفت عند هذا الحد . فهذه البذور الديمقراطية البالغة الأهمية لم تَنْمُ ، ولم تزدهر ، بل ماتت بموت تلك الفترة . اثنتا عشرة سنة ، عهد أبي بكر وعمر ، اقترب فيها المثال من الواقع ، وكاد أن يتحقق ، لولا أنه اعتمد على الشخصية الفذّة للخليفة . ومن ثم لم يتحول إلى قوانين ، ومؤسسات ، وقواعد عامة تحكم المدينة ، فقُتِلت المحاولة مع مقتل عمر .

وهذا ما كان يعنيه الجاحظ عندما امتدح عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وست سنين من خلافة عثمان ، فقد كانوا على التوحيد الصحيح ، والإخلاص المحض ، مع الألفة واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة . فليس هناك عمل قبيح ، ولا بدعة فاشية ، ولا نزع يدٍ من طاعة ، ولا حسد ، ولا غـل ، ولا تأول ، حتى كان الذي كان من قتل عثمان[1] .

آ ـ بويع عثمان سنة ٢٣ هـ فخطب في الناس خطبة طويلة ، إلّا أن «هذه الخطبة لا تبين لنا السياسة التي عول عثمان على انتهاجها في إدارة شؤون الدولة ،

---

(١) رسائل الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ١٣٩ مكتبة الخانكي بالقاهرة وانظر أيضاً رسائل الجاحظ ص ٢٣٩ رسالة في النابتة دار مكتبة الهلال ببيروت ١٩٨٧ .

وإنما هي عبارة عن نصائح تتعلق بالدين بالسياسة . كان عثمان لا يريد أن يُلزم نفسه بسياسة خاصة يطمئن إليها المسلمون ، وغيرهم من أهالي الدول الإسلامية في عهده[1] . فكان أول خروج عن المثال ! .

ب ـ وفي خلافته عيَّن عثمانُ أقرباءه ، منهم عمه الحكم بن أبي العاص ـ وهو الذي طرده الرسول من المدينة ـ ومنهم الوليد بن عقبة ـ أخو عثمان لأمه ـ الذي عيَّنه والياً على الكوفة ، وكان يشرب حتى صلاة الفجر ، فيصلي بالناس أربعاً ! . وهو ممن أخبر النبي عنه أنه من أهل النار . وعبدالله بن أبي سرح على مصر ، وأقر معاوية على الشام ، وعبدالله بن عامر على البصرة . فكان ذلك هو الخروج الثاني عن المثال[2].

ولم يكن عثمان يتحمل النقد ، فحين سخر أبو ذر الغفاري عندما تساءل عثمان ؛ أترون بأساً أن نأخذ مالاً من بيت مال المسلمين فننفقه فيما يقوينا من أمورنا ونُعطيكموه ؟ فاحتج أبو ذر ولم يوافق ، فقال له عثمان : «ما أكثر أذاك لي ! غيِّب وجهك عني فقد آذيتنا» . فخرج أبو ذر إلى الشام ، فكتب معاوية إلى عثمان أن أبا ذر تجتمع إليه الجموع ، ولا آمن أن يفسدهم عليك . فكتب إليه عثمان ليحمله على بعير عليه قتب يابس ويرسله إلى المدينة ، وقد تسلخت بواطن أفخاذه[3] .

جـ ـ وكان عمرو بن العاص أوّلَ الناصحين لعثمان بالاعتزال . وعندما خطب عثمان يسترضي الناس صاح به عمرو من صفوف المصلين بالمسجد : «اتَّق الله يا عثمان ! فإنك قد ركبت أموراً ، وركبناها معك ، فتُبْ إلى الله نتُبْ معك !

---

(١) تاريخ الإسلام ٢١٠/١ للدكتور حسن إبراهيم حسن .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٧٣/٧ .
(٣) مروج الذهب للمسعودي ٣٤٤/٢ .

وترك عثمان في المدينة ومضى إلى فلسطين وهو يقول : والله إني ما كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان»[1] فكان ذلك ثالث خروج عن المثال .

د ـ ولم يحمل عثمانُ ولاته على التقشف ، والبعد عن موطن التهمة والريبة كما فعل عمر . وكان هو نفسه غنياً ينعم بما ينعم به الأغنياء ، يسكن في داره التي بناها في المدينة بالحجر والكلس . . وجعل أبوابها من الساج ، واقتنى أموالاً وجناناً وعيوناً بالمدينة . . ويوم قتل كان عنده من المال خمسون ومئة ألف دينار ، وخلف خيلاً كثيرة وإبلاً[2] . فكان ذلك رابع خروج عن المثال .

هـ ـ ولم يكن يقبل الشكوى على عماله ، وكثيراً ما تدخل علي بن أبي طالب ، يطلب منه التحقيق فيما يشكو منه الناس ، ومن ذلك أنهم ضربوا واليه على الكوفة وهو سكران ، وانتزعوا خاتمه وأتو عثمان للشكوى ، لكنه زجرهم . . . الخ .

واشتكى المصريون مما صنع ابن أبي سرح بهم «فخرج من أهل مصر سبعمئة رجل ، فنزلوا بالمسجد ، وشكوا إلى الصحابة في مواقيت الصلاة ، فقام طلحة بن عبدالله بن الزبير فكلم عثمان بكلام شديد !

وأرسلت إليه عائشة رضي الله عنها فقالت : تقدم إليك أصحاب محمد ﷺ وسألوك عزل الرجل فأبيت ! إلخ . . [3] فكان ذلك خامس خروج عن المثال .

و ـ وعندها «لم يبق أحدٌ في المدينة إلاّ حنق على عثمان» على ما يقوله

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤٩ .
(٢) عبقرية علي لعباس محمود العقاد ص ٥٧ مكتبة النهضة .
(٣) عبقرية على ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦ لعباس محمود العقاد مكتبة نهضة مصر بالفجالة .

السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء [1] فثار الناس عليه وتجمهروا حول قصره «وكانت مدة حصار عثمان في داره أربعين يوماً أو أكثر قليلاً . .» [2] وطلبوا منه أحد أمور ثلاثة :

١ ـ إمّا أن يعزل نفسه .

٢ ـ أو يسلم إليهم مروان بن الحكم .

٣ ـ أو يقتلوه [3] .

لكنه رفض العروض الثلاثة أن يسلم قريبه أو يستقيل ، وقال عبارته الشهيرة «ما كنت لأخلع سربالاً سربلنيه الله» [4] . وكان ذلك أولَ إعلان بأنّ عباءة الخلافة يرتديها الحاكم بتفويض من الله ، فلا يخلعها بناء على طلب الناس ! [5] . وكتب إلى معاوية بالشام ، وإلى ابن عامر بالبصرة ، وإلى أهل الكوفة يستنجدهم في بعث جيش يطرد هؤلاء من المدينة ، وكان ذلك سادس خروج عن المثال ! [6] .

وهكذا نتبين أن حال الدولة الإسلامية قد تغير في عهد عثمان ، وأن هذا التغير أثار روح المعارضة لسياسة الحكومة والاستياء من تصرفاتها ، وبعث على التمرد عليها في المدينة ، وفي جميع الأمصار [7] .

---

(١) تاريخ الخلفاء لجلال الدين اسيوطي ١٥٧ والبداية والنهاية لابن كثير ١٧٥/٧ ـ ١٧٦ .
(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٥٨ .
(٣) البداية والنهاية ١٩٨/٧ .
(٤) المرجع السابق ١٥٨/٧ .
(٥) المرجع السابق .
(٦) المرجع السابق .
(٧) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم حسن ٢٩٣/١ .

وكانت الثورة . وتسوَّر الناس الدار ، وأحرقوا الباب ، ودخلوا عليه وكان منهم محمد ابن أبي بكر الذي أمسك بحليته وهو يقول : «على أي دين أنت يا نعثل ؟» .

قال : على دين الإسلام ولست بنعثل ، ولكني أمير المؤمنين .

فقال : غيَّرْتَ كتاب الله ، وإنا لا نقبل أن نقول يوم القيامة : «ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . .» [1] . وفي حديث عائشة اقتلوا نعثلا ، قتل الله نعثلاً ! تعني عثمان ، وكان هذا منها لمّا غاضبته .

وهكذا كان الحكم يتحول شيئاً فشيئاً من الخلافة الى الملك . ومن هنا فقد كان عباس محمود العقاد على حق تماماً عندما قال : «كان الموقف بين الخلافة والملك ملتبساً متشابكاً في عهد عثمان ، وكان نصفه مُلْكاً ونصفه خلافة . أو كان نصفه إمارة دنيوية . . وهكذا تقابل الضدان اللذان لا يتفقان ، وبلغ الخلاف مداه . .» [2] .

ومن هنا ، فإن الأستاذ العقاد يذهب ليصور الخلاف التالي بين علي ومعاوية على أنه صراع بين الخلافة والنظام الملكي ، أو بين الخلافة الدينية والدولة الدنيوية ، فيقول : «لم تكن المسألة خلافاً بين علي ومعاوية على شيء واحد ينحسم فيه النزاع بانتصار هذا أو ذاك . . ولكنها كانت خلافاً بين نظامين متقابلين متنافسين ؛ أحدهما يتمرد ولا يستقر ، والآخر يقبل الحكومة كما استجدت ، ويميل فيها إلى البقاء والاستقرار . . أو هي كما كانت صراعاً بين الخلافة الدينية كما

---

(١) الأحزاب ٦٧ انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٩٣/٧ .
(٢) عبقرية علي العقاد ص٥٦ مكتبة نهضة مصر بالفجالة .

تمثلت في علي بن أبي طالب ، والدولة الدنيوية كما تمثلت في معاوية بن أبي سفيان . . [1] .

ولقد حسمت الدولة الأموية الموقف تماماً ، فقضت نهائياً على البذور الديمقراطية ومنعتها من النماء ، وأخذت النزعة الاستبدادية في الإقبال ، والإيغال ! . وتشبه خلفاء بني أمية بالملوك وأبهتهم ، فكان قصر الخليفة في دمشق غاية في الأبهة ، وقد ازدانت جدرانه بالفسيفساء ، وأعمدته بالرخام والذهب ، وسقوفه بالذهب المرصع بالجواهر . ولطفت جوَّه النافورات ، والمياه الخارجية والحدائق الغناء بأشجارها الظليلة الوارفة . وكان الخليفة يجلس في البهو الكبير وعلى يمينه أمراء البيت المالك ، وعلى يساره كبار رجال الدولة ورجال البلاد ، ويقف أمامه من يريد التشرف بمقابلته من رسل الملوك وأعيان البلاد ، ورؤساء النقابات ، والشعراء ، والفقهاء وغيرهم [2] . وهكذا حدث الانفصال التام بين الواقع والمثال .

ثالثاً ـ من الخلافة إلى الملكية المستبدة :

أما أنّ الأمويين استولوا على الملك عنوة ، فهذا ما يقوله معاوية صراحة ودون مواربة ، فهو عندما قدم إلى المدينة عام الجماعة تلقاه رجال قريش فقالوا : «الحمد لله الذي أعزّ نصرك ، وأعلى كعبك» . لكنه لم يردَّ عليهم حتى صعد المنبر فقال : «أما بعد فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتي ،

---

(١) عبقرية علي ص ٥٥ للعقاد .

(٢) العقد الفريد لابن عبدربه ٤/١٧٠ طبعة دار الكتب العلمية بيروت ط ٣ عام ١٩٨٧ .

ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة . . »[1] . فهو منذ البداية ينفي أنه تولى الحكم برضا الناس ، بل ويستخف بهذا الرضا . ثم استمر في خطبته معلناً انفصال الواقع عن المثال تماماً ، عندما يقول انه حاول السير على طريق أبي بكر وعمر لكن نفسه أبت : «ولقد رُضْتُ لكم نفسي على عمل أبي قحافة ، وأردتها على عمل عمر فنفرت من ذلك نفاراً شديداً . . »[2] .

ولماذا يسير على نهج غيره وقد ملك ناصية الدنيا والدين ؟ يقول : «أيها الناس ! اعقلوا قولي ، فلن تجدوا أعلم بأمور الدنيا والآخرة مني !»[4] . وكثرت الأحاديث النبوية التي تدعم[3] ملكه . على نحو ما سيقوم الشعراء فيها بعد بتدعيم ملك خلفائه ، وإضفاء صفة القداسة عليهم .

لقد وضع الأمويون منذ بداية حكمهم ثلاث نظريات تبرر استيلاءهم على السلطة :

الأولى : أن الخلافة حق من حقوقهم ، وأنهم ورثوها عن عثمان بن عفان لأنه نالها بالشورى ، ثم قُتل ظلماً ، فخرجت الخلافة منهم ، وانتقلت إلى غيرهم ، فقاتلوا حتى استردوها . ولقد عبر الشعراء عن هذه الفكرة فقال الفرزدق لعبدالملك بن مروان :

تراثُ عثمانَ كانوا الأولياءَ له ... سربالُ ملك عليهم غيرُ مسلوبِ

(١) المرجع السابق .
(٢) البداية والنهاية ١٣٤/٨ لابن كثير . وانظر الوثائق السياسية والإدارية للعصر الأموي ١٣٧ للدكتور محمد ماهر حمادة بيروت .
(٣) البداية والنهاية ١٢٤/٨ - ١٢٥ - ١٢٦ - ١٣٤ إلخ .

ويقول للوليد :

كانتْ لعثمان لم يظلِمْ خلافَتَها فانْتهكَ الناسُ منها أعظمَ الحرم

وغير ذلك كثير مما قاله الأخطل لبشر بن مروان ، وما قاله الفرزدق أيضاً لهشام بن عبدالملك [١] .

الثانية : إنهم أشاعوا في أهل الشام ، بصفة خاصة ، أنهم استحقوا الخلافة لقرابتهم من رسول الله ﷺ . «فقد كان الشيوخ من أهل الشام يقسمون لأبي العباس السفاح أنهم ما علموا لرسول الله قرابة ، ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية ، حتى وليتم الخلافة» [٢] .

الثالثة : ثم استقروا على النظرية التي حكموا على أساسها ، ودعموا بها ملكهم الاستبدادي ، وهي أن الله اختارهم للخلافة وآتاهم الملك ، وأنهم يحكمون بإرادته ، ويتصرفون بمشيئته . وأحاطوا خلافتهم بهالة من القداسة ، وأسبغوا على أنفسهم كثيراً من الألقاب الدينية . فقد كان معاوية في نظر أنصاره «خليفة الله على الأرض» و«الأمين والمأمون» وكان ابنه يزيد «إمام المسلمين» وكان عبد الملك بن مروان «أمين الله» و«إمام الإسلام» [٣] .

ولكي يؤكدوا هذه النظرية الأخيرة أشاعوا مذهب الجبر «فالسلطة يتم تحديدها من الله ، وليس للناس فيها رأي ولا مشورة ، والخليفة هو خليفة الله ـ ابتداءً من عبدالملك بن مروان ـ وأن على الناس الاستسلام والطاعة .» [٤]

---

(١) الأمويون والخلافة ص ١٣ ـ ١٥ للدكتور حسين عطوان دار الجيل بيروت ١٩٨٦ .
(٢) مرواح الذهب للمسعودي ٣/٤٣ .
(٣) الأموين والخلافة د. حسين عطوان ص ١٩ ـ ٢٢١ .
(٤) الديمقراطية وحقوق الإنسان للدكتور عبدالعزيز الدوري ص ١٩٥ .

وكان زياد بن أبي سفيان الذي يُمثّله معاويةُ والياً على البصرة أوّل من بشَّر . بهذا المذهب [1] يقول في خطبته المسماة «البتراء» التي أعلن فيها أن الله اختارهم للخلافة ، وأنهم يحكمون بقضائه ويعملون بإذنه : «أيها الناس ! إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذودُ عنكم بفيء الله الذي خوَّل لنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحبّبنا ، ولكم علينا العدلَ فيما ولينا . . .» [2] .

ولقد تَبارى الشعراءُ في دعم هذه النظرية الثالثة وشرحها ، وأعني بها «نظرية التفويض الإلهي» لبني أمية ، لكي يمارسوا الحكم ، فهم أجدر الناس به ، وأقدرهم عليه . ومن ذلك قول الأخطل لعبدالملك بن مروان :

وقد جعلَ اللهُ الخلافةَ فيكم   بأبيضَ ، لا عارِي الخوانِ ولا جدب
ولكنْ رآه الله موضعَ حقِّها   على رغمَ أعداءٍ وصدادة كذب

وكذلك قوله لبشرِ بن مروان :

أعطاكُم اللهُ ما أنتم أحقّ به   إذا الملوكُ على أمثاله اقترعوا

وقول جرير بن عطية الخطفى لعبدالملك بن مروان مؤكداً أن الله حباه الخلافة لأنه أحقُ بها وأجدر :

اللهُ طوّقكَ الخلافةَ والهدى   واللهُ ليس لمَّا قضى تبديل
وليَ الخلافةَ والكرامة أهلُها   فالملْكُ أفيحُ والعطاء جزيل

وقوله أيضاً :

أنتَ الأمينُ أمين الله لا سَرِفٌ   فيما وَليتَ ، ولا هيَّابةٌ ورع [3]

---

(١) د. حسن حنفي الجذور التاريخية ١٨٣ .

(٢) العقد الفريد لابن عبدربه ٤/١١٩ - ٢٠١ .

(٣) ورع : الجبان .

أنتَ المباركُ يهدي الله شيعتَه إذا تفرّقت الأهواءُ والشيعُ
يا آلَ مروانَ إن اللهَ فضّلكم فضلاً عظيماً على مَن دِينه البدع

وقال أيضاً :

واللهُ قدَّرَ أن تكونَ خليفةَ خيرَ البرية ، وارتضاكَ المرتضي
أعطاكَ ربُك من جزيل عطائه ملكاً كُعوب قناته لم ترفض[1]

وكذلك قول الفرزدق له جازماً أن الله جعلَ له الخلافة ، ونصره على أعدائه نصراً عزيزاً :

فالأرض لِلّه ولّاها خليفتَه وصاحب الله فيها غيرُ مغلوبِ
فأصبحَ الله ولي الأمر خيرهم بعد اختلاف وصدع غير مشعوبِ

ومنها قول جرير للوليد بن عبدالملك أيضاً ، مصرحا بأن الله اصطفاه للخلافة ورفع قومه على غيرهم بكثرة محامدهم ومحاسنهم :

يكفي الخليفةُ أن الله سربلَه سربالَ مُلكٍ به تُزجى الخواتيم
يا آلَ مروانَ إن اللهَ فضّلكم فضلاً قديما وفي المسعاة تقديم

وقوله مجاهراً بأن الله آتاه الخلافة :

ذو العرش قدَّرَ أن تكونَ خليفةً مُلِّكْتَ فاعْلُ على المنابرِ واسلمِ

وقول الفرزدق له معلناً أن الله جعل له الخلافة ، ودُفعت إليه دفعاً :

حباكَ بها اللهُ الذي هو سَاقها إليكَ ، فقد أبلاكَ أفضل ما يبلي

وهناك عشرات من الشعراء الآخرين منهم الأحوص ، وعدي بن الرقاع ، وكثير بن عبدالرحمن الذي أعلن صراحة أن الأمر في مسألة الخلافة وتعيين الحاكم ، يقدره الله ، وليس للأمة فيه رأيٌ ولا للناس مشورة[2] كقوله :

---

(١) أي ملكاً لا تنكسر عصاته .
(٢) د. محمد يوسف موسى ص ١٢٣ - ١٣٢ - ٣٣ - نظام الحكم في الاسلام .

وما الناسُ أعطوكَ الخلافةَ والتقى   ولا أنت، فاشكُرْه يُثِبْكَ مثيبُ

ولقد أطلنا في عرض بعض هذه النماذج لنؤكّد أمرين :

الأول : أنه مع الدولة الأموية سوف تبدأ نغمة التفويض الإلهي في الظهور ، وهي التي سوف تتأكد بوضوح تام عند العباسيين ، حتى أن المنصور يقول بصراحة ووضوح : «أنا سلطان الله في أرضه . .» فيرفع الشعراء أيضاً من نغمة هذا التقديس هذه الى التأليه ، فلا يجد ابن هانىء الأندلسي بعد ذلك من حرج في أن يقول للخليفة الفاطمي المعز لدين الله :

ما شئْتَ لا ما شاءتِ الأقدارُ   فاحكم فأنتَ الواحدُ القهارُ

وكأنما أنتَ النبيُّ محمدُ   وكأنما أنصارُكَ الأنصارُ

ويقول له أيضاً :

ندعوهُ مُنتقماً عزيزاً قادراً   غفّارَ موبقةِ الذنوب صَفوحا

أقسمتُ لولا أنْ دُعيتَ خليفةً   لدعيتَ من بعدِ المسيح مَسيحا

الثاني : أن استعداد الشرقيين لتأليه الحاكم ليس وليد اليوم ، وإنما هو أمر موغل في القدم منذ أن كان فرعون هو الإله . أو هو ابن الإله ، الذي لا راد لقضائه ، فهو يعرف كل شيء بما في ذلك مصلحة الشعب نفسه . ثم مروراً بالعصر الوسيط حيث الخليفة الذي عينه الله بحكمته ، ليسوس الناس ويروضهم لما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة ، إلى أن اخترعنا فكرة الزعيم الأوحد ، والمنقذ الأعظم ، والرئيس المخلص ، وقائد الوطن ، ومبعوث العناية الإلهية ، والمعلم ، والملهم الذي يأمر فيطاع ، وراعي المسيرة ، لأنه يعبر عن مصالح الناس ويعرفها خيراً منهم !! والذي استعار صفة من صفات الله «لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون» وهو العليم بكل شيء ، بأجهزته البارعة في التنصت ، ويرى كل شيء من خلال عيونه المبثوثة في كل مكان !.. وهكذا نشأت بيننا زعامة تجب

المؤسسات ، وتعلو على الرقابة ، وتتجاوز المحاسبة والمراجعة . . فلم الدهشة والعجب ؟

وطَّد معاويةُ ملكه، وقضى على معارضيه، ولم يتورع عن أن يستخدم في سبيل هذه الغاية أحطَّ السبل من قتل وغدر ورشوة وخيانة . . ! فقد اتهم معاوية بقتل الحسن بن علي - رضي الله عنهما - بالسم الذي دُسَّ له عن طريق زوجته جعدة بنت الأشعث. وقد كان معاوية دسَّ إليها أنك إنْ احتلت في قتل الحسن، وجهت إليك بمئة ألف درهم، وزوجتك من يزيد . . ! فكان ذلك الذي بعثها على سُمِّه. فلمّا مات، وفَّى لها معاوية بالمال، وأرسل لها: إنّا نحب حياة يزيد ولولا ذلك لَوَفَيْنا لَكِ بتزويجه. وهناك روايات أخرى تقول غير ذلك، وأن من دسَّ السم للحسن هم شيعته، لتنازله عن الخلالافة لمعاوية.

وعلى كل حال فليست هذه هي الحادثة الوحيدة، فقد اتُّهم سيدنا معاوية بقتل الأشتر بدس السم في طعامه. . واتُّهم أيضاً بقتل حجر بن عدي الكندي، واتهم كذلك بقتل عبد الرحمن بن خالد[1] .

ومعاوية هو أوَّلُ من جعل الخلافة ملكية وراثية في أسرته دون أن يكترث برأي الآخرين! فأصبح الحاكم مستبداً يستمدُّ سلطته من التفويض الإلهي، لامِن الناس، ويُرسي قواعدها بقوة السيف وحده! وهو نفسه قد صرح بوضوح بأنه لم يتولَّ الخلافة بمحبة الناس ورضاهم، «بل جالدتكم بسيفي هذا مجالدةً!». وكان عماله مثله، فعندما أرسل إليهم يطلب رأيهم في أمر أخذ البيعة ليزيد ولياً للعهد. قام يزيد بن المقنع، فلخص الموقف الأموي من الخلافة في عبارة بليغة عندما جمع فأوعى! قال:

(١) التاريخ الاسلامي لمحمود شاكر ج٤/٢٢ المكتبة الاسلامية بيروت ١٩٩١ .

«أمير المؤمنين هذا» وأشار إلى معاوية.

«وإن هلك، فهذا» وأشار إلى يزيد.

«فمن أبى. فهذا» وأشار إلى سيفه!

فقال معاوية: «اجلس، فانكَ سيدُ الخُطباء!»[1]

ثم راح يأخذ البيعة ليزيد، على مضض، من الناس. وعندما قال قائل منهم: إني أُبايع وأنا كاره للبيعة!. قال له معاوية: بايع يارجل، فإن الله يقول: عسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً[2].

ثم كتب إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة: «أن ادعُ أهل المدينة إلى بيعة يزيد، فإنَّ أهل الشام قد بايعوا. وأصبحت البيعة مجرد إجراء شكلي، أقرب مايكون إلى «الاستفتاءات» العصرية التي يجريها الرؤساء في بلادنا وتكون نتيجتها ٩٩,٩[3].

ولا أدل على ذلك من وقعة الحرَّة الشهيرة ـ تلك النقطة السوداء في تاريخ يزيد، وما أكثر النقاط السود في تاريخه ـ التي قُتل فيها خلق من الصحابة، ونهبت المدينة، وافتض فيها ألف عذراء، فإنّا لله وإنا إليه راجعون![4].

وكان قائد يزيد «مسلم بن عقبة المريّ» يأخذ البيعة من أهل المدينة على أنهم «عبيد ليزيد وسماها نتنة» ومَنْ قالَ: «أبايعه على سنة الله ورسوله، ضرب عنقه

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ١١٩/٥ دار الكتب العلمية بيروت عام ١٩٨٧ .

(٢) النساء ١١٩ .

(٣) الطاغية سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١٨٣ صفحة ٢٠٦ للدكتور إمام عبد الفتاح إمام.

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٠٩ .

بالسيف»[٣] وبعد أن استباحت جيوش يزيد المدينة ثلاثة أيام، وقتل فيها خلق كثير من الناس «من بني هاشم، وسائر قريش، والأنصار، وغيرهم من الناس» اتجهت جيوشه إلى مكة فرمت الكعبة بالمنجانيق من الجبال حتى انهدمت[١]. وذلك لإجبار الناس على السمع والطاعة، وعلى أن يكونوا عبيداً لفرعون الصغير! مع الاعتذار للفراعنة الذين لم يكونوا قط على هذا القدر من العُتُو! ولم يكن واحد منهم كيزيد الذي لخصه المسعودي في هذه العبارة الجامعة: «ليزيد أخبار عجيبة، ومثالب كثيرة من شرب الخمر، وقتل ابن بنت الرسول، ولعن الوصي، وهدم البيت وإحراقه، وسفك الدماء، والفسق والفجور، وغير ذلك مما قد ورد فيه الوعيد باليأس من غفرانه»[٢].

ولاأظنك بحاجة إلى أن تسأل بعد ذلك عن موقف معاوية وابنه من المعارضة، فيكفي أن تعرف وقعة الحرَّة الشهيرة السالفة الذكر!، والحق أن المعارضة التي كان يطلبها عمرُ ويحث الناس عليها، لم يعد لها أثر قط، بعد أن انْفصَلَ الواقع عن المثال تماماً، لأن المثال لم يتحول إلى قوانين ومؤسسات هي التي تحكم، وإنما اعتُمِدَ على شخصية الحاكم فحسب بحيث يموت بموته. ولهذا فإننا نجد معاويةَ - كما سيفعل كثيرون بعده - يوصي ابنه يزيد محذراًمن ثلاثة رفضوا بيعته: «لست أخاف عليك غير عبد الله بن عمرَ، وابن الزبير، والحسين بن علي. أمَّا عبد الله بن عمرو فرجل قد غلبه الورع. وأما الحسين فأرجوا أن يكفيه الله بمن

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣/٧٩ .
(٢) المرجع السابق .

قتل أباه وخذل أخاه، أمّا ابن الزبير فإنه خِبٌّ ضَبٌّ[1]، فإن ظفرت به فقطعه إرباً إرباً».

ونحن لانحاول أن نؤرخ لبني أمية ـ أو لغيرهم من الحكام والولاة في التاريخ الإسلامي ـ في هذه العجالة، ولكننا نعرض نماذج لنظامٍ من الحكم تغيب فيه الرقابة والمحاسبة، وتنتفي فيه حرية الرأي والمعارضة، ويكون فيه الحاكم ممسكا بالسيف في يمينه، والمال في يساره، يغدقه على الأتباع والمحاسيب والأنصار والمنافقين ـ تماماً كما يحصل اليوم ـ فلا نجد أمامنا سوى استبدادٍ مطلق، وطغيان أحمق، وظلم لايقبله أحد!.

ثم يأتي الجبار الثاني من عتاة بني أمية وهو عبد الملك بن مروان الذي عرض سياسته بوضوح شديد في خطبته الشهيرة عام ٧٥ هـ حيث قال: «أما بعد، فلست بالخليفة المستضعف، يعني عثمان ـ ولا الخليفة المداهن، يعني معاوية ـ ولا الخليفة المأفون ـ يعني يزيد ـ ألا إني لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم.. ألا إن الجامعة[1] التي جعلتها في عنق عمر بن سعيد عندي، والله لا يفعل أحد فعله إلا جعلتها في عنقه. والله لا يأمرني أحدٌ بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه.. ثم نزل[1].

وقد وقف عبد الملك بن مروان على منبر الرسول في المدينة ليعلن أنه لايكترث برضا الناس ولايأبه بحبهم له قال: «يامعشر قريش، إنكم لاتحبوننا

---

(١) مراوغ مخادع.

أبداً، وأنتم تذكرون يوم الحرة. ونحن لانحبكم أبداً، ونحن نذكر مقتل عثمان[٢]
أي أن الكراهية متبادلة، لكنْ لاأهمية له مادامت «الجامعة عندي، والسيف في يدي». مما يُذكِّر بعبارة كرومويل: «تسعة مواطنين من أصل عشرة يكرهونني. .؟! ومأأهمية ذلك إن كان العاشر وحده مسلحاً»[٣].

وماذا فعل مع عبد الله بن الزبير، بعد الكلمات الرقيقة التي قالها عنه قبل أن يتولى السلطة؟! وضع ترتيبات مُحكمة، فقد جهز له جيشاً من أربعين ألف مقاتل، على رأسه الحجاج بن يوسف، فحاصره بمكة شهراً، ورماه بالمنجانيق. وخذل ابنَ الزبير أصحابُه، وتسللوا إلى الحجاج، فظفر به وقتله وصلبه عام ٧٣ هـ، وهو التاريخ الذي تدعمت فيه خلافة عبد الملك بن مروان «وصحت!» على مايروي السيوطي[٤].

وبعد عامين فقط من حكمه عينَّ الحجاجَ أميراً على العراق، فكان ساعده الأيمن!. وليس ثمة مايدعو إلى الوقوف طويلاً للتعريف بالحجاج، أو للحديث عن جبروته وشراسته وقسوته ـ فالأمويون مدينون له في تثبيت ملكهم ـ لكن يكفي أن نقول إن المبدأ الأساسي الذي كان يسير عليه، والذي أخذ به نفسه، وأخذ الآخرين به أيضاً، هو مبدأ الطاعة المطلقة لولي الأمر! فالأمر الذي يصدره الحاكم لايناقش ولايجادل، بل ينفذ فوراً مهما يكن تافهاً أو بغير معنى! وإلا أصبح دمه

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ١٧٨/٤ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٢١٨ ـ ٢١٩ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي.
(٣) الدكتاتورية لموريس دوفرجيه ص٣٣ ترجمة د. هشام متولي.
(٤) تاريخ الخلفاء ٢١٥ .

حلالاً للحاكم. والحجاج نفسه يضرب مثلاً للامر التافه الواجب النفاذ وإلا أهدر دم المواطن: «والله لاآمر أحداً أن يخرج من باب من أبواب المسجد، فيخرج من الباب الذي يليه، إلا ضربت عنقه!!»[1]. فما أرخص عنق المواطن! وماأشد جبروت الحاكم، اليوم وأمس وغداً!! إلغاء كامل لآدمية الإنسان، فلا نقاش، ولاسؤال، ولااستفسار، بل طاعة عمياء خرساء أسوأ من طاعة العبيد!، لأنها طاعة الدواب!، فأي امتهان لكرامة المواطن!، وما الذي يفعله حكام اليوم سوى مافعله حكام الأمس؟!.

واتِّساقاً مع هذا الموقف فإننا نرى عبد الملك بن مروان ـ وهو على فراش الموت ـ يوصي ابنه الوليد بالحجاج خيراً: «.. وانظر الحجاج فأكرمه، فإنه هو الذي وطّأ لكم المنابر، وهو سيفك يا وليد، ويدك على من ناوأك. فلا تسمعن فيه قول أحد، أنت إليه أحوج منه إليك. وادع الناس إذا مت إلى البيعة، فمن قال براسه هكذا، فقل له بسفك هكذا»[2].

ولعل هذا ماعناه المسعودي عندما قال: «كان لعبد الملك إقدام على الدماء، وكان عماله على مثل مذهبه كالحجاج بالعراق، والمهلب بخراسان، وهشام بن اسماعيل بالمدينة وغيرهم. وكان الحجاج من أظلمهم وأسفكهم للدماء...»[3].

ونسوق هنا عدة ملاحظات هامة:

---

(١) الوثائق السياسية والادارية للعصر الأموي ص ٥٥ للدكتور محمد ماهر حمادة.
(٢) مروج الذهب للمسعودي ٣/ ١٧٠ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٢٠.
(٣) المرجع السابق.

١ ـ إننا أمام نظام استبدادي، مافي ذلك من شك «والسلطة المستبدة هي تلك التي تمارس حكم الناس دون أن تكون هي ذاتها خاضعة للقانون، فالقانون في نظر هذه السلطة قيد على المحكومين دون أن يكون قيداً على الحاكم. . ومن هنا ففي وسع السلطة أن تتخذ ماتشاء من إجراءات، أو مواجهة الأفراد لمصادرة حرياتهم أو ممتلكاتهم»[1]. فحياة المواطن ملك يمين الحاكم لاينقذُه إلا الله، أو الذكاء وسرعة البديهة التي تخلصه من الموقف! . فتأمل هذه القصة: «أُتيَ عبد الملك برجل كان مع بعض من خرج عليه، فقال: اضربوا عنقه .

فقال الرجل: ياأمير المؤمنين! ماكان هذا جزائي منك.

فقال: ماجزاؤك؟!

فقال: والله ماخرجت مع فلان إلا بالنظر إليك، وذلك أني رجل مشئوم، ماكنت مع رجل قط إلا غُلب وهُزم، وقد بانَ لكَ صحَّةُ ماادعيت.

فضحك أمير المؤمنين، وخلّ سبيله[2]».

وهكذا كان أمير المؤمنين يطلق بعض الخوارج لظرفهم ودعابتهم! أمّا إذا أصرَّ على إعلان رأيه بصراحة فقد انتهى أمره. . ! ودخل الحروري[3] على الوليد بن عبد الملك وعنده أشراف أهل الشام، فقال له الوليد: ماتقول فيَّ؟ .

فقال: ظالم جائر جبار! .

---

(١) نظم الحكم المعاصرة ص٣١٨ للدكتور محمد الشافعي عالم الكتب القاهرة ١٩٨٤ .

(٢) د.عطوان ١٢٨ ـ ١٢٩ .

(٣) الحروري نسبة إلى الحرورية وهي طائفة من الخوارج.

قال: وماتقول في عبد الملك؟.

قال: جبارٌ عاتٍ!

قال: فما تقول في معاوية.

قال: ظالم.

قال الوليد لابن الريّان السياف: اضرب عنقه. فضرب عنقه.

هكذا كانت ومازالت المعارضةُ وإبداء الرأي ضرباً من الفدائية والاستشهاد! والخطير في الأمر أنه ليس ثمة مايمكن أن يرجع إليه المواطن أو يشكوَ إليه. فالمستبد الطاغية هو المرجع النهائي. وتكون السلطة استبدادية مادامت لاتخضع في تصرفاتها للقانون، ولايجد الفرد قضاءً يُبطلُ تصرفاتها إذا صدرت على خلاف مايقضي به القانون القائم[1].

وحتى في القصة السابقة عندما راجع عمرُ بن عبد العزيز بن مروان، الوليدَ وقال له: «كان لك أن تسجنه حتى يراجع الله عزَّ وجلَّ» فهذه أخلاقيات عمر، ولاعلاقة لها بأي قانون قائم، فلا قوانين مع المستبد! بل إن عمر بن عبد العزيز نفسه، وكان والياً على المدينة في عهد الوليد، جلد خبيب بن عبد الله بن الزبير حتى مرض ثم مات، وذلك بأمر من الوليد، لأنه كان يبشر بسقوط دولة بني أمية[2].

(١) نظم الحكم المعاصرة للدكتور محمد الشافعي.
(٢) قارن الأمويون والخلافة للدكتور حسين عطوان ص٣١٩.

٢ ـ موضوع البيعة كان مسألة صورية تماماً، كالاستفتاءات في هذا العصر، فلا ينبغي أن نقول إنه أقرب إلى «عقد الوكالة مثله مثل سائر العقود، يقوم على إيجاب من الأصل وقبول من الوكيل»[1]. وكذلك ينعزل الوكيل بعزل موكله، كما تنتهي وكالته بموته، وكذلك ليس له أن يقيم غيره مقامه إلا برضا الأمة وموافقتها. فهذا حديث عن «المثال» أمّا الواقع فهو أمر مختلف تماماً! وقد رأينا من قبل كيف كان السيف أصدق أنباءً من الكتب، وسوف نرى كيف كانت البيعة صورية، بل قد تكون البيعة لطفل صغير، على نحو ماحدث عندما عهد هارون الرشيد بولاية العهد من بعده لابنه الأمين سنة ١٧٥هـ، وكان الابن في الخامسة من عمره![2].

وسوف نكتفي عند الأمويين بهذا المثل الصارخ على شكلية البيعة وعدم قيمتها من عهد سليمان ابن عبد الملك الذي كان من خيار ملوك بني أمية، على مايروي السيوطي، فهذا الملك الخير يجبر الناس على أن يبايعوا على مظروف مختوم، فلما حضرته الوفاة: «دعا بقرطاس، فكتب فيه العهد ودفعه إلى أحد رجاله، وقال: اخرج إلى الناس فيبايعوا على مافيه مختوماً، فخرج فقال: إنّ أمير المؤمنين يأمركم أن تبايعوا لمن في هذا الكتاب، قالوا: ومن فيه؟ قال: هو مختوم لاتخبَرون بمن فيه حتى يموت! قالوا: لانبايع!. فرجع إليه فأخبره. فقال: انطلق إلى صاحب الشرطة والحرس، فاجمع الناس ومرهم بالبيعة، فمن أبى اضرب عنقه، فبايعوا»[3].

---

(١) نظام الحكم في الاسلام د. محمد يوسف موسى ١١٨ .
(٢) في التاريخ العباسي الفاطمي ٨٧ دار النهضة للدكتور أحمد مختار العبادي.
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٢٦ - ٢٢٧ .

أرأيت إلى أي حدٍ تبلغ الإستهانة بالمواطنين، والاستخفاف بعقول الرعايا؟! أيمكن أن يقال بعد ذلك إنه كانت هناك بيعة، أو موافقة، أو رضا، أو ماشئت من مصطلحات القبول بين الناس والحاكم؟!.

٣ ـ علينا هنا أن نحذر الخلط بين الحكم على الخليفة بأنه مستبد من الناحية السياسية أو من حيث علاقته بشعبه، وبين أعمال أخرى جيدة قد تنسب إليه. فقد كان عبد الملك بن مروان الخليفة القوي الذي أسس الدولة الأموية وجعلها مستقرة، فهو أول من كسا الكعبة بالديباج، وأول من ضرب الدنانير للناس عام ٧٥هـ، وأول من نقل الديوان من الفارسية إلى العربية، وأول من رفع يديه على المنبر، وأول من كتب في صدر الطومير: قل هو الله أحد... الخ. لكنه أيضاً أول من غدر في الإسلام، وأول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء، وأول من نهى عن الأمر بالمعروف... الخ. وهكذا، فيما يقول السيوطي «تمت له عشرة أوائل، منها خمسة مذمومة» ونحن نتحدث عن الجانب المذموم، وهو أنه كان طاغية من الناحية السياسية[١].

وقد يكون لابنه الوليد بن عبد الملك أعمال أخرى مجيدة «فقد فتحت في أيامه فتوحات عظيمة، وكان مع ذلك يختن الأيتام[٢]، ويرتب لهم المؤدبين، ويرتب للزمنى مَنْ يخدمهم، وللاضرار من يقودهم[٥]. ولقد عمر المسجدالنبوي ووسعه، ورزق الفقهاء والضعفاء والفقراء، وحرَّم عليهم سؤال الناس، وفرض لهم

---

(١) المرجع السابق ٢١٨ .

(٢) يختن: يتزوج. الزمنى: المرضى المزمنين. الاضرار: العجيان.

مايكفيهم، وضبط الأمور أتم ضبط[1]. وقال ابن أبي عبلة: رحم الله الوليد، وأين مثل الوليد؟! فتح الهند والأندلس وبنى مسجد دمشق، وكان يعطيني قطع الفضة أقسمها على قرّاء مسجد بيت المقدس[2]. ومع ذلك فإن عهد الوليد يعد أسوأ العهود السابقة واللاحقة. إذ كان أكثرها تسلطاً واستعباداً، وأشدها تعسفا واضطهاداً، لأن الوليد كان جافاً متعنتا مستبداً، وقد بدأ كِبره وعُجبه قبل أن يليَ الخلافة[3]. وعندما استُخلفَ زجرَ الناس عن التفكير في السياسة ومزاولتها، وخنقهم خنقاً، وقاتل بقايا الجماعات المعارضة وسحقها سحقاً. وقد بدأ عهده بتخويف أهل الشام والأمصار الأخرى، محذراً من الفتنة، ومتوعداً بالفناء والإبادة كل من يهتف بمعاداته، أو يتوانى في موالاته. وهو القائل في خطبته الأولى: «أيها الناس! عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة، فإن الشيطان مع الفرد. أيها الناس! من أبدى ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه! وكان جباراً عنيداً»[4].

٤ ـ لم يكن هناك شيء اسمه حرية الفكر، ذلك لأن الفكر المخالف لرأي الحاكم، لاسيما إذا مسَّ السياسة ولو من بعيد، نهايته محتومة، ومازلنا نعاني هذه الآفة حتى يومنا الراهن[5] وكأن التاريخ يبصق على نفسه. ولنذكر مثالا واحداً في

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٢٣

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الأمويون والخلافة .حسين عطوي ١٣٧ ـ ١٣٨ .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ٧٥/٩ .

(٥) انظر قتل سليم اللوزي وسلخ يده الذي يعتبر رسالة موجهة لكل كاتب في الوطن العربي المنكوب بحكامه.

عهد الأمويين مادمنا نتحدث عنه، إذا كانت ليلة عيد الأضحى لسنة ١٢٠هـ ، وفي صلاة العيد، وقف خالد بن عبد الله القسري والي الكوفة يخطب على المنبر خطاباً جامعاً قال في نهايته: «أيها الناس! اذهبوا وضحوا بضحاياكم، تقبَّل الله منَّا ومنكم، أما أنا فإني مضح اليوم بالجعد بن درهم، فإنه يقول: ماكلَّم الله موسى تكليما، ولااتَّخذ خليلا! تعالى الله عما يقول علواً كبير. ثم نزل واستل سكيناً وذبحه أسفل المنبر[1].

وكانت جريمة الجعد بن درهم المعلنة للناس؛ نفي الصفات عن الله تعالى. وأيا كان موقفنا من رأي الجعد، فلا أظن أحداً يوافق على أن يكون فكره مبررا لأن يذبح أسفل المنبر، وأن يضحي به كما يضحى بالشاة! فهذا العهر السياسي شبيه تماماً بالعهر المعاصر الذي نعانيه ومصدقاً للقول: «ألقِ القبضَ عليه ثم نُلفقّ له التهمة». ومن هنا فإنك تجد من المؤرخين مايشبه الاجماع على أن ذبح الجعد كان لأسباب سياسية ارتدت ـ كالمعتاد ـ زِيَّ التديُن الزائف.

يقول الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق: «أحقيقة قتل الجعد من أجل عقيدته؟ لقد كان يقول بالجبر، وفي ذلك خير شفيع له عند بني أمية. ولكنه كان استاذاً لمروان بن محمد، فهل اقتصر على الثقافة والدين فحسب؟ ألم يتدخل في السياسة؟ إننا حقاً لنشك في أن الحامل لهشام بن عبد الملك الخليفة الأموي على قتل الجعد كان من أجل العقيدة، ويغلب الظن أن الحامل على ذلك إنما هو السياسة، قاتلها الله»[2].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣٦٤/٩ ومروج الذهب للمسعودي ١٦٨ .

(٢) انظر التفكير الفلسفي في الاسلام ١٩٢/١ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٤ .

رابعاً ـ الطاغية العباسي..

كان السفاح هو أوّل خلفاء بني العباس، ومن اسمه نعرف أعماله ومآثره !. بويع في الكوفة عام ١٣٢ هـ، فوقف خطيباً يقول للناس: «استعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير»[1]. ويروي لنا السيوطي كيف استولى على الحكم بالبيعة أيضاً، وكيف قتل في مبايعة السفاح من بني أمية وجندهم ما لا يحصى من الخلائق، فوطدت له الممالك إلى أقصى المغرب.

وهكذا تكون البيعة صورية كما كانت في السابق: إعلاناً جبرياً بالموافقة!، أو هي استسلام قهري للحاكم.

ويدخل على السفاح شاعر صعلوك هو سديف بن ميمون، وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقد أكرمه. فقال سديف ـ وهو مولى أبي العباس السفاح ـ :

لا يغرنكَ ماترىٰ من رجالٍ　　إن تحتَ الضلوعِ داءً دويّا
فضعِ السيفَ، وارفعِ السوطَ حتى　　لاترىٰ فوقَ ظهرِها أمويّا

فقال سليمان: «قتلتني ياشيخ!» وأخذ السفاح سليمانَ فقُتِلَ.

ودخل شبل بن عبد الملك مولى بني هاشم على السفاح، وعنده كبار بني أمية مستسلمين، بعد أن انهارت دولتهم، فينشده قصيدة خبيثة يحرضه فيها على قتل خصومه السياسيين يقول فيها:

أصبح الملك ثابت الأساس　　بالبهاليل من بني العباس
بالصدور المقدمات قديماً　　والرؤوس القماقم الآراس[2]

(١) البداية والنهاية ٤٢/١٠ .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥٠١/٣ ـ ٥٠٢ دار إحياء التراث بيروت.

أقصها أيها الخليفة واحسم عنك بالسيف شأفة الأرجاس
فلقد ساءني وساء سوائي قربهم من مجالسٍ وكراسي
واذكروا مصرع الحسين وزيد وقتيل بجانب المهراس
اقْبَلَنْ، أيها الخليفة، نصحي واحتياطي لأمركم واحتراسي

فيستجيب هذا الخليفة المبير لنصح الشاعر الفصيح، والدماء تغلي في عروقه، فيأمر باغتيالهم جميعاً، ثم لايخجل أن يجلس على البساط الذي لفهم به، فيتناول طعامه فوقهم وهم يتقلبون في جراحاتهم،ويئنون بآلامهم، ويَسبَحون بدمائهم، ومازال قائماً لايتحرك عنهم حتى فاضت نفوسهم إلى بارئها شاكية ظلم الانسان وجبروته[1].

ولقد استهل هذا الظالم حكمه بإخراج جثث خلفاء بني أمية من قبورهم، وجلدهم وحرق جثثهم، ونثر رمادها في الريح (ومنذ سنوات قليلة، وفي بعض البلاد العربية الثورية، نبشت القبور، وأخرجت الجثث لتذروها الرياح، بحجة أن تراب الوطن الطاهر يجب ألا يضم الخونة! أليس تاريخنا واحداً متصلاً؟!ألا يمكن أن نجد نظيراً لأفعال طغاتنا الأقدمين مع فروق ضئيلة جداً، يتطلبها العصر، عند طغاتنا .المحدثين والمعاصرين[2]

ولم يكن ذلك في بداية عهده بالحكم فحسب، وإنما كانت سياسته التي سار عليها. وكان السفاح سريعا إلى سفك الدماء، فاتبعه في ذلك عماله بالمشرق والمغرب. ومع ذلك كان الرجل شديد التدين، وكان نقش خاتمه «الله، ثقة عبد الله،وبه يؤمن»!.

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣/٥٠١ـ ٥٠٢ .
(٢) انظر الطاغية من سلسلة عالم المعرفة رقم ١٨٣ صفحة ٢٣٩ للدكتور إمام عب الفتاح.

ولّما أُتيَ أبو العباس برأس مروان بن محمد، ووضعها بين يديه، سجد فأطال السجود، ثم رفع رأسه، فقال: «الحمد لله الذي لم يبق ثأري قبلك، وقبل رهطك، الحمد لله الذي أظفرني بك، وأظهرني عليك[1]» .

وفعل قُوّادُه مثلما فعل «كنت مع عبد الله بن علي ـ بن عبد الله بن العباس، عم الخليفة السفاح والمنصور ـ أول مادخل دمشق، دخلها بالسيف، وأباح القتل فيها ثلاث ساعات، وجعل جامعها سبعين يوماً اسطبلاً لدوابه وجماله، ثم نبش قبور بني أمية، فلم يجد في قبر معاوية إلا خيطاً أسود، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجد جمجمة. . أما هشام فقد وجده صحيحاً، فأخرجه وضربه بالسوط وهو رفات، وصلبه أياماً، ثم أحرقه ودقَّ رماده ثم ذره في الريح»[2]. ولم تنجُ النساء «فقد أرسل امرأة هشام بن عبد الملك مع نفر من الخرسانية إلى البرية ماشية حافية حاسرة عن وجهها وجسدها عن ثيابها ثم قتلوها ـ وكأنها ليست من حرائر قريش. أو من نساء المسلمين ـ ثم أحرق ماوجده من عظم ميت منهم، وأقام بها عبد الله خمسة عشر يوماً[3]، فهل هذا قائد مُسلم؟ وهل هو عربي؟ أو من أشراف قريش، أو إنسان على الأقل؟ لاأظن إلا أنه وحشٌ ضارٍ لاعلاقة له بدين أو عرف أو إنسانية. . واستمر القائد الهمام في القتل والتنكيل. . ثم تتبع عبد الله بن علي هذا بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم، فقتل منهم في يوم واحد اثنين وسبعين ألفاً عند نهر بالرملة. . ومد عليهم سماطاً فأكل وهم يختلجون تحته وهذا من الجبروت والظلم الذي يجازيه عليه[4]. فاجتث بذلك شأفة العرب الأصلاء فسادت

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٢٧١/٣ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٤٧/١٠ .

(٣) المرجع السابق.

(٤) في التاريخ العباسي والفاطمي ٤٣ د. أحمد مختار العبادي دار النهضة بيروت.

الشعوبية، وأبناء الإماء العباسيين، ومازالت الشعوبية تحكمنا حتى يومنا هذا ـ فإذا مافرغ من طعامه قال: «ماأكلت أكلة أطيب من هذه الأكلة!» ثم حفر بئراً وألقاهم فيه[1] فهل هناك وحشية أقسى من ذلك؟!.

لم يستمر حكم السفاح سوى أربع سنوات وتسعة أشهر ومات ابن ثلاث وثلاثين سنة، بويع بعده أخوه أبو جعفر المنصور عام ١٣٦هـ بعهد منه. فكان المنصور فحل بني العباس هيبة وشجاعة وحزماً ورأياً وجبروتاً.. ولم يكن المنصور صاحب لهوٍ، بل كان رجلاً جاداً.. «جماعاً للمال، تاركاً اللهو واللعب، كامل العقل، جيد المشاركة في العلم والأدب، فقيه النفس، قتل خلقاً كثيراً حتى استقام ملكه»[2]. وكان مولد لمنصور في السنة التي مات فيها الحجاج بن يوسف، وهي سنة خمس وتسعين... فكلما مات طاغية، ولد في أثره من هو أعتى منه، حتى لاتنقطع سلسلة الطغاة في تاريخنا الوضيع.

كيف استهل المنصور خلافته؟! كان أول مافعل أن قتل أبا مسلم الخراساني صاحب دعوتهم وممهد مملكتهم. وبعد ثلاث سنوات شرع في بناء بغداد، وقتل الراوندية، ثم قتل الأخوين محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسين وجماعة كثيرة من آل البيت.. فإنّا لله وإنا إليه راجعون[3].

وقف المنصور يوم عرفة خطيباً يحدد برنامجه السياسي فقال: «أيها الناس! إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده، وحارسه على ماله،

---

(١) تاريخ الخلفاء ٢٥٩.
(٢) مروج الذهب للمسعودي ٢١٧/٣.
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٦٤.

أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه، فقد جعلني الله عليه قُفلاً، إذا شاء أن يفتحَني فتحَني لإعطائكم، وإذا شاء أن يقفلَني عليه أقفلني»[1].

ولابأس أن يستشير المنصور، فما خاب من استشار! ولامانع مثلاً من أن يلقي بعمّه في السجن، ويرسلُ إليه يأخذُ رأيه! إذْ أرسل المنصور إلى عمه عبد الله بن علي، وهو محبوس: أن هذا الرجل قد خرج، فإن كان عندك رأي فأشِرْ به علينا، وكان ذا رأي عنده، فقال: إن المحبوس محبوسُ الرأي[2].

ويؤخذ على المنصور ميله لسفكِ الدماء، وإن لم يكن قد بلغ في ذلك ما بلغه أخوه أبو العباس من قبله، ومما يؤخذ عليه أيضاً غدره بمن آمنه، الأمر الذي يحط شأنه في نظر التاريخ، فلقد غدر ثلاثاً: بابن هبيرة وقد أعطاه الأمان، وبعمه عبدالله بعد أن أمنه، وغدر بأبي مسلم بعد أن طمأنه[3].

ويحدد المنصور في إحدى خطبه، برنامجه السياسي بوضوح لا لَبس فيه: «... أخذ بقائم سيفه، فقال: أيها الناس! إن بكم داء هذا دواؤه، وأنا زعيم لكم بشفائه، فليعتبر عبد قبل أن يُعتبر به[4]!».

ومع ذلك فقد كان الرجل جاداً لا يعرف الهزل، فلم يعرف قصره اللهو والعبث، وكان يومه منظماً تنظيماً دقيقاً؛ ينظر في صدر النهار في أمور الدولة وما يعود عل الرعية من خير، فإذا صلى العصر جلس مع أهل بيته، فإذا صلى العشاء نظر فيما يرد إليه من كتب الولايات والثغور، وشاور وزيره ومن حضر من

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥٦٦/٣ دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٨٩.
(٢) تاريخ الإسلام ٣٥/٢ د. حسن إبراهيم.
(٣) العقد الفريد ١٨٥/٤.
(٤) د. حسن إبراهيم تاريخ الإسلام ٣٥/٢.

رجالات الدولة ، فإذا مضى ثلث الليل انصرف إلى سُمّاره ، وقام إلى فراشه فنام الثلث الثاني ، ثم يقوم من فراشه ليتوضّأ ، ويجلس في محرابه حتى مطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل فيجلس في ديوانه ويبدأ عمله كعادته كل يوم !(1) .

وذلك لم يمنع من تعذيب المنصور لأبي حنيفة النعمان وحبسه وجلده ودسِّ السمّ له في النهاية لرفضه ولاية القضاء ! ، بل يذهب بعيداً إلى الأخذ بالشبهات في كل ما يمس الملك ، ويحاسب أشد محاسبة على ما يظنه يجري في نية الأفراد الذين قد يصل جزاؤهم على مثل هذه الشبهات حدَّ الإعدام ! وهكذا اشتهر عن المنصور أنه قتل الكثيرين ظلماً وعدواناً(2) . وكان يطلب من الناس في نهاية خطبه : «أن ادعوا الله أن يوفقني إلى الرشاد ، وأن يلهمني الرأفة بكم ، والإحسان إليكم . .»(3) . كما طلب منهم بعد قتل أبي مسلم : «أيها الناس ! لا تخرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تُسِروا غش الأَئمة ، فإن من أسر غش إمامه أظهر الله سريرته في فلتات لسانه ، وسقطات أفعاله ، وأبداها الله . إن من نازعنا هذا القميص أوطأناه ما في هذا الغمد . . ومن نكث بيعتنا فقد أباح دمه لنا»(4) .

واستمر جبروت المنصور وطغيانه وأكثر من عشرين عاماً ١٣٦ ـ ١٥٨ هـ ، وقد كتب في وصيته لابنه المهدي : «إني تركت لك الناس ثلاث أصناف : فقيراً لا يرجو إلاّ غناك ، وخائفاً لا يرجو إلاّ أمنك ، ومسجوناً لا يرجوا الفرج إلاّ منك !» .

---

(١) ضحى الإسلام ٤٦/٢ لأحمد أمين .
(٢) العقد الفريد ١٨٦/٤ .
(٣) مروج الذهب ٢٣٦/٣ والبداية والنهاية ٧٣/١٠ .
(٤) في التاريخ العباسي ص٦٧ د . أحمد مختار العبادي .

ثم تولى ابنه المهدي الذي امتدت خلافته عشر سنوات ١٥٨ ـ ١٦٩ هـ الذي اتخذ بعد أبيه سياسيةً لينة يُداوي بها الجراحَ والنفوسَ ، ويجمعُ بها الشمل ، فردَّ معظمَ الأموال التي صودرت على عهد أبيه ، وأطلقَ سَراح المسجونين السياسيين لاسيما العلويين منهم . . . الخ[١] . ولكنه شدد على الطاعة في أول خطبة له . بعد أن بويع بالخلافة ، قال : «أيها الناس ! مِن طاعتنا تُهبكم العافية ، وتحمدون العاقبة ، اخفضوا جناحَ الطاعة لمن نشَرَ معدلته فيكم وطوى الإصْرَ عنكم . . والله لأفنينَّ عمرى بين عقوبتكم والإحسان إليكم[٢] .

وتولى الهادي بعد أبيه ، فأقام في الخلافة سنة وأشهراً . وكان فظاً غليظاً ، اشتهر بالشراسة وكان أبوه أوصاه بقتل الزنادقة فجدَّ في أمرهم ، وقتل منهم خلقاً كثيراً[٣] . ومع ذلك فقد كان الهادي يحب الغناء والشراب واللهو ، فقرب إليه إبراهيم الموصلي المغني العراقي المشهور ، وابنه إسحق الموصلي ، ولقد أعطى إبراهيم الموصلي خمسين ألف دينار لأنه غنّاه ثلاثة أبيات أطربته . ولهذا كان إبراهيم يقول : «والله لو عاش لنا الهادي ، لبنينا حيطان دورنا بالذهب»[٤] . وكانت أمه الخيزران سيدة متسلطة مستبدة بالأمور تغدو المواكب بابها ، فزجرها الهادي ، كلمها بكلام وقح وقال : لئن وقف ببابك أمير لأضربن عنقه ! أمالك من مغزل يشغلك ؟! . . ثم بعث إليها بطعام مسموم فأطعمت منه كلباً فمات ،

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٧٢٢ .
(٢) المرجع السابق ٢٧٩ .
(٣) التاريخ العباسي د . إبراهيم أيوب ص ٥٧ بيروت ١٩٨٩ الشركة العالمية للكتاب . وفي التاريخ العباسي والفاطمي ٧٧ د . أحمد مختار العبادي .
(٤) تاريخ الخلفاء ٢٨٠ .

فعملت على قتله ! وقيل إنها سمته عندما علمت أنه عزم على قتل أخيه الرشيد ، لتعهد الخلافة إلى ولده .

تولى الرشيد بعد موت أخيه الهادي عام ١٧٠ هـ ، وكان أبيض طويلاً مليحاً جميلاً فصيحاً له نظر في العلم والأدب . وما يهمنا شدةُ تدينه فكان يُصلّي في خلافته كل يوم مئة ركعةٍ إلى أن مات ، لا يتركها إلّا لعلة ، ويتصدّق من صلب ماله كلَّ يوم بألف درهم»[١] . وكان يحب العلم وأهله ويعظم حرمات الإسلام ، ويبغض المِراء في الدين ! ، ومع ذلك فأخبار الرشيد يطول شرحها . له أخبار في اللهوَ واللذات المحظورة ، والغناء سامحه الله . فهاك بعضها ، لأنها مثلٌ على نزوات الخليفة ، فإذا غاب القانون وهو كُلِّي ، لم يبق إلّا النزوة التي هي بطبيعتها جُزئية ؛ فعندما أفضتِ الخلافة إلى الرشيد ، وقعت في نفسه جاريةٌ من جواري أبيه المهدي ، فراودها عن نفسها ، فقالت : لا أصلحُ لك ! إن أباكَ قد طاف بي . لكنه شغف بها ، فأرسل إلى أبي يوسف قاضيه الشهير والملقب «بفقيه الأرض وقاضيها !» وسأله الرشيد : أعندك في هذا شيء ؟

وجاء الجواب «اهتك حرمة أبيك ، واقض شهوتك ، وصيِّره في رقبتي»[٢] . لاحظْ استعدادَ رجلِ الدين الفقهيه القاضي للفتوى ، أيّاً كان نوعها لإرضاء شهوات الحاكم ؟!

وقال الرشيد مرةً لقاضيه أبي يوسف هذا : «إني اشتريت جارية ، وأريد أن أطأها الآن قبل الإستبراء ، فهل عندك حيلة ؟ . قال : نعم ! ، تهبها لبعض

(١) المرجع السابق ٢٨٤ .
(٢) المرجع السابق ٢٩١ .

ولدكَ ثم تتزوجها ![1] . ولهذا لم يكن ثمة ما يمنع «فقيه الأرض وقاضيها» أن يأخذَ أجره من أموال المسلمين فوراً رغم أنه استباح دينهم وعرضهم وقانونهم . فقد «دعا الرشيد أبا يوسف ليلاً فأفتاه ، فأمر له بمئة ألف درهم . فقال أبو يوسف : إنّ رأى أمير المؤمنين أمرَ بتعجيلها قبل الصبح ! فقال : عجلوها . فقال بعض من عنده : إن الخازن في بيته ، والأبواب مغلقة ! . فقال أبو يوسف : فقد كانت الأبواب مغلقة حين دعاني ، ففتحت !![2] فتأمل رجل الدين والفتوى يا رعاكَ الله !!

لكن لم تكن حياةُ هارون الرشيد كلُّها ناعمةً هانئة ، فقد فشت الدسائس في قصره ، وكثرت السعايات مما أفزعه وجعله يشعر أنه صار مغلوباً على أمره لاسيما مع البرامكة ، وأنهم شاركوه في سلطانه بشكل أخلَّ بتوازن الدولة وسلامتها ، مما اضطره إلى التخلص منهم . ولقد كان العباسيون عموماً حساسين من هذه الناحية السياسية ، ولهذا قتلوا كل من شكّوا في إخلاصه . وهذا هو ما يهمنا ، فهذا الشعور هو الذي دفعَ المنصورَ للإطاحة بأبي مسلم ، والرشيد إلى نكبة البرامكة ، والمأمون إلى التخلص من الفضل بن سهل ، والمعتصم إلى قتل قائده الأفشين[3] .

خامساً ـ الخاتمة ..

لابُدَّ أن نتنبه جيداً إلى عدة حقائق مهمة ، من الأحداث التاريخية التي روينا بعضاً منها :

---

(١) المرجع السابق .
(٢) الرجع السابق ٢٩٢ .
(٣) في التاريخ العباسي والفاطمي ٨٩ للدكتور أحمد مختار العبادي .

١ ـ كانت الهوة تزداد إتساعاً بين الواقع والمثال ، حتى اختفى المثال تماماً ، وإن ظلَّ في بطون الكتب ، وشروح المفكرين ونظرياتهم من أقدم العصور حتى الآن . ومن أعجب العجب أن نجد واحداً من أكبر الباحثين والمؤلفين المسلمين القدامى في المسائل المتعلقة بنظام الحكم ، ألا وهو أبو الحسن الماوردي المتوفى عام ٥٤٠ هـ بعد أن وضع كتابه الشهير «الأحكام السلطانية» يوصي بعدم نشره إلاّ بعد وفاته !! وذلك خوفاً من بطش الخلفاء العباسيين وطغيانهم !! ، وهكذا نجد أن بعض الباحثين من العلماء كان يكتب في جو من الخوف والرهبة ، كعادة الكتاب في دولة الطغيان ، بينما كان البعض الآخر يكتب بدافع الزلفى من السلطان والرغبة في المكافأة[1] .

٢ ـ لاشك أن حرية الرأي كانت تتصل إتصالاً كبيراً بمزاج الخليفة ، فمثلاً كان المنصور ضيق الصدر سياسياً ، واسع الصدر علمياً . يأخذ بالظنة في كل ما يتعلق بالملك ، ويحاسب أشد المحاسبة ، حتى ما توهمه في النية والضمير ، ويجازي على ذلك بالقتل السريع ، لا يرحم خارجاً عليه ، بل ولا من يتوسم فيه خروجاً ، ولا من حاول أن ينتزع منه سلطة ، ولو كان هو مانحها[2] .

ومعنى ذلك أنه كان ينشد الطاعةَ المطلقةَ والاستسلامَ الكاملَ ! ولقد كانت كذلك الطاعة البابلية ، حيث كانت أوامر القصر كأوامر الإله «آنو» لا تتبدل ، «والعصر الذهبي هو عصر الطاعة» ، فما الجديد الذي حدث بين الحضارة القديمة والحضارة الوسيطة ؟!

---

(١) أزمة الفكر السياسي الإسلامي د . عبد الحميد متولي ص ٥٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ .

(٢) ضحى الإسلام ٤٧/٢٣ لأحمد أمين .

ما الذي طرأ على النظام السياسي مِن تغيُّر ؟!

أليس الحاكمُ هو صاحب الكلمة العليا ؟

أليس الكلُّ لا يساوي الوحد ؟

لقد استمر سيرُ التاريخ المخزي هذا إلى الحقبة المعاصرة لنرى أن إستراتيجية أي حكم هي الحفاظ على الكرسي ، فمن كان مع هذا الكرسي فهو صديق وإنْ كان العدو نفسه . ومن كان ضد هذا الكرسي فهو عدو يجب إبادته حتى وإن كان الشعب بكامله ، وكم شاهدنا حكاماً يضطهدون شعوبهم ، ويقهرونهم في سبيل البقاء في السلطة والمحافظة على الكرسي بكل الوسائل المتاحة . بل ربما تعاونوا مع المستعمر والغازي لقمع شعوبهم كما حدث في عهد حكم المماليك ، وبداية عصر الأيوبيين ، ومن قبلهم في العصر العباسي حينما استعان بعض الخلفاء بأخوالهم كالمأمون والمعتصم وغيره .

٣ ـ ومن السمات الأساسية للطاغية أنه لا يكترث برضا الناس أو موافقتهم على حكمه ، فالمهم إجبارهم على «السمع والطاعة» . هكذا كان حكم بني أمية إبتداءً من معاوية وابنه يزيد إلى عبد الملك بن مروان . . الخ ، وهكذا كان حكم العباسيين ابتداءً من السفاح إلى المنصور . . الخ ، بل هكذا كان تاريخنا كله ، ولايزال ، وما البيعة إلاّ مسألة صوريّة ، مثلها مثل الإستفتاءات التي تجري في بعض الأقطار والتي تنتهي حتماً بفوز الحاكم إن استفتى الناس أم لم يُستفتوا . ولا يمكن لمنصف أن يقول إن البيعة كانت تعني ولاية الخليفة برضا الناس أو إختيارهم أو محبتهم ، وكذلك الإستفتاء المزعوم ، إذْ لا نجد مناسبة إلاّ ويعبر

---

(٤) جمهورية الخوف ص ١٨١ لسمير الخليل وأحمد رائف دار الزهراء للإعلام العربي ١٩٠١ .

الناس فيها عن كراهيتهم للحكم ، حتى أنهم يتمنون انهزامه أمام العدو ، لعله يخلصهم منه ، هكذا تصبح الهزيمةُ حلماً وطنياً في مواجهة الطاغية . ويروي أن المنصور لقي إعرابياً بالشام ، فقال احمدِ الله يا أعرابي الذي رفع عنكم الطاعون بولايتنا أهل البيت . فقال الأعرابي : إن الله لا يجمع علينا حشفاً وسوء كيل !! ولايتكم والطاعون !![1] .

وعندما أفتى مالك بن أنس ، رحمه الله ، فقال للناس : «إنما بايعتم مكرهين ، وليس على مكره يمين» كان ما كان !! جلده المنصور وهو عاري الجسد غير مستور العورة تشهيراً به ! . . فلا أهمية لرضا الناس أو إختيارهم أو كراهيتهم للحاكم ! . . ومقولة كرومويل مشهورة :... تسعة مواطنين من أصل عشرة يكرهونني !! وما أهمية ذلك إنْ كان العاشرُ وحدَه مسلحاً؟ وهو أحد الطغاة في التاريخ ! . . المهم أن تكونَ مُسلحاً ، شاكي السلاح على الدوام ، تستل السيف في غمضة عين[2] .

ولهذا فإن المعزّ لدين الله الفاطمي عندما دخل القاهرة ، وخطب بالناس في الجامع الأزهر ، سألوه عن حسبه ونسبه ، فأخرج من جيبه مجموعة من الدنانير الذهبية ونثرها فوق رؤوسهم ، وهو يقول : هذا حسبي ! ، ثم أخرج سيفه من غمده ، وهو يقول : هذا نسبي !!

ويعجب الدكتور أحمد مختار العبادي لِمَ وقف هذا الموقف ؟ ولِمَ لم يخبرهم أنه من نسل النبي ؟ مع أن المعز كان كثيراً ما يفخر بالإنتهاء إلى الرسول عن طريق

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٦٥ .

(٢) اقترب أحد الخوارج من الهادي ليقتله ، وكان بمفرده ، فصاح اقتلاه ! فظن الخارجي وراءه حراساً فالتفت ، فاستل سيفه بسرعة وقتله ! د . عبادي ٧٦ .

علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء[٣] . لكن النسب المشرف يقوم بدوره في إضفاء القداسة على الحاكم ، وأنه يستمد منه السلطة ، ويكشف عن أحقيته في الحكم ، فمنه لا من الشعب تصـــدر السيادة ، لكن يبقى عليه بعد ذلك كله أن يبرهن على صحة هذا الإدعاء بالسيف ، فهو أصدق إنباء من الكتب !

وعلينا أن نتذكر دائماً أن شاعرنا العربي يقول : إنما العاجز من لا يستبد !! فلإستبداد قوة ، وفحولة ، وسطوة ، وسيطرة ، وهيمنة . أمّا الديمقراطية فهي مساواة ، ورخاء ، وسيادة القانون الذي هو بطبيعته كلّي ، وكبح نزوات الحاكم . . وهي كلها أمور تضعف الحاكم في بلادنا ، وتجعله عاجزاً كما قال الشاعر ![٤] .

٤ ـ يتفرع عن الخاصية السابقة ، خاصية أخرى موجودة في طغاتنا طوال التاريخ ، وهي أنهم لا يخضعون للمساءلة أو المحاسبة والرقابة ؟! ومن ذا الذي يستطيع أن يسأل فرعونَ ، أو جلجامشَ ، أو المنصورَ ، أم أي طاغية من طغاة الزمان ؟! فقد كان الحاكم لا يُسأل عما يفعل ، لأنه هو وحده الذي يسأل . . فهو إمّا أنه إلهٌ كما حدث قديماً في العهد البابلي والكنعاني والفرعوني ، أو أنه يحكم

---

(٣) د . عبادي في التاريخ العباسي والفاطمي ٢٢٧ .

(٤) الشاعر هو عمر بن أبي ربيعة ، قال :

لـيت هـنـداً أنجـزتـنـا مـا تعـد ... وشـفـت أنـفـسـنـا ممـا تجـد
واسـتـبـدت مـرةً واحـدةً ... إنمـا العـاجـز مـن لا يسـتـبـد

والشيء نفسه يمكن أن نقوله عن «كليب بن ربيعة» سيد بني ربيعة في الجاهلية الذي أضرم حرب البسوس فكان أول ضحاياها ، وكان جباراً لا يجرؤ أحد أن يتحدث في مجلسه ، وبعد وفاته رثاه أخوه المهلهل بالأبيات التالية :

نبئت أن النـار بعـدك أوقـدت ... واستب بعـدك يـا كليب المجلس
وتكلمـوا في أمـر كـل عـظيمـة ... لـو كنت شاهـد أمـرهم لم ينبسـوا

فنحن فيما يبدوا ، نمتدح الطغاة والجبابرة منذ الجاهلية ، حتى يوم الناس الذليل هذا .

بتفويض من الله كما هو الحال في العصر الوسيط في أوربا أو الشرق ، أو أنه هبط على الناس في ليلة مظلمة حالكة السواد ، على رأس قواته المسلحة ، يسوقه قدرٌ أحمق الخطى !! وما أن يجلس على منصة الحكم حتى تتفتق عبقريته الكامنة ، وتنكشف مواهبه المدفونة ، التي لم يكن لها وجود من قبل . . وهو يتحول في جميع الأحوال إلى شخصية غير عادية ، سخصية لها ضرب من القداسة ، أو النجاسة !! فكيف يمكن أن يسأله بشر ؟!

يقول الدكتور أحمد مختار العبادي في كتابه «في التاريخ العباسي والفاطمي» صفحة ٣١ : «تغيرت نظرية الخلافة في عهد العباسيين ، وأصبحت تشبه تماماً نظرية الحقّ الإلهي التي كانت سائدة بين الفرس قديماً أيام الساسانيين ، والتي سادت أوربا في بداية العصور الحديثة ، حيث اندمجت في نفوس المسلمين حتى صارت عقيدة يؤمنون بها . .» وذلك لأن العباسيين استندوا في سلطانهم إلى مبدأ القرابة من الرسول، ونادوا بفكرة العائلة المختارة المطهرة من الرجس، ورفضوا مبدأ الانتخاب ، وأكدوا أن الخليفة ظِلُّ الله على الأرض ، وليس للناس إلّا الطاعة . كما تأثرت الخلافةُ العباسية بمفاهيم الحكم الساساني ، وبعدت أكثر وأكثر عن مفهوم الشورى ، واتجهت نحو الحكم المطلق[1] .

ويشرح الدكتور حسن إبراهيم الفكرة نفسها في شيء من التفصيل فيقول : «لقد كان الفرس يقولون بنظرية الحق الملكي المقدس ، بمعنى أن كل رجل لا ينتسب إلى البيت المالك ويتولى الملك ، يعتبر مغتصباً لحق غيره . لذلك أصبح الخليفة العباسي في نظرهم يحكم بتفويض من الله لا من الشعب في أرضه» وذلك

(١) الديمقراطية في فلسفة الحكم العربي للدكتور عبد العزيز الدوري ص١٩٦ .

يخالف ما كانت عليه الخلافة في عهد الراشدين الذين استمدوا سلطاتهم من الشعب[1] .

ولقد أقام العباسيون حقهم في الملك ، كما قلنا ، على أساس أنهم ورثوا بيت الرسول ، وعملوا على الاحتفاظ بالخلافة في دولة ثيوقراطية ، أساس السيادة فيها لزعماء الدين ، ليظهروا بذلك الفرق بين السلطتين ، في عهدهم ، وفي عهد بني أمية من قبلهم[2] . وعلى هذا لم يقبلوا أن يكونوا ملوكاً فحسب ، بل أرادوا أولاً أن ينظر إليهم على أنهم أمراء دينيون ، وأن يدرك الناسُ أن حكومتهم دينية ، فقد حلّت محل الأمويين سلطة ربّانية ، ذات مظاهر دينية : «كان الخليفة مصدر كل قوة ، كما كان مرجعاً لكل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة »[3] . واحتجب الخليفة عن الناس ، واتخذ الوزير والسياف ، فأحيطت شخصيّته بالقداسة والرهبة[4] .

وعلى ذلك ، فإذا ما قرأنا عبارة كهذه : «الخليفة مسؤول سياسياً ، ويخضع لمبدأ العزل ، وليست له حصانة تقف حائلاً دون محاسبته سياسياً . فللأمة حق نقده ، فضلاً عن أنه مسؤول جنائياً عن جميع أفعاله ، سواء ما يتعلق منها بمنصب الخلافة ، وما لم يتعلق . . ويخضع الخليفة أيضاً للمساءلة المدنية ، فهو يخضع لأحكام المعاملات الشرعية ، فلا يجوز للإمام أن يتعدى على حقوق الأفراد ، فإن فعل ذلك كان لمن أُضير بفعله حقُّ اللجوء إلى القضاء للمطالبة بحقه»[5] .

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم تاريخ الإسلام ٢٠٦/٢ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) دكتور ابراهيم أيوب «التاريخ العباسي ص ٢١٢ الشركة العالمية للكتاب ببيروت .
(٤) د . حسن ابراهيم تاريخ الإسلام ٢٠٧/٢٣ .
(٥) رئيس الدولة بين النظم المعاصرة والفكر السياسي الإسلامي ص ٢٥٠ للدكتور محسن العبودي ، دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٩٠ .

أو عندما نقرأ ما يقوله الإمام محمد عبده : «الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم ، ولا هو مهبط الوحي ، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة ، . . . وإذا كانت الأمة هي التي نصبته ، فالأمة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه ، وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه . . .»[1] .

وكذلك عندما نقرأ للفقيه الأكبر الدكتور السنهوري : «أن عقد الخلافة عقد حقيقي يجب أن تتوافر فيه أركان العقود وشروطها . والركن الأول هو الرضا ، وحرية الإرادة من الطرفين ، من الخليفة باعتباره الطرف الأول ، ومن أهل الحكم والعقد وسائر المسلمين باعتبارهم الطرف الثاني . . . الخ . وبالتالي الخليفة أو الحاكم المسلم ليس مطلق السلطة يملك جميع السلطات كما يزعم البعض»[2] .

أو عندما يقول السنهوري : «الخليفة كأي حاكم في الإسلام ليس ممثلاً للسلطة الإلهية ، وهو لا يستمد سلطانه من السيادة الإلهية ، وإنما هو يمثل الأمة التي اختارته ، ويستمد منها سلطته المحدودة» . . . أو قوله : «فكأن السيادة الإلهية والحق في التشريع أصبح بعد انقطاع الوحي وديعة في يد الأمة ، لا في يد الطغاة من الحكام والملوك ، كما كان الشأن في الدولة المسيحية التي ادّعى ملوكها حقاً إلهياً . . فالأمة الإسلامية تملك سلطة التشريع بطريق الاجماع . أمّا ولي الأمر ، وهو الخليفة ، فلا يملك من هذه السلطة شيئاً . . . فالخليفة في الإسلام لا يمكن أن يعطي لنفسه حق التعبير عن الإرادة الإلهية ، أو أنه لا يملك أن يصدر تشريعاً لأن سلطة التشريع لجماعة المسلمين . . .»[3] .

---

(١) الإسلام والنصرانية للإمام محمد عبده ص ٨٢ ـ ٨٤ .

(٢) فقه الخلافة وتطورها ص ٦٢ للدكتور السنهوري .

(٣) المرجع السابق .

فلابُدَّ أن نتذكر أن هذه العبارات الجميلة ، والأفكار السامية ، إنما تتحدث عن المثال ، بينما نحن نتحدث عن الواقع ، عمّا حدث في التاريخ ، وحدث على مرّ الأيام . وهو الذي يهمنا الآن ، لأنه للأسف همزة وصل بين الماضي السحيق ، والحكم المعاصر الذي مازال يعتصر قوانا وكرامتنا !![1] .

فإذا كان الشعب في أي نظام دستوري هو السيد ، من حيث إنه المصدر النهائي للسلطة السياسية . استطعنا أن نقول في حسم قاطع : إن نظام الحكم في تاريخنا الطويل لم يكن يعرف شيئاً عن «النظام الدستوري» ، لأن الشعب كان فيه غائباً تماماً ، أو مُغَيَّباً . فبسبب النزعة الاستبدادية التي عرفت عن حكم الخلفاء منذ عهد الأمويين ، فيما يرى الأستاذ الأكبر الدكتور السنهوري ، أغفل علماء المسلمين القدامى الاهتمام بالبحوث الدستورية ، فبقي جانب الفقه الإسلامي المتعلق بالقانون العام في حالة طفولة بسبب هذا العزوف[2] .

الحاكم يحكم وفقاً لضميره الأخلاقي ، والكتابات السياسية القليلة التي كتبت ، اهتمت بالنصائح التي تقدم للحاكم ليكون أخلاقياً ، واشترطت عليه أن يكون عادلاً مستقيماً عفّاً ، وأن يراعى ضميره ، وأن يتقي الله في عمله ، أعني أنها عُنِيتْ بأخلاقيات الحاكم الذي «متى صَلُح صلُحت الرعية ، ومتى فسدَ فسدت !!.»

٥ ـ لا يكون أثر الطغيان سلباً على حرية الفكر فحسب ، وإنما يكون كذلك

---

(١) باشوات وسوبير باشوات صورة مصر في عصرين ص ٦٤ للدكتور حسين مؤنس ، الزهراء للإعلام العربي القاهرة ١٩٨٤ .

(٢) فقه الخلافة وتطورها للسنهوري ٦٣ ـ ٦٤ وأزمة الفكر السياسي الإسلامي ٥١ للدكتور عبد الحميد متولي .

أيضاً على أخلاق المفكرين والأدباء والشعراء والفقهاء . . الخ ، فيتجه بهم إلى الرياء والنفاق والتنزلف ! يقول أحمد أمين : «إن الأدب اتجه معظمه في العصر العباسي إلى مُشايعة رغباتِ القصر ، يذم الشعراء مَنْ ذمهم الخلفاء ، ويمدحون مَنْ رضوا عنه «فإذا خرج محمد بن عبدالله على المنصور هجاه ابن هرمة» . وإذا رضي المعتصم عن الأفشين فقصائد أبي تمام تترى في مدحه ، وإذا غضب عليه وصلبه ، فقصائد أبي تمام أيضاً تقال في ذمه وكفره . ويرضى الرشيد عن البرامكة فهم معدن الفضل ، ويقتلهم فهم أهل الزندقة والشرك[1] .

وهكذا وقف الأدب أو أكثره يخدم الشهوات والأغراض ، وقديماً هجا الفرزدق الحجاج بعد أن مدحه ، فقيل له : كيف تهجوه وقد مدحته ؟ فقال : نكون مع الواحد منهم ما كان الله معه ، فإذا تخلى عنه انقلبنا عليه ! . ولو قال : نكون مع الواحد ما كان الحاكم معه ، لكان أصدق !! .

ومن خرج عن خط المديح لمن يرضى عنه الحاكم ، وهجا من يغضب عنه ، عوقب على خروجه أشد عقاب . وأنشأ العباسيون إدارة للبحث عن الزنادقة وتعقبهم ، وأفرطوا في قتل المتهمين ، ومنهم من قُتل ظلماً وعدواناً ، وكان الداعي إلى قتله أسباباً سياسية ، ولكنهم نفَّذوا أغراضهم تحت شعار الزندقة ، استمالة للجمهور ، كما فعلوا بابن المقفع ، وصالح عبد القدوس ، الذي سبق أن ذكرناه . لكن ابن المقفع يحتاج إلى وقفة خاصة : فابن المقفع صاحب المكانة الرفيعة في الأدب العربي ، والحظ العظيم من الثقافة العربية واليونانية والفارسية ، حتى إنه كان أول من ترجم كثيراً من كتب أرسطو في المنطق والجدل والقياس والمقولات[2] . هذا الرجل تجرَّأ وكتب «رسالة في الصحابة» أرسلها إلى المنصور

---

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين ٢/٣٥ - ٣٦ .
(٢) من تاريخ الأدب العربي ٢/٤٤٤ لطه حسين .

بدأها بمدحه وتفضيله على الأمويين ، لكنه تجرًأ وعينً من نفسه مُشيراً يُشير إلى «وليِّ النِّعم» ، إذْ أشار عليه بالاهتمام بالجنود في خراسان وضمان أرزاقهم ، وأن يضعَ لهم قانوناً يعصمُهم من جورِ العمال والحكام ، ويضمن لهم حياةً هادئة ! ، ثم انتقل إلى أهل العراق فأوصى بهم أمير المؤمنين خيراً لأنهم ظُلموا أيام بني أمية ! وليس ذلك فقط بل إنه انتقل إلى الأحكام الفقهية ، فرأى أن يصدر الخليفة كتاباً يلزم الفقهاء على اختلافهم بالأخذ به ، فلا يكون في الأحكام تناقض ولا في القضاء اضطراب ! ، ثم انتقل إلى أهل الشام ، فطلب إلى الخليفة أن يحتاط في سياسته فيشتد عليهم في عدل . . . الخ .

فماذا يكون جزاء هذه الوقاحة ؟

أرسل المنصور إلى والي البصرة سفيان بن حبيب يأمره بقتله ، فدعاه الوالي إلى ديوان الحكومة ، وأدخله المقصورة ، وإذا بها تنور ، وقال له : «والله لأقتلنك قتلةً يذكرها الركبان» وأخذ يقطّع من جسمه أجزاءً ويضع كل قطعة في النار وهو يراها تحترق حتى مات[1] ، وقيل للناس : إن ابن المقفع قُتل بسبب الزندقة ، «أما أنا فأرجِّح جداً أن الذي قتله ليست الزندقة . . وإنما هذه الرسالة التي تسمى «رسالة الصحابة»[2] .

فعلينا أن نتذكَّر باستمرار أن أُسَّ البلاء في مجال الفكر أن يجتمعَ السيفُ والرأيُ الذي رأيُ غيره في يدٍ واحدة . فإذا جلا لك صاحب السيف صارمه وتلا عليك باطله ، زاعماً أنه هو وحدَه الصواب المحض ، والصدقَ الصُراح ، فماذا

---

(١) البداية والنهاية ٩٩/١٠ .
(٢) من تاريخ الأدب العربي ٤٤٤/٢ لطه حسين .

أنت صانع إلاّ أن تقول له «نعم» ، وأنت صاغر ؟ هذه صورة رسمها أبو العلاء بقوله :

جلوا صارماً ، وتلوا باطلاً   وقالوا : صدقنا ، فقلنا : نعم !

وهكذا كانت الحال في جانب من تراثنا ، هو الجانب السياسي ، وهو الجانب الذي نريد أن نطمسه ليموت ! ، فقد يكون للأمير أو الوزير رأي ، ورأيه في رأسه والسياف إلى جواره ، ثم يمْثُلُ المخالفُ بين يديه ، وفي مُثوله هذا يكون الختام[1] .

بل قد يحاسب الحاكم ، المفكِّرَ أو الشاعرَ على أفكار دارت في رأسه ، أو في سريرةِ نفسه دون أن يُعلنها أو ينطقَ بها . وهناك عشرات الأمثلة ؛ قصة بشار بن برد ، وقصة الحلاج الشهيرة ، وابن المقفع الذي عرضنا له الآن تواً !![2] .

فالخلفاء عموماً إنْ سمحوا بحرية الرأي في كل شيء ، فليسوا يسمحون بها في نقد الحاكم أو معارضته أو إضعاف ملكه ، فإذا مسَّ المفكر هذه الناحية فالعقوبة شديدة ، « . . ومن رأيي أن أبا حنيفة ومالك بن أنس ، والثوري ، لم يعاقبوا للسبب الذي يذكر عادة وهو عدم رغبتهم في تولي القضاء ، ولكن لأن امتناعهم مظهر من مظاهر عدم تعاونهم مع الدولة القائمة ، أو النظام الحاكم ، والجمهور يرى أن هؤلاء إذا امتنعوا فلأن الدولة ظالمة لا تحكم بالعدل ، ولأن امتناعهم قد يدل على رغبتهم الخفية في نصرة أعداء العباسيين كالعلويين . «إن مجرد الامتناع عن المشاركة جريمة وهذا بالضبط ما حدث عام ١٩٥٤ بالنسبة لواحد من أعظم من أنجبت مصر من فقهاء القانون «عبد الرزاق السنهوري» الذي امتنع

---

(١) تجديد الفكر العربي ٣٣ د. زكي نجيب محمود .
(٢) المرجع السابق ٣٤ .

عن المشاركة في الحكم ، فأرسلوا مجموعة من العمال لتضربه في مكتبه ، ولتهتف : يحيا الجهل وليسقط العلم» .

ومن هذا الباب تمّ بأمر الخلافة توسيع أمر الزندقة ، وإنشاء الإدارة الخاصة بهم ، فهم وقد أخذوا على أنفسهم حماية الدين ، وصبغوا الخلافة صِبغةً دينية ، وربطوا الأمرين أحدهما بالآخر ، قد رأوا التشدُّد في هذا الأمر كالتشدد في سابقه[1] .

٦ ـ في مثل هذه الدولة ليس هناك «كبيرُ» أو شخصية محترمة . . . الخ ، سوى السيد الأوحد ، أما بقية الأفراد فهم ، بمعنى أو بآخر ، عبيد هذا السيد ، فيمكن لأي شخص أن يُسجنَ أو يُدسَّ له السمّ في طعامه ، أو يُضرب ، أو يُجلد . فلا كرامة ، ولا اعتبار ، ولا قيمة إلّا للذات العلية وحدها ! بل إنه يمكن أن يعصف بمن سبق لهم أن ساعدوه أو عاونوه أو من مدحوه ، كما عصف المنصور بأبي مسلم الخراساني ، بعد أن مكّن العباسيين من تثبيت ملكهم[2] .

ويروي أحمد أمين عن عصر العباسيين عموماً أنهم قتلوا وأهانوا الكثير من الوزراء الذين كانوا يعملون معهم ، يقول : «قلَّ أن نرى وزيراً في العصر العباسي مات حتف أنفه ، فأول وزير لأول خليفة عباسي قد أوعز الخليفة السفاح إلى أبي مسلم الخراساني بقتله ففعل . واستوزر أبو جعفر المنصور أبا أيوب سليمان المورياني ثم قتله ، وقتل أقاربه ، واستصفى أموالهم ، ونكبة الرشيد للبرامكة الذين كان منهم الوزراء ، معروفة مشهورة . واستوزر المأمون الفضل بن سهل ثم أوعز بقتله . . وهكذا» .

---

(١) ضحى الإسلام ٤٦/٢ لأحمد أمين .

(٢) انظر المرجع السابق .

وبلغ الحال من تعرض الوزراء في ذلك العصر للقتل ، أنْ كان القرّاد في الشارع يقول لقرده : أتريد أن تكون عطاراً ؟ فيومىء برأسه أن نعم ! فيعدد له الصنائع ، وهو يومىء برأسه موافقاً . . فيقول له في النهاية : أتشتهي أن تكون وزيراً ؟ فيومىء برأسه لا !! ويصيح ويعدو من يد القرّاد . فيضحك الناس[1] ومازال الأمر على هذا النحو حتى يومنا النحس هذا !!

(١) أحمد أمين ضحى الإسلام ٢/٤٢ - ٤٣ .

الفصل الثالث

الخلفاء الراشدون

١ ـ خليفة رسول الله أبو بكر الصديق ٥٠ ق . هـ ـ ١٣ هـ/ ٥٧٠ ـ ٦٣٣ م

٢ ـ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ٤١ ق . هـ ٢٣ هـ/ ٥٨٠ ـ ٦٤٣ م .

٣ ـ أمير المؤمنين عثمان بن عفان ٤٨ ق . هـ ـ ٣٥هـ/ ٥٧٣ ـ ٦٥٦ م

٤ ـ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . ١٨ ق . هـ ـ ٤٠ هـ/ ٦٠٢ ـ ٦٦٠ م

٥ ـ ملحق .. الحسن بن علي ٣ ـ ٥٠ هـ/ ٦٢٤ ـ ٦٧١ م

خليفة رسول الله أبو بكر الصديق

لماذا نبدأ بأبي بكر دائماً ؟

يؤرخ العالَمَ العربي والإسلامي اليوم ، بهجرة النبي العربي من مكة إلى المدينة . والسر في إختيار هذا الحادث العظيم مبدأً للتأريخ العربي والإسلامي ، أنه مبدأُ نصرِ اللهِ ورسولِهِ على الذين حاربوا دعوتَه . وكان أبو بكر الصديق هو وحدَهُ صاحبُ رسولِ الله في هذه الهجرة ، ويُشكِّل نصفَها .

ولمّا مرِضَ رسولُ الله مرضَه الأخيرَ ، فلمْ يقوَ على الصلاة بالمسلمين ، أمرَ أبا بكر أن يقومَ في الصلاة بهم مقامَهُ ، ولم يرضَ أن يقومَ عمرُ بن الخطاب هذا المقام .

إنما اختارَ النبيُّ أبا بكرٍ ليصحبه في الهجرة ، وليصلي بالمسلمين مكانَه ، لأن أبا بكر كان أوّلَ المسلمين إيماناً بالله ورسوله ، وأكثرَهم في سبيله تضحيةً ، ولأنه كان يؤثرُ النبيَّ على نفسه ، ويقف إلى جانبه في كل موقف ، ثم إنه كان ، إلى قوة إيمانه ، من أدنى الناس إلى كمال الخلق ، ومن أحب الناس إلى الناس ، وأكثرهم إلفاً لهم ومودة .

لا عجبَ ، وذلك بعض شأنه ، أن يُبايعَه المسلمون خليفة لرسول الله ! ولا عجب ، وتلك مواقفه ، أن ينصرَ الإسلامَ وينشرَ ظلَّ الله في الأرض ، فيكون التأريخ له مبدأ التأريخ للإمبراطورية الإسلامية التي امتدت من الهند والصين شرقاً إلى مراكش والأندلس غرباً ، والتي وجَّهت الحضارة الإنسانية وجهةً لايزال العالم متأثراً بها إلى اليوم .

إن عظمةَ أبي بكرٍ تُثير الدهشة والإعجاب ، بل الإكبار والإجلال ، وأخشى أن أقول إنها تدعو إلى التقديس . . فهذا الرجل الوديع السمْحُ الأسيف السريع إلى التأثر وإلى مشاركة البائس في بؤسه ، والضعيف في ضعفه ، تنطوي نفسُه على قوة هائلة لا تعرف التردُّدَ ولا الإحجام ، وعلى قدرةٍ ممتازة في بناء الرجال ، وفي إبراز ملكاتهم ومواهبهم ، وفي دفعهم إلى ميادين الخير العام ينفقون فيها كل ما آتاهم الله من قوة ومقدرة .

وعظمةُ أبي بكر مع ذلك هي العظمة الصامتة التي تأبى أن تتحدثَ عن نفسها ، لأنها عظمةُ الروح وعظمة الإيمان الحق بالله وبما أوحي إلى رسوله ﷺ . فهو حين فكَّر في غزو الفرس وفي غزو الروم . رأى في مبدأ المساواة الذي جاء الإسلام به قوة جديدة لا تستطيع فارس ولا تستطيع بزنطية أن تواجهَها . فهذا المبدأ جدير بأن تهوي إليه نفوس الناس جميعاً في هاتين الإمبراطوريتين اللتين قامتا على حكم الفرد وعلى نظام الطوائف . فإن فكرة المساواة والعدل أقوى من كل قوة ، ولذلك نصح إلى من بعثهم على رأس هذا الغزو أن يتمسكوا بالمساواة وبالإنصاف والعدل لا يحيدون عنه قيد أنملة[1] .

---

(١) الصديق أبو بكر لمحمد حسين هيكل مقدمة الكتاب .

ويتوفى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ويبايع الناس أبا بكر ، وحين سمع الناس الخبرَ استطارت الثورةُ في بلاد العرب جميعاً ، وأعلنت القبائلُ عدم الإذعان لسلطان المدينة ، وعدّوا الزكاةَ إتاوة مفروضة فامتنعوا عن أدائها ، وفجعت هذه الأخبارُ مَنْ بالمدينة ، فتولاّهم الدهش واختلفوا فيما يصنعون ، وكان رأيُ بعضهم ومنهم عمر بن الخطاب ألاّ يقاتلوا الذين منعوا الزكاة ماداموا يشهدون أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله[1] وبعضهم ومنهم علي بن أبي طالب فقد أمسك بزمام راحلة الصديق ، وقال : إلى أين يا خليفة رسول الله ؟ أقول لك ما قال لك رسول الله ﷺ يوم أحد : شِمْ سَيْفَكَ ، ولا تَفْجَعْنَا بنفسك ، وارجع إلى المدينة . فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبداً[2] .

لكنّ أبا بكر أصرَّ على قتال من منعوا الزكاة ، كما أصرّ على قتال من ارتدّوا ، وقال قولته التي لولاها لَما كان إسلامٌ ولا قامت عروبة ، قال : والله لأجاهدنَّهم ما استمسك السيف في يدي ، وإن منعوني عقالاً....واشتبك المسلمون بالمرتدين ، وتابع جيش أسامة الذي كان أنفذه رسول الله ﷺ قبل وفاته ، وأعان الله أبا بكر ، وأيده وانتصرت جيوشه بحمد الله ، ولذلك لا يكون غالياً من يقول : إن أبا بكر بموقفه من ردة العرب ، وانتصاره فيها ، قد وجَّه تاريخ العالم ، وكان يَدَ الله في بعث الحضارة الإنسانية خلقاً جديداً .

فلولا إنتصارُ أبي بكر في حروب الردة لما بدأ غزو العراق ، وغزو الشام ، ولما سارت جيوش المسلمين مظفرة تفتح الإمبراطوريتين الرومية والفارسية لتقيم الإمبراطورية الإسلامية على أنقاضهما ، ولتحل الحضارة الإسلامية محل حضاريتهما .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٨٥ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٨٨ .

إن السبعة والعشرين شهراً التي حكمها هذا الرجل الجليل لم تكن قادرة على خلق أسس متينة لإمبراطورية إسلامية واسعة لو لم تستوعب صحبةَ الرسول الكريم عشرين سنة كاملةً،ومن هنا تأتي عظمة الصّديق في خلافته لأنها تتصل بعظمته في صحبة الرسول أوثقَ إتصال ، فأدركَ مقاصده وأغراضه كاملةً إدراكَ إلهام لا يتطرق إليه الخطأ والريب ، ومما أُشرِبه وأدركه بإلهامه أن الإيمان قوةٌ لا يغلبها غالبٌ ما تنزه المؤمن عن كل غرض إلاّ إبتغاء الحق لوجه الحق وحده[1] .

(١) الصديق أبو بكر لمحمد حسين هيكل المقدمة .

خليفة رسول الله
أبو بكر الصديق رضي الله عنه
٥١ ق . هـ - ١٣ هـ = ٥٧٣ - ٦٣٤ م

أبو بكر الصديق خليفةُ رسول الله ﷺ . اسمه : عبدُالله بن أبي قُحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ، القرشيُّ ، التَّيمِيُّ ، يلتقي مع رسول الله ﷺ في مُرَّةَ . ولُقِّبَ عتيقاً ، لِعِتْقِهِ من النار ، كما ورد في حديث رواه الترمذي . وقيل : لِعَتَاقَةِ وجهه ، أي حُسْنِهِ وجماله ، قاله : مصعب بن الزبير ، والليث بن سعد . وجماعة . وقيل : لأنه لم يكن في نسبه شيءٌ يعاب به[1] .

وقال مصعب بن الزبير وغيره : وأجمعت الأمة على تسميته بالصدِّيق ، لأنه بادر إلى تصديق رسول الله ﷺ ، ولازمَ الصدق ، فلم تقع منه هَنأة ما ، ولا وَقْفَة في حال من الأحوال[2] .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٣ .
(٢) المرجع السابق .

ولد رضي الله عنه بعد مولد النبي ﷺ بسنتين وأشهر بمكّة ، فإنه مات وله ثلاث وستون سنة مستوفياً لعمر النبي ﷺ وذلك بإتفاق الروايات (انظر مروج الذهب للمسعودي ٢/٣٠٤) ، وقال ابن كثير : وأمّا ما أخرجه خليفة بن الخياط ، عن يزيد بن الأصم أن النبي ﷺ قال لأبي بكر : أنا أكبر أو أنت ؟

قال : أنت أكبر وأنا أسنّ منك ، صحح ذلك عن العباس . وهذا يدلنا على أنه ولد قبل ميلاد النبي عليه الصلاة والسلام ، والله أعلم ؟

وأَخْرجَ الواقدي من طرق عائشة ، وابن عمر ، وسعيد بن المسيب ، وغيرهم رضي الله عنهم ، أن أبا بكر بويع يوم قُبِضَ رسول الله عليه الصلاة والسلام يوم الإثنين لاثني عشرة ليلةً خَلَتْ من ربيع الأول سنة إحدى عشْرَةَ من الهجرة[1] .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر قال : لم يجلس أبو بكر الصديق في مجلس رسول الله عليه الصلاة والسلام على المنبر حتى لقي الله ، ولم يجلس عمر في مجلس أبي بكر حتى لقي الله ، ولم يجلس عثمان في مجلس عمر حتى لقي الله[2] .

وأم أبي بكر بنت عمٍّ أبيه ، اسمها سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب ، وتكنى أم الخير . وكان منشؤه بمكة ، لا يخرج منها إلّا لتجارة ، وكان ذا مال جزيل في قومه ، ومروءة تامة ، وإحسان ، وتفضل فيهم ، كما قال ابن الدُّغُنَّة : إنك لَتصلُ الرحم ، وتصدُقُ الحديث ، وتكسب المعدوم ، وتحمل الكَلَّ ، وتعين على نوائب الدهر ، وتَقْري الضعيف[3] .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٨٥ .

(٢) المرجع السابق ٨٥ .

(٣) قال له حين شاهده خارجاً من مكة يريد الهجرة إلى الحبشة ، فرده وجعله في جِداره ، انظر سيرة ابن هشام .

تزوج في صدر شبابه قُتَيْلَةَ بنت عبد العُزَّى ، فولدت له عبدالله وأسماء ، وأسماء هذه هي التي لُقبت بعدُ بذاتِ النطاقين . وتزوج بعدها أم رومان بنت عامر بن عويمر ، فاستولدها عبد الرحمن وعائشة . ثم تزوج في المدينة من حبيبة ابنة خارجة ، وآخر زوجاته أسماء بنت عُمَيْسٍ فولدت له محمداً[1] .

وقال النووي : وكان من رؤساء قريش في الجاهلية ، وأهل مشاورتهم ، ومحبباً فيهم ، وأعلمهم لمعالمهم ، فلما جاء الإسلام آثره على ما سواه ، ودخل فيه أكمل دخول .

وأخرج الزبير بن بكار ، وابن عساكر عن معروف بن خربوز قال : إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أحدُ عشرةٍ من قريش اتصل بهم شرف الجاهلية والإسلام ؛ فكان إليه أمر الديات والغرم . وذلك أن قريشاً لم يكن لهم ملك ترجع الأمور كلها إليه ، بل كان في كل قبيلة ولاية عامة تكون لرئيسها ، فكانت في بني هاشم السقاية والرفادة ؛ ومعنى ذلك أنه لا يأكل ولا يشرب أحد إلّا من طعامهم وشرابهم .

وكانت في بني عبد الدار ؛ الحِجَابَةُ واللِّواء والنَّدْوَةُ ، أي لا يدخل البيت أحد إلّا بإذنهم ، وإذا عقدت قريش راية حرب ، عقدها لهم بنو عبد الدار ، وإذا اجتمعوا لأمر إبراماً أو نقضاً لا يكون اجتماعهم إلّا بدار الندوة ، ولا ينفذ إلّا بها ، وكانت لنبي عبد الدار[2] .

---

(١) الصديق أبو بكر لمحمد حسين هيكل ٢٥ .

(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٧ ـ ٣٨ .

وأخرج أبو نعيم بسند جيد عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : لقد كان حرَّم أبو بكر الخمر على نفسه في الجاهلية[1] .

وأخرج ابن عساكر عن أبي العالية الرياحيِّ قال : قيل لأبي بكر الصديق في مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ : هل شربت الخمر في الجاهلية ؟

فقال : أعوذ بالله !

فقيل له : ولم ؟

قال : كنت أصون عرضي ، وأحفظ مروءتي ، فإن من شرب الخمر كان مُضيِّعا في عِرضه ومروءته . قال : فبلغ ذلك رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال : صدق أبو بكر ، صدق أبو بكر ، مرتين[2] .

وأخرج ابن عساكر من طريق الحارث عن علي رضي الله عنه ، قال : أول من أسلم من الرجال أبو بكر .

وأخرج ابن أبي خَيْثَمَةَ بسند صحيح عن زيد بن أَرْقَمَ قال : أول من صلى مع النبي ﷺ أبو بكر الصديق .

وأخرج الطبراني في الكبير ، وعبدالله بن أحمد في زوائد الزهد ، عن الشعبي ، قال : سألت ابن عباس : أيُّ الناس كان أوَّلَ إسلاماً ؟

قال : أبو بكر الصديق ، ألم تسمع قول حسان :

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٨ .
(٢) المرجع السابق .

إذَا تذكَّرْتَ شَجْواً مِنْ أخِي ثِقَةٍ   فاذكُرْ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلا
خَيْرَ البَرِيَّةِ ، أَتْقَاهَا ، وَأَعْدَلَهَا   إلَّا النَبِيَّ ، وَأَوْفَاهَا بِمَا حَمَلا
وَالثانِيَ التَالِيَ المَحْمُودَ مشهدُه   وَأَوَّلَ النَّاس مِنْهُمْ صَدَّقَ الرُّسُلاَ[1]

وأخرج أبو نعيم عن فُرات عن السائب ، قال : سألت ميمون بن مهران ، قلت : عليٌّ أفضل عندك أم أبو بكر وعمر ؟

قال : فارتعد حتى سقطت عصاه من يده ، ثم قال : ما كنت أظنُّ أن أبقى إلى زمان يعدل بهما ، لله درُّهما ! كانا رأس الإسلام .

قلت : فأبو بكر كان أوّل إسلاما أم علي ؟

قال : والله لقد آمن أبو بكر بالنبي ﷺ زمن بحيرا الراهب حين مرَّ به ، واخْتَلَفَ فيما بينه وبين خديجة حتى أنْكَحَهَا إياه ، وذلك قبل أن يولد علي[2] .

لقد كان يعيش بمكة في الحي الذي تعيش فيه خديجة بنت خويلد ، ويعيش فيه التجار النابهون الذين تذهب تجارتهم في رحلتي الشتاء والصيف إلى الشام وإلى اليمن ، ومقامه بهذا الحي هو الذي ربط بينه وبين محمد عليه الصلاة والسلام بروابط الألفة بعد زواجه من خديجة وانتقاله لدارها . . . وكان إلفُ قومه إياه وحبهم الجلوس إليه والإستماع لحديثه ، ذا أثر في إستجابة المسلمين الأولين لهذه الدعوة ، فقد تابعَ أبا بكرٍ على الإسلام عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيدالله ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، كما أسلم من بعدهم ، بدعوة أبي بكر ، أبو عبيدة بن الجراح وكثيرون غيره من أهل مكة[3] .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق .
(٣) الصديق أبو بكر لمحمد حسين هيكل صفحة ٢٦ .

وقال ابن إسحق : حدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبدالله بن الحصين التميمي أن رسول الله ﷺ قال : ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلّا كانت له عنه كبوةٌ وتردُّدٌ ، إلّا أبا بكر ، ما عتم[1] عنه حين ذكرته ، وما تردد فيه .

وقال البيهقي : وهذا لأنه كان يرى دلائل نبوة رسول الله ﷺ ، ويسمع آثاره قبل دعوته ، فحين دعاه كان سبق له فيه تفكير ونظر ، فأسلم في الحال . ثم أخرجح عن أبي ميسرة أن رسول الله ﷺ «كان إذا برز سمع من يناديه : يا محمد ؟ فإذا سمع الصوت ولّى هارباً ، فأَسرَّ ذلك إلى أبي بكر ، وكان صديقاً له في الجاهلية .

وقال العلماء : صحب أبو بكر النبي عليه الصلاة والسلام من حين أسلم إلى حين توفي ، لم يفارقه سفراً ولا حضراً ، إلّا فيما أذن له عليه الصلاة والسلام في الخروج فيه من حج وغزو ، وشهد معه المشاهد كلها ، وهاجر معه ، وترك عياله وأولاده رغبةً في الله ورسوله ﷺ ، وهو رفيقه في الغار ، قال تعالى : ﴿ثَانيِ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ ، إِذْ يقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا﴾[2] وقام بنصر رسول الله ﷺ في غير موضع ، وله الآثار الجميلة في المشاهد ، وثبت يوم أُحدٍ ، ويوم حُنَيْنٍ وقد فرَّ الناس[3] .

وأخرج أبو يعلى ، والحاكم ، وأحمد ، عن عليّ قال : قال لي رسول الله ﷺ يوم بدر لك ولأبي بكر : «مع أحدكم جبريل ، ومع الآخر ميكائيل» .

وأخرج ابن عساكر عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ ، فكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ، وألحّ أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور ، فقال : يا أبا بكر ، إنّا قليل ، فلم يزل أبو بكر يُلحُّ على رسول الله ﷺ حتى ظهر رسول الله ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجلٍ في عشيرته ، وقام أبو بكرٍ في الناس خطيباً ، فكان أوّلَ خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين ، وضُرِبوا في المسجد ضرباً شديداً[1] .

بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

وأخرج ابن سعد ، والحاكم ، والبيهقي عنْ أبي سعيد الخُدري ، قال : قُبِضَ رسول الله عليه الصلاة والسلام ، واجتمع الناس في دار سعد بن عبادة ، وعلم أبو بكر وعمر ، فذهبا ، وخطب الأنصار ، وطلبوا الأمر لأنفسهم ، وأراد أن يتحدث عمر رضي الله عنه ، فمنعه أبو بكر فقال : على رِسْلِكَ ، ثم خطب خطبة رصينة ذكر فيها فضل الأنصار ، ثم سكت ، فقال : أمَّا بعد ، فما ذكرتم فيكم من خير فأنتم أهله ، ولم تعرف العرب هذا الأمر إلاّ لهذا الحي من قريش هم أوسط العرب نسباً وداراً ، وقد رضيت لكم أحدَ هذين الرجلين ، فبايعوا أيهما شئتم . قال عمر : فأخذ بيدي ، وبيد أبي عبيدة بن الجراح ، وهو جالس بيننا ، فلم أكره ممّا قال غيرها ـ وكان والله أن أُقَدَّمَ فَتُضْرَبَ عنقي ، لا يُقَرِّبُني ذلك من إثمٍ أحبُّ إليَّ من أن أتَأَمَّرَ على قوم فيهم أبو بكر ـ وكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى خشيت الاختلاف فقلت : ابسط يدكَ يا أبا بكر ؟ فبسط يَدُه ، فبايعتُه ، وبايعَهُ المهاجرون ، ثم بايعه الأنصار . أمَا والله ما وجدنا فيما حضرنا أمراً هو

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٥ .

أوفق من مبايعة أبي بكر ، خشينا إن فارقْنا القوْمَ ولم تكن بيعة ، أن يحدثوا بعدنا بيعة ، فإمّا أن نبايعهم على ما لا نرضى ، وإما أن نخالفهم فيكون فيه فساد[1] .

ولمّا بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغدُ ، جلس أبو بكر على المنبر ، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر ؛ فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن الله قد جمعَ أمركم على خيركم صاحب رسول الله وثاني اثنين إذ هما في الغار ، فقوموا فبايعوا .

وذكر أبو جعفر في حديث السقيفة أيضاً من رواية حبيب بن أبي ثابت قال : كان عليٌّ في بيته إذْ أُتي فقيل له : قد جلس أبو بكر للبيعة ، فخرج في قميص ما عليه إزارٌ ولا رداء ، عجلاً ، كراهية أن يبطىء عنها حتى بايعه ، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه ، فتجلّله ولزم مجلسه[2] .

فبايع الناسُ أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة . ثم تكلّم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أمّا بعد ، أيُّها الناس فإني قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم ، فإنْ أحسنتُ فأعينوني ، وإن أسأتُ فقوّموني ، الصدقُ أمانة ، والكذبُ خيانة ، والضعيفُ فيكم قويٌ عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيفٌ حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهادَ في سبيل الله إلاّ ضربهم الله بالذل ، ولا تشيعُ الفاحشة في قوم قط إلاّ عمَّهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعتُ اللهَ ورسوله ، فإذا عصيتُ اللهَ ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[3] .

---

(١) انظر تفصيل ذلك في تاريخ الخلفاء ٨٠ - ٨٢ وسيرة ابن هشام بيعة أبي بكر .
(٢) الخليفة المفتري عليه لمحمد الصادق عرجون صفحة ١٤ .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٨٢ .

وقال بعد ذلك عليٌ والزبير : ما غضبنا إلّا لأنّا أُخِّرْنَا عن المشورة ، وإنا نرى أبا بكر أحقَّ الناس بها ، إنه لصاحب الغار ، وإنا لنعرف شَرَفَهُ وخيره ، ولقد أمره رسول الله عليه الصلاة والسلام بالصلاة بالناس وهو حي[1] .

وهذا مطابق لديمقراطية العرب ، وعاداتهم أيام الجاهلية ، في إنتخاب رؤسائهم حيث يقدمون السن أولاً ، والحكمة والفضل ثانياً ، والكرم والشجاعة وما يتبعها وأخرج ابن سعد عن الحسن قال : قال عليٌّ : لما قُبض رسول الله ﷺ ، نظرنا في أمرنا ، فوجدنا النبي عليه الصلاة والسلام قد قدَّم أبا بكر في الصلاة ، فرضينا لدنيانا عمَّن رضي رسول الله عليه السلام عنه لديننا ، فقدمنا أبا بكر .

وأخرج ابن سعد عن إبراهيم التميمي ، قال : لَمّا قُبِض رسول الله ﷺ ، أتى عمر أبا عُبَيْدَةَ بن الجراح ، فقال : ابْسُطْ يدك لأبايَعَكَ ، إنك أمين هذه الأمة على لسان النبي ﷺ .

فقال أبو عبيدة لعمر : ما رأيْتُ لكَ فَهَّةً[2] قبلها منذ أسلمتَ ! أتُبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين ؟

وأخرج ابن سعد أيضاً عن محمد أن أبا بكر قال لعمر : ابْسُطْ يدك لأبايعك .

فقال له عمر : أنت أفضلُ مني .

فقال له أبو بكر : أنتَ أقوى مني ، ثم كرر ذلك .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) الفهّة : ضعيف الرأي .

فقال عمر : فإن قوتي لك مع فضلك ، فبايعه[1] .

استنتاجات من اجتماع السقيفة . .

جاء في عبقرية الإسلام للعجلاني[2] قوله : إن اجتماع السقيفة التاريخي ، هذا الذي نقلنا وصفه عن الطبري ، يبين لنا :

أولاً : إنه ليس في القرآن ولا في الحديث نصٌ على خلافة رجل ما ، ولو وجد هذا النص لا تُّبِعَ ، ولما استطاع أحد من المسلمين أن يخالفه .

ثانياً : إن النبي لم يخصص الخلافة في قبيلة ما ، أو أسرة ما ، ولو عُرف شي من ذلك ، لما أحجم أحد المجتمعين عن إعلانه . اللهم إلّا الحديث التالي المسند من عدة طرق قال رسول الله ﷺ : الأئمة من قريش ، إذا استُرحموا رحموا ، وإذا عاهدوا وفوا ، وإذا حكموا عدلوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

ثالثاً : إن المسلمين كانوا مجمعين على ضرورة الخلافة .

رابعاً : إن المسلمين نظروا في قضية الخلافة إلى المصلحة العامة ، وصدروا في تقرير أسسها من إجتهادهم ، مستوحين المبادىء السامية العليا التي رسمها لهم النبي عليه السلام .

خامساً : إن المسلمين ، في اجتماعهم الأول ، عرفوا للمهاجرين من قريش فضلهم على سائر المسلمين ، وأن العرب لا تنقاد إلّا إليهم ، فقبلوا أن تكون الخلافة فيهم ، لما رأوا في ذلك من المصلحة .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٨٣ .
(٢) انظر عبقرية الإسلام للعجلاني صفحة ١١٠ .

وهكذا نشأت القاعدة الأولى التي تمسك بها أكثر فقهاء السنة وهي «الخلافة في قريش» .

سادساً : إن المسلمين خافوا على أنفسهم التفرقة ، فأجمعوا على أن يكون لهم خليفة واحد ، يكون رمزاً لوحدتهم .

سابعاً : إن المسلمين أدركوا أن بقاء منصب الرئاسة شاغراً مدة طويلة ، فيه تعطيل لمصالح المسلمين ، وتهيئة للفتنة ، ولذلك أسرعوا إلى بيعة أبي بكر .

ثامناً : وتدلنا الأحاديث التي دارت بين الصحابة ، عند بيعة أبي بكر وبعدها ، على أنهم إنما بايعوه لسابقته في الإسلام ، وفضله ، وسنه ، وكان للسن شأنها الكبير .

تاسعاً : إن البيعة أُخذت له من الحاضرين في المدينة عاصمة النبي ، لأن فيها جلة الصحابة ، أصحاب الرأي .

أبو بكر وبذله لماله في سبيل الله ورسوله . .

قال الله تعالى : ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾[1] إلى آخر السورة . قال ابن الجوزي : أجمعوا على أنها نزلت في أبي بكر .

وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ما نفعني مالٌ قط ما نفعني مال أبي بكر» فبكى أبو بكر وقال : هل أنا ومالي إلاّ لك يا رسول الله ؟

وفي سند طويل عن ابن كثير قال : «وكان رسول الله ﷺ يقضي في مال أبي بكر كما يقضي في مال نفسه» .

---

(١) سورة الليل ١٧ ـ ٩٢/١٨ .

وأخرج أبو داود والترمذي ، عن عمر بن الخطاب قال : «أمرنا رسول الله عليه الصلاة والسلام أن نتصدق . فوافق ذلك مالاً عندي ، قلت : اليوم أسبق أبا بكر - إنْ سبقته يوماً[1] - فجئت بنصف مالي . فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : ما أبقيت لأهلك ؟

قلت : مثله .

وأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال : يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك ؟

قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

فقلت : لا أسبقه في شيء أبداً .

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ما لأحد عندنا يدٌ إلّا وقد كافأناه ، إلّا أبا بكر ، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة . وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر» .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : «ما أحد عندي أعظم يداً من أبي بكر ، واساني بنفسه وماله ، وأنكحني ابنته» .

وأخرج البزاز عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : جئت بأبي قحافة إلى النبي ﷺ ، فقال : «هلّا تركت الشيخ حتى آتيه ؟ قال : بل هو أحق أن يأتيك ، قال : إنا نحفظه لأيادي ابنه عندنا»[2] .

---

(١) إنْ هنا : نافية .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٧ - ٤٨ .

أبو بكر أعلم الصحابة وأذكاهم . .

قال النووي في تهذيبه ، ومن خط يده نقلت : استدل أصحابنا على عظم علمه بقوله رضي الله عنه ، في الحديث الثابت في الصحيحين : والله لأُقاتِلَنَّ مَنْ فرَّق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدّونه إلى رسول الله ﷺ ، لقاتلتهم على منعه .

واستدلَّ الشيخ أبو إسحاق بهذا وغيره في طبقاته ؛ على أنّ أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه أَعلَمُ الصحابة ، لأنهم كلهم وقفوا عن فهم الحكم في المسألة إلاّ هو ، ثم ظهر لهم بمباحثته لهم أن قوله هو الصواب ، فرجعوا إليه .

وروى ابن عمر أنّه سئل : من كان يُفتي الناس في زمن رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟ فقال : أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، ما أَعلَمُ غيرَها[1] .

وأخرج الشيخان عن أبي سعيد الخُدري قال : خطب رسول الله عليه الصلاة والسلامُ الناسَ وقال : إنَّ الله تبارك تعالى خَيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبدُ ما عند الله تعالى .

فبكى أبو بكر وقال : نفديك بآبائنا وأمهاتنا .

فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيِّرَ ، فكان رسول الله ﷺ هو المخير . وكان أبو بكر أعلمنا ، فقال رسول الله عليه الصلاة : «إن مَنْ أَمَّنَ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخِّذا خليلاً غير ربي لاتَّخذتُ أبا بكر ، ولكنَّ أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقين بابٌ إلاّ سُدّ إلا باب أبي بكر» هذا كلام النووي[2] .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٩ .

(٢) تهذيب الأسماء اللغات وللنووي ٢/١٩٠ .

وقال ابن كثير : كان الصديقُ رضي الله عنه أقرأ الصحابة ـ أي أعلَمهم بالقرآن ـ لأنه عليه الصلاة والسلام قدَّمه إماماً للصلاة بالصحابة رضي الله عنه مع قوله : «يَؤُمُّ القَوْمَ أقرؤهم لكتاب الله» .

وأخرج الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام «لا ينبغي لقوم فيهم أبو بكر أن يَؤُمَّهُمْ غيرُه» .

ومما يدلّ على علمه وذكائه وعمق فهمه الذي سيبقى مثالاً يحتذى مدى الزمن ، ما أخرجه أبو القاسم البغوي عن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصم نظر في كتاب الله ، فإن وجد فيه ما يقضي به بينهم قضى به . وإن لم يكن في الكتاب وعَلِمَ من رسول الله ﷺ في ذلك الأمر سنةً قضى بها . فإن أعياه خرج فسأل المسلمين وقال : أتاني كذا وكذا ، فهل علمتم أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قضى في ذلك قضاءً ؟ فربما اجتمع إليه النفر كلُّهم يذكر عن رسول الله عليه الصلاة والسلام فيه قضاء ، فيقول أبو بكر : الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا . فإن أعياه أن يجد فيه سنةً عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، جَمَعَ رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فإن أجمع أمرهم على رأي قضي به[1] .

وكان الصدِّيق رضي الله عنه ، مع ذلك ، أعلمَ بأنساب العرب ، لاسيما قريش . أخرج ابن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن شيخ من الأنصار قال : كان جُبَيْرُ بن مُطْعِمٍ من أنسب قريش لقريش والعرب قاطبة ، وكان يقول : إنما

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٠ ـ ٥١ .

أخذت النسب من أبي بكر الصديق ، وكان أبو بكر رضي الله عنه من أنسب العرب[1] .

وعن فصاحة الصدِّيق رضي الله عنه شهد معاصروه ومن تبعهم بتفوقه ، فقال ابن كثير : وكان من أفصح الناس وأخطبهم .

وقال الزبير بن بكار : سمعت بعض أهل العلم يقول : أفصح خطباء أصحاب رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب ، رضي الله عنهما .

وقال عمر بن الخطاب عنه في حديث السقيفة : وكان من أعلم الناس بالله وأخوفهم .

ومن الدلائل على أن أبا بكر كان من أعلم الصحابة . حديث صلح الحُدَيْبِيَّة ، حيث سأل عمر رسول الله ﷺ عن ذلك الصلح ، وقال : عَلامَ نعطي الدنيَّة في ديننا ؟[2] .

فأجابه النبي ﷺ . ثم ذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه ، فسأله عما سأل رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فأجابه كما أجابه النبي عليه الصلاة والسلام ، سواء بسواء . أخرجه البخاري وغيره[3].

وكان رضي الله عنه مع ذلك أَسَدَّ الصحابة رأياً ، وأكملهم عقلاً ، فقد أخرج تمَّام الرازي في فوائده ، وابن عساكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول : «أتاني جبريل فقال : إنَّ الله يأمرك أن تستشير أبا بكر» .

---

(١) انظر المرجع السابق ٥١ .
(٢) الدينة : مخففة من الدنيئة ومعناها الخصلة الخسيسة الوضيعة .
(٣) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٢ .

وأخرج الطبراني وأبو نعيم وغيرهما عن معاذ بن جبل «أن النبي عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يسرح معاذاً إلى اليمن استشار ناساً من أصحابه فيهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وأسيد بن حضير ، فتكلم القوم كل إنسان برأيه ، فقال : ما ترى يا معاذ ؟

قلت : أرى ما قال أبو بكر .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : «إن الله يكره فوق سمائه أن يُخَطَّأ أبو بكر» .

ورواه ابن أبي أسامة في مسنده «إن الله يكره في السماء أن يُخَطَّأ أبو بكر الصديق في الأرض» .

وروى البخاري عن ابن عمر قال : كنا نُخَيِّرُ بين الناس في زمان رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فنخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان ، فيعلم بذلك النبي عليه الصلاة والسلام ، ولا ينكره . رواه الطبراني في الكبير(1) .

أبو بكر أفضل الصحابه وخيرهم . .

أجمع أهل السنة أن أفضل الناس بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ، ثم سائر العشيرة ، ثم باقي أهل بدر ، ثم باقي أهل أحد ، ثم باقي أهل البيعة(2) ، ثم باقي الصحابة . هكذا حكى الاجماع عليه أبو منصور البغدادي .

---

(1) المرجع السابق صفحة ٥٣ .
(2) بيعة الرضوان تحت الشجرة يوم الحديبية .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عمر قال : كنا وفِينَا رسول الله عليه الصلاة والسلام نفضِّلُ أبا بكر وعمر وعثمان وعليا .

وأخرج ابن عساكر عن أبي هريرة قال : كنا معاشر أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ونحن متوافرون ، نقول : أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم نسكت[1] .

وأخرج الترمذي عن جابر بن عبد الله قال : قال عمر لأبي بكر : يا خير الناس بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام !

فقال أبو بكر : أما إنك إن قلت ذلك فلقد سمعته عليه الصلاة والسلام يقول : ما طلعت الشمس على رجل خير من عمر .

وأخرج البخاري عن محمد بن علي بن أبي طالب قال : قلت لأبي : أي الناس خير بعد النبي عليه الصلاة والسلام ؟

قال : أبو بكر .

قلت : ثم من ؟

قال : عمر .

وخشيت أن يقول عثمان ، فقلت : ثم أنت ؟

قال : ما أنا إلا رجل من المسلمين[2] .

وأخرج أحمد وغيره عن علي قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ، وعمر .

---

(١) تاريخ الخلفاء ٥٤ .

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٤ .

وأخرج الترمذي والحاكم عن عمر بن الخطاب قال : أبو بكر سيِّدُنا وأحبُّنا إلى النبي عليه الصلاة والسلام .

وأخرج ابن عساكر عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، أن عمر بن الخطاب صعد المنبر ثم قال : ألا إن أفضل هذه الأمة بعد نبيها ، أبو بكر ، فمن قال غير هذا فهو مفترٍ[1] ، عليه ما على المفتري .

وأُخرج أيضاً عن ابن أبي ليلى قال : قال علي : لا يُفَضِّلُني أحدٌ على أبي بكر وعمر إلا جلدته حدَّ المُفتري .

وأخرج عبد الرحمن بن حميد في مسنده ، وأبو نعيم وغيرهم من طرق عن أبي الدرداء : «أن رسول الله ﷺ قال : ما طلعت الشمس ولا غربت على أفضل من أبي بكر ، إلّا أن يكون نبي» .

وفي الأوسط عن سعد بن زرارة قال : قال رسول الله ﷺ «إن روح القدس جبريل أخبرني أن خير أمتك بعدك أبو بكر»[2] .

وأخرج الترمذي وغيره عن أنس قال : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام لأبي بكر وعمر : «هذان سيِّدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ، إلّا النبيين والمرسلين» وأخرج مثله عن عليّ ، وفي الباب عن ابن عباس ، وابن عمر ، وأبي سعيد الخدري وجابر بن علي .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن عمار بن ياسر قال : من فضل على أبي بكر وعمر أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أزرى على المهاجرين والأنصار .

---

(١) المفتري : الكاذب الذي يختلق الكلام وهو كالقاذف في الشرع يجد بضربه ثمانين جلدة .
(٢) تاريخ السيوطي ٥٥ .

وقال أحمد والترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «أَرْحَمُ أُمَّتي بأمتي أبو بكر، وأَشَدُّهُمْ في أمر الله عمر، وأَصْدَقُهُمْ حياءً عثمان، وأَعْلَمُهُمْ بالحلال والحرام مُعَاذُ بن جَبَلٍ، وأَفْرَضُهُمْ زيدُ بن ثابت، وأَقْرَؤُهم أُبَيُّ بن كعب، ولكل أمة أمينٌ، وأمينُ هذه الأُمَّة أبو عُبَيْدَةَ بن الجراح». وأخرجه أبو يعلى من حديث ابن عمر، وزاد فيه «وأَقْضَاهُمْ عَلِيٌّ». وأخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث شداد بن أوس وزاد فيه «وأَبُوذَرٍ أَزْهَدُ أُمَّتى وأصدقُها، وأبو الدَّرْدَاءِ أَعْبَدُ أمتى وأَتْقاها، ومعاوية بن أبي سفيان أَحْلَمُ أمتي وأَجْوَدُها»[1].

ما أنزل من الآيات في مدحه وتصديقه..

لقد جاء قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوه، فَقَدْ نصره اللَّهُ إِذْ أَخْرَجُه الَّذِين كَفَرُوا، ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْهُمَا فِي الغَارِ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا، فَأَنْزَلَ سَكِيَنَتهُ عَلَيْهِ..﴾[2] فقد أجمع المسلمون على أن الصاحب المذكور أبو بكر رضي الله عنه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: «فأنزل سكينته عليه» قال: على أبي بكر، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لم تزل السكينة عليه.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود أن أبا بكرٍ اشترى بلالا من أميّة بن خلف، وأُبَيٍّ بن خلف، ببردة وعشر أواق. فأعتقه لله، فأنزل الله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى.. إلى قوله.. إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾[3] سعي أبي بكر، وأمية، وأبيّ.

(١) المرجع السابق ٥٦ ـ ٥٧.
(٢) التوبة ٩/٤٠
(٣) الليل ١ ـ ٩٢/٤.

وأخرج ابن جرير عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يُعْتِقُ على الإسلام بمكة ، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال أبوه : أي بُنَيَّ ، أراك تعتقُ أناساً ضعافاً ، فلو أنك تعتق رجالاً جُلْداً يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك ؟

قال : أيْ أَبَتِ ، أنا أريد ما عند الله ، قال : فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية نزلت فيه ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾[1] إلى آخرها .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن عروة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أعتق سبعةً كلهم يعذَّب في الله ، وفيه نزلت ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى﴾[2] إلى آخر السورة .

وأخرج البزاز عن عبد الله بن الزبير قال : نزلت هذه الآية ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾[3] إلى آخر السورة في أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

وأخرج البزاز وابن عساكر عن أُسَيْد بن صفوان ، وكانت له صحبة ، قال : قال عليّ «وَالَّذِي جَاءَ بِالْحَقِّ» محمد ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾[4] أبو بكر الصديق . قال ابن عساكر : هكذا الرواية (بالحق) ولعلها قراءة لعلي .

وأخرج الحاكم عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[5] قال : نزلت في أبي بكر وعمر .

---

(١) التوبة ٩٢/٥ .
(٢) الليل ٩٢/١٧ .
(٣) الليل ٩٢/١٩ .
(٤) وردت هذه الآية في سورة الزمر ٣٣ بقراءة حفص عن عاصم «والذي جاء بالحق وصدق به» .
(٥) آل عمران ٣/١٥٩ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شَوْذَب قال : نزلت ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[1] في أبي بكر رضي الله عنه .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر وابن عباس في قوله تعالى : «وصالح المؤمنين»[2] قال : نزلت في أبي بكر وعمر .

وأخرج عبد الله بن أبي حميد في تفسيره عن مجاهد قال : لما نزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَبِيِّ﴾[3] قال أبو بكر : يا رسول الله ، ما أنزل الله عليك خيراً إلا أشركتنا فيه ! فنزلت هذه الآية : ﴿هُوَ الَّذي يُصَلِّي عليْكُمْ ومَلائكتُهُ﴾[4] .

وأخرج ابن عساكر عن علي بن الحسن أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعلي ﴿وَنَزَعْنَا مَا في صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ ، إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[5] .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : نزلت في أبي بكر الصديق «وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ» إلى قوله ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[6] .

وأمّا الأحاديث النبويّة الشريفة التي جاءت في فضله حيناً ومقروناً بعمر أحياناً أخرى فكثيرة ويصعب عدها واحصاؤها ، ومن طلب المزيد فليعد لسيرة ابن هشام وتاريخ الخلفاء للسيوطي وغيرهما . وأما ثناء الصحابة عليه فحدث ولا حرج .

---

(١) الرحمن ٥٥/٤٦ .
(٢) التحريم ٦٦/٤ .
(٣) الأحزاب ٣٣/٥٦ .
(٤) الأحزاب ٣٣/٤٣ .
(٥) الأعراف ٧/٤٣ والحجر ١٥/٤٧ .
(٦) سورة الأحقاف ١٥ ـ ٤٦/١٦ .

الآيات والأحاديث التي تشير إلى خلافته . .

أخرج الترمذي وحسَّنه ، والحاكم وصححه عن حذيفة رضي الله عنه ، قال . قال رسول الله عليه الصلاة والسلام «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»(١) وأخرجه الطبراني من حديث أبي الدرداء ، والحاكم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

وأخرج أبو القاسم البغوي بسندٍ حسنٍ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يكون خَلْفي اثنا عشر خليفة ، أبو بكر لايلبث إلاّ قليلاً . .» صدرُ هذا الحديث مُجمعٌ على صحته.

وأخرج الشيخان عن جُبير بن مُطعِم رضي الله عنه ، عن أبيه ، قال : أتتِ امرأة إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فأمرها أن ترجع إليه ،

قالت : أرأيْتَ إنْ جئت ولم أجدْكَ ـ كأنها تقول : الموت ـ.

فقال : «إنْ لم تجديني فأْتي أبا بكر»(٢) .

وأخرج الحاكم وصحَّحَهُ عن أنس رضي الله عنه قال : بعثني بنو المُصْطَلِق إلى رسول الله ﷺ أنْ سَلْهُ إلى من ندفع صدقاتنا بعدك ؟

فأتيته فسألته ، فقال : «إلى أبي بكر» .

وأخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال لي رسول الله ﷺ في مرضه : «ادعي لي أبا بكر أباك ، وأخاك ، حتى أكتب كتاباً ، فإني أخاف أن يتمنَّ مُتَمَنٍّ ، ويقول قائل : أنا أَوْلَى ، ويأبى الله والمؤمنون إلاّ أبا بكر»(٣) .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٧٢ .
(٢) المرجع السابق ٧٣ .
(٣) المرجع السابق ٧٤ .

وأخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت : من كان النبي عليه الصلاة والسلام مستخلفاً لو استخلف ؟

قالت : أبو بكر .

قيل لها : ثم مَنْ بعد أبي بكر ؟

قالت : عمر .

قيل لها : ثم مَنْ بعد عمر ؟

قالت : أبو عبيدة بن الجراح[1] .

وأخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : مرض النبي عليه الصلاة والسلام ، فاشتد مرضه ، فقال : مُرُوا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناس .

قالت عائشة : يا رسول الله ، إنه رجل رقيق القلب ، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس .

فقال : مُرِي أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناس . فعادت ، فقال : مري أبا بكر فليصل بالناس ، فإنكُنَّ صواحب يوسف .

فأتاه الرسولُ ، فصلى بالناس في حياة النبي عليه الصلاة والسلام . وهذا حديث متواتر .

وفي حديث ابن زمعة رضي الله عنه «أن النبي عليه الصلاة والسلام أمرهم بالصلاة ، وكان أبو بكر غائباً ، فتقدم عمر فصلى ، فقال النبي ﷺ ، لا ، لا ، لا ، يأبى الله والمسلمون إلاّ أبا بكر ؛ يصلي بالناس أبو بكر» .

---

(١) المرجع السابق ٧٤ .

وفي حديث ابن عمر ، قال : كَبَّرَ عمرُ ، فسمع النبيُّ عليه الصلاة والسلام تكبيرَهُ ، فأطلع رأسه مغضباً فقال : أين ابن أبي قحافة ؟

قال العلماء : في هذا الحديث أوضح دلالة على أن الصِّدِّيقَ أفضل الصحابة على الإطلاق ، وأحقهم بالخلافة ، وأولاهم بالإمامة .

وقال الأشعري : وقد عُلِمَ بالضرورة أن النبيّ عليه الصلاة والسلام ، أمر الصِّدِّيق أن يصلي بالناس مع حضور المهاجرين والأنصار مع قوله «يَؤُمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله» فدل على أنه كان أقرأهم ؛ أي أعلمَهم بالقرآن[1] .

وقد استدلَّ الصحابة أنفسهم بهذا على أنّه أحقُّ بالخلافة ، منهم عمر ، ومنهم علي ، وأخرج ابن عساكر عنه قال : لقد أَمَرَ النبي عليه الصلاة والسلام أبا بكر أن يصلِّي بالناس وإنّي شاهدٌ ، وما أنا بغائب ، وما بي مَرَضٌ ، فرضينا لدُنْيَانَا ما رضي به النبي عليه الصلاة والسلام لديننا .

وأخرج أحمد وأبو داود وغيرهما ، عن سهل بن سعد قال : كان قتال بين عمر بن عوف وجماعته ، فبلغ النبيَّ عليه الصلاة والسلام ، فأتاهم بعد الظهر ليصلح بينهم ، وقال : «يا بلال إنْ حضرت الصلاة ولم آتِ فَمُرْ أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناس» .

فلما حضرت صلاة العصر ، أقام بلالٌ الصلاة ، ثم أمر أبا بكر فصلى[2] .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٧٥ .
(٢) المرجع السابق ٧٦ .

وأخرج أبو بكر الشافعي في الغيلانيات ، وابن عساكر عن حفصة رضي الله عنها أنها قالت للنبي عليه الصلاة والسلام : إذا أنتَ مرضتَ قدمْتَ أبا بكر ، قال : «لست أنا أقدمه ، ولكن الله يقدمه» .

وأخرج الدارقطني في الأفراد ، والخطيب ، وابن عساكر عن علي رضي الله عنه قال : قال لي النبي عليه الصلاة والسلام «سألت الله أن يقدمك ثلاثاً ، فأبى عَلَيَّ إلّا تقديم أبي بكر» .

وأخرج ابن سعد عن الحسن قال : قال أبو بكر : يا رسول الله ، ماأزال أراني أطأ في عذرات الناس ؟

قال : لتكونن من الناس بسبيل .

قال : ورأيت في صدري كالرقمتين .

قال : سنتين[1] .

وأخرج ابن عساكر عن محمَّد بن الزبير ، قال : أرسلني عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري أسأله عن أشياء ، فجئته ، فقلت له : اشفني فيها اختلف الناس فيه ، هل كان النبي عليه الصلاة والسلام استخلف أبا بكر ؟

فاستوى الحسن قاعداً ، وقال : أَوَفِي شَكٍ هو ؟ لا أبالك ! أي والله الذي لا إله إلّا هو لقد استخلفه ، ولهو كان أَعْلَمَ بالله ، وأتقى له ، وأشدَّ مخافةً من أن يموت عليها لو لم يُؤَمِّرْهُ .

وأخرج ابن عدي عن أبي بكر بن عياش ، قال : قال لي الرشيد : يا أبا بكر ، كيف استخلف الناس أبا بكر الصديق ؟

---

(١) المرجع السابق ٧٦ .

قلت : يا أمير المؤمنين ، سكت الله ، وسكت رسوله ، وسكت المؤمنون .

قال : والله ما زدتني إلّا غماً !

قال : يا أمير المؤمنين ، مرض النبي ﷺ ، ثمانية أيام ، فدخل عليه بلال فقال : يا رسول الله ، من يصلي بالناس ؟

قال : مُرْ أبا بكر يصلي بالناس .

فصلّى أبو بكر بالناس ثمانية أيام والوَحْيُ ينزل ، فسكت رسول الله عليه الصلاة والسلام لسكوت الله ، وسكت المؤمنون لسكوت رسول الله عليه الصلاة والسلام .

فأعجبه ، فقال : بارك الله فيك[1] .

وقد استنبط جماعة من العلماء خلافة الصديق من آيات القرآن :

فأخرج البيهقي عن الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[2] قال : هو والله وأبو بكر وأصحابه ، لما ارتدَّت العرب جاهدهم أبو بكر وأصحابه حتى ردّوهم إلى الإسلام .

وأخرج يونس بن بكير عن قتادة قال : لما توفي النبي عليه الصلاة والسلام ارتدَّتِ العرب ، فذكر قتال أبي بكر لهم إلى أن قال : فكنا نتحدَّث أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وأصحابه ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٧٧ .
(٢) سورة المائدة ٥/٥٤ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن جويبر في قوله تعالى ﴿قُلْ لِلْمُخْلِفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إلى قَوْمٍ أُوْلِي بأْسٍ شَدِيدٍ﴾[1] قال : هم بنو حنيفة ، قال ابن أبي حاتم وابن قتيبة : هذه الآية حجةً على خلافة الصديق ، لأنه الذي دعا إلى قتالهم[2] .

وقال تعالى : ﴿وَعَدَ الله الَّذين آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأَرْضِ﴾[3] . قال ابن كثير : هذه الآية منطبقة على خلافة الصديق .

وأخرج الخطيب عن أبي بكر بن عياش ، قال : أبو بكر الصديق خليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام في القرآن ، لأن الله تعالى يقولُ : ﴿لِلْفُقَرَاءِ المُهَاجِرينَ . . . إلى قوله . . . أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾[4] فمن سمّاه الله صديقاً فليس يكذب ، وهم قالوا : يا خليفة رسول الله .

أحداث خلافة أبي بكر الهامة . .

١ ـ رأب الصدع الذي أحدثه اجتماع السقيفة ، بأن قبل أبو بكرٍ البيعة خليفة لرسول الله ﷺ يوم الإثنين لاثنتي عَشْرَةَ ليلةً خلت من ربيع الأول سنة إحدىٰ عَشْرَةَ من الهجرة .

٢ ـ دفن النبي عليه الصلاة والسلام ، قال الصحابة : أين يدفن النبي عليه الصلاة والسلام ؟ قالوا : عند عائشة : فما وجدنا عند أحد من ذلك علما .

---

(١) سورة الفتح ٤٨/١٦ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي لمن أراد المزيد صفحة ٧٨ .
(٣) سورة النور ٢٤/٥٥ .
(٤) سورة الحديد ٥٧/١٩ .

وقال بعض العلماء : وهذا أوَّلُ اختلاف وقع بين الصحابة رضي الله عنهم . فقال بعضهم : ندفنه بمكَّة بلده الذي ولد بها . وقال آخرون : بل بمسجده . وقال آخرون : بل بالبقيع . وقال آخرون : بل في بيت المقدس مَدْفَنُ الأنبياء ، حتى أخبرهم أبو بكر بما عنده من العلم فقال : سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول : ما من نبي يقبض إلاّ دفن تحت مضجعه الذي مات فيه .

٣ ـ ميراث النبي ﷺ ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : واختلفوا في ميراثه ، فما وجدوا عند أحدٍ من ذلك علما . فقال أبو بكر : سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول : إنّا معشرَ الأنبياء لا نورث ؟ ما تركناه صدقة[١] .

٤ ـ جيش أسامة بن زيد ، وكان رسول الله ﷺ وجَّهَ أسامة بن زيد في سبعمئة إلى الشام ، فلما نزل بذي خشب ، قُبض النبي عليه الصلاة والسلام ، وارتَّدت العرب حول المدينة ، واجتمع إليه ـ إلى أبي بكر ـ أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقالوا : رُدَّ هؤلاء ، توجه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة ؟

فقال : والذي لا إله إلاّ هو ، لو جَرَّت الكلاب بأرجل أزواج النبي عليه الصلاة والسلام ما رددت جيشاً وجهه رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولا حللت لواءً عقَدَه .

فوجَّه أسامة ، فجعل لا يمر بقبيل يريدون الإرتداد إلاّ قالوا : لولا أن لهؤلاء قوةً ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ، ولكن ندعهم حتى يَلْقَوُا الروم ، فلقوهم فهزموهم ورجعوا سالمين ، فثبتوا على الإسلام .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٨٦ .

وأخرج البيهقي ، وابن عساكر هذا الخبر عن أبي هريرة رضي الله عنه ، حيث بدأه ، فقال : والذي لا إله إلّا هو لولا أن أبا بكر استخلف ما عُبِدَ الله ، ثم قال الثانية ، ثم قال الثالثة : فقيل له : مه يا أبا هريرة ، فقال : إن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وجَّهَ أسامة بن زيد .

وأخرج عن عروة قال : جعل رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول في مرضه : أنفذوا جيش أسامة ، فسار حتى بلغ الجُرْف ، فأرسلت إليه امرأته فاطمةُ بنت قيس تقول : لا تعجلْ ، فإنّ رسول الله عليه الصلاة والسلام ثَقُلَ ، فلم يبرح حتى قبض رسول الله عليه الصلاة والسلام . فلما قبض رجع إلى أبي بكر ، فقال : إن رسول الله عليه الصلاة والسلام بعثني وأنا على غير حالكم هذه ، وأنا أتخوف أن تكفر العرب ، وإن كفرت كانوا أول من يُقاتل ، وإنْ لم تكفر مضيت ، فإن معي سَرَوَات الناس وخيارهم .

فخطب أبو بكر الناس ، ثم قال : والله لأنْ تخطَّفني الطيرُ أحبُّ إليَّ من أن أبدأ بشيء قبل أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فبعثه .

٥ ـ الردة ، أخرج الإسماعيلي عن عمر رضي الله عنه قال : لمّا قبض رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ارتدَّ من ارتدَّ من العرب وقالوا : نصلي ولا نزكي .

فأتيت أبا بكر ، فقلت : يا خليفة رسول الله ، تَأَلَّفِ الناسَ وَارْفُقْ بهم فإنهم بمنزلة الوحش . فقال : رَجَوْتُ نُصْرتَكَ ، وجئتني بخذلانك ، جباراً في الجاهلية خوَّاراً في الإسلام ، بماذا عَسَيْتُ أن أتألفهم ؟ بشعر مفتعل ، أو بسحر مُفْتَرىً ؟

---

(١) المرجع السابق ٨٦ ـ ٨٧

هيهاتَ هيهات ! مضى النبي ﷺ ، وانقطع الوحي ، والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف في يدي ، وإن منعوني عقالاً .

قال عمر : فوجدته في ذلك أمضى منيٍّ وأحزم ، وآدب الناس على أمورها على كثير من مؤونتهم حين ولّيتهم .

فنهض أبو بكر الصديق لقتال المرتدين ، فأشار عليه عمر وغيره أن يَفْتُرَ عن قتالهم : فقال : والله لو منعوني عقالاً ـ أو عناقاً ـ كانوا يؤدونها إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام لقاتلتهم على منعها .

فقال عمر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، فمن قالها عَصَمَ ماله ودمه إلاّ بحقّها وحسابُه على الله» ؟

فقال أبو بكر : والله لأُقاتَلنَّ مَنْ فرَّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حقُّ المال ، وقد قال : «إلاّ بحقّها»

قال عمر : فوالله ما هو إلاّ أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال ، فعرفت أنَّهُ الحق . (أخرجه الشيخان وغيرهما)[1] .

وأخرج الدارقطني عن ابن عمر قال : لّما برز أبو بكر واستوى على راحلته ، أخذ علي بن أبي طالب بزمامها ، وقال : إلى أين يا خليفة رسول الله ؟ أقول لك ما قال لك رسول الله ﷺ يوم أحد : شِمْ سَيْفَكَ[2] ، ولا تَفْجَعْنَا بِنَفْسِكَ ، وارجعْ إلى المدينة ، فوالله لئن فُجعنا بك لا يكونُ للإسلام نظام أبداً[3] .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي صفحة ٨٧ .
(٢) شِمْ : بمعنى اعدل انظر لسان العرب مادة شمم .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي صفحة ٨٨ .

وعن عروة قال : خرج أبو بكر في المهاجرين والأنصار حتى بلغ نقعاً حذاء نجد ، وهرب الأعراب بذراريهم ، فكلَّمَ الناسُ أبا بكر ، وقالوا : ارجع إلى المدينة وإلى الذرية والنساء ، وَأَمِّرْ رَجُلاً على الجيش، ولم يزالوا به حتى رجع ، وأَمَّرَ خالد بن الوليد وكان من طليعة قوَّاده : أبو عبيدة عامر بن عبدالله بن الجَّراح الفهري ، وعمرو بن العاص السهمي ، وخالد بن الوليد المخزومي ، وخالد بن سعيد بن العاص الأمويّ ، ويزيد بن أبي سفيان ، وعكرمة بن أبي جهل ، والمهاجر بن أبي أمية شقيق أم المؤمنين أم سلمة ، وشرحبيل بن حسنه ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وسهيل بن عمرو العامري خطيب قريش ، والقعقاع بن عمرو التميمي ، وعرفجة بن هرثمة البارقي ، والعلاء الحضرمي حليف بني أمية ، والمثنى بن حارثة الشيباني ، وحذيفة بن محصن الغطفانيّ .

وفي طليعة ولايته : عتاب بن أسيد الأمويّ ، وعثمان بن العاص الثقفي ، وزياد بن لبيد الأنصاريّ ، وأبو موسى الأشعريّ ، ومعاذ بن جبل ، ويعلى بن منبِّه ، وجرير بن عبدالله البجلي ، وعيَّاض بن غنم ، والوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط ، وعبدالله بن تور أحد بني غوث ، وسويد بن مقرن المزنيّ .

وعن حنظلة بن علي الليثي أنَّ أبا بكر بعث خالداً وأَمَرَهُ أن يقاتل الناس على خمس ، من ترك واحدة منهن قاتلة كما يقاتل من ترك الخمس جميعاً :

- على شهادة أنْ لا إله إلاّ الله ، وأن محمداً رسول الله .
- وإقام الصلاة .
- وإيتاء الزكاة .
- وصوم رمضان .
- وحج البيت .

وسار خالد ومن معه في جمادى الآخرة من السنة نفسها ـ الحادية عشرة من الهجرة ـ فقاتل بني أسد وغطفان ، وقتل وأسر من أسر ، ورجع الباقون إلى الإسلام[1] .

٦ ـ مسيلمة الكذاب ، ثم سار خالد بجموعه إلى اليمامة لقتال مسيلمة الكذبا في أواخر العام ، والتقى الجمعان ، ودام الحصار أياماً ، ثم قتل الكذاب وكثير من قومه بني حنيفة ، قتله وحشي قاتل حمزة ، واستشهد فيها خلق من الصحابه بلغوا السبعين عداً[2] .

وفي سنة اثنتي عشرة من الهجرة بعث الصدِّيق ؛ العَلَاءَ بنَ الحضْرَمي إلى البحرين وكانوا قد ارتدّوا ، فالتقوا ، بجواثي ، فَنُصر المسلمون .

وبعث عِكرمة بن أبي جهل إلى عُمان ، وكانوا قد ارتدُّوا .

وبعث المهاجر بن أبي أميَّة إلى أهل النجير ، وكانوا قد ارتدُّوا .

وبعث زياد بن لبيد الأنصاري إلى طائفة من المرتدَّة . وهكذا انتهت حروب الردَّه بنصر المسلمين .

٧ ـ بدء الفتوحات ، وفي سنة اثنتي عشرة من الهجرة ، وبعد فراغ قتال أهل الردة ، بعث الصديق رضي الله عنه خالدَ بن الوليد إلى أرض البصرة فَغَزَا الأُبُلَّةَ ، فافتتحها ، وافتتح مدائن كسرى التي بالعراق صلحاً وحرباً ، وفي هذه السنة أقام الحجَّ أبو بكر الصديق[3] .

---

(١) المرجع السابق ٨٨ .
(٢) انظر سيرته بن هشام وتاريخ الخلفاء للسيوفي ٨٩ .
(٣) انظر تاريخ الخلفاء ٨٩ .

ثم بعث الصدِّيق عمرو بن العاص بالجنود إلى الشام ، فكانت وقعة أجنادين في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة ونُصر المسلمون ، وبشر بها أبو بكر وهو بآخر رمق . واستشهد بها عدد من الصحابة . وفي هذه السنة كانت وقعة مَرْجِ الصُّفَرِ ، وهُزِمَ المُشْركون[1] .

٨ ـ جمع القرآن ، وأخرج البخاري عن زيد بن ثابت قال : أرسل إليَّ أبو بكر ـ بعد ـ مقتل أهل اليمامة ـ قُتل سبعون صحابياً من حملة القرآن ـ وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إنَّ عمر أتاني فقال : إن القتل قد اسْتَحرَّ يوم اليمامة بالناس، وإني لأخشى أن يَسْتَحِرَّ القتل بالقرَّاء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلّا أن يجمعوه ، وإني لأرى أن يجمع القرآن .

قال أبو بكر : فقلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟

فقال عمر : هو والله خير ، فلم يزل يراجعني فيه حتَّى شرح الله لذلك صدري ، فرأيت الذي رأى عمر .

قال زيد : وعمر عنده جالس لا يتكلم ، فقال أبو بكر : إنَّك شاب عاقل ، ولا نَتَّهمُك ، وقد كنت تكتبُ الوحي لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، فتتبَّع القرآن فاجمعه .

ـ وتابع زيد ـ لو كلّفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن ، فقلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبيُّ عليه الصلاة والسلام ؟

---

(١) المرجع السابق صفحة ٩٠ .

فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل أراجعْه حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر .

فتتبَّعتُ القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت ، لم أجدهما مع غيره ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾[1] إلى آخره[2] .

فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى تَوَفَّاهُ الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها[3] .

٩ ـ الخليفة ، هو أوّل من سمّى نفسه بخليفة رسول الله ، فقد أخرج أحمد عن أبي بكر بن أبي مُلَيْكة قال : قيل لأبي بكر : يا خليفة الله .

فقال : أنا خليفة النبي عليه الصلاة والسلام ، وأنا راض به .

١٠ ـ أول خليفة فرض له رعيته العطاء ، فقد أخرج ابن سعد عن عطاء بن السائب قال : لمّا بويع أبو بكر أصبح وعلى ساعده أَبْرَادٌ ، وهو ذاهب إلى السوق[2] ، فقال له عمر : أين تريد ؟

قال : إلى السوق !

قال : تصنع ماذا ، وقد وُلِّيتَ أمر المسلمين ؟

قال : فَمِنْ أين أطعم عيالي ؟

فقال : انطلق ، يفرض لك أبو عبيدة .

---

(١) سورة التوبة ٩/١٢٨ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوفي ٩٠ .
(٣) تاريخ الخلفاء السيوطي ٩٠ .

فانطلقا إلى أبي عبيدة بن الجراح، فقال: أفرضُ لك قوت رجل من المهاجرين ، ليس بأفْضَلِهم ولا أوْكَسِهم ، وكسوة الشتاء والصيف ، إذا أخْلَقْتَ شيئاً رَدَدْتَهُ وأخذْتَ غيره ، ففرضا له كل يوم نصف شاة ، وما كساه في الرأس والبطن[1] .

وأخرج الطبراني في مسنده عن الحسن بن علي بن أبي طالب ، قال : لما احتضر أبو بكر قال : يا عائشة ، انظري اللَّقْحةَ[2] التي كنا نشرب من لبنها ، والجَفْنَةَ[3] التي كنا نصطبغ فيها ، والقطيفة التي كنا نلبسها ! فإنا كنا ننتفع بذلك حين كنا نلي أمر المسلمين ، فإذا مُتُّ فارددیه إلى عمر . فلما مات أبو بكر رحمه الله ، أُرْسِلَتْ إلى عمر ، فقال عمر : رحمك الله يا أبا بكر ! لقد أتعبت من جاء بعدك[4] .

وأخرج بن أبي الدنيا عن أبي بكر بن حفص ، قال : قال أبو بكر ، لما احتضر ، لعائشة رضي الله عنها : يا بنية ، إنا وُلِّينا أمر المسلمين فلم نأخذ لنا دينارا ولا درهما ، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا ، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا ، وإنه لم يبق عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلّا هذا العبد الحبشي ، وهذا البعير الناضح ، وجُرْدُ هذه القطيفة ، فإذا متُّ فابعثي بهن إلى عمر[5] .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) اللقحة : الناقة الحلوب أنظر الصحاح للرازي مادة لقمح .
(٣) الجفة : قربة من جلد تقطع من الأسفل .
(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٩٢ .
(٥) المرجع السابق .

١١ ـ بيت المال ، وهو رضي الله عنه أول من اتّخذ بيت المال ، فقد أخرج ابن سعد عن سهل بن أبي خَيثَمةَ وغيره ، أنَّ أبا بكر كان له بيت مال بالسُّنْحِ ليس يحرسه أحد ، فقيل له : ألا تجعل عليه من يحرسه ؟

قال : عليه قُفْلٌ ، فكان يعطي ما فيه حتى يفرغ .

فلما انتقل إلى المدينة حوَّله فجعله في داره ، فقدم عليه مال ، فكان يقسمه على فقراء الناس فيسوّي بين الناس في القَسْم ، وكان يشتري الإبل والخيل والسلاح فيجعله في سبيل الله ، واشترى قطائف أتى بها من البادية ففرَّقها في أرامل المدينة .

فلما توفِّي أبو بكر رحمه الله ودفن ، دعا عمرُ الأمناء ودخل بهم في بيت مال أبي بكر منهم عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، ففتحوا بيت المال ، فلم يجدوا فيه شيئاً لا ديناراً ولا درهماً[1] .

وروى عن العسكري قوله : إن أول من ولي بيت المال لأبي بكر ، أبو عبيدة بن الجراح .

مرضه ووفاته . .

أخرج سيف والحاكم عن ابن عمر ، قال : كان سبب موت أبي بكر ، وفاةُ رسول الله ﷺ كَمِدَ[2] ، فما زال يضوي حتى مات[3] .

وأخرج ابن سعد والحاكم بسند صحيح عن ابن شهاب ، أنّ أبا بكر

---

(١) تاريخ الخلفاء ٩٢ .
(٢) كمد بزنه فرح : حزن حزناً مكتوماً .
(٣) ضوى كفرح : هزل وضعف .

والحارث بن كَلَدَة[1] كانا يأكلان خزيرة[2] أهديت لأبي بكر ، فقال الحارث لأبي بكر : ارفع يدك يا خليفة رسول الله ، والله إنَّ فيها لَسُمَّ سَنَةٍ ، وأنا وأنت نموت في يوم واحد . فرفع يده ، فلم يزالا عليلين حتى ماتا في يوم واحد عند انقضاء السنة[3] .

وأخرج الحاكم عن الشعبي قال : ماذا نتوقع من هذه الدنيا الدَّنيَّةِ وقد سُمَّ رسول الله ﷺ ، وسُمَّ أبو بكر ؟

وأخرج الواقدي والحاكم عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان أول بدء مرض أبي بكرٍ أنّه اغتسل يوم الاثنين لسبع خَلَوْنَ من جمادى الآخرة ، وكان يوما بارداً ، فحمَّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلاّ لصلاة ، وتوفي ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة الموافق سنة ٦٣٤ ميلادية ، وله ثلاث وستون سنة ، رحمه الله . فكُفِّنَ بثوبيه ، وصلى عليه عمر بين القبر والمنبر وكبَّر عليه أربعا . وكان قد أوصى أن يدفن إلى جنب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فلمّا تُوفي ، حُفِرَ له ، وجُعِلَ رأسُه عند كتف رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وأُلصق اللحد بقبر رسول الله ﷺ ، ودفن ليلاً .

وكان رضي الله عنه قد أوصى أن تغسله امرأته أسماء بنت عُميس ، ويُعينها عبد الرحمن بن أبي بكر .

وأخرج عن ابن عمر قال : نَزلَ في حُفْرةِ أبي بكر : عمرُ ، وطلحة ، وعثمان ، وعبد الرحمن بن أبي بكر .

---

(١) خزيرة : لحم يقطع قطعاً صغيرة ومتى نضج ذر عليه دقيق .
(٢) والحارث بن كلدة : طبيب العرب المشهور .
(٣) تاريخ الخلفاء ٩٥ .

وأخرج الحاكم عن ابن عمر ، قال : ولي أبو بكر سنتين وسبعة أشهر[1] .

وأخرج ابن منده وابن عساكر عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما أسلم أبو أحد من المهاجرين إلّا أبو بكر رضي الله عنه[2] .

وأخرج ابن سعيد والبزاز بسند حسن عن أنس قال : كان أسنَّ أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام أبو بكر الصديق ، وسهيل بن عمرو بن بيضاء[3] .

استخلافُه عُمَرَ . .

لما اشتد المرض على أبي بكر رضي الله عنه ، دخلوا عليه فقالوا : يا خليفة رسول الله ، ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك ؟

قال : قد نظر إليّ .

فقالوا : ما قال لك ؟

قال : قال إني فعَّالٌ لما أريد .

وأخرج الواقدي من طرق أن أبا بكر لمّا ثَقُلَ ، دعا عبدَ الرحمن بن عوف ، فقال : أخبرني عن عمر بن الخطاب ؟

فقال : ما تسألني عن أمرٍ إلّا وأنت أعلم به مني .

فقال أبو بكر : وإنْ .

فقال عبد الرحمن بن عوف : هو والله أفضلُ من رأيك فيه .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي صفحة ١٠٠ .
(٢) المرجع السابق ١٢٣ .
(٣) المرجع السابق .

ثم دعا عثمان بن عفان ، فقال : أخبرني عن عمر ؟

فقال : أنت أخبرنا به .

فقال : علي ذلك .

فقال : اللهم عِلمي به أنَّ سريرتَهُ خيرٌ من علانيته ، وأنه ليس فينا مِثلُه .

وشاورَ معهما سعيد بن زيد ، وأُسيد بن الحضير ، وغيرهما من المهاجرين والأنصار ، فقال أُسَيدُ : اللهم أعلمه الخير بعدك ، يرضى للرضا ، ويسخط للسخط ، الذي يُسِرُّ خيرٌ من الذي يُعْلنُ ، ولن يلي هذا الأمر أحدٌ أقوى عليه منه .

ودخل عليه بعض الصحابة ، فقال له قائل منهم : ما أنت قائل لربِّك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا ، وقد ترى غِلْظَتَهُ ؟

فقال أبو بكر : بالله تُخَوِّفُني ؟ أقول : اللهم إني استخلفت عليهم خيرَ أهلك ، أبلغْ عني ما قُلْتُ مَن وراءك .

ثم دعا عثمان ، فقال : اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها ، وعند أول عهده بالآخره داخلا فيها ، حيث يُؤمِنُ الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب ، إني استخلف عليكم بعدي عمرَبن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً ، فإنْ عدلَ فذلك ظني به وعلمي فيه ، وإن بدّل فلكل امرىء ما اكتسب ، والخيرَ أردتُ ، ولا أعلمُ الغيبَ ، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم أمر بالكتاب فختَمهُ ، ثم أمَرَ عثمان فخرج بالكتاب مختوماً ، فبايع الناس ورضُوا به . ثم دعا أبو بكر عُمَر خالياً ، فأوصاه بما أوصاه ، ثم خرج من

عنده ، فرفع أبو بكر يديه ، وقال : اللهمَّ إني لم أرد بذلك إلا صلاحَهم ، وخِفتُ عليهم الفتنة ، فعملت فيهم بما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأياً ، فوليت خيرهم ، وأقواهم عليهم ، وأحرصهم على ما أرشدهم ، وقد حضرني من أمرك ما حضر ، فاخلفني فيهم ، فهم عبادك ، ونواصيهم بيدك ، أصلح اللهمَّ وُلاتَهم ، واجعلْه من خلفائك الراشدين ، وأصلحْ له رعيته[1] .

وأخرج ابن عساكر عن يسار بن حمزة قال : لما ثقل أبو بكر ، أشرف على الناس من كُوَّةٍ ، فقال : أيها الناس ، إني قد عهدت عهداً ، أفَترضون به ؟

فقال الناس : رضينا يا خليفة رسول الله .

فقام علي ، فقال : لا نرضى إلَّا أن يكون عمر .

فقال أبو بكر : فإنه عمر[2] .

وأخرج عن ابن المسيب أن أبا بكر لما مات رحمه الله ، ارتجَّت مكة ، فقال أبو قحافة : ما هذا ؟

قالوا : مات ابنك !

قال : رُزءٌ جَلَل ، من قام بالأمر بعده ؟

قالوا : عمر .

قال : صاحبه[3] .

وأخرج عن مجاهد أنَّ أبا قحافة ردَّ ميراثه من أبي بكر على ولد أبي بكر ، ولم يعش أبو قحافة بعد أبي بكر إلَّا ستة أشهر وأياماً ، ومات في المحرم سنة أربع عشرة وهو ابن سبع وتسعين سنة .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٩٦ .
(٢) المرجع السابق ٩٧ .
(٣) المرجع السابق ١٠٠ .

وقالت العلماء : لم يل الخلافة أحد في حياة أبيه إلّا أبو بكر ، ولم يرث خليفةً أبوه إلّا أبا بكر .[1] .

شعره :

وعلى الرغم من أن عائشة رضي الله عنها ، وبسند صحيح ، قال : والله ما قال أبو بكر شعراً قط في جاهلية ولا إسلام[2] فإننا عثرنا في كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني ، في الباب الثالث «باب أشعار الخلفاء ، والقضاة ، والفقهاء» قوله : من ذلك قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، قال في غزوة عبيدة بن الحارث ، رواه ابن إسحاق وغيره :

أَمِنْ طَيْفِ سَلْمَى بِالبِطَاحِ الدَّمَائِثِ ... أَرِقْتَ ، أَوَ أَمْرٍ في العَشيرَةِ حَادِثِ ؟
تَرَى مِنْ لُؤَيٍ فِرْقَةً لَا يَصُدُّهَا ... عَنِ الكُفْرِ ، تَذْكيرٌ ، وَلَا بَعْثُ بَاعِثِ
رَسُولٌ أَتَاهُمْ صَادِقٌ ، فَتَكَذَّبُوا ... عَلَيْهِ ، وَقَالُوا : لَسْتَ فِينَا بِمَاكِثِ
إِذَا مَا دَعَوْنَاهُمْ إِلَى الحَقِّ أَدْبَرُوا ... وَهَرُّوا هَرِيرَ المُجْحِراتِ اللَّوَاهِثِ[3]
فَكَمْ قَدْ مَتَتْنَا فيهِمُ بِقَرَابَةٍ ... وَتَركِ التُّقَى شَيْءٌ لَهُمْ غَيْرُ كَارِثِ
فَإِنْ يَرْجِعُوا عَنْ كُفْرِهِمْ وَعُقُوقِهِمْ ... فَمَا طَيِّبَاتُ الحِلِّ مِثْلَ الخَبَائِثِ
وَإِنْ يَرْكَبُوا طُغْيَانَهُمْ وَضَلَالَهُمْ ... فَلَيْسَ عَذَابُ الله عَنْهُمْ بِلَابِثِ
وَنَحْنُ أُنَاسٌ مِنْ ذُؤَابَةِ غَالِبٍ ... لَنَا العِزُّ مِنْهَا في الفُروعِ الأَثَائِثِ
فَأُولي بِرَبِّ الرَاقِصَاتِ عَشِيَّةً ... حَرَاجِيجُ تَخْدِي في السَّرِيحِ الرَّثَائِثِ[4]

---

(١) المرجع السابق .
(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٨ ، وحاشية كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني أسفل الصفحة ١/٣٢ .
(٣) انظر سيرة ابن هشام ٣/٢ بولاق ، والروض الأنف ٢/٥٥ .
(٤) الحراجيج : النوق العتاق ، تخدي : من الوخد وهو ضرب من السير .

كَأُدْمِ ظِبَاءٍ ، حَوْلَ مَكَّةَ عُكَّفٍ يَرِدْنَ حِياضَ البِئْرِ ذاتِ النَّبَائِثِ
لَئِنْ لَمْ يَفِيقُوا عَاجِلاً مِنْ ضَلاَلِهِمْ وَلَسْتُ إِذَا آلَيْتُ قَوْلاً بِحَانِثِ
لَتَبْتَدِرَنَّهُمْ غَارَةٌ ذَاتُ مَصْدَقٍ تُحَرِّمُ أَطْهَارَ النِّسَاءِ الطَّوامِثِ
تُغَادِرُ قَتْلى تَعْصِبُ الطَّيْرُ حَوْلَهُمْ وَلاَ يَرْأَفُ الكُفَّارُ رَأْفَ ابنِ حَارِثِ
فَأَبْلِغْ بَنِي سَهْمٍ لَدَيْكَ رِسَالَةً وَكُلَّ كَفُورٍ يَبْتَغي الشَّرَّ بَاحِثِ
فَإِنْ شَعَثُوا عِرْضِي عَلَى سُوءِ رَأْيِهِمْ فَإِنِّي مِنْ أَعْرَاضِهِمْ غَيْرُ شَاعِثِ(١)

وقال أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، لبلال لما قتل أمية بن خلف ، وقد كان يسومه سوء العذاب بمكة ، فيُخرجه إلى الرمضاء ، فيلقي على الصخرة العظيمة ليفارق دين الإسلام ، فيعصمه الله من ذلك :

هَنيئاً زَادَكَ الرَّحْمَنُ خَيْراً فَقَدْ أَدْرَكْتَ ثَأْرَكَ يَا بِلاَلُ
فَلاَ نِكْساً وُجِدْتَ وَلاَ جَبَاناً غَدَاةَ تَنُوشُكَ الأَسَلُ الطِّوَالُ
إِذَا هَابَ الرِّجَالُ ثَبَتَّ حَتَّى تُخَالِطُ أَنْتَ ، مَا هَابَ الرِّجَالُ
عَلَى مَضَضِ الكُلُومِ بِمَشْرِفِيٍّ جَلاَ أَطْرَافَ مَتْنَيْهِ الصِّقَالُ(٢)

---

(١) انظر العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق ١/٣٢ ـ ٣٣ وتصحيح الرواية عن سيرة هشام ٢/٣ بولاق .
(٢) انظر زهر الآداب للقيرواني ١/٧٢ .

عمر بن الخطاب رضي الله عنه
٤٠ ق . هـ - ٢٣ هـ = ٥٨٤ - ٦٤٤ م

عُمَرُ بن الخطاب بن نُفَيْلِ بن عبد العُزَّى بن رباح بن قُرْطِ بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي ، أمير المؤمنين ، أبو حفص ، القرشي ، العَدَويُّ ، الفاروق ، وأمُّه حَنْتَمَةُ بنتُ هشام بن المغيرة ، أخت أبي جهل عمرو بن هشام ، فكان أبو جهل خاله[1] . وأخرج ابن عساكر عن أبي رجاء العُطَارِدي قال : كان عمر رجلاً طويلاً جسيماً ، أصلع شديد الصلع ، أبيض شديد الحمرة ، في عارضيه خفة ، سَبَلَتُه كبيرة ، وفي أطرافها صُهْبَةٌ[2] .

ولد عمر بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة ، وأسلم في السنة السادسة من بدء النبوة ، وله سبع وعشرون سنة ، كما قال الذهبي ، بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٥٣ .
(٢) السبلة بالتحريك : طرف الشارب . الصهبة : سواد في حمرة .

وقال النووي : وكان عمر من أشراف قريش ، وإليه كانت السِّفارة في الجاهلية ، فكانت قريش إذا وقعت الحرب بينهم ، أو بينهم وبين غيرهم ، بعثوه سفيراً : أي رسولاً ، وإذا نافرهم مُنَافِر ، أو فَاخَرهم مُفَاخِر ، بعثوه مُنافراً أو مُفاخراً .

وهو أحدُ السابقين الأوَّلين ، وأحدُ العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الخلفاء الراشدين ، وأحد أصهار النبي عليه الصلاة والسلام ، وأحد كبار علماء الصحابة وزُهَّادهم[1] .

وأخرج الترمذي عن ابن عمر ، أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : «اللهم أَعِزَّ الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك : بعمر بن الخطاب ، أو بأبي جهل عمرو بن هشَام[2] .

قِصَّة إسْلامِهِ :

وأخرج ابن سعد وأبو يعلى والحاكم والبيهقي في الدلائل عن أنس رضي الله عنه ، قال : خرج عمر متقلداً سيفه ، فلقيه رجل من بني زُهْرَةَ ، فقال : أين تعْمَدُ يا عمر ؟

فقال : أريد أن أقتل محمداً .

قال : وكيف تأمن من بني هاشم وبني زهرة وقد قتلْتَ محمداً ؟

فقال عمر : ما أراك إلاّ قد صبأت ؟

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي صفحة ١٢٧ .

(٢) أبو جهل : عمرو بن هشام وهو خال عمر بن الخطاب .

قال : أفلا أدُلُّك على العجب ، إنَّ خَتَنَكَ[1] وأختك قد صبأا وتركا دينك .

فمشى عمر ، فأتاهما وعندهما خَبَّابُ ، فلما سمع بحس عمر توارى في البيت ، فدخل ، فقال : ما هذه الهَيْنَمَة ؟ وكانوا يقرؤون طه .

قالا : ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا .

قال : فلعلكما قد صبأتما ؟

فقال له ختنة : يا عمر ! إن كان الحق في غير دينك .

فوثب عليه عمر ، فوطئه وطأً شديداً ، فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها ، فنفحها نفحة بيده ، فدمّى وجهها ، فقالت وهي غضبى : وإن كان الحق في غير دينك ، إني أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله .

فقال عمر : أعطوني الكتاب الذي هو عندكم فأقرأهُ ، وكان عمر يقرأ الكتاب .

فقالت أخته : إنك رِجْسٌ ، وإنه لا يمسُّه إلاّ المطهَّرون ، فقم فاغتسل أو توضأ[2] .

فقام فتوضأ ، ثم أخذ الكتاب ، فقرأ طه حتى انتهى إلى : «إنَّني أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي ، وأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي»[3] فقال عمر : دلُّوني على محمد .

فلما سمع خَبَّابُ قول عمر خرج ، فقال : أبشر يا عمر ، فأني أرجو أن تكون دعوة رسول الله عليه الصلاة والسلام لك ليلة الخميس : «اللهم أَعِزَّ

---

(١) ختنك هنا : زوج أختك .
(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٢٩ - ١٣٠ .
(٣) سورة طه ١٤/٢٠ .

الإسلام بعمر بن الخطاب ، أو بعمرو بن هشام» . وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام في أصل الدار التي في أصل الصَّفا ، فانطلق عمر حتى أتى الدار ، وعلى بابها حمزة وطلحة وناس .

فقال حمزة : هذا عمر ؟ إن يُرِدِ الله به خيراً يُسْلِمْ ، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هيناً ، وقال : والنبي ﷺ دَاخل يُوحي إليه ، فخرج حتى أتى عمر ، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف ، فقال : ما أنت بمنتهٍ يا عمرُ حتى ينزل الله بك الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة ؟

فقال عمر : أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأنَّك عبدُ الله ورسولُه[1] .

سَبَبُ تسميته بالفاروق :

وأخرج أبو نعيم في الدلائل ، وابن عساكر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سألت عمر رضي الله عنه : لأي شيء سميت بالفاروق ؟

فقال : أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام ، فخرجت إلى المسجد ، فأسرع أبو جهل إلى النبي عليه الصلاة والسلام يسبُّهُ ، فأُخبر حمزةُ ، فأخذ قوسه وجاء إلى المسجد إلى حلقة قريش التي فيها أبو جهل ، فاتَّكأ على قوسه مقابل أبي جهل ، فنظر إليه ، فعرف أبو جهل الشرَّ في وجهه ، فقال : مالك يا أبا عمارة ؟

فرفع القوس ، فضرب بها أَخْدَعَهُ فقطعه ، فسالت الدماء ، فأصلحت ذلك قريش مخافة الشرِّ .

قال: ورسول الله ﷺ مختفٍ في دار الأَرْقَم المخزومي، فانطلق حمزة،

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٣٠ .

فأسلم ، فخرجت بعده بثلاثة أيام . . ثم روى قصّة إسلامه . . فكبَّرَ أهل الدار تكبيرة سمعها أهل مكة ، قلت : يا رسول الله ، ألسْنا على حقٍّ ؟

قال : بلى .

قلت : ففيم الإخفاء ؟

فخرجنا صَفَّينِ أنا في أحدهما ، وحمزة في الآخر ، حتى دخلنا المسجد ، فنظرت قريش إليَّ وإلى حمزة ، فأصابتهم كآبة شديدة ، لم يصبْهم مثلُها ، فسمَّاني رسول الله عليه الصلاة والسلام «الفاروق» يومئذ ، لأنه أظهر الإسلام ، وَفَرَقَ بين الحق والباطل[1] .

وأخرج ابن ماجة والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لَمّا أسلم عمر نزل جبريل ، فقال : يا محمد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر .

وأخرج البزاز والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أسلم عمر قال المشركون : قد انتصف القوم اليوم منَّا ، وأنزل الله : «يَاأَيُّهَا النَبِيُّ حَسْبُكَ الله وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ»[2] .

وأخرج ابن سعد والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كان إسلام عمر فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمامته رحمة ، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي إلى البيت حتى أسلم عمر ، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا[3] .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٣٢ - ١٣٣ .
(٢) سورة الأنفال ٨/٦٤ .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٣٤ .

وأخرج ابن سعد والحاكم عن حذيفة قال : لما أسلم عمر كان الإسلام كالرجل المقبل لا يزداد إلا قرباً ، فلما قتل عمر كان الإسلام كالرجل المدبر لا يزداد إلّا بعداً .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ؛ أول من جهر بالإسلام عمر بن الخطاب .

هجرة عمر :

أخرج ابن عساكر عن علي ، قال : ما علمت أحداً هاجر إلّا متخفياً ، إلّا عمر بن الخطاب ، فإنه لما همَّ بالهجرة ، تقلَّد سيفه ، وتنكب قوسه ، وانتضى في يده أسهما ، وأتى الكعبة وأشراف قريش بفنائها ، فطاف سبعاً ، ثم صلى ركعتين عند المقام ، ثم أتى حَلَقَهُم واحدة واحدة ، فقال : شَاهَتِ الوجوه[1] ، من أراد أن تَثْكَلَه أُمُّهُ ، وَيَيْتَمَ ولده ، وتَرْمَلَ زوجته فَلْيَلْقني وراء هذا الوادي ، فما تبعه منهم أحد[2] .

وقال النووي : شهد عمر مع رسول الله عليه السلاة والسلام المشَاهِدَ كلها ، وكان مِمَّنْ ثَبَتَ معه يوم أحد .

موافقات عمر للتنزيل الكريم :

أخرج ابن عساكر عن علي قال : إن في القرآن لَرَأْياً من رأي عمر[3] .

---

(١) شاهت الوجوه : قبحت .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٣٥ .
(٣) المرجع السابق .

وأخرج الشيخان عن عمر قال : وافقت ربي في ثلاث ، وعن أنس في أربع :

ـ قلت : يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت الآية : «وَاتَّخِذَوا مِنْ مَقَامِ إِبْراهيم مُصَلًّى»[1] .

ـ وقلت : يا رسول الله ، يدخل على نسائك البَرُّ والفاجِرُ ، فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب : «يا أيُّها الذَّين آمَنُوا لا تَدْخُلوا بُيوتَ النَبِيِّ . . إلى قوله ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ الله عظيماً»[2] .

ـ واجتمع نساء النبي عليه السلاة والسلام في الغيرة ، فقلت عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ، فنزلت كذلك : «عسى ربُّه إن طلقكُنَّ أن يبدِّلَه أزواجاً خيراً منكنَّ . . . .»[3] .

ـ وفي أسارى بدر ، فنزلت الآية : «ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى . . .»[4] .

وأضاف النووي خامسة هي تحريم الخمر إذ قال عمر «اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فأنزل الله تحريمها : «إنما الخمر والميسر . . . .»[5] .

ـ ثم زادها ابن أبي حاتم في تفسيره عن أنس قال : لمّا نزلت الآية : «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طين»[6] فقال عمر : فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخَالقين ،

---

(1) البقرة ٢/١٢٥ .
(٢) سورة الأحزاب ٣٣/٥٣ .
(٣) التحريم ٦٦/٥ .
(٤) الأنفال ٨/٦٧ .
(٥) المائدة ٥/٩٠ .
(٦) المؤمنون ٢٣/١٢ .

فَنَزَلَتْ الآية «فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين»[1] فهو زاد في هذا الحديث خصلة سادسة .

ويروي السيوطي أنه رأى في كتاب «فضائل الإمامين» لأبي عبدالله الشيباني ، قال : وافق عمر رَبَّهُ في أحدٍ وعشرين موضعاً فذكر هذه الستة . وزاد سابعاً ، قصَّة عبد الله بن أبيٍّ .

- قلت : حديثها في الصحيح عنه ، قال : لما توفي عبدالله بن أبيٍّ دعي رسول الله ﷺ ، عليه ، فقام إليه ، فقمت[2] حتى وقفت في صدره ، فقلت : يا رسول الله ، أَوَ عَلَى عدوِّ الله بن أبيٍّ القائل يوم كذا وكذا ؟ فوالله ما كان إلاّ يسيراً حتى نزلت ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً﴾[3] .

- وثامناً حديث يسألونك عن الخمر ، فنزلت : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ والمَيسِرِ قُلْ فيهمَا إِثْمٌ كَبيرٌ . . .﴾[4] .

- وتاسعاً حديث الشرب والصلاة ، فنزلت : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة﴾ قلت : هما مع آية المائدة خَصْلَةٌ واحدة ، والثلاثة في الحديث السابق[5] .

- وعاشراً : لَمّا أكثر رسول الله عليه الصلاة والسلام من الإستغفار لقوم قال

---

(١) المؤمنون ٢٣/١٤ .
(٢) الضمير في قمت : .عائد على عمر رضي الله عنه .
(٣) التوبة ٩/٨٤ .
(٤) البقرة ٢/٢١٩ .
(٥) سورة النساء ٤/٤٣ .

عمر : سواءٌ عليهم ، فأنزل الله الآية : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ الله لَهُمْ﴾[1] .

ـ الحادي عشر : لما استشار عليه الصلاة والسلام الصحابة في الخروج إلى بدر ، أشار عمر بالخروج ، فنزلت الآية : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالحَقِّ ، وإِنَّ فَرِيقاً مِنَ المُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾[2] .

ـ الثاني عشر : لما استشار عليه الصلاة والسلام الصحابة في قصة الإفك ، قال عمر : من زوجكها يا رسول الله ؟

قال : الله .

قال : أفتظن أن ربك دلَّس عليك فيها ؟ سبحانك هذا بهتانٌ عظيم ! فنزلت كذلك : ﴿وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾[3] .

ـ الثالث عشر : قصته في الصيام ، لما جامع زوجته بعد الانتباه ، وكان ذلك محرماً في أول الإسلام ، فنزل من الله قوله : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ . . .﴾[4] .

ـ الرابع عشر : ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن يهودياً لقي عمر ، فقال : إن جبريل الذي يذكره صاحبكم عدو لنا . فقال له

---

(١) المنافقون ٦٣/٦ .
(٢) الأنفال ٨/٥ .
(٣) النور ٢٤/١٦ .
(٤) البقرة ٢/١٨٧ .

عمر : من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين . فنزلت على لسان عمر : ﴿مَنْ كَانَ عَدُوّاً لله وَمَلاَئِكَته وَرُسُله وَجُبْرِيلَ وَميكَالَ فَإِنَّ الله عَدُوٌّ لِلْكَافِرينَ﴾[1] .

الخامس عشر : أخرج قصتها ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي الأسود ، قال : اختصم رجلان إلى النبي ﷺ ، فقضى بينهما ، فقال الذي قضى عليه : رُدَّنا إلى عمر بن الخطاب . فَأَتَيَا إليه ، فقال الرجل : قضي لي رسول الله عليه الصلاة والسلام على هذا ، فقال : رُدَّنا إلى عمر ، فقال : أكذاك ؟

قال : نعم .

فقال عمر : مكانَكُما حتى أخرج إليكما ، فخرج مشتملاً على سيفه ، فضرب الذي قال : رُدَّنَا إلى عمر ، فقتله ، وأدبر الآخر ، فقال : يا رسول الله ! قَتَلَ عُمر ، والله ، صاحبي .

فقال : ما كنت أظن أن يجترىء عمر على قتل مؤمن . فأنزل الله : ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُونَ تَسْليماً﴾[2] .

ـ السادس عشر : الإستئذان في الدخول ، وذلك أنه دخل عليه غلامه ، وكان نائماً ، فقال : اللهم حرِّم الدخول ، فنزلت آية الإستئذان : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيَن آمَنُوا لاَ تَدْخُلوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتكُمْ حَتَّى تَسْأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهلِها ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3] .

---

(٩) البقرة ٢/٩٨ .
(١) النساء ٤/٦٥ .
(٢) النور ٢٤/٢٧ .

ـ السابع عشر : قوله في اليهود : إنهم قوم بُهُتٌ ، وهذا ما كان[1] .

ـ الثامن عشر : قوله تعالى : ﴿ثلة من الأولين وثلة من الآخرين﴾[2] .

ـ التاسع عشر : رفع تلاوة «الشيخ والشيخة إذا زنيا» .

ـ العشرون : قوله يوم أحد لما قال أبو سفيان : أفي القوم فلان ؟ لا تجبه . فوافقه النبي عليه الصلاة والسلام . أخرج القصة أحمد بن حنبل في مسنده .

ويقول السُّيوطي : ثم رأيت في الكامل لابن عدي من طريق عبدالله بن نافع ، وهو ضعيف عن أبيه عن عمر ، أن بلالاً كان يقول إذا أَذَّنَ : أشهد أن لا إله إلا الله ، حيَّ على الصلاة .

فقال له عمر : قُل في أثرها : أشهد أن محمداً رسول الله .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : قُلْ كما قال عمر[3] .

من كرامات عمر رضي الله عنه . .

لقد أجمع الرواة بطرق عدة على الواقعة التالية ؛ أخرج البيهقي وأبو نُعَيْم ، كلاهما في دلائل النبوة ، ولاللكائي في شرح السنة ، والدير عاقولي في فوائده ، وابن الأعرابي في كرامات الأولياء ، والخطيب في رُوَاةِ مالك عن نافع عن ابن عمر ، كما وأخرجه ابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عن ابن عمر : قال : كان عمر يخطب يوم الجمعة ، فعرض في خطبته أن قال : يا ساريةُ الجبلَ ، من

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٤٥ .
(٢) الواقعة ١٣ و٤٠/٥٦ .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٤٦ .

استرعى الذئب ظلم ـ فكررها ثلاث مرات ـ فالتفت الناس بعضهم لبعض ، فقال علي : لَيَخْرُجَنَّ مما قال . فلما فرغ سألوه ، فقال : وقع في خَلَدي أن المشركين هزموا إخواننا وأنهم يمرون بجبل ـ وكان عمر وجّه جيشاً وراًسَ عليهم رجلاً يدعى سارية ـ فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجه واحد ، وإن جاوزوا هلكوا ، فخرج مني ما تزعمون أنكم سمعتموه .

قال : فجاء البشير بعد شهر ، فذكر أنهم سمعوا صوت عمر في ذلك اليوم ، قال : فَعَدَ لْنا إلى الجبل ففتح الله علينا[1] .

وأخرج أبو قاسم بن بشران في فوائده من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر قال : قال عمر بن الخطاب لرجل : ما اسمك ؟ قال : جمرة .

قال : ابن من ؟ قال : ابن شهاب .

قال : ممن ؟ قال : من الحرقة .

قال : أين مسكنك ؟ قال : الحرة .

قال : بأيها ؟ قال بذات لظىً .

فقال عمر : أدرك أهلك فقد احترقوا . فرجع الرجل فوجد أهله قد احترقوا[2]

وأخرج مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد نحوه ، وأخرجه ابن دريد في الأخبار المنشورة ، وابن الكلبي في الجامع وغيرهم .

---

(١) المرجع السابق ١٤٧ .
(٢) المرجع السابق .

وقال أبو الشيخ في كتاب العظمة : حدثنا أبو الطيب ، حدثنا علي بن داود ، حدثنا عبدالله بن صالح ، حدثنا بن لهيعة ، عن قيس بن الحجاج ، عمن حدثه ، قال : لما فتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص حين دخل يوم من أشهر العجم ، فقالوا : يا أيها الأمير ، إن لنيلنا هذا سُنَّة لا يجري إلاّ بها .

قال : وما ذاك ؟

قالوا : إذا كان إحدى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر ، عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها ، فأرضينا أبويها ، وجعلنا عليها من الثياب والحلي أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في هذا النيل .

فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون أبداً في الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله .

فأقاموا والنيل لا يجري قليلاً ولا كثيراً ، حتى هموا بالجلاء . فلما رأى ذلك عمرو ، كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك .

فكتب له : أنْ قد أصبت بالذي قلت ، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله، وبعث بطاقة في داخل كتابه ، وكتب إلى عمرو ، إني قد بعثت إليك ببطاقة في داخل كتابي فأَلْقِهَا في النيل .

فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو بن العاص، أخذ البطاقة ففتحها ، فإذا فيها : من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، أمّا بعد ، فإن كنت تجري من قبلك فلا تَجْرِ ، وإن كان الله يُجْريكَ فأسأل الله الواحد القهّار أن يجريك .

فألقى البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم ، فأصبحوا وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة . فقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم[1] .

وأخرج عن الحسن قال : إن كان أحد يعرف الكذب إذا حُدِّث به فهو عمر بن الخطاب .

وأخرج ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال : إن كان الرجل ليحدث عمر بالحديث فَيَكْذِبُهُ الكِذْبَةَ فيقول : احبس هذه ، ثم يحدثه بالحديث فيقول : احبس هذه ، فيقول له : كلُّ ما حدثتك حقٌ إلّا ما أمرتني أن أحبسه[2] .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن أبي هدية الحمصي قال : أخبر عمر بأن أهل العراق قد حَصَبُوا[3] أميرهم . فخرج غضبان، فصلى فَسَهَا في صلاته ، فلما سَلَّمَ قال : اللهم إنهم قد لبسوا عليَّ ، فالبس عليهم ، وعجل عليهم بالغلام الثقفي يحكم فيهم بحكم الجاهلية ؛ لا يقبل من محسنهم ، ولا يتجاوز عن مسيئهم .

قلت : أشار به إلى الحجاج ، قال ابن لهيعة : وما ولد الحجاج يومئذٍ[4] .

أفضل صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام . .

أجمع أهل السنة أن أفضل الناس بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ، ثم سائر العشيرة ، ثم باقي أهل بدر ، ثم

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٨ .
(٢) المرجع السابق ١٤٩ .
(٣) حصبوه : رموه بالحصباء وهي الحجارة الصغيرة .
(٤) المرجع السابق ١٤٩ .

باقي أهل أحد ، ثم باقي أهل البيعة[1] ثم باقي الصحابة[2] .

وأخرج الترمذي عن جابر بن عبدالله قال : قال عمر لأبي بكر : يا خيرَ النَّاس بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام . فقال أبو بكر : أمَا إنَّكَ إنْ قلت ذلك فلقد سمعته يقول : ما طلعت الشمسُ على رجلٍ خير من عمر[3] .

وأخرج أحمد وغيره عن عليٍ قال : خيرُ هذه الأمة بعد نبيِّها أبو بكر ، وعمر . قال الذهبي : هذا متواتر عن علي[4] .

وأخرج أيضاً عن ابن أبي ليلى ، قال : قال عليٌ : لا يفضِّلني أَحد على أَبي بكر وعمر إلاّ جلدته حدَّ المفتري .

وأخرج الشيخان عن عمرو بن العاص ، قال : قلت يا رسول الله ، أيُّ الناس أَحبُّ إليك ؟

قال : عائشة .

قلت : من الرجال ؟

قال : أبوها .

قلت : ثم مَنْ ؟

قال : ثم عمر بن الخطاب[5] .

---

(١) بيعة الرضوان الذين بايعوا النبي عليه الصلاة والسلام تحت الشجرة في يوم الحديبية .
(٢) تاريخ الخلفاء ٥٣ .
(٣) تاريخ الخلفاء ٥٤ .
(٤) المرجع السابق .
(٥) المرجع السابق ٥٥ .

وأخرج الترمذي والنسائي والحاكم عن عبدالله بن شقيق قال : قلت لعائشة : أيُّ أصحاب رسول الله ﷺ ، كان أَحبَّ إلى رسول الله ﷺ .

قالت : أبو بكر .

قلت : ثم مَنْ ؟

قالت : ثم عمر .

قلت : ثم من ؟

قالت : أبو عبيدة بن الجراح[1] .

وأخرج الترمذي وغيره عن أنس قال : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام لأبي بكر وعمر : «هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين» وأخرج مثله عن علي .

وأخرج الترمذي عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أُفق السماء ، وأنَّ أبا بكر وعمر منهم» وأنعما . أخرجه الطبراني من حديث جابر بن سمرة وأبي هريرة[2] .

وأخرج أبو يعلى عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : «أتاني جبريل آنفاً ، فقلت : يا جبريل حدثني بفضائل عمر بن الخطاب .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق ٦١ .

فقال : لو حدثتكَ بفضائل عمر مُدّةَ مالبثَ نوحٌ في قومه ما نفدت فضائل عمر ، وإنَّ عمر حسنة من حسنات أبي بكر»[1] .

وأخرج أحمد عن عبد الرحمن بن غنم أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال لأبي بكرر وعمر : «لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما» وأخرجه الطبراني من حديث البراء بن عازب[2] .

وأخرج ابن سعد عن ابن عمر أنه سئل : من كان يفتي في زمن رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟ فقال : «أبو بكر وعمر ، ولم أعلم غيرهما»[3] .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : «إن لكل نبي خاصة من أمته ، وإن خاصتي من أصحابي أبو بكر وعمر»[4] .

وأخرج ابن سعد عن بسطام بن مسلم قال : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام لأبي بكر وعمر : «لَايتأَمَّرْ عليكُمَا أحدٌ بعدي»[5] .

وأخرج ابن عساكر عن أنس مرفوعاً : «حُبُّ أَبي بكرٍ وعُمرَ إيمانٌ ، وَبغُضُهَما كُفْرٌ»[6] .

---

(١) المرجع السابق ٦٢ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق .
(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٦٢ .
(٥) المرجع السابق ٦٣ .
(٦) المرجع السابق .

وأخرج عن أنس مرفوعاً : «إنِّي لأرجو لأمَّتي في حبِّهم لأبي بكر وعمر ، ما أرجو لهم في قوله : لا إله إلاّ الله»[1] .

أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام : «بينما أنا نائم رأيتني في الجنة ، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصيرٍ : لمن هذا القصر ؟

قالوا : لعمر . فذكرت غيرتَكَ ، فوليت مدبراً» .

فبكى عمر ، وقال : أعليكَ أغارُ يا رسول الله ؟!»[2] .

وأخرج الشيخان عن سعد بن أبي وقّاص ، قال : قال النبي عليه الصلاة والسلام : «يا ابن الخطاب ، والذي نفسي بيده ، ما لقيَكَ الشيطانُ سالكاً فَجّاً قَطُّ إلاّ سلك فَجّاً غير فَجِّكَ»[3] .

وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس مُحَدَّثُون ، فإن يكن في أمتي أحدٌ فإنّه عمر» مُحدَّثُونَ أي مُلْهَمُون .

وأخرج الترمذي عن ابن عمر أن النبيَّ عليه الصلاة والسلام قال : «إنَّ الله جعل الحقَّ على لسان عمر وقلبه» . وقال ابن عمر : «وما نزل بالناس أمر قطّ فقالوا ، وقال ؛ إلاّ نزل القرآن على نحو ما قال عمر»[1] .

وأخرج الترمذي ، والحاكم وصححه ، عن عقبة بن عامر قال : قال النبيَّ

---

(١) تاريخ الخلفاء ١٣٦ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) تاريخ الخلفاء ١٣٧ .

صلى الله عليه وآله وسلم : «لو كان بعدي نبيٌّ لكان عمر بن الخطاب» وأخرج من عدة طرق[1] .

وأخرج ابن ماجة والحاكم عن أُبيٍّ ابن كعب قال : قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام : «أَوَّلُ من يصافحه الحقُّ عمر ، وأَوَّل من يسلم عليه ، وأوَّل من يأخذ بيده فيدخل الجنّة»[2] .

وأخرج ابن ماجة والحاكم عن أبي ذرٍّ قال : سمعت النبي عليه الصلاة والسلام يقول : «إنّ الله وضع الحقَّ على لسان عمر يقول به»[3] .

وأخرج أحمد ، والبزاز عن أبي هريرة قال : قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام : «إنّ الله جَعَل الحقَّ على لسان عمر وقلبِه» . وأخرجه الطبراني من حديث عمر بن الخطاب ، وبلال ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعائشة ، رضي الله عنهم . وأخرجه ابن عساكر من حديث ابن عمر[4] .

وأخرج ابن منيع في مسنده عن عليٍ رضي الله عنه قال : كنّا أصحابَ محمدٍ لا نَشُكُّ أنَّ السكينة تنطق على لسان عمر» .

وأخرج البزاز عن قدامة بن مظعون ، عن عمه عثمان بن مظعون ، قال : قال النبي عليه الصلاة والسلام : «هذا غلق الفتنة ، وأشار بيده إلى عمر ، لا يزال بينكم وبين الفتنة باب شديد الغلق ما عاش هذا بين أظهركم»[5] .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق .
(٤) المرجع السابق .
(٥) المرجع السابق ١٣٨ .

وأخرج البزاز عن ابن عمر قال : قال النبي عليه الصلاة والسلام : «عمر سراج أهل الجنة» وأخرجه ابن عساكر من حديث أبي هريرة . والصَّعبِ ابن جثّامَةَ .

خلافة عمر رضي الله عنه . .

ولي عمرُ الخلافةَ بعهد من أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة . وقال الزهري : استخلف عمر يوم توفي أبو بكر . وهو يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة . فقام بالأمر أتمَّ قيام ، وكثرت الفتوح في أيامه[1] .

وقال العسكري : هو أول من سمِّي أمير المؤمنين ، وأوَّل من كتب التاريخَ من الهجرة ، وأوّل من اتخذ بيت المال . وأوّل من سَنَّ قيام شهر رمضان ، وأوّل من عسَّ بالليل ، وأوّل من عاقب على الهجاء ، وأوّل من ضرب في الخمر ثمانين ، وأوّل من حرَّم المتعة ، وأوّل من نهى عن بيع أمهات الأولاد . وأوّل من جمع الناس في صلاة الجنائز على أربع تكبيرات ، وأول من حمل الطعام من مصر في بحر أيلة إلى المدينة . وأول من احتبس[2] صدقة في الإسلام ، وأول من أعال الفرائض[3] ، وأول من أخذ زكاة الخيل ، وأول من قال : أطال الله بقاءك ! قالَه لِعلي ، وأولُ من قال : أيّدكَ الله ! قاله لِعلي .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٥٣ .
(٢) احتبس : وقف شيئاً يتصدق بغلّته .
(٣) الفرائض : المواريث ، وعولها : زيادة مجموع الفرائض على التركة ، فينقص سهم كل ذي سهم بنسبته من الواحد الصحيح .

وقال النووي في تهذيبه : هو أوَّل من اتخذ الدِّرَّةَ ، قال : ولقد قيل بعده : لَدِرَّةُ عمر أهيبُ من سيفكم . قال : وهو أوّل من استقضى القُضاة في الأمصار ، وأول من مَصَّرَ الأمصار : الكوفة ، والبصرة ، والجزيرة ، والشام ، ومصر ، والموصل[1] .

وفي تهذيب المزني : كان نقش خاتم عمر : «كفى بالموت واعظاً يا عمر»[2] .

أهـم الفتوحات في خلافته . .

ـ ففي سنة أربع عشرة فتحت دمشق ما بين صلح وعَنْوَة ، وحمص ، وبعلبك صلحاً ، والبصرة والأَبَلَّةَ كلاهما عَنْوَة . وفي هذه السنة جمع عمر الناس على صلاة التراويح .

ـ وفي سنة خمس عشرة فتحت الأردن كلها عَنْوَة إلاّ طبرية فإنها فتحت صلحاً . وفي هذه السنة كانت وقعة اليرموك والقادسية . وفيها فرض عمر الفروض ، ودوَّنَ الدواوين ، وأعطى العطاء على السابقة . وفيها مصَّرَ سعد بن أبي وقاص الكوفة .

ـ وفي سنة ستْ عشرةَ فتحت الأهواز ، والمدائن وأقام سعد الجمعة في إيوان كسرى ، وهي أول جمعة جمعت بالعراق ، وذلك في صفر من تلك السنة .

وفيها كانت وقعة جلولاء وهُزِمَ فيها يَزْدَجِرْدُ بن كسرى وتقهقر إلى الري .

---

(1) تاريخ الخلفاء ١٦٠ .
(2) المرجع السابق ١٥٩ .

وفيها فتحت تكريت . وفيها سار عمر ففتح بيت المقدس ، وخطب بالجابية خطبته المشهورة .

وفيها فتحت قِنَّسْرِين عنوة ، وحلب ، وأنطاكية ، ومنبج صلحاً ، وسَرُوج عنوة .

وفيها فتحت قرقيسياء صلحا . وفي ربيع الأول كتب التاريخ من الهجرة بمشورة علي .

ـ وفي سنة سبع عشرة زاد عمر في المسجد النبوي ، وفيها كان القَحْطُ بالحجاز ، وسمي عام الرَّمَادَة ، واستسقى عمرُ للناس بالعباس ، حيث أخذ عمر بيد العباس ثم رفعها ، وقال : اللهم إنّا نتوسل إليك بعم نبيك أن تذهب عنّا المحل ، وأن تسقينا الغيث . فلم يبرحوا حتى سقوا . فأطبقت السماء عليهم أياماً .

ـ وفي سنة ثمانيَ عَشْرَةَ فتحت جنديسابور صلحاً ، وحلوان عنوة ، وفيها كان طاعون عَمَوَاس . وفيها فتحت الرها ، وسميساط عنوة ، وحرّان ونصيبين ، وطائفة من الجزيرة عنوة ، وقيل صلحاً ، والموصل ونواحيها عنوة .

ـ وفي سنة تسع عشرة فتحت قيسارية عنوة . وكان معاوية يلح على عُمر بن الخطاب في غزو قبرص وركوب البحر لها . فكتب عمر إلى عمرو بن العاص أن صف لي البحر وراكبه ، فكتب إليه : إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، إن رَكَدَ خرق القلوب ، وإن تحرج أراع العقول ، تزداد فيه العقول قِلَّةً والسيئات كثرة ، وهم فيه كدودٍ على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا فرق .

فلما قرأ عمر الكتاب ، كتب إلى معاوية : والله لا أحمل فيه مسلماً أبداً .

وقال ابن جرير فغزا معاوية قبرص في أيام عثمان سنة سبع وعشرين من الهجرة ، فصالحه أهلها على الجزية[٢] .

ـ وفي سنة عشرين فتحت مصر عنوة ، وقيل مصر كلها صلحا إلاّ الاسكندريّة فعنوة . وقال علي بن رباح : المغرب كلّه عنوة . وفيها فتحت تستر ، وفيها هلك قيصر عظيم الروم . وفيها أجلى عمر اليهود عن خيبر وعن نجران ، وقَسَمَ خيبرَ ووادي القرى .

ـ وفي سنة إحدى وعشرين فتحت الإسكندرية عنوة ، ونهاوند ، ولم يكن للأعاجم بعدها جماعة وفتحت كذلك برقة وغيرها .

ـ وفي سنة اثنتين وعشرين فتحت أذربيجان عنوة ، والدِّينَورُ عنوة ، وما سبذان عنوة ، وهمذان عنوة ، وطرابلس المغرب ، والري ، وعسكر ، وقومس .

ـ وفي سنة ثلاث وعشرين كان فتح كرمان ، وسجستان ، ومكران من بلاد الجبل ، وأصبهان ونواحيها .

وفي آخر سنة ثلاث وعشرين كانت وفاة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد صدوره من الحج شهيداً .

قال سعيد بن المسيب : لما نفر عمر من مِنىً أناخ بالأبطح ، ثم استلقى ورفع يديه إلى السماء وقال : اللهم كبرت سني ، وضعفت قوتي ، وانتشرت رعيتي ، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط . فما انسلخ ذو الحجة حتى قتل ، وأخرجه الحاكم .

استشهاد عمر رضي الله عنه . .

لقد أحسَّ عمر بن الخطاب بعد دعائه الآنف الذكر يوم صدوره من مِنى بدنوِّ أجله ، وقد أكَّد ذلك في خطبته ، وحيث روى لنا معدان بن أبي طلحة قال : خطب عمر فقال : رأيت كأنَّ ديكاً نقرني نقرة أو نقرتين ، وإني لا أراه إلَّا حضور أجلي ، وإنَّ قوماً يأمرونني أن أستخلف ، وإن الله لم يكن ليُضَيِّع دينه ولا خلافته ، فإن عَجَّلَ بي أمرٌ ، فالخلافة شورى بين هؤلاء الستّة ، الذين توفي رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو راض عنهم . أخرجه الحاكم[1] .

وكان عمر رضي الله عنه ، كما في مسند أحمد يقول : إن أدركني أجلي وأبو عبيدة بن الجراح حيٌّ استخلفته ، فإن سألني ربِّي ، قلت : سمعت النبي ﷺ يقول : «إنَّ لكلِّ نبيٍّ أميناً ، وأميني أبو عبيد بن الجراح» . فإن أدركني أجلي وقد توفي أبو عبيدة ، استخلفت معاذ بن جبل ، فإن سألني ربِّي : لم استخلفتَه ؟ قلت : سمعت النبيَّ عليه الصلاة والسلام ، يقول : «إنَّه يحشر يومَ القيامة بين يدي العلماء نبذة» وقد ماتا في خلافته[2] .

وفي رواية عن عبد الله بن عمر حين استأذن عائشة في دفن أبيه قالت له : أبلغ عمر سلامي ، وقل له : لا تدع أمَّة محَّمد بلا راع ، استخلف عليهم ، ولا تدعهم بعدك هملاً ، فإني أخشى عليهم الفتنة .

فأتى عبد الله فأعلمه ، فقال : ومن تأمرني أن استخلف ؟ لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح باقياً استخلفته ووليته ، فإذا قدمت على ربي فسألني وقال لي : من وليت على أمة محمد ؟ قلت إي ربي ، سمعت عبدك ونبيِّك يقول لكلِّ أمَّة

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٥٦ .

(٢) المرجع السابق ١٥٨ .

أمين ، وأمين هذه الأمّة أبو عبيد بن الجراح . ولو أدركت معاذ بن جبل استخلفته ، فإذا قدمت على ربي فسألني : من ولّيت على أمّة محمّد ؟ قلت : إي ربِّ ، سمعت عبدك ونبيُّك يقول : إنَّ معاذ بن جبل يأتي بين يدي العلماء يوم القيامة . ولو أدركت خالد بن الوليد لولّيته ، فإذا قدمت على ربي فسألني : من وليت على أمة محمد ؟ قلت : إي ربِّ ، سمعت عبدك ونبيك يقول : خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلّة على المشركين . ولكني سأستخلف النفر الذين توفي رسول الله وهو عنهم راضٍ[1] .

وأخرج الشيخان عن عمر أنه قال حين طُعن : إنْ أَسْتَخْلفَ فقد استخلف من هو خير مني - يعني أبا بكر - وإن أترككم فقد ترككم من هو خير مني - يعني رسول الله عليه الصلاة والسلام -. فقتله فيروز أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة تمام سنة ثلاث وعشرين ؛ فكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وأربع ليالٍ ، وقتل في صلاة الصبح وهو ابن ثلاثٍ وستّين سنة كصاحبيه ، ودفن مع النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه[3] .

قال الزهري : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لا يأْذَنُ لسبيٍ قد احتلم في دخول المدينة حتى كتب إليه المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة ، يذكر له غلاماً عنده جملة صنائع ، ويستأذنه أن يدخل المدينة ، ويقول : إن عنده أعمالاً كثيرة فيها منافع للناس ، إنه حداد نقاش نجار .

---

(١) تاريخ الخلفاء أو الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١/٢٥ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٨٣ .
(٣)مروج الذهب ٢/٣١٢ .

فأذِن له أن يرسله إلى المدينة ، وضرب عليه المغيرة مئة درهم في الشهر ، فجاء إلى عمر يشتكي شدة الخراج ، فقال : ما خراجك بكثير ، فانصرف ساخطاً يتذمر . فلبث عمر ليالي ثم دعاه فقال : ألم أُخْبَرْ أنك تقول : لو أشاء لصنعت رحىً تطحن بالريح ؟

فالتفت إلى عمر عابساً وقال : لأصنعنَّ لك رحى يتحدث الناس بها .

فلما ولّى قال عمر لأصحابه : أوعدني العبد آنفاً .

ثم اشتمل أبو لؤلؤة على خنجر ذي رأسين ، نصابه في وسطه ، فكمن بزاوية من زوايا المسجد في الغلس ، فلم يزل هناك حتى خرج عمر يوقظ الناس للصلاة ، فلما دنا منه طعنة ثلاث طعنات . أخرجه ابن سعد[1] .

وقال عمرو بن ميمون الأنصاري : إنّ أبا لؤلؤة عبد المغيرة طعن عمر بخنجر له رأسان ، وطعن معه اثني عشر رجلاً ، مات منهم ستة ، فألقى عليه رجل من أهل العراق ثوباً ، فلما اغتم فيه قَتَلَ نفسه .

وقال أبو رافع : كان أبو لؤلؤة عبدُ المغيرة يصنع الأَرْحَاءَ ، وكان المغيرة يستغله كلَّ يوم أربعة دراهم ، فلقي عمر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن المغيرة قد أثقل عليّ ، فكلمه . فقال : أَحْسِنْ إلى مولاك - ومن نيَّة عمر أن يكلم المغيرة فيه - فغضب ، وقال : يسع الناس كلهم عدله غيري ، أضمر قتله ، واتخذ خنجراً وشحذه وسمَّه ، وكان عمر يقول : أقيموا صفوفكم ، قبل أن يكبِّر، فجاء ترك أحداً من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء الناس ورعاعهم إلّا سألهم واستشارهم ، وكان اتفاق على عثمان .

---

(١) تاريخ الخلفاء السيوطي ١٥٦ .

وحمل عمر إلى أهله ، وكادت الشمس تطلع ، فصلى عبد الرحمن بن عوف في الناس بأقصر سورتين ، وأتي عمر بنبيذ فشربه فخرج من جوفه - أو من جرحه[1] - فلم يتبين ، فسقوه لبنا فخرج من جرحه ، فقالوا : لا بأس عليك .

فقال : إن يكن بالقتل بأس فقد قتلت . فجعل الناس يُثْنُون عليه ويقولون : كنتَ وكنتَ . فقال : أما والله لوددت أنني خرجت منها كفافاً لا عليَّ ، ولا لي ، وأن صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سلمت لي . وأثنى عليه ابن عباس ، فقال : لو أن لي طلاع الأرض ذهبا لا فتديت به من هَوْلِ المطلع ، وقد جعلتها شورى في عثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بنْ عوف ، وسعد ، وأمر صهيباً أن يصلي بالناس ، وأجل السنة ثلاثاً ، أخرجه الحاكم[2] .

وقال عمرو بن ميمون : قال : عمر : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الإسلام . ثم قال لابنه : يا عبد الله انظر ما عليَّ من الدين . . فَوَفُّوه . . واذهب إلى أم المؤمنين عائشة ، فقل : يستأذن عمر أن يدفن مع صاحبيه . فذهب إليها فقالت : كنت أريده - تعني المكان - لنفسي ، ولأوثرنَّه اليوم على نفسي . فأتى عبد الله ، فقال : قد أُذنت ، فحمد الله . وقيل له : أَوْصِ يا أمير المؤمنين واستخلف .

قال : ما أرى أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي النبي ﷺ وهو راض ، فسمَّى الستة وقال : يشهد عبدالله بن عمر معهم ، وليس له في

---

(١) في تاريخ الذهبي (فخرج من جوفه) .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٥٧ .

الأمر شيء فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك ، وإلاّ فليستعن به أيكم ما أمر ، فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة .

ثم قال : أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله ، وأوصيه بالمهاجرين والأنصار ، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن يحيى بن أبي راشد البصري قال : قال عمر لابنه : أقتصدوا في كفني ، فإنه إن كان لي عند الله خيراً أبدلني ما هو خير منه ، وإن كنت عل غير ذلك سلبني فأسرع في سلبي . واقتصدوا في حفرتي ، فأنه إن كان لي عند الله خيرٌ أوسع لي فيها مدَّ البصر ، وإن كنت على غير ذلك ضيقها عليَّ حتى تختلف أضلاعي . ولا تُخْرِجْ معي امرأة ، ولا تُزكُّوني بما ليس فيَّ ، فإن الله هو أعلم بي ، فإذا خرجتم فأسرعوا في المشي ، فإنه إن كان لي عند الله خير قدمتموني إلي ما هو خير لي ، وإن كنت على غير ذلك ألقيتم عن رقابكم شراً تحملونه[1] .

فلما توفي ، خرجنا نمشي ، فسلم عبدالله بن عمر وقال : عمر يستأذن ، فقالت عائشة : أدخلوه ، فأدخل ، فوضع مع صاحبيه[2] .

وأصيب عمر يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة ، ودفن يوم الأحد مستهل المحرم الحرام ، وله ثلاث وستون سنة في أصح الروايات ، متماً بذلك عُمرَ صاحبيه بالتمام ، وصلى عليه صهيب في المسجد[3] .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٧٠ .
(٢) تاريخ الخلفاء ١٥٨ .
(٣) المرجع السابق ١٥٩ .

وقال ابن عباس : كان أبو لؤلؤة مجوسياً[1] .

وأخرج الطبراني عن طارق بن شهاب قال : قالت أم أيمن يوم قتل عمر : اليوم وهىٰ الإسلام .

وأخرج عبد الرحمن بن يسار وقال : شهدت موت عمر بن الخطاب ، فانكسفت الشمس يومئذٍ .

مجلس الشورى :

فلما فرغوا من دفن عمر رحمه الله ورجعوا ، اجتمع هؤلاء الرهط ، فقال عبد الرحمن بن عوف : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم .

- فقال الزبير : جعلت أمري إلى علي .
- وقال سعد : جعلت أمري إلى عبد الرحمن .
- وقال طلحة : قد جعلت أمري إلى عثمان .

قال : فخلا هؤلاء الثلاثة «علي ، وعبد الرحمن ، وعثمان» فقال عبد الرحمن : أنا لا أريدها ، فأيكما يبرأ من هذا الأمر ونجعله إليه ؟ واللهُ عليه والإسلامُ لينظرن أفضلهم في نفسه وليحرص على صلاح الأمة . فسكت الشيخان ؛ علي ، وعثمان .

فقال عبد الرحمن : اجعلوه إليَّ ، واللهُ عَلَيَّ لا آلوكم عن أفضلكم .

قالا : نعم .

فَخَلا بِعَلِي وقال : لك من القدم في الإسلام ، والقرابة من النبي عليه الصلاة والسلام ما قد علمت ، اللهُ عليك لئن أَمَّرْتُك لتعدلن ، ولئن أَمَّرْتَ عليك لتسمعن ولتطيعن ؟

---

(١) المرجع السابق ١٥٧ .

قال : نعم .

ثم خلا بالآخر ، فقال كذلك . فلما أخذ ميثاقَهما ، بَايَعَ عُثْمَانَ ، وبايعه عَليٌّ[1] .

أول تسميته بأمير المؤمنين :

كتب عمر إلى عامل العراق أن يبعث إليه رجلين جَلْدَيْنِ ، يسألهما عن العراق وأهله ، فبعث إليه لبيد بن ربيعة العامري ، وعديّ بن حاتم ، فقدما المدينة ، ودخلا المسجد ، فوجدا عمروَ بن العاص ، فقالا : استأذن لنا على أمير المؤمنين .

فقال عمرو : أنتما والله أصبتما اسمه ، فدخل عليه عمرو ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

فقال : ما بـدا لكَ في هذا الاسم ؟ لَتَخْرُجَنَّ مما قلت .

فأخبره ، وقال : أنت الأمير ونحن المؤمنون ، فجرى الكتاب بذلك من يومئذٍ . أخرجه العسكري في الأوائل ، والطبراني في الكبير ، والحاكم من طريق ابن شهاب .

وهناك أقوال أخرى[2] .

---

(١) المرجع السابق ١٥٨ .

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٦١ .

أمْرُهُ ألَّا يغيب الجند أكثر من أربعة أشهر :

وروي بطرق عدّة ، أن عمر بن الخطاب خرج ذات ليلة يطوف بالمدينة ، وكان يفعل ذلك كثيراً ، إذْ مرَّ بامرأة من نساء العرب مغلقاً عليها بابُها . وهي تقول :

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ تَسْرِي كَوَاكِبُهْ ... وَأَرَّقَنِي أَنْ لَا ضَجِيعَ أُلَاعِبُهْ

فَوَاللهِ لَوْلَا اللهُ تُخْشَى عَوَاقِبُهْ ... لَزُحْزِحَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهْ

وَلَكِنَّنِي أَخْشَى رَقِيباً مُوَكَّلاً ... بِأَنْفُسِنَا ، لَا يَفْتُرُ الدَّهْرَ كَاتِبُهْ

مَخَافَةَ رَبِّي ، وَالحَيَاءُ يَصُدُّنِي ... وَأُكْرِمُ بَعْلِي أَنْ تُنَالَ مَرَاتِبُهْ

فكتب إلى عماله بالغزو أن لا يغيب أحد أكثر من أربعة أشهر[1] .

وأخرج عند ابن جريج قال : أخبرني من أصدقه ، أن عمر بن الخطاب بينما هو يطوف سمع امرأة تقول :

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَاسْوَدَّ جَانِبُهْ ... وَأَرَّقَنِي أَنْ لَا خَلِيلَ أُلَاعِبُهْ

فَلَوْلَا حَذَارِ اللهِ لَا شَيْءَ مِثْلَهُ ... لَزُحْزِحَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهْ[2]

فقال عمر : مالك ؟

قال : أغْزَيت زوجي منذ أشهر ، وقد اشتقت إليه .

فقالَ : أرَدْتِ سوءاً ؟

قالت : معاذ الله !

فقال : فاملكي عليك نفسك فإنما هو البريد إليه[3] فكتب عمر ألَّا تحبس الجيوش فوق أربعة أشهر .

---

(١) المرجع السابق ١٦٣ .

(٢) القصة السابقة ذاتها برواية أخرى .

(٣) تاريخ الخلفاء صفحة ١٦٦ .

أوّل خطبه :

وأخرج ابن سعد عن الحسن قال : أوّل خطبة خطبها عمر رضي الله عنه ، حَمَدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فقد ابتليت بكم وابتليتم بي ، وخُلِّفْتُ فيكم بعد صاحبَيَّ ، فمن كان بحضرتنا باشَرْنَاهُ بأنفسنا ، ومن غاب عنّا وليناه أهل القوة والأمانة ، ومن يحسن نَزِدْهُ ، ومن يسيء نعاقبه ، ويغفر الله لنا ولكم .

ديمقراطية عمر :

وأخرج عن الحسن قال : كتب عمر إلى حُذَيْفَةَ : أن أَعْطِ الناس أُعْطِيَتَهُمْ وأرزاقهم .

فكتب إليه : إنّا قد فعلنا ، وبقي شيء كثير .

فكتب إليه عمر : إنه فَيْؤُهُمْ الذي أفاء الله عليهم ، ليس هو لعمر ولا لآل عمر ، اقْسِمْهُ بينهم[1] .

وأخرج أبو القاسم البغوي عن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصم نظر في كتاب الله ، فإن وجد فيه ما يقضي به بينهم قضى به .

وإن لم يكن في الكتاب وَعَلِمَ من رسول الله ﷺ وآله وصحبه في ذلك الأمر سنة قضى بها .

فإن أعياه خرج فسأل المسلمين ، وقال : أتاني كذا وكذا ، فهل علمتم أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قضى في ذلك بقضاء ؟ فربما اجتمع إليه النَّفَرُ كلهم يذكر عن رسول الله عليه الصلاة والسلام فيه قضاء ، فيقول أبو بكر : الحمدلله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٦٨ .

فإن أعياه أن يجد فيه سُنَّةً عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فإنْ أجمع أمرهم على رأي قضى به .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفعل ذلك ، فإن أعياه أن يجد في القرآن والسُّنَّة ، نظر : هل كان لأبي بكر فيه قضاء ؟ فإن وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به ، وإلاّ دعا رؤوس المسلمين ، فإذا اجتمعوا على أمر قضى به[1] .

وأخرج عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : لما كان آخر حجة حجها عمر بأمهات المؤمنين إذْ صدرنا عن عرفة ، مررت بالمُحَصَّبِ فسمعت رجلاً على راحلته يقول : أين كان عمر أمير المؤمنين ؟! فسمعت رجلاً آخر يقول : ههنا كان أمير المؤمنين ، فأناخ راحلته ثم رفع عقيدته فقال :

عَلَيْكَ سَلاَمٌ مِنْ إِمَامٍ ، وَبَارَكَتْ يَدُ اللهِ في ذَاكَ الأَديمِ المُمزَّقِ
فَمَنْ يَسْعَ أَوْ يَرْكَبْ جَنَاحَيْ نَعَامَةٍ لِيُدْرِكَ مَا قَدَّمْتَ بِالأَمْسِ يُسْبَقِ
قَضَيْتَ أُموراً ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا بَـوَائِقَ في أَكْمَـامِهَـا لَمْ تُفَتَّقِ

فلم يتحرك ذلك الراكب ، ولم يدر من هو ، فكنا نتحدث أنه من الجن ، فقدم عمر من تلك الحجة ، فَطُعِنَ بالخنجر ، فمات[2] .

البكاء على عمر :

وأخرج الحاكم عن مالك بن دينار قال : سمع صوت بجبل تَبَالَة حين قتل عمر رضي الله عنه :

(١) المرجع السابق ٥٠ - ٥١ .
(٢) المرجع السابق ١٦٩ .

لِيَبْكِ على الإِسْلاَمِ مَنْ كَانَ بَاكياً فَقَدْ أَوْ شَكُوا صَرْعَى وَمَا قَدُمَ العَهْدُ
وَأَدْبَـرَتِ الدُّنْيَـا ، وَأَدْبَرَ خَيْـرُهَا وَقَدْ مَلَّهَا مَنْ كَانَ يُوقِنُ بِالوَعْدِ[1]

وأخرج الحاكم عن الشعبي قال : رثَتْ عاتكةُ بنت زيد بن عمرو بن نُفَيْلٍ عمر بن الخطاب ، فقالت :

أَعَـيْنُ جُـودِي بِعَبْـرَةٍ وَنَحيبِ لاَ تَمَـلِّي عَـلَى الإِمَـامِ النَّجِيبِ[2]
فَجَعَتْنِي المَنُـونُ بِـالفَـارِسِ المُعْـ ـلَمِ يَـوْمَ الهِيَـاجِ وَالتَّلْهِيبِ[3]
عِصْمَةُ الدِّينِ وَالمُعينُ عَلَى الدَّهْـ ـرِ وغَيْثُ المَلْهُوفِ وَالكُرُوبِ[4]
قُلْ لِأَهْلِ الضَّرَّاءِ وَالبُؤْسِ : مُوتُوا إِذَا سَقَتْنَا المَنُونُ كَأسَ شَعُوبِ[5]

وأخرج الطبراني عن أُبيٍّ بن كعب قال : قال النبي عليه الصلاة والسلام : «قال لي جبريل : لَيَبْكِ الإسلامُ على موت عمر»[6] .

من أقوال الصحابة في عمر

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : ما على ظهر الأرض رجلٌ أحب إليَّ من عمر ، أخرجه ابن عساكر .

وقيل لأبي بكر في مرضه : ما تقول لربك وقد وَلَّيْتَ عمر ؟

---

(١) هذا ما ناحت به الجن على عمر ، وفي البيتين إقواء وهو اختلاف حركة الروي ، انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٧٠ .
(٢) هذا رواية الطبري وفي السيوطي (الإمام الصليب) .
(٣) الهياج والتأنيب كما في السيوطي ١٧١ .
(٤) ورواية الطبري (المنتاب والمحروب) .
(٥) وفي الطبري (لأهل السراء والبؤس) .
(٦) تاريخ الخلفاء ١٣٩ .

قال : أقول له وليت عليهم خيرهم . أخرجه ابن سعد .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : لو أن عِلْمَ عمر وضع في كفة ميزان ، ووضع علم أحياء الأرض في كفة لَرَجَحَ علم عمر بعلمهم ، ولقد كانوا يَرَوْنَ أنه ذهب بتسعة أعشار العلم . أخرجه الطبراني في الكبير ، والحاكم .

وقال حذيفة رضي الله عنه : كأنَّ عِلْمَ الناس كان مدسوساً في جِحْرِ عمر .

وقال حذيفة : والله ما أعرف رجلًا لا تأخذه في الله لومة لائم إلّا عمر .

وقال معاوية رضي الله عنه : أمّا أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده ، وأمّا عمر فأرادته الدنيا ولم يردها ، وأما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن . أخرجه الزبير بن بكار في الموفقيات[1] .

وقال جبر رضي الله عنه : دخل عليٌّ على عمر وهو مُسجًّى فقال : رحمةُ الله عليك ! ما مِنْ أحد أحب إليَّ أن ألقى الله بما في صحيفته بعد صحبة النبي عليه الصلاة والسلام من هذا المسجى . أخرجه الحاكم .

وأخرج ابن عساكر عن مجاهد قال : كنا نُحدَّثُ أن الشياطين كانت مُصَفَّدةً في إمارة عمر ، فلما أصيب بُثَّتْ[2] .

وقال أبو أُسامة : أتدرون مَنْ أبو بكر وعمر ؟ هما أبو الإسلام وأُمُّهُ .

وقال جعفر الصادق : أنا بريء ممن ذكر أبا بكر وعمر إلّا بخير[3] .

---

(١) المرجع السابق صفحة ١٤٠ .
(٢) المرجع السابق ١٤١ .
(٣) المرجع السابق ١٤٢ .

وأخرج ابن عساكر عن اسماعيل بن زياد قال : مرَّ عليٌّ بن أبي طالب على المساجد في رمضان وفيها القناديل ، فقال : نَوَّرَ الله على عمر في قبره كما نَوَّر علينا في مساجدنا[9] .

وأخرج عن أبي معشر قال : حدثنا أشياخنا أن عمر قال : إنّ هذا الأمر لا يصلح إلاّ بالشدة التي لا جَبَرِيَّةَ فيها ، وباللين الذي لا وهن فيه .

إعادة التحقيق في مقتل عمر بن الخطاب . .

إن مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان تدبيراً مسبقاً ومدروساً كما أشار إلى ذلك المحققون من الباحثين بقولهم كان عن تدبير سابق وائتمار مدبر ، اشترك فيه العجم من الفرس واليهود وبعض الحاقدين، وهم أشدُّ الناس بغضاً لعمر ، وحقداً على الإسلام والمسلمين في ذاته ، لأنَّه قد قهر العجم ودوَّخ بلادهم ، وأجلى اليهود عن مهد الإسلام ، وكشف عن دسائسهم . وقد ترجَّح هذا الرأي من وجوه :

الأول . . شهادة عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، فإنه قال غداة مقتل عمر : رأيت عشية أمس الهرمزان وأبا لؤلؤة وجفينة وهم يتناجون ، فلما ثاروا سقط منهم الخنجر الذي ضرب به عمر . وفي روايةٍ أن عبد الرحمن رآهم يدخلون في مكان يتشاورون ، وبينهم خنجر له رأسان ، مقبضه في وسطه ، فقتل عمر في صبيحة تلك الليلة . فلما بلغ عثمان قولُ عبد الرحمن استدعاه وسألهُ ، فقال عبد الرحمن : انظروا إلى السكين ، فإن كانت ذات طرفين ، فلا أرى القوم إلاّ قد اجتمعوا على قتله ، فنظروا إليها فوجدوها كما وصف عبد الرحمن .

(٩) المرجع السابق ١٦٠ .

الثاني . . حديث كعب بن ماتع المعروف بكعب الأحبار ، وهو يهودي محدث الإسلام ، مع عمر بن الخطاب غداة توعده أبو لؤلؤة بقوله : لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب[1] . وكان عمر قال له : بلغني أنك تقول : لو شئت أعمل رحى تطحن بالريح لفعلت ، فقال أبو لؤلؤة : نعم .

ففطن عمر إلى ما في قوله من وعيد ، فقال : لقد تَوَعَّدني العبد آنفاً .

فلما كان من الغد ، جاء كعب الأحبار إلى منزل عمر ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، أعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام .

قال عمر : وما يدريك ؟

قال : أجده في كتاب الله التوراة .

قال عمر : لله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟

قال كعب : اللهم لا ، ولكن أجد صفتك وحيلتك ، وأنه قد فني عمرك . وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً .

فلما كان من الغد ، جاءه كعب الأحبار فقال : يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان .

ثم جاءه من غد الغد فقال : ذهب يومان وبقي يوم وليلة ، وهي لك إلى صبيحتها .

فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة فطعن .

---

(١) انظر تاريخ الطبري ١٢/٥ .

هذا الكلام ـ كما يرى كل من له مسكة من عقل ودراية في علم ـ مدخول وغير معقول ، وهو كالصريح في أن كعبا كان يعرف ما يدور في الخفاء ، ويدبر من الكيد لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ولماذا لم يكن هذا التكهن قبل ذلك بشهر أو بشهرين ، أسبوع أو أسبوعين ؟[1] ولماذا كان في الغد من وعيد أبي لؤلؤة لعمر ؟

ولماذا اختص كعب بن ماتع بهذا التكهن عن التوراة ، والتوراة ذائعة بين الناس ، وفي المسلمين يهود وغيرهم من قُرّائها وحفّاظها وعلمائها ، وفيهم من هو أعلم وأوثق وأسبق إيماناً من كعب ؟

أما أن الشبهة في هذا الحديث تكاد تكون يقيناً ، وكاد المريب يقول خذوني ! ولو أنّا أحسنّا الظنّ بإسلام كعب المحدث ، بعد تلبثه على يهوديته حياة رسول الله ﷺ ، وخلافة أبي بكر ، وبعض خلافة عمر ، حتى دخل في الإسلام على يديه ، لقلنا إن كعباً كان على علمٍ تام بالمؤامرة ، فلم تواته الشجاعة في أن يكون صريحاً بأخباره ، ولكن أراد أن ينبه أمير المؤمنين لما يراد به ، في هذه الصورة الملفّقة في إيجاد التكهُّن عن التوراة ، وخشي على نفسه من التصريح أن يناله سوء المتآمرين أو من يتصل بهم .

أمّا إن كانت يهوديَّة كعب لاتزال تحيا في قلبه ، كما حييت في قلب بن السوداء[2] من بعده ، وتستر بالإسلام ، فيكون إخباره عن المؤامرة بهذا الأسلوب الملتوي فَرَقاً من الأخذ والقتل إن انكشف الأمر ، وقد يكون ذلك إمعاناً في المكر وإحكام التدبر ، لأنه ربما لا يغيب عن تدبيرهم الخبيث أن عمر إذا عهد إلى

---

(١) الشيخ محمد صادق عرجون في كتابه الخليفة المفترى عليه عثمان صفحة ١٤٦ .
(٢) هو عبدالله بن سبأ اليهودي اليمني ، رجل الفتنة العثمانية الأول . والمؤسس لمذهب الشيعة .

شخص معين كما كان يطلب إليه كعب، تختلف الأمّة وتتفرق كلمتها ، وفي غمرة هذا الإختلاف والتفرق يحدثون ما مكروا . فتصبح الأمّة وهي أشغل بما هي فيه عن النظر في الجناية وتحقيقها ، وقد يتسلّل المتآمرون أو بعضهم إلى إحدى الطائفتين فيكونون معها ويستوجبون حمايتها لهم ويصيبوا من المسلمين فوق ما كانوا يدبرون ، وكان هذا الدور بأكمله هو مدار تكهن كعب ، وبطولته في هذه الرواية .

ثم ليقل لنا الكعبيون من أحلاس اليهودية الغادرة : ما هذا التحديد الدقيق الذي ينص على زمن وفاة رجل من الناس مهما عظم شأنه من كتاب مُنزَّل من عند الله هدى ونوراً ؟ ولماذا خصَّ بذلك عمرَ بن الخطاب دون سائر المؤمنين ممن مضى وممّن لحق ؟ ولماذا لم ينصَّ في التوراة على وفاة الصديق وهو أجلُّ مكانةً في الإسلام من عمر ؟ لا ، بل لماذا لم يُقَلْ هذا في حق رسول الله ﷺ ، وقد ثبت أن التوراة بشرت به نبيّاً ورسولا ؟ ولماذا لم يقل هذا في حقِّ موسى عليه السلام ، وهو الذي كلّمه الله تكليماً وأنزل عليه التوراة ؟

ومما يوري زند الشبهة في حديث كعب الأحبار ، أن تكهناتِه التوراتيةَ لم تظهر إلّا في موضع نكيء فيها جرح الإسلام وكيد بها المسلمون ؟! فقد رووا أن عثمان بن عفان لّما جمع الأمراء بالموسم ليستشيرهم في حال الناس ، وفيما يذاع عنه وعنهم ، ونفر من مكة إلى المدينة ، أشخص معه معاوية ، فرجز به حادية فقال :

قد علمت ضوامر المطي ... وضمرات عوج القسي
أن الأمير بعده علي ... وفي الزبير خلف رضي
وطلحة الحامي لها ولي

وكان كعب يسير خلف عثمان ، فقال للحادي : كذبت ، صاحب الشهباء بعده ، وأشار إلى معاوية ، فسأله معاوية عن الذي يقول ، فقال : نعم ، أنت الأمير بعده ، ولكنها لا تصل إليك حتى تكذب بحديثي .

الثالث . . روي أن أبا هريرة علم بهذا الائتمار والتدبير المبيت ، فأنذر به عمر فلم يعبأ به ، كما لم يعبأ من قبل بوعيد أبي لؤلؤة ، لما يعلمه من نفسه أنه قائم على الرعية بالحقِّ والعدل ، وكانت سنَّة الراشدين ألاّ يأخذوا أحداً بشبهة أو ظنّ ، خصوصاً فيما يتعلق بأشخاصهم . فقد أبى عثمان قتل الثائرين عليه ، وأبى علي قتل ابن ملجم ، ولقد قيل له فيه قبل أن يحدث ما أحدث .

الرابع . . روى أن عُيَيْنَةَ بن حصن الفزاري ـ وكان من المؤلفة قلوبهم الذين اشتد عليهم عقب عمر في وطئه بعد أن ظهر الإسلام وقويت شوكته ـ قال لعمر : احترس ، أو أخرج العجم من المدينة ، فإني لا آمن أن يطعنك رجل منهم في هذا الموضع ، ووضع يده في الموضع الذي طعنه فيه اللعين أبو لؤلؤة المجوسي .

وهذا أسلوب في الأنباء خرج في غير مخرج حديث كعب الأحبار ، وكأن وجه الفصل بين الحديثين هو فرق ما بين الرجلين .

ـ فأحدهما فيه دهاء قومه اليهود ، ومكرهم ، وعقل علمائهم ، فزوى القضية عن أسلوب الصراحة إلى أسلوب الكهانة ، اعتماداً على سابق عهده ومشهور مكانه في قومه وأهل ملته .

ـ أما الآخر فأعرابي فيه جفوة البادية وصراحتها ، فألقى بالحديث في أسلوب الناصح المحذِّر ، وهو أعلم أنَّه نصحٌ فات إبانه وتحذيره لا يفيد ، وقد يكون للعصبيَّة العربيَّة أثر في تحريك عُيَيْنَة إلى الإدلاء بهذا التحذير .

ومما يؤيد قضيَة التآمر على اغتيال عمر بن الخطاب ، أن الهرمزان نكث عهد المسلمين قبل أخذه أسيراً غير مرة ، واحتال للخلاص من القتل ، فأسلم ، والله أعلم بإسلامه . فقد روي أنه بعد أن انهزم بهزيمة قومه وجنده عاهد المسلمين ودخل في ذمتهم ، ثم نكث عهده ، ثم عاهد فخان بالعهد ، فلما ظفروا بَه آخر الأمر وعلم أن لا مفرَّ له ، طلب الأمان على أن ينزل على حكم عمر ، فسيَّروه إلى المدينة موثقاً ، فلما بلغها وأجلس بين يدي عمر ، قال له : ما عذرُكَ ؟ وما حجتك في انتقاضك مرّة بعد مرّة ؟

فقال : أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك .

قال عمر : لا تخف ذلك .

فاستسقى الهرمزان ماءً ، وأظهر الجزع ، وقال : أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء .

فقال عمر : لابأس عليك حتى تشربه .

فكفأ الهرمزانُ الإناء ، وقال : لا حاجة لي في الماء ، إنما أردت أن أستأمن به .

فقال عمر : خدعتني ، والله لا أنخدع إلاّ لمسلم ، فأسلم الهرمزان .

وهذا إسلام كما يراه البصراء لا يغني عن صاحبه في السلامة من النفاق شيئا ، وقد يعضد هذا أن الهرمزان لم يجهر بكلمة الإسلام إلاّ حينما رأى الموت يكنفه من جوانبه ، ويحيط به من أقطاره ، ونفذت حيله وخبائثه ، وأيقن أن لا منقذ له إلاّ من طريق النفاق الخبيث .

هذه شواهد ودلائل تمسك بأصابع الهرمزان الفارسي ، وجفينة النصراني ،

وسلائل من يهود ، وآخرين الله يعلمهم ، فنغمّسه مع الخبيث أبي لؤلؤة في دم أمير المؤمنين فاروق الإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ وتنادي بأن الأمر الأكيد ماكرٌ دُبِّرَ للإسلام في ذات أقوى رجالاته وأشدِّهم بطشاً بالمنافقين واليهود ، وإلى هذا ذهب كثير من المؤرِّخين القدامى والمحدثين .

قال الأستاذ حسين والي رحمه الله : وفي كلام بعض المؤرخين أن قتل عمر لم يكن إلّا عن ائتمار بين أولئك الدخلاء ، كما شهد عبد الرحمن بن أبي بكر ، ووقف على هذا الإئتمار أبو هريرة ، وأنذر به عمر قبل مقتله بثلاثة أيام .

وقال الأستاذان الفاضلان صاحبا كتاب سيرة عمر في تعليقة فاحصة : أمّا التوراة فهي بين أيدي الناس اليوم معروفة مقروءة ، وما فيها شيء مما قال كعب ، وليس يعقل أن يكون في التوراة تاريخ وفاة عمر رضي الله عنه وتحديدها . والتوراة كتاب أنزله الله على النبي من أنبيائه ليبين أحكام الدين وأصل الشريعة ، لا للإخبار عن وفاة رجل لم يكن قد خلق ، فمن الصعب جداً قبول دعوى كعب أن هذا الخبر في التوراة ، ولابدَّ إذن من إدارة المسألة على وجه آخر ، والسؤال عن كعب من أين علم أن عمرَ سيموتُ بعد ثلاثلا أيام ؟

وكيف عرف عُيَيْنَةُ بن حُصَيْنْ موضع الطعنة ؟

وكيف تجرَّأ أبو لؤلؤة وهو غريب لا قيمة له على هذا الأمر الهائل ، وهدد به أمير المؤمنين بقوله : لأصنعنَّ لك رحى يتحدَّث بها العرب ؟

أكان ذلك لأنه لم يُنصفه من المغيرة ؟ كَلَّا ! وإنما كانت جريمة سياسية ومؤامرة أكبر ، لو جرى فيها تحقيق قضائي لظهر أن في هذه الجريمة شركاءَ ، هم الهرمزان ، وجفينة ، وأن فيها متهَّمين فرعيينَّ هما كعب الأحبار وعيينة بن حصين .

أمّا جفينة والهرمزان ؛ فقد شاهدهما عبد الرحمن بن أبي بكر - وهو نزيه ليس له غرض - يتناجيان هما وأبو لؤلؤة ، فلمّا رأوه قاموا فسقط من بينهم خنجر له رأساذ ، ظهر أنه الخنجر الذي قتل به أمير المؤمنين ، وكان الثلاثة هؤلاء يأتمرون لاغتيال عمر .

أمّا الهرمزان : فقد خسر ملكه ، وأضاع بلاده ، وعاش عالة في المدينة ، فكان من الطبيعي أن يحنق على الإسلام أشد الحنق .

وأمّا أبو لؤلؤة : فكان مجوسياً خبيثاً يحمل في صدره أشدَّ الضغن عل العربية والإسلام ، وكان إذا رأى السبي الصغار مسح رؤوسهم وبكى وقال : أكلَ عمر كبدي ، وكل ذلك كان قبل رفع شكواه على المغيرة .

أما جفينة : فكان لئيماً حاقداً يقاسمهما الخبث والحقد عل الإسلام والعروبة ، ويجتمع بهما ويشاركهما آراءهما .

أما إذا قام عبيد الله بن عمر بن الخطاب وغضب لقتل أبيه خليفة المسلمين - بيد مجوسيٍّ أثيم ، وتدبير دخيل في الإسلام ، نكاث للعهود ، وممالأة ذاك المنافق الخبيث ، وسواهم من اليهود البغاة ، وجفاة الأعراب ومنافقي العرب - طُلِبَ إلى الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه ، أن يكون أوَّل عمله في خلافته قتل عبيدالله بن عمر دون تثبت وتحقيق ؟ فإذا أبى عثمان أن يجري على هذه السياسة الخرقاء قال عنه المنحرفون : إنَّه عطَّل حدود الله تعالى .

وهل في حدود الله تعالى وشريعته أن يقتل ولي دم قتل من ثبت عنده أنه مالأ وأعان على قتل أبيه خليفة المسلمين ؟!

لا ، بل الذي يعرفه الفقه الإسلامي أن من أعان على القتل عمداً ، وكان لإعانته مدخل في التنفيذ ، أبيح قتله . والهرمزان وجفينة ثبت بشهادة عبد الرحمن بن أبي بكروأبو هريرة ، أنهما أعانا ومالآ على قتل عمر . وعبد الرحمن وأبو هريرة مجزوم بعدالتهما ونزاهتهما وبعدهما عن الشبهة ومظنة الغرض .

فإذا كان المنحرفون على عثمان ، من أبناء عبدالله بن سبأ اليهودي وتلامذته ومؤيديه ، قد رضوا أمير المؤمنين علياً ألاّ يحكم في قَتَلَةِ عثمان ، وهو من هو ، بحكمٍ قبل التثبت والتحقيق !!!

أفلا يرضون من عثمان ببعض هذا في عبيدالله ، أنهما اشتركا في تدبير قتله ؟

هذا تحكُّم فوق طاقة العقل ، ندرك اليوم سِرَّهُ ببساطة :

١" ـ فالذين حالوا سُمَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام بشاة أهديت إليه .

٢" ـ والذين سمّموا أبا بكر الصديق وطبيب العرب ابن كلدة قبل عام من وفاتهما .

٣" ـ والذين اغتالوا فاروق الإسلام ، وعلم العروبة والحقِّ عمر بن الخطاب .

٤" ـ والذين ذبحوا عثمان بن عفان والمصحف في يديه .

٥" ـ والذين اغتالوا علياً ابن أبي طالب أمير المؤمنين . . يدٌ واحدةٌ ، ومخطّطٌ واحدٌ ، فهل من مدّكر ؟!

ومهما يكن من شيء وفي نهاية هذا التحقيق ، فإن موقف عثمان في هذا الحادث الذي فاجأه أول عهده بالخلافة كان أسلم موقف وأحكمه في شرعه الحق والإنصاف ، ومنهج السياسة وحسن التدبير . وكنا نرغب لو كان أوّل عمل قام به أمير المؤمنين عثمان بن عفان بعد البيعة له ، هو فتح تحقيق شامل في سبب اغتيال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لوصلوا بمنتهى البساطة إلى ما وصلنا إليه ، وربما

أمكن قطع الطريق على المنحرفين من أتباع بن السوداء : محمد بن أبي حذيفة ، والغافقي بن حرب العكي ، وكنانة بن بشر التجيبي ، وسودان بن حمران السكوني ، وعبدالله بن بُدَيل بن ورقاء ، وحُكَيمُ بن جبلة العبدي ، ومالك بن الحارث الأشتر النخعي ، وخالد بن ملجم وغيرهم .

شعره :

كان عمر بن الخطاب من أكثر الخلفاء نقداً للشعر وتذوقه ، والمتصفح لكتب النقد يقع على نقدات جاءت على لسان عمر بن الخطاب ، تدل على عمق في فهم الشعر وتذوقه ونقده ، ويمكننا الموافقة على قول ابن رشيق في كتابه نقد الشعر : أن عمر بن الخطاب كان من أنقد أهل زمانه للشعر ، وأنفذهم فيه معرفة[1] .

ومن شعره رضي الله عنه ، قوله :

هَـوِّنْ عَـلَيْـكَ فَـإِنَّ الأُمُـورَ بِـكَـفِّ الإِلَـهِ مَـقَـادِيـرُهَـا
فَـلَيْسَ بِـآتِـيـكَ مَـنْـهِـيُّـهَـا وَلَا قَـاصِرٌ عَنْـكَ مَـأْمُورُهَـا[2]

ومن شعره أيضاً وقد لبس برداً جديداً ، فنظر الناس إليه ، فقال :[3]

لَاشَيْءَ مِمَّا تَرَى ، تَبْقَى بَشَاشَتُهُ يَبْقَى الإِلَهُ ، وَيَفْنَى المَالُ وَالوَلَدُ
لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ يَوْماً خَزَائِنُهُ وَالخُلْدَ قَدْ حَاوَلَتْ عَادُ ، فَمَا خَلَدُوا

---

(١) انظر كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق ٣٣/١ .
(٢) ويروى البيتان أيضاً للأعور الشَّنِّيِّ .
(٣) انظر زهر الآداب ٧٣/١ فإنها لعمر ومعها بيت خاص وقد رويت لورقة بن نوفل في أبيات ، ولكن طابعها الإسلامي ينفي ذلك .

وَلاَ سُلَيْمَانَ ، إِذْ تَجْرِي الرِّيَاحُ لَهُ   وَالجِنُّ والإِنْسُ فِيمَا بَيْنَهَا تَرِدُ
حَوْضٌ هُنَالِكَ مَوْرُودٌ بِلاَ كَذِبٍ   لاَبُدَّ مِنْ وِرْدِهِ يَوْماً كَمَا وَرَدُوا[1]

ومن شعره أيضاً رضي الله عنه ، قوله :

تَوَعَّدَنِي كَعْبٌ ، ثَلاَثاً يَعُدُّهَا   وَلاَشَكَّ أَنَّ القَوْلَ ، مَا قَالَ كَعْبُ[2]
وَمَا بِيَ خَوْفُ المَوْتِ ، إِنِّي لَمَيِّتٌ   وَلَكِنَّ خَوْفَ الذَّنْبِ يَتْبَعُهُ الذَّنْبُ[3]

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم فتح مكة :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَظْهَرَ دِينَهُ   عَلَى كُلِّ دِينٍ قَبْلَ ذَلِكَ حَائِدِ
وَأَمْكَنَهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ بَعْدَمَا   تَدَاعَوْا إِلَى أَمْرٍ مِنَ الغَيِّ فَاسِدِ
غَدَاةَ أَجَالَ الخَيْلَ فِي عَرَصَاتِهَا   مُسَوَّمَةً بَيْنَ الزُّبَيْرِ وَخَالِدِ
فَأَمْسَى رَسُولُ اللهِ قَدْ عَزَّ نَصْرُهُ   وَأَمْسَى عِدَاهُ مِنْ قَتِيلٍ وَشَارِدِ[4]

---

(١) انظر العمدة لابن رشيق ١/٣٤ .
(٢) يشير بذلك إلى تحذير كعب الأخبار له بأنه سيقتل بعد ثلاثة أيام ، وحدث ذلك فعلاً قبل مقتله رضي الله عنه بثلاثة أيام .
(٣) المرجع السابق .
(٤) الزبير ابن العوام ، وخالد ابن الوليد . انظر زهر الآداب للقيرواني ١/٧٤ .

أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه
٤٧ ق . هـ ـ ٣٥ هـ = ٥٧٧ ـ ٦٥٦ م

الخليفة عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مَنَاف بن قُصَيّ بن كلاب بن مرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي ، الأموي ، المكيُّ ثم المدنيُّ ، أبو عمر ، ويقال : أبو عبدالله ، وأبو ليلى[١] . كان في الجاهلية يكنّى أبا عمرو ، فلما كان الإسلام ولدت له رُقَيَّةُ بنت رسول الله ﷺ عبدالله ، فاكتنى به .

وأمّه : أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأمُّها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم تَوْأَمَة عبدالله أبي رسول الله عليه الصلاة والسلام . فأم عثمان بنت عمة النبي ﷺ[١] .

وأخرج ابن عساكر من طرق أن عثمان كان رجلاً رَبْعَةً ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، حسَنَ الوجه ، أبيض مشرباً حمرة ، بوجهه نكتات جُدْرِي ، كثير

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٧٥ .
(٢) تاريخ الخلفاء ١٧٧ .

اللحية ، عظيم الكراديس ، بعيد ما بين المنكبين ، خَدْلَ الساقين ، طويل الذراعين ، شعره قد كسا ذراعيه ، جعد شعر الرأس ، أصلع ، أحسن الناس ثغراً ، جُمَّته أسفل أذنيه ، يخضب بالصفرة ، وكان قد شد أسنانه بالذهب .

وأخرج ابن عساكر عن عبدالله بن حزم المازني قال : رأيت عثمان بن عفان ، فما رأيت قط ذكراً ولا أنثى أحسنَ وجهاً منه .

ولد في السنة السادسة من عام الفيل ، أي ٥٧٧ ميلادية الموافقة لـ ٤٧ ق . هـ . وهو مِمَّنْ دعاهُ الصّدّيقُ إلى الإسلام ، وهو ممن أسلم قديماً بعد أبي بكرٍ ، وعليٍ ، وزيد بن حارثة . وهاجر الهجرتين الأولى إلى الحبشة ، والثانية إلى المدينة[1] .

وتزوج رقية بنت رسول الله ﷺ قبل النبوة ، وماتت عنده في ليالي غزوة بدر ، فتأخَّرَ عن بدر لتمريضها بإذن رسول الله ﷺ ، وضرب له بسهمه وآجره ، فهو معدود في البدريين بذلك . وجاء البشير بنصر المسلمين ببدر يوم دفنوها بالمدينة . فزوَّجه رسول الله عليه الصلاة والسلام بعدها أُخْتَهَا أمَّ كلثوم ، وتوفيت عنده سنة تسع من الهجرة[2] .

وقال العلماء : ولا يعرف أحدٌ تَزَوَّجَ بِنْتَيْ نبيّ غيره ، ولذلك سُمِّيَ ذا النورين . وهو من السابقين الأوّلين ، وأوّل المهاجرين . وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة الذين توفي رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهو عنهم راضٍ ، وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن في المرة الأولى ، وجمع في عهده واعتمد مصحفاً واحداً في كل الأمصار .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق .

وقال ابن سعد : استخلفه رسول الله عليه الصلاة والسلام على المدينة في غزوته إلى ذات الرقاع ، وإلى غَطَفَانَ[1] .

وروي له عن رسول الله ﷺ مئة وستة وأربعون حديثاً ، وأخذ ابن سعد عن عبد الرحمن بن حاطب قال : ما رأيت أحداً من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام كان إذا حدث أتمَّ حديثاً ، ولا أحسَنَ من عثمان بن عفان ، إلّا أنه كان رجلاً يهاب الحديث .

وروى عنه كبار الصحابة كزيد بن خالد الجُهَنِيِّ ، وابن الزبير ، والسائب بن يزيد وأنس بن مالك ، وزيد بن ثابت ، وسلمة بن الأكْوَع ، وأبو أمامة الباهلي ، وابن عباس ، وابن عمر ، وعبدالله بن مُغَفَّل ، وأبي قتادة ، وأبي هريرة ، وآخرين من الصحابة رضي الله عنهم ، وخلائق من التابعين منهم أبان بن عثمان ، وعبيدالله بن عدي ، وحُمْرَانَ ، وغيرهم .

وأخرج عن محمد بن سيرين قال : كان أعلمهم بالمناسك عثمان ، وبعده ابن عمر[2] .

وأخرج خيثمة في فضائل الصحابة ، وابن عساكر عن عليّ بن أبي طالب أنه سئل عن عثمان ؟ فقال : ذاك امرؤ يدعى في الملأ الأعلى «ذا النورين» كان خَتَنَ رسول الله عليه الصلاة والسلام على ابنتيه[3] .

---

(١) المرجع السابق ١٧٦ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق ٧٧ .

قصة إسلامه :

وأخرج ابن سعد عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيميِّ ، قال : لمّا أسلم عثمان بن عفان أخذه عمه الحَكَمُ بن أبي العاص بن أمية ، فأوثقه رباطاً ، وقال : ترغب عن مِلَّة آبائك إلى دين محدث ؟ والله لا أدعك أبداً حتى تدعَ ما أنت عليه .

فقال عثمان : والله لا أدعه أبداً ، ولا أفارقه .

فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه(١) .

وأخرج أبو يعلى عن أنس ، قال : أول من هاجر من المسلمين إلى الحبشة بأهله عثمان بن عفان ، فقال النبي ﷺ : «صحبهما الله ، إن عثمان لأَوَّلُ مَنْ هاجر إلى الله بأهله بعد لوط»(٢) .

وأخرج ابن عدي عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما زوج النبي ﷺ ، ابنته أم كلثوم ـ لعثمان ـ قال لها : إن بعلك أشبه الناس بجدك إبراهيم وأبيك محمد .

الأحاديث الواردة في فضله :

وأخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها ، أنَّ النبيَّ ﷺ ، جمع ثيابه حين دخل عثمان وقال : «لأستحي من رجل تستحي منه الملائكة» .

وأخرج البخاري عن أبي عبد الرحمن السلمي أن عثمان حين حوصر أشرف عليهم ، فقال : أَنْشُدُكُمْ بالله ، ولا أنشد إلاّ أصحاب النبي عليه الصلاة

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٧٨ .

(٢) المرجع السابق .

والسلام ، ألستم تعلمون أنَّ رسول الله ﷺ قال : مَنْ جَهَّزَ جيش العُسْرَةِ فله الجنة ؟ فجهزته .

ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : مَنْ حَفَر بِئْر رُومَةَ فله الجنَّة ، فَحَفَرْتُها ، فصدَّقُوه بما قال[1].

وأخرج الترمذي عن أنس قال : لمَّا أَمَرَ رسولُ الله ﷺ وآله وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفَّان رسولَ رسولِ الله عليه الصلاة والسلام إلى أهل مكّة ، فبايع الناسُ ، فقال النبي ﷺ وآله وسلم : إن عثمان بن عفَّان في حاجة الله وحاجة رسوله ، فضرب بإحدى يديه على الأخرى ، فكانت يد رسول الله عليه الصلاة والسلام لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم[2].

وأخرج الترمذي عن ابن عمر قال : ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقال : «يقتل فيها هذا مظلوماً ، لعثمان» .

وأخرج الترمذي ، والحاكم صححه ، وابن ماجة عن مرة بن كعب قال : سمعت النبيَّ ﷺ يذكر فتنة يقربّها ، فمرَّ رجل مقنع في ثوب ، فقال : هذا يومئذٍ على الهدى . فقمت عليه فإذا هو عثمان بن عفان ، فأقبلت إليه بوجهي فقلت : هذا ؟ قال : نعم .

وأخرج الترمذي والحاكم عن عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ قال : «يا عثمان إنّه لعلَّ الله يُقَمِّصُكَ قميصاً ، فإن أرادك المنافقون على خلعه ، فلا تخلعه حتى تلقاني»[3] .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٧٩ .
(٢) المرجع السابق ١٨٠ .
(٣) المرجع السابق .

وأخرج ابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «عثمان من أشبهِ أصحابي بي خلقاً» .

وأخرج الطبراني عن عِصْمَةَ بن مالك قال : لمّا ماتت بنت رسول الله ﷺ تحت عثمان ، قال رسول الله ﷺ : «زَوِّجُوا عثمان ، لو كان لي ثالثة لزوجته ، وما زوجته إلاّ بالوحي من الله»[1] .

وأخرج ابن عساكر عن زيد بن ثابت قال : سمعت النبي ﷺ يقول : مرَّ بي عثمان وعندي مَلَكٌ من الملائكة ، فقال : «شهيد يقتله قومه ، إنّا نستحي منه» .

خلافة عثمان . .

بويع عثمان بن عفان بالخلافة بعد دفن عمر بثلاث ليالٍ يوم الجمعة غرة المحرم سنة ثلاث وعشرين[2] ، فقد روي أنه بعد موت عمر اجتمع القوم فَخَلوا في بيت أحدهم ، وأحضروا عبدالله بن عباس ، والحسن بن علي ، وعبدالله بن عمر : فتشاوروا ثلاثة أيام ، فلم يبرموا فتيلاً ، فلما كان في اليوم الثالث قال لهم عبد الرحمن بن عوف : أتدرون أي يوم هذا ؟ هذا يوم عَزَمَ عليكم صاحبكم أن لا تتفرقوا فيه حتى تستخلفوا أحدكم . قالوا أجل ، ثم جرى الأمر على ما ذكرناه فجعلوا أمرهم إلى ثلاثة ، وخرج عبد الرحمن بن عوف متلثماً لا يعرفه أحد ، فما ترك أحداً من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء الناس ورعاعهم إلاّ سألهم واستشارهم ، وكان اتفاق الناس على عثمان .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٨١ .
(٢) مروج الذهب للمسعودي ٢/٣٤٠ .

فعاد فاستوثق منهما ، حيث دعا علياً فناجاه طويلاً ؛ ثم قام من عنده على طمع . ثم قال : ادع لي عثمان ، فناجاه طويلاً حتى فرق بينهم صلاة الصبح ، فلما صلَّوا جمعهم ، أخذ على كل واحد منهم العهد والميثاق : لئن بايعتك لتقيمنَّ لنا كتاب الله وسنة رسوله ، وسنة صاحبيك من قبلك . فأعطاه كل واحد منهم العهد والميثاق على ذلك . وأيضاً : لئن بايعت غيرك لترضين ولتسلِّمنَّ ، وليكونَنَّ سيفك معي على من أبى ، فاعطوه ذلك من عهودهم ومواثيقهم ، فلما تمَّ ذلك أخذ بيد عثمان ، فقال له : عليك عهد الله وميثاقه لئن بايعتك لتقيمنَّ لنا كتاب الله وسنَّة رسوله وسنّة صاحبيك ، وشرط عمر أن لا تجعل أحداً من بني أمية على رقاب الناس . فقال عثمان : نعم .

ثم أخذ بيد علي ، فقال له : أبايعك على شرط عمر أن لا تجعل أحداً من بني هاشم على رقاب الناس . فقال عليٌّ عند ذلك : مالك ولهذا إذا قطعتها في عنقي ، فإن عَلَيَّ الإجتهاد لأمة محمد حيث علمت القوة والأمانة استعنت بها ، كان في بني هاشم أو غيرهم .

قال عبد الرحمن : لا والله حتى تعطيني هذا الشرط .

فقال علي : والله لا أعطيكه أبداً ، فتركه ، فقاموا من عنده ، فخرج عبد الرحمن إلى المسجد ، فجمع الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إني نظرت في أمر الناس ، فلم أرهم يعدلون بعثمان فلا تجعل يا عليُّ سبيلاً إلى نفسك ، فإنه السيف لا غير . ثم أخذ بيد عثمان فبايعه وبايع الناس جميعاً[1] .

---

(١) تاريخ الخلفاء أو الإمامة والسياسة لابن قتيبة ٢٦ - ١/٢٧ .

فكان عمر رضي الله عنه أُصيب يوم الأربعاء ٢٧ ذي الحجة سنة ٢٣ ودفن يوم الأحد الأول من محرم ٢٤ هـ وبويع عثمان يوم الثلاثاء الثالث من المحرم مستهل عام ٢٤ هـ أي بعد ثلاث ليالٍ .

أهم الفتوحات والأحداث في عصره . .

ـ في السنة الأولى من خلافته ، أعيد فتح الريّ ، وكانت فتحت وانتقضت . وفيها أصيب الناس رعاف كثير فسميت سنة الرعاف . وأصيب عثمان وتخلف عن الحجِّ وأوصى .

وفتحت كذلك حصون كثيرة من الروم . وفيها ولّى عثمان الكوفة سعدَ بن أبي وقاص ، وعزل المغيرة بن شعبة[1] .

ـ وفي سنة خمس وعشرين ، عزل عثمانُ سعداً عن الكوفة ، وولّى الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْطٍ ، وهو صحابي أخو عثمان لأمِّه . وكان ذلك أول ما نُقِمَ عليه ، لأنه آثر أقاربه بالولايات ، وحكى عن الوليد هذا أنه صلّى بهم الصبح أربعاً وهو سكران ، ثم التفت إليهم فقال : أزيدكم ؟

ـ وفي سنة ستٍ وعشرين ، زاد عثمان في المسجد الحرام ووسّعه ، واشترى أماكن للزيارة ، وفيها فتحت سابور .

ـ وفي سنة سبع وعشرين ، غزا معاوية قبرص ، فركب البحر بالجيوش ، وكان معهم عُبَادَةُ الصامت وزوجته أم حَرَام بنت ملحان الأنصارية ، فسقطت عن دابتها ، فماتت شهيدة هناك ـ وكان النبي عليه الصلاة والسلام أخبرها بهذا الجيش ، ودعا لها بأن تكون منهم ، فدفنت بقبرص .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٨٢ .

وفيها فتحت أرجان ، وَدَار بَجْردُ . وفيها عزل عثمانُ عمرو بن العاص عن مصر ، وولّى عليها عبدالله بن سعد بن أبي سرح ، فغزا أفريقية فافتتحها سهلاً وجبلا ، فأصاب كل إنسان من الجيش ألف دينار ، وقيل ثلاثة آلاف دينار .

ـ وفي سنة تسع وعشرين ، فتحت إصطخر ، وفَسَا ، وغير ذلك . وفيها زاد عثمان في مسجد المدينة ووسَّعه ، وبناه بالحجارة المنقوشة ، وجعل عمده من حجارة ، وسقَّفه بالساج ، وجعل طوله مئة وستين ذراعاً ، وعرضه مئة ذراع[1] .

ـ وفي سنة ثلاثين ، فتحت جور وبلاد كثيرة من أرض خراسان ، وفتحت نيسابور صلحاً ، وقيل عنوة ، وفتحت طوس . ومرخس كلاهما صلحاً ، وكذا مَرْوُ وَبَيْهَقُ .

ولما فتحت هذه البلاد الواسعة كثر الخراج على عثمان ، وأتاه المال من كل وجه ، حتّى اتّخذ له الخزائن ، وأَدرَّ الأرزاق ، وكان يأمر للرجل بمئة ألف بدرة في كل بدرة أربعة آلاف أوقية[2] .

ـ وفي سنة إحدى وثلاثين توفي أبو سيفان بن حرب والد معاوية . وفيها مات الحكم بن أبي العاص عم عثمان رضي الله عنه .

ـ وفي سنة اثنتين وثلاثين توفي العبّاسُ بنُ عبدِ المطلب عمُّ النبيِّ عليه الصلاة والسلام ، وصلّى عليه عثمان . وفيها توفي عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة من السابقين الأولين . وفيها مات عبدالله بن مسعود الْهُذَلِيُّ أحد القراء الأربعة ومن أهل السوابق في الإسلام ، ومن علماء الصحابة المشهورين بسعة

---

(١) المرجع السابق ١٨٣ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي صفحة ١٨٤ وعلى ذمته .

العلم ، وفيها مات أبو الدَّرْدَاءَ الخزرجي الزاهد الحكيم ، وقد ولي قضاء الشام لمعاوية . وفيها توفي أبو ذرٍّ جندب بن جنادة الغفاري صادق اللهجة . وفيها مات زيد بن عبدالله بن عبدربه الأنصاري الذي أرِيَ الأذان[1].

ـ وفي سنة ثلاث وثلاثين ، توفي المقداد بن الأسود في أرضه بالجرف ، وحمل إلى المدينة . وفيها غزا عبدالله بن سعد بن أبي سرح الحبشة .

ـ وفي سنة أربع وثلاثين أخرج أهل الكوفة سعيد بن العاص ، ورضُوا بأبي موسى الأشعري .

ـ وفي سنة خمس وثلاثين كان مقتل عثمان رضي الله عنه[2].

وقال الزهري : ولي عثمان الخلافة اثنتي عشرة سنة ، يعمل ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً ، وإنه لأحب إلى قريش من عمر بن الخطاب ، لأن عمر كان شديداً عليهم ، فلما وليهم عثمان لاَنَ لهم ووصلهم . ثم توانى في أمرهم ، واستعمل أقرباءه وأهل بيته في الست الأواخر ، وكتب لمروان بن الحكم بخُمس أفريقية ، وأعطى أقرباءه وأهل بيته المال ، وتأوَّل في ذلك الصلة التي أمر الله بها ، وقال : إن أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما ، وإني أخذته فقسمته على أقربائي ، فأنكر الناس عليه ذلك ، أخرجه ابن سعد ، وكان ما كان ، والله لطيف بالعباد[3].

---

(١) المرجع السابق .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٨٤ .
(٣) المرجع السابق ١٨٥ .

الفتنة في عهد عثمان . .

وأخرج ابن عساكر من وجه آخر عن الزهري قال : قلت لسعيد بن المُسَيَّبِ : هل أنت مخبري كيف كان قتل عثمان ؟

وما كان شأن الناس وشأنه ؟

وَلِمَ خَذَلَهُ أصحابُ محمَّد ﷺ ؟

فقال ابن المسيب : قُتِلَ عُثْمَانُ مظلوماً !

ومن قَتَلَه كان ظالماً !

ومن خَذَلَهُ كان معذوراً !

فقلت : كيف كان ذلك ؟

قال : إن عثمانَ لَمَّا وليَ ، كَرِه ولايَتَهُ نفرٌ من الصحابة لأن عثمان كان يحب قومه . فوليَ الناس اثنتي عَشْرَةَ سنةً ، وكان كثيراً ما يولي بني أمية مِمَّن لم يكن له مع النبي عليه الصلاة والسلام صحبة . فكان يجيء من أمرائه ما ينكره أصحابُ محمد عليه الصلاة والسلام . وكان عثمان يُسْتَعْتَبُ فلا يعزلهم ، وذلك في سنة خمس وثلاثين .

وقد كان قُبِلَ من عثمان هَنَاةٌ إلى عبدالله بن مسعود، وأبي ذر، وعمار بن ياسر ، فكانت بنو هُذَيْلٍ وبنو زُهْرَةَ في قلوبهم ما فيها لحال ابن مسعود ، وكانت بنو غِفَار وأحلافها ومن غضب لأبي ذر في قلوبهم ما فيها ، وكانت بنو مخزوم قد حنقت عل عثمان لحال عمار بن ياسر .

فلما كان في الست الأواخر من خلافته اسْتَأْثَرَ بني عمه فولَّاهم وما أشرك معهم ، وأمرهم بتقوى الله ؛ فولى عبدالله بن أبي سرح مصر ، فمكث عليها

سنين ، فجاء أهل مصر يشكونه ويتظلمون منه . فكتب إليه كتاباً يتهدَّده فيه . فأبى ابن أبي سرح أن يتقبل ما نهاه عنه عثمان ، وضرب بعض من أَتَاهُ من قِبَلَ عثمان من أهل مصر ممن كان أتى عثمان فقتله . فخرج من أهل مصر سبعمئة رجل ، فنزلوا المسجد ، وشكوا إلى الصحابة في مواقيت الصلاة[1] ما صنع ابن أبي سرح بهم .

فقام طلحة بن عبيدالله فكَلَّم عثمان بكلام شديد . وأرسلت عائشة رضي الله عنها إليه فقالت : تقدَّم إليك أصحاب محمّد عليه الصلاة والسلام وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت ! فهذا قد قتل منهم رجلاً ، فأنصفهم من عاملك .

ودخل عليه عليٌّ بن أبي طالب فقال : إنما يسألونك رجلاً مكان رجل ، وقد ادَّعَوْا قِبَلَهُ دَماً ، فاعْزِلْهُ عنهم واقض بينهم ، فإن وجب عليه الحق فأنصفهم منه .

فقال لهم عثمان : اختاروا رجلاً أوليه عليكم مكانه .

فأشار الناس عليه بمحمد بن أبي بكر ، فقالوا : استعمل علينا محمد بن أبي بكر ، فكتب عهده وولّاه ، وخرج معهم عدد من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين أهل مصر وابن أبي سرح .

فخرج محمد وَمَنْ معه ، فلما كان على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة ، وإذا هم بغلام أسود على بعير يخبط البعير خبطاً كأنه رجل يَطْلُبُ أو يُطْلَبُ . فقال له أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام : ما قصتك ؟ وما شأنك ؟ كأنك هارب أو طالب !

فقال لهم : أنا غلام أمير المؤمنين ، وجَّهني إلى عامل مصر .

---

(١) المرجع السابق .

فقال له رجل : هذا عامل مصر .

فقال : ليس هذا أريد .

وأُخْبِرَ بأمره محمدُ بن أبي بكر ، فبعث في طلبه رجلاً ، فأخذه ، فجاءِ به إليه ، فقال : يا غلامُ من أنت ؟

فأقبل مرة يقول : أنا غلام أمير المؤمنين ، ومرة يقول : أنا غلام مروان ، حتى عرفه رجل أنه لعثمان . فقال له محمد : إلى مَنْ أُرْسِلْتَ ؟

قال : إلى عامل مصر .

قال : بماذا ؟

قال : برسالة .

قال : معك كتاب ؟

قال : لا ، ففتشوه فلم يجدوا معه كتاباً ، وكانت معه إداوة قد يبست فيها شيء يتقلقل ، فحركوه ليخرج ، فلم يخرج ، فشقو الإداوة ، فإذا فيها كتاب من عثمان إلى ابن أبي سرح .

فجمع محمد بن أبي بكر مَنْ كان عنده من المهاجرين والأنصار وغيرهم ، ثم فك الكتاب بمحضر منهم ، فإذا فيه : إذا أتاك محمد وفلان وفلان فاحْتَلْ في قتلهم ، وأبطل كتابه ، وَقَرَّ على عملك حتى يأتيك رأيي ، واحبس من يجيء إلي يتظلم منك ، ليأتيك رأيي في ذلك ، إن شاء الله تعالى .

فلما قرأوا الكتاب فزعوا ، وأزمعوا فرجعوا إلى المدينة ، وختم محمد الكتاب بخواتيم نفر كانوا معه ، ودفع الكتاب إلى رجل منهم ، وقدموا المدينة ، فجمعوا طلحة ، والزبير ، وعلياً ، وسعداً ، ومن كان من أصحاب محمد ﷺ ، ثم فَضُّوا

الكتاب بمحضرٍ منهم ، وأخبروهم بقصة الغلام ، وأقرؤوهم الكتاب ، فلم يبق أحد من أهل المدينة ، إلاّ حنق على عثمان ، وزاد ذلك مَنْ كان غضب لابن مسعود ، وأبي ذرٍ الغفاري ، وعمار بن ياسر حنقاً وغيظاً ، وقام أصحاب محمد ﷺ فلحقوا بمنازلهم ، وما منهم أحد إلاّ وهو مُغْتَمٌّ لما قرأوا الكتاب وجاء في الصفحة ٣٨ من الجزء الأول من تاريخ الخلفاء أو الإمامة والسياسة لابن قتيبة قوله : قال : وذكروا أن أهل مصر أقبلوا إلى عليّ ، فقالوا : ألم تر عدوَّ الله ماذا كتب فينا ؟ قم معنا إليه ، فقد أحلَّ الله دمه .

فقال عليٌّ : لا والله ، لا أقوم معكم .

قالوا : فَلِمَ كتبت إلينا ؟

قال علي : لا والله ، ما كتبت إليكم كتاباً قط .

فنظر بعضهم إلى بعض .

من هنا نعرف عمقَ المؤامرة المدبرة ضد الإسلام والعروبة ، فعلي رجل ثبّت صادقٌ من العدول ، فلا يعقل أن يكذب أو يدلّس ، ويقول : «لا والله ما كتبت إليكَ كتاباً قط» إذن : فمن كتب الكتب على لسان علي ، هو الذي كتب على لسان عثمان بلا ريب .

ثم يتابع ابن قتيبة ٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ فيقول :

ثم أقبل الأشتر النخعي من الكوفة في ألف رجل ، وأقبل ابن أبي حذيفة من مصر في أربع مئة رجل ، فأُقام أهل الكوفة وأهل مصر بباب عثمان ليلاً ونهاراً ، وطلحة يحرض الفريقين جميعاً على عثمان .

ثم إن طلحة قال لهم : إن عثمان لا يبالي ما حصرتموه ، وهو يدخل إليه الطعام والشراب ، فامنعوه الماء أن يدخل عليه[1] .

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء أو الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١/٣٨ .

وحاصر الناس عُثْمان سنة خمس وثلاثين من الهجرة ، وأَجْلَبَ عليه محمد بن أبي بكر بني تَيْمٍ وغيرهم . فلما رأى ذلك عليٌّ بعث إلى طلحة ، والزبير ، وعمار ، ونفر من الصحابة كلهم بَدْرِيٌّ ، ثم دخل على عثمان ومعه الكتاب ، والغلام ، والبعير ، فقال له علي : هذا الغلام غلامك ؟

قال عثمان : نعم .

قال علي : والبعير بعيرك ؟

قال : نعم .

قال : فأنت كتبتَ هذا الكتاب ؟

قال عثمان : لا وحلف بالله ما كتبت هذا الكتاب ، ولا أمرتُ به ، ولا علم لي به !

قال له علي : فالخاتم خاتم ؟

قال : نعم .

قال : فكيف يخرج غلامك ببعيرك ، وبكتابٍ عليه خاتمك لا تعلم به ؟

فحلف عثمان بالله ما كتبت هذا الكتاب ، ولا أمرت به ، ولا وجَّهتُ هذا الغلام إلى مصر قط . وأما الخط ، فعرفوا أنه خط مروان بن الحكم ، وشكُّوا في أمر عثمان ، وسألوه أن يدفع إليهم مروان ، فأبى ، وكان مروان عنده في الدار .

فخرج أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام من عنده غضاباً ، وشكُّوا في أمره ، وعلموا أن عثمان لا يحلف بباطل . إلاّ أن قوماً قالوا : لن يبرأ عثمان من قلوبنا إلاّ أن يدفع إلينا مروان حتى نبحثه ، ونعرف حال الكتاب ، وكيف يأمر بقتل رجل من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام بغير حقٍّ ؟ فإن يكن عثمان كتبه عَزَلْنَاهُ ، وإن يكن مروان كتبه على لسان عثمان نظرنا ما يكون منا في أمر مروان . ولزموا بيوتهم ، وأبى عثمان أن يخرج إليهم مروان ، وخشي عليه القتل .

وحاصر الناس عثمان ، ومنعوه الماء ، فأشرف على الناس ، فقال : أفيكم عليٌّ ؟

فقالوا : لا .

قال : أفيكم سعد ؟

قالوا : لا .

فسكت ، ثم قال : ألا أحد يبلغ علياً فيسقينا ماءً ؟

فبلغ ذلك علياً ، فبعث إليه بثلاث قِرَبٍ مملوءة ماءً ، فما كادت تصل إليه ، وجرح بسببها عدة من موالي بني هاشم وبني أمية حتى وصل الماء إليه .

فبلغ علياً أن عثمان يُراد قتله ، فقال : إنما أردنا منه مروان ، فأمَّا قَتْلُ عثمان فلا ، وقال للحسن والحسين : إذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان ، فلا تدعا أحداً يصل إليه . وبعث الزبير ابنه ، وبعث طلحة ابنه ، وبعث عدة من أصحاب النبي علية الصلاة والسلام أبناءهم ، يمنعون الناس أن يدخلوا على عثمان ، ويسألونه إخراج مروان .

فلما رأى ذلك الناسُ رَمَـوا بابَ عثمان بالسهام حتى خضّب الحسن بن علي بالدماء على بابه ، وأصاب مروانَ سهمٌ وهو في الدار ، وخضب محمد بن طلحة ، وشج قنبر مولى علي ، فخشي محمد بن أبي بكر أن يغضب بنو هاشم لحال الحسن والحسين فيثيروها فتنة ، فأخذ بيد رجلين فقال لهما : إن جاءت بنو هاشم فرأوا الدماء على وجه الحسن كشف الناس عن عثمان وبطل ما نريد . ولكن اذهبوا بنا حتى نتسوَّرَ عليه الدار فنقتله من غير أن يعلم به أحد .

فتسوَّر محمد وصاحباه من دار رجل من الأنصار حتى دخلوا على عثمان ، ولا يعلم أحد ممن كان معه ، لأن كلَّ من كان معه كانوا فوق البيوت ، ولم يكن

معه إلاّ امرأته ، فقال لها محمد: مكانكما ، فإن معه امرأته ، حتى أبدأكما بالدخول ، فإذا أنا ضبطته ، فادخلا فتوجآه حتى تقتلاه .

فدخل محمد ، فأخذ بلحيته ، فقال له عثمان : والله لو رآك أبوك لساءه مكانك مني ، فتراخت يده ، ودخل الرجلان فوجآه حتى قتلاه ، وخرجوا هاربين من حيث دخلوا ، وصرخت امرأته فلم يسمع صُراخها لما كان في الدار من جلبة ، وصعدت امرأته إلى الناس ، فقالت: إن أمير المؤمنين قد قتل ، فدخل الناس فوجدوه مذبوحاً ، وبلغ الخبر علياً ، وطلحة ، والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة ، فخرجوا ، وقد ذهبت عقولهم للخبر الذي أتاهم ، حتى دخلوا على عثمان فوجدوه مقتولاً ، واسترجعوا ، وقال علـيٌّ لابنيه : كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ؟ ورفع يده فلَطَمَ الحسنَ وضرب صدر الحسين ، وشتم محمد بن طلحة ، وعبدالله بن الزبير ، وخرج وهو غضبان حتى أتى منزله ، وجاء الناس يُهْرَعُون إليه ، فقالوا له : نُبايُعك فَمُدَّ يدك ، فلابد من أمير . فقال عليٌّ : ليس ذلك إليكم ، إنما ذلك إلى أهل بدر ، فمن رضي به أهل بدر فهو خليفة . فلم يبق أحد من أهل بدر إلاّ أتى علياً ، فقالوا له : ما نرى أحداً أحقَّ بها منك ؟ مُدَّ يَدكَ نبايعك . فبايعوه .

وهرب مروان وولده ، وجاء علي إلى امرأة عثمان فقال لها : مَنْ قَتَلَ عثمان ؟

قالت : لا أدري ، دخل رجلان لا أعرفهما ومعهما محمد بن أبي بكر . وأخبرت علياً والنَّاسَ بما صنع محمد .

فدعا علـيٌّ محمداً ، فسأله عما ذكرت امرأة عثمان ؟

فقال محمد : لم تكذب ، قد والله دخلت عليه وأنا أريد قتله ، فذكرني أبي ، فقمت عنه وأنا تائب إلى الله تعالى ، والله ما قتلته ولا أمسكته .

فقالت امرأة عثمان : صَدَقَ ، ولكنه أَدْخَلَهُما[1] .

وكان مقتل عثمان رحمه الله يوم الجمعة لثماني عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين من الهجرة النبوية الشريفة ، ودفن ليلة السبت بين المغرب والعشاء في حش كوكب بالبقيع . وهو أول من دفن به . وقيل كان قتله يوم الأربعاء ، وقيل يوم الاثنين لستٍ بقين من ذي الحجة . وكان له يوم قُتل اثنتان وثمانون سنة وقيل أكثر ، وصلى عليه الزبير ودفنه ، وكان أوصى بذلك إليه .

ما قيل بعد استشهاد عثمان على ألسنة الصحابة :

وأخرج ابن عدي ، وابن عساكر من حديث أنس مرفوعاً «إن لله سيفاً مغموداً في غمده ما دام عثمان حيّاً ، فإذا قتل عثمان جُرِّدَ ذلك السيف فلم يُغْمَدْ إلى يوم القيامة» .

وأخرج ابن عساكر عن يزيد بن أم حبيب قال : بلغني أن عامة الركب الذين ساروا إلى عثمان عامتهم جُنُّوا .

وأخرج عن حُذَيْفَة قال : أول الفتن قتل عثمان ، وآخر الفتن خروج الدَّجَّال ، والذي نفسي بيده لا يموت رجل وفي قلبه مثقال حبة من حب قتل عثمان إلّا تبع الدجال إن أدركه ، وإن لم يدركه آمن به في قبره .

وأخرج عن ابن عباس قال : لو لم يطلبِ الناسُ بدم عثمان لَرُمُوا بالحجارة من السماء .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي من الصفحة ١٨٥ ـ ١٨٩ .

وأخرج عن الحسن قال : قُتِلَ عثمان وعليٌّ غائب في أرض له ، فلما بلغه قال : اللهم إني لم أرضَ ولم أمالىء[1] .

وأخرج الحاكم ، وصححه عن قيس بن عباد قال : سمعت علياً يوم الجمل يقول : اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان ، ولقد طاش عقلي يوم قتل عثمان ، وأنكرت نفسي وجاؤوني للبيعة فقلت : والله إني لأستحي أن أبايع قوماً قتلوا عثمان ، وإني لأستحي من الله أن أُبَايَعَ وعثمان لم يُدْفَنْ بعد ، فانصرفوا ، فلما رجع الناس فسألوني البيعة ؟ قلت : اللهم إني مشفق مما أقدم عليه ، ثم جاءت عزيمة فبايعت ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، فكأنما صُدِعَ قلبي ، وقلت : اللهم خُذْ لِعُثْمَانَ حتى ترضى[2] .

وأخرج ابن عساكر عن أبي خلدة الحنفي ، قال : سمعت علياً يقول : إن بني أميَّةَ يزعمون أني قتلت عثمان ، ولا والله الذي لا إلَهَ إلاّ هو ما قتلت ، ولا مالأت ، ولقد نهيت فَعَصَوْني .

وأخرج عن سَمُرَةَ قال : إن الإسلام كان في حصن حصين ، وإنهم ثَلَمُوا في الإسلام ثُلْمَةً بقتلهم لعثمان ، لا تُسَدُّ إلى يوم القيامة ، وإن أهل المدينة كانت فيهم الخلافة فأخرجوها ولم تَعُدْ إليهم .

وأخرج ابن عساكر عن عبد الرحمن بن مهديّ قال : خصلتان لعثمان ليستا لأبي بكر ولا لعمر رضي الله عنهما : صَبْرُهُ على نفسه حتى قتل ، وَجَمْعُه النَّاس على المصحف[3] .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٩٠ .
(٢) المرجع السابق ١٩١ .
(٣) المرجع السابق .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عمر ، أن جهجاه الغِفَارِيّ قام إلى عثمان وهو على المنبر يخطب ، فأخذ العصا من يده فكسرها على ركبته ، فما حال الحول على جهجاه حتى أرسل الله في رجله الأَكَلَةَ فمات منها[1] .

نقد ما جاء في أسباب استشهاد عثمان :

وقد كان النبي ﷺ أخبر بأن عمر شهيد ، وبأن عثمان شهيد ، وبأن له الجنة على بلوى تصيبه ، كما جاء في كتاب فضائل الصحابة من صحيح البخاري (ك ٦٢ ب ٧ ـ جـ ٤ ص ٢٠٢) وصحيح مسلم (ك ٤٤ ح ٢٨ و٢٩ ـ جـ٧ ص ١١٧ ـ ١١٩) من حديث أبي موسى الأشعري أيضاً ، وروى ابن ماجة في الباب ١١ من مقدمة السنن (جـ ١ ص ٢٨ طبعة مصر سنة ١٣١٣ هـ) ومن جهات أخرى .

فهو وزوجه رُقَيَّة ابنة رسول الله ﷺ ، أول مهاجر بعد إبراهيم الخليل ﷺ دخل به في باب أول من . . كما روى الإمام أحمد في مسنده (٢/١١٥ الطبعة الأولى جـ ٨ رقم ٥٩٥٣ الطبعة الثانية) عن عبدالله بن عمر بن الخطاب قال : ذكر رسول الله ﷺ فتنة . فمر رجل ، فقال عليه الصلاة والسلام : «يقتل فيها هذا المقنع يومئذ مظلوماً» قال عبدالله بن عمر : فنظرت فإذا هو عثمان بن عفان ، وروي من جهات عدة .

١ ـ أجمع الذين أرخوا أن عثمان قتل مظلوماً ، انظر تاريخ الخلفاء أو الإمامة والسياسة لابن قتيبة صفحة ١/٢٩ وما بعد ، وتاريخ الخلفاء للإمام الحافظ أبي بكر السيوطي صفحة ١٨٥ وما بعد .

٢ ـ ولَمَّا صَحَّتْ إمامته قُتِلَ مظلوماً ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، فما

---

(١) المرجع السابق ١٩٢ .

نصب حرباً لقتال أهل القبلة . ولا جيَّش عسكراً للدفاع عن نفسه ، وقد عرض عليه الكثير في هذا المجال . ولا سعى إلى فتنة بل كان أشدَّ خلق الله كرهاً لها وحرصاً على تضييق دائرتها حقناً لدماء المسلمين ، ولو أدَّى ذلك به إلى أن يكون هو ضحيَّة لغيره . ولا دعا إلى بيعة . ولا حاربه ولا نازعه من هو من أضرابه ولا أشكاله ، ولا كان يرجوها لنفسه . ولا خلاف أنه ليس لأحد أن يفعل ذلك في غير عثمان ، فكيف بعثمان رضي الله عنه .

٣ ـ قد سموا من قام عليه ، فوجدناهم أهل أغراض سوءٍ ، حِيلَ بينهم وبينها ، فالذين شاركوا في الجناية على الإسلام يوم الدار طوائف على مراتب :

آ ـ فيهم الذين غلب عليهم الغُلُوُّ في الدين ، فأكبروا الهنـات ، وارتكبوا في إنكارها الموبقات .

ب ـ وفيهم الذين ينزعون إلى عصبية يمنية على شيوخ الصحابة من قريش ، ولم تكن لهم في الإسلام سابقة ، فحسدوا أهل السابقة من قريش على ماأصابوا من مغانم شرعية .

جـ ـ وفيهم الموتورون من حدود شرعية أقيمت على بعض ذويهم ، فاضطغنوا في قلوبهم الإحْنَةَ والغِلّ .

د ـ وفيهم الحمقى الذين استغَّل (السبئيون جماعة عبدالله بن سبأ اليهودي اليمني) ضعف عقولهم ، فدفعوهم إلى الفتنة والفساد ، والعقائد الضالة .

هـ ـ وفيهم مَنْ أثقل كاهله خير عثمان ومعروفه نحوه ، فكفر معروف عثمان عندما طمع منه بما لا يستحقه من الرئاسة والتقدم بسبب نشأته في أحضانه .

و ـ ومنهم من أصابهم من عثمان شيءٌ من التعزير لبوادر بدرتْ منهم تخالف أدب الإسلام ، فأغضبهم التعزيرُ الشرعي من عثمان ، ولو أنهم قد نالهم من عمر أشدُّ منه لرضوا به طائعين .

ز ـ ومنهم المتعجِّلون بالرئاسة قبل أن يتأهلوا لها ، اغتراراً بمالهم من ذكاء خلاب أو فصاحة لا تُغذِّيها الحكمة ، فثاروا متعجلين بالأمر .

٤ ـ وعلى الرغم من كل ذلك فقد وُعِظُوا وزُجِروا من أهل العافية والحكمة من أعيان أمصارهم وعلمائها ، وأقاموا عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان ولياً لمعاوية على حمص وما يليها من شمال الشام إلى أطراف الجزيرة ، فقبض عليهم وتوعدَّهم حتى تابوا ، فأرسل بهم إلى عثمان فتابوا ، وخيرهم فاختاروا التفرُّق في البلاد ، فأرسلهم . فلما سار كل إلى ما اختار أنشأوا الفتنة ، وألَّبُوا الجماعة ، وجاؤوا إليه بجملتهم ، فاطَّلع عليهم من على حائط داره ووعظهم ، وذكرهم ، وردعهم عن ذمة .

٥ ـ وافتروا على صحابة رسول الله رضوان الله عليهم ، وزعموا أنهم تلقوا من علي وطلحة والزبير رسائل يدعونهم بها للثورة على عثمان بدعوى أنه غيَّر سُنَّة الله ، وهم يكذبون في ذلك ، ولم تكن الرسائل التي وصلت إليهم إلّا كتلك التي زعموا أن عثمان كتبها لواليه على مصر ابن أبي سرح ، وسيأتي تفصيل ذلك . وحاشا لله أن يقوم علي وطلحة والزبير بما اتُّهموا به ، كيف ذلك ، وعليٌّ أرسل ولديه الحسن والحسين ، وكذلك بعث الزبير ابنه وبعث طلحة ابنه وغيرهم من أصحاب رسول الله ليقوموا على باب عثمان فلا يدعوا أحداً يصل إليه !

وإمعاناً في الغوايه وتسفيهاً للصحابه الأجلاء قالوا لهم : إنكم أرسلتم إلينا «أقبِلوا إلى مَنْ غيَّر سنة الله» فلما جئنا قعد هذا في بيته ، يعنون علياً ، وخرجت أنت تفيض عينيك ، يريدون طلحة ، والله لا برحنا حتى نريق دمه .

٦ ـ وهذا قهر عظيم ، وافتئات على الصحابة ، وكذب في وجوهم وبَهْتٌ لهم . ولو أراد عثمان لكان مستنصراً بالصحابة ، ولنصروه في لحظة ، ولقد راودوه

في ذلك مراراً ، وعرض عليه معاوية نقل دار الخلافة إلى الشام ، أو أن يُمدَّه بجُنْدٍ من الشام لا يعرف له التاريخ إلّا التقدم والنصر. فرفض عثمان كل هذا لأن القوم جاؤوا مستجيرين متظلمين ، فوعظهم فاستشاطوا . فأراد الصحابة أَلْمَهُمْ ، أي طعنهم بالألّة وهي الحربة العريضة النصل ، فأوعز إليهم عثمان ألّا يقاتلَ أحدٌ بسببه أبداً ، حقناً لدماء المسلمين ، فاستسلم الصحابة ، وأسلموه برضاه[1] .

من كل ما تقدم نستطيع أن نقول ماقاله سعيد بن المسيب : قتل عثمان مظلوماً ، ومن قَتَلَه كان ظالماً ، ومن خَذَلَهُ كان معذوراً . وكانت الشعوبية ، واليهودية ، والأحقاد الشخصية ، والأطماع الدنيوية وراء كل ما حدث ، وما زال يحدث حتى يوم الناس هذا ،

مَنْ وراءَ هذه الشيع والفرق ؟ . .

لقد دخلَتْ إلى رواق الحياة الإسلامية في هذه المرحلة ، شخصيات لم تستضيء ساحات قلوبها بأنوار النبوة، ولم تستكمل حضانتها الإسلامية في ظل اليقين ، وزاحمت بمناكبها أصحاب رسول الله ﷺ ، حتى أقصتهم عن مكانهم ، وباعدتهم من أسرهم ، بحجة إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم ، وقبضت على أزِمَّة كثير من مرافق الحياة في الأمة ، وقضت في كثير من قضاياها بدافع المصلحة الشخصية والأهواء الدنيئة ، والكيد لهذا الدين الجديد ، وهذه الأمة اليافعة ، فتقدمت ، وتأخر أهل السبق في الاسلام ، فكان لهذه الشخصيات الدخيلة أثر عظيم في هذا التحوِّل الذي اتجه إليه التاريخ الإسلامي بعد الانقلاب الخطير[2] . يقول الأستاذ الإمام محمد عبده في رسالته التوحيدية : «كان الأمر على ذلك ـ

(١) العواصم من القواصم للقاضي أبي بكر بن العربي ٥٥ ـ ٦٠ .
(٢) الخليفة المفترى عليه عثمان بن عفان لمحمد صادق عرجون ٢٦ .

اجتماع كلمة المسلمين ـ إلى أن حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث ، وأفضى إلى قتله ، فهوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخليفة ، واصطدم الإسلام وأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها ، وبقي القرآن قائماً على صراطه : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإناله لحافظون﴾[1] ، وفُتح على الناس باب تعدي الحدود التي حدّها الدين . فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعي ، وأَشْعَرَ الأَمْرُ قُلوب العامَّة أن شهواتٍ تلاعبت بالعقول في نفس مَنْ لم يملك الإيمانُ قلوبهم ، وغلب الغضب على كثير من الغالين في دينهم ، وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الأصالة منهم ، فقضيت أمور على غير ما يحبون» .

وكانت هذه المرحلة مقدمة ملتوية ـ وهي لا تزال تزخر بأعلام الصحابة وتلاميذ النبي ﷺ ، الذين رباهم بأدبه العالي ، وهذبهم بروحه السامي ، وصقل نفوسهم بنور الهداية ـ كانت مباءة لبدء ظهور الفرق والمذاهب التي مزقت وحدة المسلمين ، وبددت شملهم ، وجعلت القرآن بينهم عضين . تلجأ إليه كل فرقة وفي يدها سلاح التأويل ولو أدى إلى التحريف ، لتجعل منه سنداً لمذهبها وحجة على منتحِلها ولو كان أشبه في سُخفه بأساطير الأولين ، وأدخل في الوهم إلى أعمق الأباطيل[2] .

الشيعة وعبد الله بن سبأ اليهودي[3] . .

ففي ظل هذه المرحلة تزعزع مذهب الشيعة . وهو مذهب قام مستنداً على دعامتين : **الدعامة الأولى** . . وتتلخص في موقف بني هاشم من الخلافة بعد وفاة

(١) الحجر ٩/١٥ .
(٢) الخليفة المفترى عليه عثمان بن عفان لمحمد صادق عرجون ٢٧ .
(٣) كان عبد الله بن سبأ يهودياً من صنعاء أمّه سوداء ، وادّعى الإسلام زمان عثمان .

رسول الله ، واعتقادهم أنهم أحق بها ممن صارت إليه ، وروى البخاري في كتاب المغازي من صحيحة (ك ٦٤ ب ٨٣ جـ ٥ ص ١٤٠ ـ ١٤١) ونقله ابن كثير في البداية والنهاية (٥ : ٢٢٧ و٢٥١) من حديث الزهري عن عبد الله بن كعب بن مالك عن ابن عباس . ورواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده (١ : ٢٦٣ و٣٢٥ الطبعة الأولى وج ٤رقم ٢٣٧٤ وج ٥ رقم ٢٩٩٩ الطبعة الثانية) قال : وتعلق بال العباس وعلي بأمر أنفسهما في مرض النبي ﷺ ، فقال العباسُ لعلي : إني أرى الموت في وجوه بني عبد المطلب ، فتعال حتى نسأل رسول الله ﷺ ، فإن كان هذا الأمر فينا علمناه .

فأجابه علي : إنّا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ ، فمنعناها لا يعطيناها الناسُ بعدُ ، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ .

وبقي هذا الأمل في أنفسهم لا يريمها، ولكنه كان يخف ويسلس حيناً ، ويعنف ويشتد حيناً آخر. وقد مرَّ عليه عهد خلافة أبي بكر الصديق، وعهد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، هادئاً راضياً مرضياً ، ولعل ذلك ـ كما يقع في الخاطر ـ كان لسببين :

١ ـ ما كانت عليه سياسة الأمة في هذين العهدين من شمول العدل والرحمة ، وإشعار الرعية بالحزم ، إلى ما كان من قرب العهد بالنبي ﷺ ، واجماع الناس على عرفان حق آل البيت من المحبة والايثار والتعظيم .

٢ ـ إن الخلافة في هذين العهدين إنما كانت إلى رجلين يستمدان عظمتهما من الإسلام ومواقفهما في أيامه، ولم يكن بيتاهما من قريش كما كان بيتا هاشم وأمية منها في الجاهلية حيث يتنافسان ، لذلك لم تثرفي عهدهما نعرة ، ولا تحركت عصبية ، ولم يطمع في عهدهما أحد من أهل بيتهما في مجد قبلي أو شرف بيتي ، ولم

يستطع أحد من أقربائهما ـ بله البعداء ـ أن يستغل إماميتهما لجلب نفع خاص ، فاستقامت بهما ولهما الأمور . ومشيا في طريق سوي ورضي الناس عنهما وعن أيامهما ، فكان ذلك مما كفكف من غرب النزعة الهاشمية في ولاية الأمر ، وسكن الأمل في أنفسهم إلى حين. وهذه الدعامة تمتزج عناصرها من أسباب إسلامية، وأخرى وراثية ولكنَّها متماسكة متساندة . **الدعامة الثانية** . . غصن من شجرة الدعامة الأولى ، عنها تفرعت ، ومنها استمدت . بيد أنها لُوِّنَتْ بلون فارقت به أصلها، ونزعت إلى ماء لم يكن من ماء فحلها، واستقت من جدول ليس من ينبوعها ، وانحدرت إلى أفئدة تكذب في صدقها وتصدق في كذبها وانزلقت إلى ألسنة طرفها في منبتها ، ومنبتها نافقاء اليرابيع تدخل فلا يدري أين ذهبت ، وتخرج فلا يعلم من أين جاءت نفاق ماكر ، ومكر منافق ، تظهر الحب للآل من بيت النبوة ، وتضمر الكيد لأهل الإسلام . وتعلن الوفاء للإمام وتُبطن الغدر بالإسلام . اتخذت من التشيع ستاراً لهدم هذا الدين المتين . فكايدته مكايدة ماكرة خبيثة ، وتربصت به الدوائر حتى إذا لمعت بارقة الخلاف بين المسلمين في خلافة عثمان بن عفان ، هبت واثبة إلى مكان القيادة تسوق الناس بعصا الفتنة العمياء ، وتهمزهم إذا فتروا بمهمز المكر والدهاء ، والتشيع الخالص المخلص من نزعها براء .

وكان على رأس هذه الفئة رجل يهودي من يهود اليمن ، انتحل الإسلام لأغراض كان يستر عليها ويخفيها وهو عبدالله بن سبأ الملقب ابن السوداء .

وقد كشف عن دعوته المارقة، وكشف لنا أسرارها الأستاذ أحمد أمين في كتابه المشهور فجر الإسلام ، فقال : «وقد ذكروا أن أوَّل من دعا إلى تأليه الإمام عليّ كرم الله وجهه ، هو عبد الله بن سبأ اليهودي ، وكان ذلك في حياة الإمام عليه السلام ، وهو الذي حرَّك أبا ذرٍ الغفاري لدعوته الاشتراكية ، وهو الذي

كان من أكبر مَنْ ألَّب الأمصار على عثمان . والذي يؤخذ من تاريخه أنه وضع تعاليم لهدم الإسلام ، وألَّف جمعية سرية لبثِّ تعاليمه ، واتَّخذ الإسلامَ ستاراً يستر به نياته» .

ويقول المقريزي في الخطط : عن الفرقة والخلافات في الإسلام : «أن رجلاً من اليهود في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، أسلم ، فقيل له عبد الله بن سبأ ، وعرف بابن السوداء ، وصار يتنقل من الحجاز إلى أمصار المسلمين ، يريد اضلالهم ، فلم يطق ذلك ، فرجع إلى كيد الإسلام وأهله ، ونزل البصرة في سنة ثلاث وثلاثين من الهجرة ، فجعل يطرح على أهلها المسائل ولا يصرح ، فأقبل عليه جماعة ، ومالوا إليه وأعجبوا بقوله . فبلغ ذلك عبد الله بن عامر ، وهو يومئذ على البصرة ، فأرسل إليه ، فلما حضر عندة سأله : ما أنت ؟

فقال : رجل من أهل الكتاب ، رغبت في الإسلام ورغبت في جوارك .

فقال : ما شيء بلغني عنك ؟ أخرج ، أخرج عني .

فخرج حتى نزل الكوفة . فأخرج منها . فسار إلى مصر واستقر بها ، وراح يبث دعوته فيها.

وتحدث في الرجعة حتى قُبلت منه ، فقال بعد ذلك : إن لكل نبيٍ وصياً ، وعلي بن أبي طالب وصي محمد ﷺ ، فمن أظلم ممن لم يُجز وصيته رسول الله ﷺ في أن علي بن أبي طالب وصيُّهُ في الخلافة على أمته ؟

واعلموا أن عثمان أخذ الخلافة بغير حق ، فانهضوا في هذا الأمر ، وابدأوا بالطعن على أمرائكم ، فأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . تستميلوا به الناس» .

وجاء في تاريخ الطبري ٤/٣٤١ قوله : «وبثَّ دعاته ، وكاتب مَنْ مالَ إليه من أهل الأمصار ، وكاتبوه ودعوا في السرِّ إلى ما عليه رأيهم ، وصاروا يكتبون إلى الأمصار كتبا يضعونها في عيب ولاتهم : فيكتب أهل كلِّ مصر منهم إلى أهل المصر الآخر بما يصنعون ، حتى ملؤوا بذلك الأرض إذاعة ، وجاء إلى أهل المدينة من جميع الأمصار ، فأتوا عثمان رضي الله عنه في سنة خمس وثلاثين ، وأعلموه ما أرسل به أهل الأمصار من شكوى عمالهم .

فبعث محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، للكشف عن سير الأعمال . فرجعوا إلى عثمان إلاّ عمار بن ياسر ، وقالوا : ما أنكرنا شيئاً ، وتأخر عمار . فورد الخبر إلى المدينة بأنه قد استماله عبد الله بن سبأ في جماعته ، وهم عبد الله بن السوداء ، وخالد بن ملجم ، وسودان بن حمران ، وكنافة بن بشر» .

ولم يكتف عبد الله بن سبأ بما أحدث من فتنة عاصفة ، زلزت عرش الخلافة الإسلامية، وعصفت بأمن المسلمين وهدوئهم، وردتهم عن سمتهم، وفرقتهم شيعاً وأحزاباً ، وأخذت بهم في طريق شديد الالتواء كثير التعاريج ، بل أعلن بمقالات وآراء منكرة مستخبثة ، يهدم أصول الإسلام هدماً . وصار بهذا رأس طائفة ضالة .

قال الشهرستاني في الملل والنحل : «السبائية أتباع عبد الله بن سبأ الذي قال لعليٍ : أنت أنت ، يعني الإله . فنفاه علي رضي الله عنه إلى المدائن» .

وقال المقريزي في الخطط : «وحدث في زمن الصحابة رضي الله عنهم مذهب التشيع لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والغلو فيه ، فلما بلغه ذلك أنكره ، وحرق بالنار جماعة ممن غلوا فيه ، وأنشد :

لما رأيت الأمر أمراً منكراً   أججت ناري ودعوت قنبرا

وقام في زمانه رضي الله عنه ـ أي علي ـ عبد الله بن وهب بن سبأ المعروف بابن السوداء ، وأخذ يدعو الناس إلى التشيع لعلي ، قائلاً : إنه وصي رسول الله ﷺ ، وخليفته على أمته من بعده بالنص . وأحدث القول برجعة علي بعد موته إلى الدنيا ، وبرجعة رسول الله ﷺ أيضاً .

ثم زعم فيما بعد أن علياً لم يقتل ، وأنه حي ، وأن فيه الجزء الإلهي ، وأنه هو الذي يجيء في السحاب ، وأن الرعد صوته ، والبرق سوطه ، وأنه لابد أن ينزل إلى الأرض فيملأها عدلاً كما ملئت جوراً ، ثم ذكر القزيزي بعد ذلك مؤكِّداً أن ابن سبأ كان هو أصل إثارة الناس على عثمان بن عفان رضي الله عنه» .

المثالب والحجج الواهية التي أخذت على عثمان . .

قالوا : وتقوّلوا متعدِّين ، متعلِّقين برواية كذّابين ، فعدَّدوا في ولاية عثمان مثالب ومناكير لا تثبت أمام البحث العلمي البسيط ، لما في رواياتها من كذب وإفتراء وتدليس . ومعيار الأخبار في تاريخ كل أمة ، الوثوق من مصادرها ، والنظر فى ملائمتها لسجايا الأشخاص المنسوبة إليهم ، وإنسجامها مع المنهج التاريخي العلمي ، وتوافقها مع غيرها من الأحداث . وأخبار التاريخ الإسلامي التي نقلت عن شهود عيان ذكروها لمن جاؤوا بعدهم ، وهؤلاء رووها لمن بعدهم .

وقد أندسَّ بين هؤلاء الرواة أناس من أصحاب الأغراض والمآرب ، زوَّروا أخباراً على لسان الآخرين تخدم دسائسهم ، وروّجوها في الكتب إمّا تقرُّباً لبعض أهل الدنيا ، أو تعصُّباً لنزعة يحسبونها من الدين في أحسن الأحوال .

ومن مزايا التاريخ الإسلامي ـ تبعاً لما جرى عليه علماء الحديث ـ أنَّه قد تخصَّص فريق من العلماء في نقد الرواية والرواة ، وتمييز الصادقين منهم عن الكَذَبة ، حتى صار ذلك علماً محترماً له قواعد ، وأُلّفت فيه الكتب ، ونظمت للرواة معاجم حافلة بالتراجم ، فيها التنبيه على مبلغ كل راوٍ من الصدق والتثُّبت والأمانة في النقل ، وإذا كان لبعضهم نزعات حزبية أو مذهبية قد يجنح معها إلى الهوى . ذكروا ذلك في ترجمته ليكون دارس أخبارهم ملماً بنواحي القوة والضعف من هذه الأخبار .

والذين يتهجمون على الكتابة في تاريخ الإسلام ، وتصنيف الكتب فيه قبل أن يستكملوا العدَّة لذلك ـ ولاسيما في نقد الرواة ومعرفة ما حققه العلماء في عدالتهم أو تجريحهم ـ يقعون في أخطاء كان في إمكانهم أن لا يقعوا فيها لو أنهم استكملوا وسائل العلم بهذه النواحي . أمّا بعد ، فلنتناول هذه المثالب أو المآخذ واحدةً واحدة :

١ ـ ضربُه لابن مسعود حتى كسر أضلاعه ، ومنعه عطاءه . . تقدم قول عبدالله بن مسعود لّما بويع عثمان : بايعنا خيرنا ولم نألُ . ويروى : وَلَّينا أعلانا ذا فوق ولم نألُ» . وعند خلافة عثمان كان ابن مسعود والياً لعمر على أموال الكوفة . وسعد بن أبي وقاص والياً على صَلاتها وحربها ، فاختلف سعد وابن مسعود على قرض استقرضه سعد ـ كما سيأتي ـ فعزل عثمان سعداً وأبقى ابن مسعود .

إلى هنا لايوجد بين ابن مسعود وخليفته إلاّ الصفو . ولما عزم عثمان على

تعميم مصحف واحد في العالم الإسلامي ، يُجمِعُ أصحاب رسول الله ﷺ على أنه هو المصحف الكامل الموافق لآخر عَرْضَةٍ عُرِضَ بها كتاب الله عزوجل على رسوله ﷺ قبل وفاته ، كان ابن مسعود يودّ لو أن كتابة المصحف نيطت به ، وكان يود أيضاً لو يبقى مصحفه الذي كان يكتبه لنفسه فيما مضى . فجاء عمل عثمان على خلاف ما كان يودُّه ابن مسعود في الحالتين .

أما في اختيار عثمان زيد بن ثابت لكتابة المصحف الموحد فلأن أبا بكر وعمر اختاراه قبل ذلك لهذا العمل في خلافة أبي بكر ، بل إن أبا بكر وعمر اختارا زيد بن ثابت في البداية لأنه هو الذي حفظ العرضة الأخيرة لكتاب الله على الرسول صلوات الله عليه قبيل وفاته ، فكان عثمان على حق في هذا . وهو يعلم كما يعلم سائر الصحابة مكانة ابن مسعود وعلمه وصدق إيمانه . ثم إن عثمان كان على حق أيضاً في غسل المصاحف الأخرى كلها ومنها مصحف بن مسعود ، لأن توحيد كتابة المصحف على أكمل ما كان في استطاعة البشر هو من أعظم أعمال عثمان بإجماع الصحابة ، وكان جمهور الصحابة في كل ذلك مع عثمان على ابن مسعود[1] وعلى كل حال فإن عثمان لم يضرب ابن مسعود ، ولم يمنعه عطاءه ، وبقي يعرف له قدره ، كما بقي ابن مسعود على طاعته لإمامه الذي بايع له وهو يعتقد أنه خير المسلمين وقت البيعة .

٢ ـ وأما ضربه لعمار بن ياسر ، فلا أقل إفتراءً من ضربه لابن مسعود ، فقد روى الطبري في تاريخه ٥/٩٩ عن سعيد بن المسيب أنه كان بين عمار وعباس بن عتبة بن أبي لهب خلافٌ حمل عثمان أن يؤدبهما عليه بالضرب . وهذا ما يفعله ولي الأمر في مثل هذه الأحوال قبل عثمان وبعده ، وكم فعل عمر مثل ذلك بأمثال عمار ومن هم خير من عمار بماله من حق الولاية على المسلمين .

(١) انظر منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣/١٩٢/١٩١ .

ولما نظَّم السبئيون حركة الإشاعات ، وصاروا يرسلون الكتب من كل مصر إلى الأمصار الأخرى بالأخبار الكاذبة ، فأشار الصحابة على عثمان بأن يبعث رجالاً ممن يثق بهم إلى الأمصار ، حتى يرجعوا إليه بحقيقة الحال ، تناسى عثمان ما كان من عمار وأرسلَه إلى مصر ليكون موضع ثقة في كشف حالها ، فأبطأ عمار في مصر ، والتقى به السبئيون ليستميلوه إليهم ، فتدارك عثمان وعامله على مصر هذا الأمر وجيء بعمار إلى المدينة مكَّرماً . وعاتبه عثمان لما قدِم عليه فقال له ، على ما رواه الحافظ بن عساكر في تاريخ دمشق ٢/٤٢٩ : «يا أبا اليقظان قذفتُ ابن أبي لهب أن قَذَفَكَ . . وغضبتُ على أن أخذت لك بحقك وله بحقه . اللهم قد وهبت ما بيني وبين أمتي من مظلمة ، اللهم إني متقرِّب إليك بإقامة حدودك في كلِّ أحدٍ ولا أبالي . أخرج عنِّي يا عمَّار .

فخرج ، فكان إذا لقي العوام نضح عن نفسه وانتفى من ذلك . وإذا لقي من يأمنه أقر بذلك وأظهر الندم . فلامه الناس وهجروه وكرهوه . فلو صحَّ أن عثمان ضرَبَه حتى فتق أمعاءه لما عاش أبداً ، ولما أرسل إلى مصر تحابَّ مع بن السوداء وصحبه .

٣ ـ وأما نفيه أبا ذر إلى الربذة فلم يفعل ، وإنما اختار أبو ذر أن يعتزل في الربذة فوافقه عثمان على ذلك . وأكرمه وجهزه بما فيه راحته . وتفصيل ذلك أن أبا ذرٍّ كان زاهداً .

وكان يُقَرِّعُ عمال عثمان ، ويتلو عليهم ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة فلا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذابٍ أليم﴾[1] ويراهم يتسعون في المراكب

---

(١) التوبة ٩/٣٤ .

والملابس حين وَجَدوا ، فينكر ذلك عليهم ، ويريد تفريق جميع ذلك من بين أيديهم ، وهو غير لازم .

قال ابن عمر وغيره من الصحابة : إن ما أدَّيْتَ زكاته فليس بكَنز[1] . فوقع بين أبي ذر ومعاوية كلام بالشام نقله الطبري في تاريخه ٥/٦٦ وأكثر المصادر الإسلامية : إنه لما ورد ابن السوداء عبدالله بن سبأ الشام ، لقي أبا ذر ، فقال ألا تعجب إلى معاوية يقول : «المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله» كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ، ويمحو اسم المسلمين . فأتاه أبو ذرٍ فقال : ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين «مال الله» ؟

قال معاوية : يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله ، والمال ماله ، والخلق خلقه والأمر أمره ؟ قال أبو ذر : فلا تقله .

قال معاوية : فإني لا أقول إنه ليس لله ، ولكن سأقول «مال المسلمين» .

وأتى ابن السوداء عبدالله بن سبأ أبا الدرداء ، فقال له أبو الدرداء : من أنت أظنُّك والله يهوديّاً . ثم أتى ابن سبأ هذا عبدَالله بن الصامت ، فتعلق به ابن الصامت ، فأتى به معاوية فقال : هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر .

فخرج أبو ذر بعد هذه الواقعة إلى المدينة ، فاجتمع إليه الناس ، فجعل يسلك تلك الطريق . فقال له عثمان : «لو اعتزلْتَ» معناه : إنك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس ، فإن للخلطة شروطاً وللعزلة مثلها ، ومن كان على طريقة أبي ذرٍ فحاله يقتضي أن ينفرد بنفسه ، أو يخالط ويسلم لكل أحد حاله مما ليس بحرام في الشريعة . فخرج إلى الربذة زاهداً فاضلاً ، وترك جلَّةً فضلاء ،

---

(١) انظر البيان الفقهي والتفصيل الشرعي لهذه المسألة في منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٩٨ - ٣/١٩٩ .

وكل على خير وبركة وفضل ، وحال أبي ذر أفضل ، ولا تمكن لجميع الخلق ، فلو كانوا عليها لهلكوا ، فسبحان مرتِّب المنازل .

ومن العجب أن يؤخذ على عثمان في أمر فعله عمر ، فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سجن ابن مسعود في نفر من الصحابة سنة بالمدينة حتى استشهد ، فأطلقهم عثمان ، وكان سجنهم لأن القوم أكثروا الحديث عن رسول الله ﷺ .

وذكر القاضي أبو الوليد بن خلدون في العبر ، بقية ٢/١٣٩ أن أبا ذرٍ استأذن عثمان في الخروج من المدينة قال : إن رسول الله ﷺ أمرني أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلعاً . فأذن له ، ونزل الربذة وبنى مسجداً ، وأقطعه عثمان صرمة من الإبل ، وأعطاه مملوكين ، وأجرى عليه رزقاً . وكان يتعاهد المدينة ، وبين المدينة والربذة ثلاثة أميال ، قال ياقوت الحموي : وكانت من أحسن منزل في طريق مكة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة ١٩٢ ـ ٣/١٩٣ : تعقيباً على الأخبار الثلاثة السابقة: وعثمان أفضل من كل مَنْ تكلم فيه فهو أفضل من ابن مسعود ، وعمار ، وأبي ذر ومن غيرهم من وجوه كثيرة ، كما ثبت ذلك بالدلائل ، فليس جعلُ كلام المفضول قادحاً في الفاضل بأولى من العكس .

وكذلك ما نقل من تكلُم عمَّار في عثمان ، وقول الحسن فيه أي في عمّار ، فقد نقل أن عمَّاراً قال : لقد كفر عثمان كفرةً صلعاء . وأنكر الحسن ابن علي ذلك عليه . وكذلك عليٌّ وقال له : يا عمار ، أتكفر برب آمن به عثمان ؟

وقال شيخ الإسلام : وفي الجملة ، فإذا قيل إن عثمان ضرب ابن مسعود أو عمَّاراً ، فهذا لا يقدح في أحد منهم ، فإنا نشهد أن الثلاثة في الجنة ، وأنهم من

أكابر أولياء الله المتّقين . وإن ولي الله قد يصدر عنه ما يستحق عليه العقوبة الشرعية، فكيف التعزير. وقد ضرب عمر بن الخطاب أبي بن كعب بالدرة لما رأى الناس يمشون خلفه ، وقال : هذا ذلة للتابع وفتنة للمتبوع . فإن كان عثمان أدَّب هؤلاء ؛ فإما أن يكون عثمان مصيباً في تعزيرهم لإستحقاقهم ذلك ، ويكون ذلك الذي عُزروا عليه تابسوا منه ، وكفر عنهم بالتعزير وغيره من المصائب أو بحسناتهم العظيمة أو بغير ذلك ، وإما أن يقال كانوا مظلومين مطلقاً . فالقول في عثمان كالقول فيهم وزيادة ، فإنه أفضل منهم ، وأحق بالمغفرة والرحمة .

٤ ـ وأما جمع القرآن . . فتلك حسنته العظمى ، وخصلته الكبرى ، وإن كان وجدها كاملة ، لكنه أظهرها وردَّ الناس إليها ، وحسم مادة الخلاف فيها ، وكان نفوذ وعد الله بحفظ القرآن على يديه . فقد روى الأئمة بأجمعهم أن زيد بن ثابت قال : أرسل إليَّ أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانا فقال : إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقُرَّاءِ القرآن ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالمواطن فيذهب كثير من القرآن ؛ وإني أرى أن تجمع القرآن .

قلتُ لعمر : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟

قال عمر : هذا والله خير . فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر .

قال زيد : قال أبو بكر ؛ إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ . فتتبَّعْ القرآن فاجمعه .

فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ، ما كان أثقل عليَّ مما أمروني به من جمع القرآن . قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟

قال عمر : هذا والله خير . فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدرَ أبي بكر وعمر . فتتبعت القرآنَ أجمعه من العُسبِ واللخاف[1] وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره «لقد جاءكم رسول من أنفسكم» حتى خاتمة براءة .

فكانت الصحف بعد ذلك عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر زوج رسول الله عليه الصلاة والسلام ، حتى قدم حذيفة بن اليمان على عثمان[2] وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية ، وأذربيجان مع أهل العراق ، فحدثه حذيفة عن اختلافهم في القراءة . فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى .

فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيدَ بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف .

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش . فإنما أنزل بلسانهم ، ففعلوا .

---

(١) العسب : جمع عسيب أي جريدة النخل وهي السفقة التي لا ينبت عليها الخوص .
واللخاف : جمع لخفة وهي حجارة بيض رقاق كانوا يكتوبن عليها إذا تعذر الورق .

(٢) انظر صحيح البخاري حديث حذيفة ك ٦٦ ب ٣ جـ ٦ ص ٩٩ عن ابن شهاب الزهري عن أنس بن مالك .

حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، ردّ عثمان الصحف الى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة ومصحف أن يحرق .

قال ابن شهاب فيما رواه عن الإمام البخاري في صحيحه [1] وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت أنه سمع زيد بن ثابت قال : فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها ، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة الأنصاري «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» فألحقناها في سورتها في المصحف .

وأما ما روي أنه حرقها ، أو خرقها ـ بالحاء المهملة أو الخاء المعجمة ـ فكلاهما جائز إذا كان في بقائها فساد ، أو كان فيها ما ليس من القرآن ، أو ما نسخ منه ، أو على غير نظمه ، فقد سلّم في ذلك الصحابة كلهم . إلاّ أنه روي عن ابن مسعود أنه خطب بالكوفة فقال : أما بعد ، فإن الله قال : «ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة» وإني غالٌّ مصحفي ، فمن استطاع منكم أن يُغلّ مصحفه فليفعل» .

وأراد ابن مسعود أن يؤخذ بمصحفه ، وأن يثبت ما يعلم فيه ، فلما لم يفعل ذلك له قال ما قال ، فأكرهه عثمان على رفع مصحفه ، ومحا رسومه ، فلم تثبت له قراءة أبداً ، ونصر الله عثمان والحق بمحوها من الأرض .

تعقيب . . إن العناية الإلهية التي بذلها عظيما الإسلام ؛ أبو بكر وعمر ، وأتمها أخوهما وصنوهما ذو النورين عثمان في جمع القرآن وتثبيته وتوحيد رسمه ، كان لهم بها أعظم المنّة على المسلمين ، وبها حقق الله وعده في قوله سبحانه «إنا

---

(١) صحيح البخاري ك ٥٦ ب ١٢ جـ٣ ص ٢٠٥ .

نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»[1] وقد تولى الخلافة بعد هؤلاء الشيوخ الثلاثة أمير المؤمنين عليٌّ ، فأمضى عملهم وأقر مصحف عثمان برسمه وتلاوته في جميع أمصار ولايته . وبذلك انعقد إجماع المسلمين في الصدر الأول على أن ما قام به أبو بكر وعمر وعثمان هو أعظم حسناتهم ، بل نَقَلَ بعض علماء الشيعة هذا الإجماع على لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . جاء في كتاب تاريخ القرآن لأبي عبدالله الزنجاني ص ٤٦ أن علي بن موسى المعروف بابن طاوس[2] وهو من علمائهم ، نقل في كتاب سعد السعود عن الشهرستاني في مقدمة تفسيره عن سويد بن علقمة قال : سمعت علي بن أبي طالب يقول : أيها الناس الله ، الله ، إياكم والغلو في أمر عثمان ، وقولكم حرّاق المصاحف ، فوالله ما حرقها إلّا عن ملإٍ من أصحاب رسول الله ﷺ ، جمعنا وقال : ما تقولون في هذه القراءة التي اختلف الناس فيها ، يلقى الرجل الرجل فيقول قراءتي خير من قراءتك ، وهذا يجر إلى الكفر؟

فقلنا : ما الرأي ؟

قال : أريد أن أجمع الناس على مصحف واحد ، فإنكم إن اختلفتم اليوم كان مَنْ بعدكم أشد اختلافاً .

فقلنا : نِعْمَ ما رأيت .

ومما لا ريب فيه أن البغاة أنفسهم كانوا في خلافة علي رضي الله عنه يقرؤون في مصاحف عثمان التي أجمع عليها الصحابة وعليٌ فيهم . لكن نجد لهم أذناباً في العصور التالية ، فضَحوا أنفسهم بسخفهم وكفرهم «كشيطان الطاق محمد بن جعفر الرافضي» فيما رواه الإمام ابن حزم في «الفِصَل ٤/١٨١» عن الجاحظ قال :

---

(١) الحجر ١٥/٩ .
(٢) ٥٨٩ـ ٦٦٤ هـ .

أخبرني أبو إسحاق إبراهيم النظام وبشر بن خالد أنهما قالا لمحمد بن جعفر الرافضي المعروف بشيطان الطاق : وَيْحَكَ ! أما استحييت من الله أن تقول في كتابك في الإمامة : إن الله لم يقل في القرآن : «ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا» ؟ [1] قالا : فضحك والله شيطان الطاق ضحكاً طويلاً حتى كأنا نحن الذين أذنبنا !

وشيطان الطاق هذا أكبر دعاة الشيعة في زمن الإمامين زيد وابن أخيه جعفر الصادق ، وهو الذي ابتدع أكذوبة أن الإمامة معهود بها إلى أشخاص بأعيانهم ، ولم يكن أحد يقول بذلك قبل شيطان الطاق هذا . وأنكرها عليه الإمام زيد في مجلس جعفر .

ودعوى الرافضة بتبديل القرآن ، مع تصريح عليٍّ باجماع الصحابة على ما قام به عثمان ، صارت مادة دسمة لدعاة النصارى يحتجون بها ، فقال لهم الإمام بن حزم في الفصل ٢/٢٨ : «إن الروافض ليسوا من المسلمين . . وهي طائفة تجري مجرى اليهود والنصارى في الكذب والكفر» وقال القاضي أبو بكر بن العربي في «العواصم من القواصم ٧٠ : وآخر من افتضح منهم بهذا الأمر وفضَح به الشيعة جميعاً ، حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي بكتابه الذي اقترفه في المشهد المنسوب لأمير المؤمنين علي في النجف سنة ١٢٩٢ هـ وطبع في إيران سنة ١٢٩٨ هـ وعندي نسخة منه ، وإن من طبيعة التحزب والتعصب والتشيع أنْ يذهَبَ بعقول أصحابه وأخلاقهم ، ثم يذهب بحيائهم ودينهم ، كما برهن على ذلك علماء النفس الاجتماعي وفي مقدمتهم الدكتور غوستاف لوبون .

---

(١) التوبة ٩/٤٠

٥ ـ وأما الحمى . . فكان قديماً ، إذ كان الشريف في الجاهلية ، إذا نزل أرضا في حيه استعوى كلباً ، فحمى لخيله وإبله وسوائمه مدى عواء الكلب لا يشركه فيه غيره . فلما جاء الإسلام نهى النبي ﷺ عن ذلك ، واختص الحمى بإبل الزكاة المرصدة للجهاد والمصالح العامة ، فقال ﷺ : «لا حمى إلاّ لله ورسوله» [1] وحمى رسول الله ﷺ . وسلم «النقيع» وهو على مسافة عشرين فرسخاً من المدينة ومساحته ميل في ثمانية أميال كما في موطأ مالك برواية ابن وهب ، ومعلوم أن الحال استمر في خلافة أبي بكر على ما كان عليه زمن النبي ﷺ . وفي زمن عمر اتّسع الحمى فشمل «سرف» و«الربذة» وكان لعمر عامل على الحمى هو مولى له يدعى هنياً . واتّسع عثمان بعد ذلك لاتِّساع الدولة وازدياد الفتوح فزاد فيه لمَّا زادت الرعية ، وإذا جاز أصلحه للحاجة إليه ، جازت الزيادة لزيادة الحاجة ، فما هو المأخذ على عثمان في هذا ؟

فالذي أجازه النبي ﷺ لسوائم بيت المال ، ومضى على مثله أبو بكر وعمر ، يجوز مثله لبيت المال في زمن عثمان ، ويكون الاعتراض عليه اعتراضاً على أمر داخل في التشريع الإسلامي . ولما أجاب عثمان على مسألة الحمى عندما دافع عن نفسه على ملإٍ من الصحابة أعلن أن الذين يلون له الحمى اقتصروا فيه على صدقات المسلمين يحمونها لئلاَّ يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ، وأنهم ما منعوا ولا نحوُّا منها أحداً . وذكر عن نفسه أنه قبل أن يلي الخلافة كان أكثر العرب بعيراً وشاءً ، ثم أمسى وليس له غير بعيرين لحجّه . وسأل من يعرف ذلك من الصحابة : أكذلك ؟ قالوا : اللهمَّ نعم .

---

(١) رواه البخاري من حديث الصعب بن جثامة في كتاب المساقاة ك ٤٢ ب «وكتاب الجهاذك ٥٦ ب ١٤٦ .

٦ ـ وأخرج أبا الدرداء من الشام . . ليس الأمر كذلك ، إنما وقع بين أبي الدرداء ومعاوية كلام ، وكان أبو الدرداء زاهداً فاضلاً قاضياً لهم في دمشق ، فلما اشتد في الحق ، وأخرج طريقة عمر في قوم لم يحتملوه ، عزلوه ، فخرج إلى المدينة . وهذه كلها مصالح لا تقدح في الدين ، ولا تؤثر في منزلة أحد من المسلمين بحال . وأبو الدرداء وأبو ذر بريئان ممن عاب ، وعثمان بريء أعظم براءة وأكثر نزاهة . فمن روى أنه نفي وروى سبباً ، فهو كله باطل .

ثم إن معاوية نفسه حاول السير على طريقة عمر ، كما نقل ذلك الحافظ بن كثير في البداية والنهاية ٨/١٣١ عن محمد بن سعد قال : حدثنا عارم ، حدثنا حماد بن يزيد ، عن معمر ، عن الزهري : «أن معاوية عمل سنتين عمل عمر ما يخرم فيه، ثم إنه بعُد عن ذلك». وقد يظن من لا نظر له في حياة الشعوب وسياستها ، أن الحاكم يستطيع أن يكون كما يريد أن يكون حيثما يكون . وهذا خطأ ، فللبيئة من التأثير في الحاكم وفي نظام الحكم أكثر ما للحاكم ونظام الحكم من التأثير على البيئة ، وهذا من معاني قول الله عزّ وجل : «لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»[1] .

٧ ـ رَدُّ الحَكَمِ . . لم يصحَّ زعمُ البغاة على عثمان ، أن عثمان خالف في ذلك ما يقتضيه الشرع ، فقال علماؤنا في جوابه : قد كان أذن له فيه رسول الله ﷺ ، وقال عثمان لأبي بكر وعمر ، فقالا له : إن كان معك شهيد ردَدْناه . فلما وليَ قضى بعلمه في رَدّه . وما كان عثمان ليصلَ مهجورَ رسول الله ﷺ ، ولو كان أباه ، ولا لينقض حكمه .

---

(١) الرعد ١٣/١١ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة ٣/١٩٦ : «وقد طعن كثير من أهل العلم في نفيه (أي في نفي النبي ﷺ الحَكَم) وقالوا : ذهب باختياره . وقصة نفي الحكَمِ ليست في الصحاح ، ولا لها إسناد يعرف به أمرها» ثم قال : «لم تكن الطلقاء تسكن بالمدينة ، فإن كان طرده فإنما طرده من مكة لا من المدينة ، ولو طرده من المدينة لكان يرسله إلى مكة .

وقد طعن كثير من أهل العلم في نفيه كما تقدم ، وقالوا : هو ذهب باختياره . . وإذا كان النبي ﷺ قد عزَّر رجلاً بالنفي ، لم يلزم أن يبقى منفياً طول الزمان ، فإن هذا لا يعرف في شيء من الذنوب ، ولم تأتِ الشريعة بذنب يبقى صاحبه منفياً دائماً .

وقد كان عثمان شفع في عبدالله بن سعد بن أبي سرح فقبل ﷺ شفاعته فيه وبايعه ، فكيف لا يقبل شفاعته في الحَكَمِ ؟ وقد رووا أن عثمان سأله أن يرده فأذن له في ذلك . ونحن نعلم أن ذنبه دون ذنب عبدالله بن سعد بن أبي سرح . وقصة عبدالله ثابتة معروفة بالإسناد . وأما قصة الحكَمِ فإنما ذكرت مرسلة ، وقد ذكرها المؤرخون الذين يكثر الكذب فيما يروونه ، فلم يكن هناك نقل ثابت يوجب القدح فيمن هو دون عثمان . والمعلوم من فضائل عثمان ومحبة النبي ﷺ له وثنائه عليه وتخصيصه بابنتيه وشهادته له بالجنة ، وإرساله إلى مكة ومبايعته له عنه وتقديم الصحابة له في الخلافة وشهادة عمر وغيره له أن رسول الله ﷺ مات وهو عنه راض ، وأمثال ذلك مما يوجب العلم القطعي بأنه من كبار أولياء الله المتقين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه . فلا يدفع هذا ، بنقل لا يثبت إسناده ولا يعرف كيف وقع ، ويُجعل لعثمان ذنب بأمر لا تعرف حقيقته . . .» .

ونقل الإمام أبو محمد بن حزم في كتاب «الإمامة والمفاضلة» المدرج في الجزء الرابع من كتابه «الفِصَل» صفحة ١٥٤ قول مَن احتج لعثمان على من أنكروا ذلك

عليه : «ونفي رسول الله ﷺ لم يكن حداً واجباً ، ولا شريعة على التأبيد ، وإنما كان عقوبة على ذنب استحق به النفي ، والتوبة مبسوطة ، فإذا تاب سقطت عنه تلك العقوبة بلا خلاف من أحد من أهل الإسلام ، وصارت الأرض كلُّها مباحة» .

ونقل مجتهد الزيدية السيد محمد بن إبراهيم الوزير اليمني [1] في كتابه الروض الباسم في الذبِّ عن سنة أبي القاسم ١٤١ ـ ١/١٤٢ قول الحاكم المحسن بن كرامة المعتزلي في كتابه سرح العيون : إنّ رسول الله ﷺ أذن في ذلك لعثمان .

قال ابن الوزير : إن المعتزلة من الزيدية يلزمهم قبول هذا الحديث وترك الاعتراض على عثمان بذلك ، لأن راوي الحديث عندهم من المشاهير بالثقة والعلم وصحَّة العقيدة . ثم بسط ابن الوزير الكلام على هذا الموضوع بحجج واستدلالات استغرقت ثلاث صفحات دفاعاً عن أمير المؤمنين عثمان في ردِّه الحَكَمَ . وهذه الحجج من أحد أئمّة الزيدية ومجتهديهم ـ بعد روايته ذلك الحديث عن الإمام المعتزلي المتشيع ـ لها دلالتها الخاصّة ، بعد الذي سمعته من إمامي أهل السنة شيخ الإسلام ، والقاضي ابن العربي ، ومن إمام أهل الظاهر أبي محمّد بن حزم [2] .

٨ ـ أبطال سنة القصر في الصلوات في السفر . . أمّا ترك القصر فاجتهاد، إذْ سمع عثمانُ أنَّ الناس افتتنوا بالقصر [3] ، وفعلوا ذلك في منازلهم . فرأى أن السنَّة

---

(١) المتوفي سنة ٨٤٠ هـ .
(٢) العواصم من القواصم ٧٧ ـ ٧٩ .
(٣) القصر : هو اختصار الصلاة بركعتين عند السفر .

ربّما أدت إلى اسقاط الفريضة ، فتركها خوف الذريعة . وكان ذلك في مِنىً في موسم الحج سنة ٢٩ هـ ، وقد عاتب عبدُ الرحمن بن عوف عثمان في إتمامه الصلاة وهم في منىً، فاعتذر له عثمانُ بأن بعض من حج من أهل اليمن وجُفاة الناس قالوا في العام الماضي : إن الصلاة للمقيم ركعتان ، وهذا إمامكم عثمان يصلي ركعتين . ثم قال عثمان لعبد الرحمن بن عوف : وقد اتخذتُ بمكة أهلاً «أي أنه صار في حكم المقيم ، لا المسافر» فرأيت أن أصلي أربعاً لخوف ما أخاف على الناس .

ثم خرج عبد الرحمن بن عوف من عند عثمان ، فلقي عبدالله بن مسعود ، وخاطبه في ذلك ، فقال ابن مسعود : «الخلاف شر ، قد بلغني أنه صلّى أربعاً ، فصليت بأصحابي أربعاً» . فقال عبد الرحمن بن عوف : «قد بلغني أنّه صلّى أربعاً ، فصليت بأصحابي ركعتين ، وأما الآن فسوف يكون الذي تقول» يعني نصلّي معه أربعاً[١] .

هذا مع أن جماعة من العلماء قالوا : إن المسافر مخير بين القصر والإتمام ، واختلف في ذلك الصحابة . فقد نقل محمد بن يحيى الأشعري المالكي المعروف بابن بكر[٢] في كتابه «التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان» وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية برقم ٢٣ أنه روى عن جماعة من الصحابة إتمام الصلاة في السفر ، منهم عائشة وسلمان وأربعة عشر من الصحابة .

وفي أبواب التقصير من صحيح البخاري ك ١٨ ب ٥/جـ ٢ ص ٣٦ حديث الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت : «الصلاة أول

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٥٦ ـ ٥/٥٧ .
(٢) ٦٧٤ ـ ٧٤١ هـ .

ما فرضت ركعتان ، فأُقرت صلاة السفر ، وأُتمت صلاة الحضر» . قال الزهري : فقلت لعروة : ما بال عائشة تُتِمُ ؟ قال : تأوَّلت ما تأوَّل عثمان .

وجاء في مسند أحمد بن حنبل ٤ : ٩٤ عن عبادة عبدالله بن الزبير قال : لما قدم علينا معاوية حاجاً قدمنا معه مكة، فصلَّى بنا الظهر ركعتين، ثم انصرف إلى دار الندوة . وكان عثمان يتمُّ الصلاة إذا قدم مكّة ، صلّى بها الظهر والعصر والعشاء الآخرة أربعاً أربعاً ، فإذا خرج إلى منى وعرفات قصر الصلاة ، فإذا فرغ من الحجِّ وأقام بمنى أتم الصلاة حتى يخرج من مكة . فلما صلّى بنا معاوية الظهر ركعتين نهض إليه مروان وعمرو بن عثمان فقالا له : ما عاب أحدٌ ابن عمك ـ أي عثمان ـ بأقبح مما عبته !

قال لهما : وما ذاك ؟

فقالا له : ألم تعلم أنه أتمَّ الصلاة بمكَّة .

فذكر لهما أنه صلاهما مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر .

قالا : فإنّ ابن عمِّك كان أتمَّها .

والظاهر أن معاوية رأى القَصْرَ رخصةً ، وأن المسافر على التخيير ، فصلَّى العصر أربعاً .

٩ ـ وأما ولاية معاوية . . فعمر رضي الله عنه ولّاه ، وجمع له الشامات كلها ، وأقرَّه عثمان . بل إنّما ولّاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، لأنه وَلِيَ أخاه يزيد بن أبي سفيان ، واستخلفه يزيد ، فأقرّه عمر لتعلقه بولاية أبي بكر لأجل استخلاف واليه له ، فتعلَّق عثمان بعمر وأقرّه أيضاً . فانظروا إلى هذه السلسلة ما أوثق عراها ، ولن يأتي أحد مثلها أبداً بعدها[1] .

---

(١) انظر كتاب العواصم من القواصم للقاضي أبي بكر بن العربي تحقيق محب الدين الخطيب .

ولقد بلغت دولة الإسلام في خلافة أبي بكر وعمر الذروة في العِزّ ، وكانت مضرب المثل في الفلاح الإنساني وسعادة المجتمع ، لأن أبا بكر وعمر كانا يكتشفان بنور الله عزَّ وجلَّ كوامن السجايا في أهلها ، وعناصر الرجولة في الرجال ، فيوليانهم القيادة ، ويبوئانهم مقاعد السيادة ، ويأتمنانهم على أمة محمد ﷺ ، وهما يعلمان أنهما مسؤولان عن ذلك بين يدي الله عز وجل وقد مرَّ معنا أن يزيد بن أبي سفيان وأخاه معاوية كانا من رجال دولة أبي بكر الصديق الذين اختارهم لحمل أعباء الأمّة في حربها وسلمها ، فأحسن بذلك كل الإحسان .

ولما ولي يزيد بن أبي سفيان قيادة أحد جيوشه خرج معه أبو بكر يشيِّعه ماشياً[1] ومعاوية مذكور في التاريخ بعد أخيه لأنه أصغر منه سنّاً ، لا لأنه أقل منه في استكمال صفات القيادة والسيادة .

وقبل أن يكون معاوية من رجال الدولتين البكرية والعمرية كان أحد الذين استعملهم رسول الله ﷺ واستعان بهم ، وكان يدعوه لذلك في بعض الأحيان ـ ومعاوية يأكل ـ ويلحُّ في دعوته ويرسل إليه المرَّة بعد المرَّة يستعجله في المجيء إليه . فالنبي عليه الصلاة والسلام ولّى معاويةَ شيئاً من عمله قبل أن يولِّيه أبو بكر وعمر ، وولَّى يزيد بن أبي سفيان أيضاً كما جاء في «فتوح البلدان» للبلاذري[2] . أما الذين يضطغنون البغضاء والحقد لأصحاب رسول الله ﷺ ولاسيَّما بني أمية منهم فلن يستطيعوا أن ينكروا أن النبي ﷺ استعمل معاوية في الكتابة له ، فقالوا إنه كان يكتب له ، ولكنَّه لم يكن يكتب الوحي ، وهم يقولون هذا بوحيٍ أُوحيَ إليهم من الشيطان ، وليس في يدهم نصٌّ تاريخي أو دليل شرعي يرجعون إليه ،

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٣٠/٤ .
(٢) انظر فتوح البلدان للبلازردي صفحة ٤٨ طبع مصر ١٣٥٠ هـ .

فميَّزوا بين أمور لا حجَّة لهم في التمييز بينها ، والنبيّ ﷺ لو كان يميِّز بين كتبه في أمور دون أمور لتواتر ذلك عنه ولنَقَلَهُ الناقلون كما وقع فيما هو أقلُّ من هذا شأناً .

وقد نقل الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ٨/١٣٣ عن الليث بن سعد وهو إمام مصر وعالمها ورئيسها[1] قال : حدَّثنا بكير بن عبدالله الأشج المدني ثم المصري[2] قال عنه الإمام النسائي : ثقة ثبت . وعن بسر بن سعيد المدني[3] قال عنه ابن معين : ثقة . وقال عنه الليث بن سعد وكان من العُبَّاد المنقطعين أهل الزهد في الدنيا والورع ، أن سعد بن أبي وقَّاص أحد العشرة المبشرين بالجنة قال : «ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بحق من صاحب هذا الباب» يعني معاوية . وروى ابن كثير أيضاً ٨/١٣٥ في البداية والنهاية ، عن عبد الرزاق بن همام الصنعاني أحد الأئمة الأعلام الحفاظ ، وكان ينسب إلى التشيع ، عن معمر ابن راشد أبي عروة البصري ثم اليماني وكان أحد الأعلام ، عن همام بن منبه الصنعاني وكان ثقة قال : سمعت ابن عباس يقول : «ما رأيت رجلاً أخلق بالمُلك من معاوية» وهل يكون الرجل أخلق الناس بالملك إلّا أن يكون عادلاً حكيماً حليماً ، يحسن الدفاع عن ملكه ، ويستعين الله في نشر دعوة الله في الممالك الأخرى ، ويقوم بالأمانة في الأمَّة التي ائتمنه الله عليها ؟

والذي يكون أخلق الناس بالملك هل يلام عثمان على توليته ؟

يا عجباً كيف يلام عثمان على توليته وقد ولاه من قبله عمر ، وتولى لأبي بكر

---

(١) توفي سنة ١٧٥ هـ .
(٢) المتوفي سنة ١٢٧ هـ .
(٣) المتوفي سنة ١٠٠ هـ .

من قبل عمر ، وتولى بعض عمل رسول الله ﷺ قبل أن تصير الخلافة إلى أبي بكر وعمر وعثمان !

إن المخَّ الذي يعبث به الشيطان فيسوّل له مثل هذا والوسواس لاشك أنه مخٌ فاسد ، يفسد على الناس عقولهم ومنطقهم قبل أن يفسد عليهم دينهم وتاريخهم ، فمن الواجب على محبيِّ الحقِّ والخير أن يتحاموا كل من يحمل في رأسه مثل هذا المخَّ كما يتحامون المجذوم .

فقد روى الإمام الترمذي عن أبي ادريس الخولاني من كبار علماء التابعين وأعلم أهل الشام بعد أبي الدرداء أن عمر بن الخطاب لما عزل عمير بن سعيد الأنصاري الأوسيَّ عن حمص وولَّى معاوية ، قال الناس : عزل عميراً وولَّى معاوية، قال البغوي في معجم الصحابة : وكان عمير يقال له «نسيج وحده» قال ابن سيرين : إن عمر كان يسميه بذلك لإعجابه به ، وكان عمير من الزهاد ، فقال عمير : لا تذكروا معاوية إلّا بخير ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : اللهم اهد به .

ويروى أن الذي شهد هذه الشهادة لمعاوية أمير المؤمنين عمر ! فإن كان هو الذي شهِدَ هَاَلَهُ وَرَوى دُعاء رسول الله ﷺ لمعاوية بأن يهدي الله به ، فذلك أمر عظيم لِعِظَمِ مكانة عمر . وإن كان الذي شهد بذلك عمير بن سعد الأنصاري مع أنه هو المعزول بمعاوية عن ولاية حمص ، فإن ذلك لا يقل عظمة عما لو كانت الشهادة لمعاوية من عمر . وقد علمنا أن عميراً من أصحاب رسول الله ﷺ ، وأنه من زهاد الأنصار .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة ٣/١٨٩ : «وكانت سيرة معاوية مع رعيته من خيار سير الولاة ، وكان رعيته يحبونه ، وقد ثبت في

الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : «خيار أئمتكم الذي تحبُّونهم ويحبُّونكم ، وتصلُّون عليهم ويصلُّون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم» .

١٠ ـ وأمّا توليته لعبدالله بن عامر بن كريز . . فأنما وَلّاه كما قال ، لأنه كريم العمات والخالات ، فهو عبشمي الآباء[1] هاشمي الخؤولة . فإن أم أبيه أروى بنت كريز ، أمها البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم عمة النبي ﷺ . فلما ولد أتي به إلى النبي ﷺ فقال لبني عبد شمس : «هذا أشبه بنا منه بكم» ثم تفل في فيه ، فازدرده ، فقال عليه الصلاة والسلام : «أرجو أن يكون مَسْقِيّاً» فكان لا يعالج أرضاً إلّا ظهر منها الماء . ونشأ سخيّاً كريماً شجاعاً ميمون النقيبة كثير المناقب . افتتح خراسان كلَّها ، وأطراف فارس ، وسجستان ، وكرمان حتى بلغ أعمال غزنة ، وقضى على يزدجرد بن شهريار آخر ملوك الفرس . ويعتقد الإيرانيون أن سلسلة ملوكهم بدأت بآدم الذي يسمونه «جيومرت» فظلَّ مُلْكُ أولاده منتظماً على سياق إلى أن كان القضاء الأخير عليه بسلطان الإسلام في خلافة أمير المؤمنين عثمان بجهاد هذا العبشميّ الآباء الهاشمي الخؤولة عبدالله بن عامر بن كريز . فهم يحقدون على هؤلاء ويحاربونهم إلى اليوم بسلاح الكذب ، والبغض ، والدسائس ، وسيستمرُّ ذلك إلى اليوم القيامة .

ودع عنك فتوح عبدالله بن عامر بن كريز التي وصلت إلى أقصى المشارق ، وتقويضه آخر أمل للامبراطورية المجوسيَّة ، فإن حسناته الانسانية أيضاً جديرة بالتسجيل ، قال ابن كثير في البداية والنهاية ٨/٨٨ : «إنه أوَّل من اتَّخذ الحياض بعرفة لحجاج بيت الله الحرام وأجرى إليها الماء المعين» .

---

(١) عبشمي : أي من عبد شمس .

وقال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة ١٨٩ ـ ٣/١٩٠ : «إن له من الحسنات والمحبَّة في قلوب الناس ما لا ينكر» .

ومثل هؤلاء الرجال لو كانوا من سلف الإنكليز أو الفرنسيين لخلدوا عظمتهم في كتب الدراسة والثقافة والتهذيب ، فتهافتت وزارات معارفنا وتعليمنا على نقل ذلك إلى كتبنا المدرسية ، ليؤمن جيلنا بعظمة أسلاف المستعمرين ، أمّا عظمة أسلافنا نحن فقد سَلَّطَ الشيطانُ عليها قلوباً فاسدة تفيض بالسوء ، وصدَّق أكاذيبها الأكثرون منا ، فأمسينا كالأمة التي لا مجد لها ، بينما هي نائمة على تراث من المجد لا تحلم الإنسانية بمثله[1] .

١١ ـ وأما توليته الوليد بن عقبة : فإن الناس ـ على فساد النيات ـ أسرعوا إلى السيئات قبل الحسنات ، وإلى التشهير قبل التقدير لأنَّ النوايا الخبيثة مبيتةٌ ، فذكر الافترائيون أنَّه ولّاه لأنه أخوه لأمه أروى بنت كريز ، وأمُّها البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم .

فقال عثمان : ما وليت الوليد بن عقبة لأنه أخي ، وإنما لأنه ابن أم حكيم البيضاء عمَّه رسول الله ﷺ وتوأمة أبيه عبدالله ، ولأسبقيَّته في الإسلام .

وقد يظنُّ من لا يعرف صدر هذه الامة ، من الأعاجم والدهماء والسفهاء المارقين ، أن أمير المؤمنين عثمان جاء بالوليد بن عقبة من عرض الطريق فولّاه الكوفة . أمّا الذين أنعم الله عليهم بنعمة الأنس بأحوال ذلك العصر وأهله ، فيعلمون أن دولة الإسلام الأولى في خلافة الصدِّيق تلقفت هذا الشابَّ الماضي العزيمة الرضيّ الخلق الصادق الايمان ، فاستعملت مواهبه في سبيل الله إلى أن توفي

---

(١) العواصم من القواصم للقاضي أبي بكر بن العربي .

أبو بكر ، وأول عمل أسند له في خلفة أبي بكر أنَّه كان موضع السر في الرسائل الحربية التي دارت بين الخليفة وقائده خالد بن الوليد في وقعة المذار مع الفرس سنة ١٢ هـ[١] وفي سنة ١٣ هـ كان الوليد يلي لأبي بكر صدقات قضاعة . ثم لما عزم الصدِّيق على فتح الشام كان الوليد عنده بمنزلة عمرو بن العاص في الحرمة والثقة والكرامة ، فكتب إلى عمرو بن العاص وإلى الوليد بن عقبة يدعوهما لقيادة فيالق الجهاد . فسار ابن العاص بلواء الإسلام نحو فلسطين ، وسار الوليد بن عقبة قائداً إلى شرق الأردن[٢] .

ثم رأينا الوليد في سنة ١٥ هـ أميراً على بلاد بني تغلب وعرب الجزيرة[٣] يحمي ظهور المجاهدين في شمال الشام لئلّا يؤتوا من خلفهم ، فكانت تحت قيادته ربيعة وتنوخ مسلمهم وكافرهم . وانتهز الوليد بن عقبة فرصة ولايته وقيادته على هذه الجهة التي كانت لا تزال مليئة بنصارى القبائل العربية فكان ـ مع جهاده الحربي ، وعمله الإداري ـ داعياً إلى الله يستعمل جميع أساليب الحكمة والموعظة الحسنة لحمل نصارى إياد وتغلب على أن يكونوا مسلمين كسائر العرب . وهربت منه إياد الى الأناضول وهو تحت حكم البيزنطيين ، فحمل الوليدُ خليفتهُ عمر على كتابة كتاب تهديد إلى قيصر القسطنطينية بأن يردَّهم إلى حدود الدولة الإسلامية . وحاولت تغلب أن تتمرَّد على الوليد في نشره الدعوة الإسلامية بين شبانها وأطفالها، فغضب غضبته المضرية المؤيدة بالإيمان الإسلامي ، وقال فيهم كلمته المشهورة :

إذا ما عصبتُ الرأس مني بمشوذ فغيـك مني تغلب ابنة وائـل

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٤/٢٢ .
(٢) تاريخ الطبري ٢٩ ـ ٤/٣٠ .
(٣) تاريخ الطبري ٤/١٥٥ .

وبلغت هذه الكلمة عمر ، فخاف أن يبطش قائده الشاب بنصارى تغلب فيفلت من يده زمامهم ، في الوقت الذي يحاربون فيه مع المسلمين حميَّة للعروبة ، فكفَّ عنهم يد الوليد ونحَّاه عن منطقتهم .

وبهذا الماضي المجيد جاء الوليد بن عقبة في خلافة عثمان فتولى الكوفة ، وكان من خير ولاتها عدلاً ورفقاً وإحساناً ، وكانت جيوشه مدَّة ولايته على الكوفة تسير في آفاق الشرق فاتحة ظافرة موفقة .

ومن ثمَّ فالولاية اجتهاد في تولية الولاة وعزلهم ، ولذلك لفقه عظيم ومعارف بديعه بينها أئمّة الإسلام وعلماؤه في الكتب التي عقدوها للإمامة وسياسة الدولة في كتبهم المصنفة في أصول الدين . فهذا عمر بن الخطاب يعزل سعد بن أبي وقاص سنة ٢١ هـ ويقدم عليه من هو أقل منه درجة ، كعبدالله بن عبدالله بن عتبان ، وفي زمانه كانت وقعة نهاوند ، ثم زياد بن حنضلة الذي ألَحَّ في الاستعفاء فأعفي ، وولى بعدهما عمار بن ياسر[1] .

قد زعموا أن الحسن بن الطهر الحلي في كتابه منهاج الكرامة ، أن عثمان ولّى أمور المسلمين من لا يصلح للولاية .

ومن المعلوم أن عثمان رضي الله عنه ولَّى أقاربه من بني أمية . ومعلوم أن علياً رضي الله عنه ولى أقاربه من قبل أبيه وأمه :

فولى عبيدالله بن عباس على اليمن .

---

(١) الطبري ٤/٢٤٦ وما قبلها .

وولى على مكة والطائف قثم بن العباس .

وأما المدينة فقيل إنه ولّى عليها سهل بن حنيف ، وقيل ثمامة بن العباس .

وأما البصرة فولى عليها عبدالله بن عباس .

وولى على مصر ربيبه محمد بن أبي بكر الذي رباه في حجره ، وتزوج أمَّهُ أسماءَ بنتَ عُمَيْسٍ بعد وفاة أبي بكر وكانَ محمدٌ صغيراً .

ثم إن الإماميَّة تدَّعي أن عليّاً نصَّ على أولاده في الخلافة ، أو على ولده ، وولده على ولده الآخر وهلم جرا . ومن المعلوم ؛ إن كان تولية الأقربين منكراً ، فتولية الخلافة العظمى أعظم من إمارة بعض الأعمال !

ثم قال : إن بني أميَّة كان رسول الله ﷺ يستعملهم في حياته ، واستعملهم بعده من لا يتَّهمُ بقرابته فيهم : أبو بكر وعمر . ولا تعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال لرسول الله ﷺ أكثر من بني عبدشمس ، لأنهم كانوا كثيرين ، وكان فيهم شرفٌ وسؤدد .

فاستعمل النبي ﷺ في عِزَّةِ الإسلام على أفضل الأرض مكة ، عتاب بن أُسَيْد بن أبي العاص بن أميَّة .

واستعمل على نجران أبا سفيان بن حرب بن أميَّة .

واستعمل خالد بن سعيد بن العاص على صدقات بني مذحج ، وعلى صنعاء واليمن حتى مات رسول الله ﷺ .

واستعمل عثمان بن سعيد بن العاص على تيماء وخيبر وقرى عرينة .

واستعمل أبان بن سعيد بن العاص على بعض السرايا ، ثم استعمله على البحرين ، فلم يزل عليها بعد العلاء بن الحضرمي ـ حليف بني أمية ـ حتى توفيَّ النبي عليه الصلاة والسلام .

ويقول عثمان بن عفان : أنا لم أستعمل إلاّ من استعمله النبيُّ ﷺ ، ومن جنسهم ومن قبيلتهم ، وكذلك أبو بكر وعمر بعده . فكان الاحتجاج على جواز الاستعمال من بني أميَّة بالنص الثابت عن النبي ﷺ أظهر عند كل عاقل من دعوى كون الخلافة في واحد معين من بني هاشم بالنص ، لأن هذا كذب باتِّفاق أهل العلم بالنقل ، وذلك صدق باتِّفاق أهل العمل بالنقل[1] .

والذي يستعرض حياة عمال عثمان وجهادهم وفضائلهم يراهم في الذروة العليا من رجال الدولة ، ولا يتردد في أنهم من بناة الأساس الأقوم في مجد الإسلام الإداريّ والعسكريّ ، ولهم ثواب نتائجه في الفتوح وانتشار دعوة الإسلام بما يعده التاريخ من معجزاته الخارقة للعادات .

١٢ ـ وأمّا قول المتقوِّلين في مروان بن الحكم والوليد بن عقبة ، فشديد عليهم ، وحكم عليهما بالفسق فسق منهم . ومروان رجل عدل من كبار الأمة عند الصحابة ، والتابعين ، وفقهاء المسلمين .

ـ أما الصحابة ، فإن سهل بن سعد الساعدي روى عنه في صحيح البخاري وغيره .

---

(١) انظر منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢٣٦ ـ ٣/٢٣٧ .

ـ وأمَّا التابعون ، فأصحابه في السنن ، وإن جازهم باسم الصحبة في أحد القولين .

ـ وأمَّا فقهاء الأمصار فكلُّهم على تعظيمه ، واعتبار خلافته ، والتلفُّت إلى فتواه ، والانقياد إلى روايته .

وأمَّا السفهاء من المؤرخين ، والأدباء من الشعوبيِّين أعداء العروبة والإسلام فيقولون على أقدارهم .

وفي طليعة من روى عنه من كبار التابعين زين العابدين علي بن الحسين السبط ، نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية [1] في منهاج السنة ، والحافظ ابن حجر في الإصابة، وترى تفصيله في طبقات الشافعيّة الكبرى للتاج السبكي في ترجمة اللغوي الشهير أبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهر صاحب تهذيب اللغة [2] .

وممن نص الحافظ ابن حجر على روايتهم عن مروان : سعيد بن المسيِّب رأس علماء التابعين ، وإخوانه من الفقهاء السبعة ، أبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي ، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود ، وعروة بن الزبير ، وأضرابهم كعراك بن مالك الغفاري المدني فقيه أهل دهلك وكان يصوم الدهر ، وكعبدالله بن شدَّاد بن الهاد أحد الرواة عن عمر وعلي ومعاذ .

---

(١) منهاج السنة لابن تيمية ٢/١٢٣ .
(٢) ٢٨٢ ـ ٣٧٠ هـ .

وإن رواية عروة بن الزبير عن مروان في كتاب الوكالة من صحيح البخاري ك ٤٠ ب ٧ ـ ج ٣ ص ٦٢ وفي مسند الإمام أحمد الطبعة الأولى ٣٢١ و٣٢٣ و٣٢٦ و٤/٣٢٨ و٥/١٨٩ ورواية عراك عن مروان نقلها إمام أهل مصر الليث بن سعد عن يزيد بن حبيبة في مسند أحمد ٤/٣٢٨ ورواية عبدالله بن شداد بن الهاد عن مروان في مسند أحمد ٣١٧ و٦/٣٢٣ .

والذي يتأمل في الأحاديث المروية عن مروان يجد حَمَلَتها من الأئمة الثقّات تتسلسل روايتهم عنه مدّة جيلين وأكثر ، وكلهم أعلى مرتبة في الإسلام من الذين يُبَرِّدُون الغلَّ الذي في قلوبهم بالطعن في مروان ومن هو خير من مروان ، بل في رواة أحاديث مروان من مثل عبدالرزاق إمام أهل اليمن صاحب نزعة التشيّع .

وفي مسند أحمد ٦/٣١٢ حديث عبدالرحمن بن الحارث بن هشام أنه كان رسول مروان إلى أم المؤمنين أم سلمة في تحقيق بعض الأحكام الشرعية . وفي ٦/٢٩٩ من مسند أحمد نموذج لعظيم عناية مروان بسنة رسول الله ﷺ بأقصى ما يمكن أن يصدر عن أئمة المسلمين وأمرائهم .

أما الوليد بن عقبة ، فقد روى بعض المفسِّرين ، أنَّ الله سمَّاه فاسقاً في قوله «إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيَّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة»[1] فإنها في قولهم نزلت فيه ؛ أرسله النبي ﷺ إلى بني المصطلق ، فأخبر عنهم أنَّهم ارتدُّوا ، فأرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فتَثَبَّتَ في أمرهم فَبَيَّنَ بطلان قوله .

وقد اختلف فيه ، فقيل نزلت في ذلك ، وقيل في عليٍّ والوليد في قصة أخرى ، وقيل إن الوليد سبق يوم الفتح في جملة الصبيان إلى رسول الله ﷺ ،

---

(١) الحجرات ٤٩/٦ .

فمسح رؤوسهم وبرّك عليهم إلاّ هو، فقال : إنه كان على رأسي خلوقٌ ، فامتنع ﷺ من مسِّه ، فمن يكون في مثل هذه السنِّ يرسل مصدّقاً[1] وبهذا الاختلاف يُسقط العلماء الأحاديث القويّة ، وكيف يفسق رجل بمثل هذا الكلام ؟ فكيف برجل من أصحاب محمد ﷺ .

يقول القاضي أبو بكر بن العربي : كنت فيما مضى أعجب كيف تكون هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة ، ويسميه الله فاسقاً ، ثم تبقى له في نفس خليفتي رسول الله ﷺ أبي بكر وعمر المكانة التي سجّلها له التاريخ ، وقد أشرنا الى ذلك في ما سبق . ان هذا التناقض بين ثقة أبي بكر وعمر بالوليد بن عقبة ، وبين ما كان ينبغي أن يعامل به لو أن الله سمّاه فاسقاً ، حملني على الشك في أن تكون الآية نزلت فيه ، لا استبعاداً لوقوع أمر من الوليد يُعَدُّبه فاسقاً ، ولكن استبعاداً لأن يكون الموصوم بالفسق في صريح القرآن محل الثقة من رجلين لا نعرف في أولياء الله عز وجلّ بعد رسول الله ﷺ من هو أقرب إلى الله منهما . وبعد أن ساورني هذا الشك أعدْتُ النظر في الأخبار التي وردت عن سبب نزول الآية «إن جاءكم فاسق . . .» فلما عكفت على دراستها وجدتها موقوفة على مجاهد ، أو قتادة ، أو ابن أبي ليلى ، أو يزيد بن رُمان ؛ ولم يذكر أحد منهم أسماء رواة هذه الأخبار في مدة مئة سنة أو أكثر مرت بين أيامهم وزمن الحادث . وهذه المئة من السنين حافلة بالرواة من مشارب مختلفة ، وإن الذين لهم هوى في تسويء سمعة مثل الوليد ، ومن هم أعظم مقاماً من الوليد قد ملؤوا الدنيا أخباراً مريبةً ليس لها قيمة علميّة .

---

(١) هذا الحديث عن سن الوليد بن عقبة يوم الفتح رواه الإمام أحمد في مسنده (٤/٣٢) الطبعة الأولى .

وما دام رواة تلك الأخبار في سبب نزول الآية مجهولين من علماء الجرح والتعديل بعد الرجال الموقوفة هذه الأخبار عليهم ، وعلماء الجرح والتعديل لا يعرفون ، من أمرهم حتى ولا أسماءهم ، فمن غير الجائز شرعاً وتاريخاً الحكم بصحة هذه الأخبار المتقطعة التي لا نسب لها .

وهنالك خبران موصولان أحدهما عن أم سلمة ، زعم موسى بن عبيدة أنه سمعه من ثابت مولى أم سلمة . وموسى بن عبيدة ضعفه النسائي وابن المدني وابن عدي وجماعة أخرى . وثابت المزعوم أنه مولى أم سلمة ليس له ذكر في كل ما رجعت إليه من كتب العلم ، فلم يذكر في تهذيب التهذيب ، ولا في تقريب التهذيب، ولا في خلاصة تذهيب الكمال ، بل لم أجده ولا في قفص الاتهام، أعني ميزان الاعتدال ولسان الميزان . وذهبت إلى مجموعة أحاديث أم سلمة في مسند الإمام أحمد ، فقرأتها واحداً واحداً فلم أجد فيها هذا الخبر ، بل لم أجد لأم سلمة أي خبر ذكر فيه اسم مولى لها يدعى ثابت . زد كل هذا أن أم سلمة لم تقل في هذا الخبر ، إن صحَّ عنها ، ولا سبيل إلى أن يصحَّ عنها ، إن الآية نزلت في الوليد ، بل قالت : أي قيل على لسانها ـ «بعث رسول الله عليه الصلاة والسلام (رجلًا) في صدقات بين المصطلق» .

والخبر الثاني الموصول رواه الطبري في التفسير عن ابن سعد عن أبيه عن عمه عن أبيه عن ابن عباس . والطبري لم يلق ابن سعد ولم يأخذ عنه ، لأنَّ ابن سعد لما توفي ببغداد ٢٣٠ هـ كان الطبري طفلاً في نحو السادسة من عمره، ولم يخرج إلى ذلك الحين من بلده آمل في طبرستان لا إلى بغداد ولا لغيرها . وابن سعد وإن كان في نفسه من أهل العدالة في الدين والجلالة في العلم ، إلاّ أنّ هذه السلسلة من سلفه يجهل علماء الجرح والتعديل أسماء أكثرهم فضلاً أن يعرفوا شيئاً عن أحوالهم .

فكل هذه الأخبار من أولها إلى آخرها لايجوز أن يؤخذ بها مجاهدٌ كان موضع ثقة أبي بكر وعمر، وقام بخدمات للإسلام يرجى له بها أعظم المثوبة إن شاء الله.
أضف إلى كل ما تقدَّم أنَّه في الوقت الذي حدثت فيه لبني المصطلق الحادثة التي نزلت فيها الآية كان الوليد صغير السن كما رواه الإمام أحمد بن حنبل[1] عن شيخ له هو فياض بن محمد الرقِّي عن جعفر بن برقان الرقي عن ثابت بن الحجاج الكلابي عن عبدالله الهمداني وهو عبدالله بن مالك بن الحارث عن الوليد بن عقبة. والظاهر أن الوليد بن عقبه تحدث بهذا الحديث عندما اعتزل الناس في السنين الأخيرة من حياته، واختار الإقامة في قرية له من أعمال الرقة، فتسلسلت رواية الخبر في الرواة الرقيين، وأخذه الإمام أحمد عن شيخ له منهم، وعبد الله الهمداني ثقة، لكن التبس اسمه في غير هذه الرواية بهمداني آخر يكنى أبا موسى واسمه مالك بن الحارث (أي على اسم والد عبد الله الهمداني) وهو مجهول عند أهل الجرح والتعديل، أما عبد الله الهمداني الذي ينتهي إليه الخبر في رواية الإمام أحمد بن حنبل فمعروف وموثوق به، وعلى روايته وأمثالها اعتمد القاضي ابن العربي في الحكم على سن الوليد بن عقبة بأنه كان صبيًّا عند فتح مكة، وأن الذي نزلت فيه آية ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ﴾ هو شخص آخر.

ومن عجيب أمر الذين كان لهم هوى في تشويه سمعة هذا الصحابي الشاب المجاهد الطيب النفس الحسن السيرة في الناس، أنهم حاولوا إدحاض حجة صغر سنه في ذلك الوقت بخبر آخر روي عن قدومه مع أخيه عمارة إلى المدينة في السنة السابعة للهجرة ليطلبا من النبي عليه الصلاة والسلام رَدَّ أختهما أم كلثوم إلى مكة. وأصل هذا الخبر إن صح، مُقَدَّمٌ فيه اسم عمارة على اسم الوليد، وهذا مما يستأنس به في أن عمارة هو الأصل في هذه الرحلة وأن الوليد جاء في صحبته، وأيُّ

(١) في مسنده.

مانع يمنع قدوم الوليد صبياً بصحبة أخيه الكبير، كما يقع مثل ذلك في كل زمان ومكان؟.

فقول الوليد إنه كان في سنة الفتح صبياً ليس في خبر قدومه مع أخيه الكبير إلى المدينة في السنة السابقة مايمنعه أو يناقضه. فإذا تقرر عندك أن جميع الأخبار الواردة بشأن الوليد بن عقبة في سبب نزول آية ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ﴾ لايجوز علمياً أن يبنى عليها حكم شرعي أو تاريخي، وإذا أضفت إلى ذلك حكمة استعمال أبي بكر وعمر للوليد، وثقتهما به، واعتمادهما عليه مع أنه كان لايزال في صدر شبابه.

١٣ ـ وأما عطاؤه خُمس أفريقية لواحد فلم يصح.. والذي صح هو إعطاؤه خمس الخمس لعبد الله بن أبي سرح جزاء جهاده المشكور، ثم عاد فاسترده منه. على أنه قد ذهب مالك وجماعة إلى أن الإمام يرى رأيه في الخمس، وينفذ فيه ماأداه إليه اجتهاده. وإن إعطاءه لواحد جائز.

١٤ ـ وأما قولهم إنه ضرب بالعصا، فما وجدناه، ولاسمعناه مِمَّنْ أطاعَ أو عصى، وإنما هو باطلٌ يحكَى، وزورٌ يُنْشَى، فيالله وللنهى!.

١٥ ـ وأما علوه على درجة رسول الله ﷺ، فما سمعناه ممن فيه تقوى الله، وإنما هي إشاعة منكر، ليروى ويذكر، فيتغير قلب مَنْ يتغير. قال علماء المسلمين: لو صح ذلك فما في هذا مايحلُّ دمه، ولايخلو أن يكون ذلك حقاً فلم تنكره الصحابة عليه إذْ رأت جوازه ابتداء، أو لسبب اقتضى ذلك، وإن كان لم يكن فقد انقطع الكلام.

١٦ ـ وأما انهزامه يوم حنين، وفراره يوم أحد، ومغيبه عن بدر وبيعة الرضوان، فقد بَيَّنَ عبد الله بن عمر وجه الحكم في شأن كل منها:

ـ قال ابن عمر: أما فراره يوم أحد، فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له.

ـ وأما تغيبه عن بدر، فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه، وبعث النبي ﷺ ببشرى النصر في بدر مع زيد بن حارثة إلى عثمان في المدينة، قال أسامة بن زيد فيما رواه الطبري[1]: فأتانا الجند حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التي كانت عند عثمان بن عفان وكان خلفني عليها مع عثمان. ثم في ربيع الأول من السنة التالية لغزوة بدر تزوج عثمان أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، وأدخلت عليه في جمادى الآخرة.

ـ وأما تغيبه عن بيعة الرضوان، فإن رسول الله كان قد بعثه إلى أشراف قريش لينقل لهم ماجاء من أجله رسول الله عليه الصلاة والسلام، فكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة.

وقبل أن يبعث عثمان، دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ماجاء له، فقال عمر: يارسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس في مكة من بني عديٍّ بن كعب أحد يمنعني، ولكني أدلك على رجل هو أعزُّ مني فيها: عثمان بن عفان. فدعاه رسول الله ﷺ فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، وهذه أول سفارة للدولة الإسلامية.

واحتبس عثمان أياماً ولم يعد إلى النبي ﷺ في الموعد الذي كان يقدر له أن يعود فيه، فوصل الخبر إلى النبي عليه الصلاة والسلام بأن سفيره قتل. فدعا النبي الصحابة إلى بيعة الرضوان، انتصاراً لعثمان، على نية أن يذهب بالصحابة إلى مكة فيناجز المشركين لما بلغه عن قتلهم عثمان. فبيعة الرضوان كانت رمزاً من رموز

---

(١) الطبري ٢/٢٨٦ .

الشرف لعثمان، وبايعت يد الرسول الكريم نيابة عن عثمان، ولو لم يكن لعثمان من الشرف في حياته كلها إلا هذا لكفاه. فقال ﷺ بيده اليمنى: هذه يد عثمان، فضرب بها على يده فقال: هذه لعثمان.

١٧ ـ وأما امتناعه عن قتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب بالهرمزان، فإن ذلك باطل بشهادة ابنه القماذبان، فقد روى الطبري ٤٣ ـ ٥/٤٤ طبعة مصر و١/٢٨٠١ طبعة أوربا، عن سيف بن عمر بسنده إلى أبي منصور قال: سمعت القماذبان يحدث عن قتل أبيه قال: فلما ولي عثمان دعاني فأمكنني منه أي من عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ثم قال: يابني هذا قاتل أبيك، وأنت أولى به منا، فاذهب فاقتله.

فخرجت به وما في الأرض أحد إلا معي، إلا أنهم يطلبون إليَّ فيه، فقلت لهم: أَلِيَ قتله؟

قالوا: نعم، وَسَبُّوا عبيدالله.

فقلت: أفلَكُم أن تمنعوه؟

قالوا: لا، وَسَبُّوهُ.

فتركته لله ولهم. فاحتملوني، فوالله مابلغت المنزل إلا على رؤوس الرجال وأكفهم.

وإن كل منصف يعتقد أن دم أمير المؤمنين عمر في عنق الهرمزان، وأن أبا لؤلؤة لم يكن إلا آلة في يد هذا السياسي الفارسي، الذي سعى في قتل عمر، وكان يحمل الخنجر وظهر تحت ثيابه، فقد روى الطبري ٥/٤٢ حديث سعيد بن المسيب، أن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قال غداة طعن عمر: مررتُ على أبي لؤلؤة عشي أمس، ومعه جفينة ـ وكان نصرانياً من أهل الحيرة ظئراً لسعد بن أبي

وقاص ـ والهرمزان، وهم نجيٌّ، فلما رهقتهم ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه، فانظروا بأي شيء قتل؟

فخرج في طلبه رجل من بني تميم، فرجع إليهم التميمي وقد كان ألظَّ بأبي لؤلؤة منصرفه عن عمر حتى أخذه، وجاء بالخنجر الذي وصف عبد الرحمن بن أبي بكر. فسمع بذلك عبيد الله بن عمر، فأمسك حتى مات عمر، ثم اشتمل على السيف فأتى الهرمزان فقتله.

وكان قتل عبيد الله له وعثمان لم يلِ بعد، ولعلّ عثمان كان لايرى على عبيد الله حقاً، لِما ثبت عنده من حال الهرمزان وفعله، وكذلك كان حبر الأمة عبد الله بن عباس قد رأى جواز قتل علوج الفرس الذين في المدينة بلا استثناء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة ٣/٢٠٠ وقد قال عبد الله بن عباس لمّا طُعن عمر ـ وقال له عمر : كُنتَ أنت وأبوك تحبان أن تكثرا العلوج بالمدينة.

فقال ابن عباس: إنْ شئت أن نقتلهم.

فقال عمر: كذبتَ، أفبعد أن تكلموا بلسانكم، وصلّوا إلى قبلتكم؟

قال ابن تيمية: فهذا ابن عباس، وهو أفقه من عبيد الله بن عمر، يستأذن عمر في قتل علوج الفرس مُطْلَقاً الذي كانوا بالمدينة، لما اتّهموهم بالفساد، اعتقد جواز مثل هذا. وإذا كان الهرمزان ممن أعان على قتل عمر، كان من المفسدين في الأرض المحارّبين فيجب قتله لذلك ولو قدر أن المقتول معصوم الدم يحرم قتله، لكن كان القاتل متأوِّلاً، ويعتقد حِلَّ قتله لشبهة ظاهرة. وصار ذلك شبهة تدرأُ عن القاتل عبيد الله بن عمر، وإلى هذا ذهب عثمان بن عفان في اكتفائه بالدية واحتملها من ماله الخاص.

ومع ذلك فقد تطرف عثمان في هذا الأمر بعد أن ذاكر الصحابة فيه، فقد روى الطبري ٥/٤١ ، جلس عثمان في جانب المسجد ودعا عبيد الله بن عمر وكان محبوساً في دار سعد بن أبي وقاص، وهو الذي نزع سيفه من يده. فقال عثمان لجماعة من المهاجرين ولأنصار: أشيروا على ما أصنع ؟.

فقال بعض المهاجرين: قتل عمر أمس، ويقتل ابنه اليوم؟!

فقال عمرو بن العاص: ياأمير المؤمنين، إن الله أعطاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك.

قال عثمان: أنا وليهم، وقد جعلتها دية، واحتملتها في مالي.

١٨ ـ وأمّا تعلقهم بأن الكتاب وجد مع راكب، أو مع غلامه ـ ولم يقل أحد إنّه كان غلامه وإنما قالوا إنه غلام الصد قة، أي أحد رعاة إبل الصدقة ـ إلى عبد الله بن سعد ابن أبي سرح يأمره بقتل حامليه.

فكيف يكتب عثمان إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وهو الذي أذن له بالمجيء إلى المدينة، ويعلم تمام العلم أنه خرج من مصر[1] وكان المتسلط على الحكم في الفسطاط محمد بن أبي حذيفة رئيس البغاة وعميدهم في هذه الجهة.

ثم إن إبل الصدقة ألوف كثيرة، لها مئات من الرعاة، وإن صح أنّه من رعاة إبل الصدقة فهولاء لكثرتهم وتبدلهم دائماً بغيرهم لايكاد يعرفهم رؤساؤهم فضلاً عن أن يعرفهم أمير المؤمنين وكبار عماله وأعوانه.

ومع افتراض أنه من رعاة إبل الصدقة، فما أيسر أن يستأجره هؤلاء البغاة لغرض من أغراضهم.

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٥/١٢٢ .

ومع هذه الافتراضات الثلاثة، فقد قال لهم عثمان، إمّا أن تقيموا شاهدين على ذلك، وإلا فيميني أني ماكتبت، ولا أمرت. وقد يكتب على لسان الر جل، ويضرب على خطه وينقش على خاتمه. وقد حدث ذلك في زمن عمر[1].

فقالوا: تسلِّم لنا مروان.

فقال: لاأفعل، ولو سلمه لكان ظالماً.

وإنما عليهم أن يطلبوا حقهم عنده على مروان وسواه، فما ثبت كان هو مُنفِّذَه وآخذه والممكِّن لم يأخذه بالحق. ومع سابقته وفضيلته ومكانته لم يثبت عايه مايوجب خلعه، فضلاً عن قتله.

إذاً، فماذا حدث وكيف جرى؟!

لقد ثبت أن الأشْتَرَ النَّخْعِيَّ، وحُكَيْمَ بن جبْلَةَ، تخلفا في المدينة عند رحيل الثوار عنها مقتنعين بأجوبة عثمان وحججه.. وفي مدة تخلف الأشتر وحكيم بن جبلة رأسيّ البغاة تمَّ تدبير الكتاب وحامله، والطريقة الساذجة التي اكتشف فيها الكتاب، التي لاتقنع طفلا صغيراً، للتذرع بهما - بالغلام والكتاب - في تجديد الفتنة ورد الثوار،وقد كادت خيوط الفتنة تفلت من بين أصابعهم، ولم يكن لأحد غير الأشتر وأصحابه مصلحة في تجديد الفتنة، وكم لهم من حيل أكثر التواءً من استئجار راع يرعى إبل الصدقة!!!

بل والأدهى من ذلك أنهم ذكروا عن محمد بن أبي حذيفة ربيب عثمان الآبق من نعمته، وكان في نفس ذلك الوقت يتحكم في الفسطاط بمصر، يؤلِّبُ الناس على أمير المؤمنين عثمان ويزورُ الكتب على لسان أزواج النبي ﷺ، ويأخذ

---

(١) انظر ماروواه البلاذري في فتوح البلدان ص٤٤٨ طبعة سنة ١٣٥٠هـ والحافظ ابن حجر في الإصابة ٣/٥٢٨ ميع سنة ١٣٢٨هـ.

الرواحل فيضمِّرها ويجعل رجالاً على ظهور البيوت في الفسطاط ووجوههم إلى وجه الشمس لتلوح وجوههم تلويح المسافر ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق الحجاز بمصر ثم يرسلوا رسلاً يخبرون عنهم الناس ليستقبلوهم، فإذا لقوهم قالوا: إنهم يحملون كتبا من أزواج النبي ﷺ في الشكوى من حكم عثمان، وتتلى هذه الكتب في جامع عمرو بالفسطاط على ملأ من الناس. وهي مكذوبة مزوَّرة وحملتها كانوا على أسطح المنازل بمصر فلم يذهبوا إلى الحجاز وما رأوها[1].

فتزوير الكتب في مأساة البغي على أمير المؤمنين عثمان ما كان من أسلحة البغاة استعملوه من كلِّ وجه وفي كلِّ الأحوال ، ومضمون الكتاب المزور قد اضطرب رواة أخباره في تعيين مضمونه .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة ٣/١٨٨ : كلُّ ذي علم بحال عثمان يعلم أنَّه لم يكن ممن يأمر بقتل محمد بن أبي بكر ولا أمثاله ، ولا عرف منه قط أنه قتل أحداً من هذا الضرب ، وقد سعوا في قتله ـ أي عثمان ـ ودخل عليه محمد فيمن دخل ، وهو لا يأمر بقتالهم دفاعاً عن نفسه فكيف يبتدىء بقتل معصوم الدم[2] قال : إنْ كان عثمان أمر بقتل محمد بن أبي بكر ، فهو أولى بالطاعة ممن طلب قتل مروان . لأن عثمان إمام هدى وخليفة راشد يجب عليه سياسة رعيته وقتل من لا يُدْفَع شرُّهُ إلاّ بقتله . وأمّا الذين طلبوا قتل مروان فقوم خوارج مفسدون في الأرض ليس لهم قتل أحد ولا إقامة حدٍّ .

وليس مروان أولى بالفتنة والشر من محمد بن أبي بكر ، ولا هذا أشهر بالعلم والدِّين من مروان بل أخرج أهل الصحاح عدة أحاديث عن مروان ، وله

---

(١) الخليفة المفتري عليه للشيخ محمد صادق عرجون .
(٢) منهاج السنة ٣/١٨٩ لابن تيمية .

قول مع أهل الفتيا ، واختلف في صحبته ، ومحمد بن أبي بكر ليس بهذه المنزلة عند الناس ، ومروان من أقران ابن الزبير[1] .

ولما لم يسلم إليهم مروان ، تألب عليه القوم لأحقاد اعتقدوها : ممن طلب أمراً فلم يصل إليه وحسد حساده أظهر داءها ، وحمله على ذلك قلَّة دين وضعف يقين ، وإيثار العاجلة على الآجلة ، وحدث ما حدث ، والعياذ بالله .

وقالت زوجته نائلةُ بنت الفارفصة تندبه :[2]

أَلَا إنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ ثَلَاثَةٍ قَتيلُ التَجيبِيِّ الَّذي جَاءَ مِنْ مِصْرِ[3]

وَمَاليَ لَا أبكي ، وَتَبْكي قَرَابَتِي وَقَدْ غَيَّبُوا عنِّي فُضولَ أَبِي عَمْرِو

وقال حسان بن ثابت فيمن تخلف عن عثمان ، وخذله من الأنصار وغيرهم ، وأعان عليه وعلى قتله ، من أبيات :

خَذَلَتْهُ الأَنْصَارُ إذْ حَضَرَ المَوْ تَ وَكَانَتْ وِلَايَةَ الأَنْصَارُ

مَنْ عَذيري مِنَ الزُّبَيْرِ وَمِنْ طَلْـ ـحَةَ إذْ جَاء أَمرٌ لَهُ مِقْدَارُ

فَتَولَّى محمدُ بنُ أبي بَكْـ ـرِ عَيَاناً ، وَخَلْفَهُ عَمَّارُ[4]

ولحسان شعر كثير يذكر فيه غير من ذكرنا ، وينسبهم إلى التمالؤ على قتله ، والرضا بما فعل به ، وكان حسانُ عثمانياً منحرفاً عن غيره ، وكان عثمانُ إليه محسناً ، وهو المتوعد للأنصار في قوله :

---

(١) منهاج السنة ٣/١٨٩ لابن تيمة .

(٢) مروج الذهب ٢/٣٥٤ .

(٣) التجيبي : هو كنانة بن بشير التجيبي أحد الثلاثة الذين دخلوا على عثمان وقتلوه ، مروج الذهب للمسعودي .

(٤) انظر مروج الذهب للمسعودي ٢/٣٥٦ .

يَا لَيْتَ شِعْرِي وَلَيْتَ الطَّيرَ تُخْبِرُني مَا كَانَ شَأْنُ عَلِيٍّ وَابْنِ عَفَّانَا
لَتَسْمَعُنَّ وَشَيكاً في دِيَارِهُمُ اللهُ أَكْبَرُ، يَاثَارَاتِ عُثْمَانَا[1]

شعره . .

وكان عثمان رضي الله عنه كثيراً ما ينشد أبياتاً ، ويطيل ذكرها ، لا تعرف لغيره ، منها قوله :

تَفْنَى اللَّذَاذَةُ مِمَّنْ نَالَ صَفْوَتَها مِنَ الحَرامِ ، وَيَبْقَى الإِثْمُ وَالعَارُ
يَلْقَى عَوَاقِبَ سُوءٍ منْ مَغَبَّتِهَا لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا نَارُ[2]

ومن شعر عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، قوله :

غِنَى النَّفْسِ ، يُغْني النَّفْسَ حَتَّى يَكُفَّهَا وَإِنْ عَضَّهَا ، حَتَّى يَضُرَّ بِهَا الفَقْرُ
وَمَا عُسْرَةٌ ، فَاصْبِرْ لَهَا إِنْ لَقِيتَهَا ، بِكَائِنَةٍ إِلَّا سَيَتْبَعُهَا يُسْرُ[3]

---

(١) المرجع السابق من مروج الذهب .
(٢) مروج الذهب للمسعودي ٢/٢٥٦ .
(٣) انظر العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق ١/٣٤ وزهر الآداب /٧٦ .

أمير المؤمنين
عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه
٢٣ ق . هـ - ٤٠ هـ/ ٦٠٠ - ٦٦١ م

هو عليٌّ بن أبي طالب واسمه عبد مناف ، بن عبد المطلب واسمه شيبة ، بن هاشم واسمه عمرو ، بن عبد مناف واسمه المغيرة ، بن قصي واسمه زيد ، بن كلاب ، بن مرة ، بن كعب ، بن لؤي ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك ، بن نضر ، بن كنانة . كنيته أبو الحسن ، وأبو تراب كناه بها النبي ﷺ .

أمهُ فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وهي أوّل هاشمية ولدت هاشمياً قد أسلمت وهاجرت . ولد قبل مبعث الرسول عليه الصلاة والسلام بثماني سنوات أو سبع سنوات وقيل دون ذلك ، وهو أول من أسلم من الفتيان[1] . ولد سنة ٢٣ ق هـ وضمه النبي إليه معاونةً لعمِهِ أبي طالب[2] .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٩٧ - ١٩٨ .
(٢) الفتح المبين للمراغي ١/٥٧ .

قد ملأت ما بين منكبيه كثافة من الشعر ، وكان آدَمَ شَديدَ الأُدْمَةِ[1] . ولما أتم العاشرةَ ، نزل الوحيُ على النبي .

بويع عليٌّ بالخلافة الغَدَ من قتل عثمان الذي صادف يوم الجمعه لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين من الهجرة في المدينة .

وقال ابن سعد : فبايعه جميع من كان بها من الصحابة رضي الله عنهم ، ويقال : إن طلحة والزبير بايعا كارهين غير طائعين ، ثم خرجا إلى مكة ، وعائشة رضي الله عنها معهما ، فأخذاها وخرجا بها إلى البصرة يطلبون بدم عثمان .

وبلغ ذلك عليّاً ، فخرج إلى العراق ، فلقي بالبصرة طلحة والزبير وعائشة ومن معهم ، في وقعة الجَمَلِ ، وكانت في جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين من الهجرة ، وقتل بها طلحة ، والزبير . وغيرهما ، وبلغت القتلى ثلاثة عشر ألفاً . وأقام عليٌّ بالبصرة خمس عشرة ليلةً ، ثم انصرف إلى الكوفة[3] .

ثم خرج عليه معاوية بن أبي سفيان ومن معه بالشام ، فبلغ ذلك عليّاً ، فسار إليه ، فالتقوا بِصِفِّينَ في صفر سنة سبع وثلاثين ، ودام القتال بها أياماً ، فرفع أهل الشام المصاحِفَ يَدْعُونَ إلى ما فيها ـ مكيدة من عمرو بن العاص ـ فكره الناسُ الحْربَ ، وتداعَوْا إلى الصلح ، وحكّموا الحكمين ، فحكّمَ عَلِيٌّ أبا موسى الأشعري ، وحكّم معاوية عمرو بن العاص ، وكتبوا بينهم كتاباً على أن يُوَافُوا رأسَ الحَوْلِ بأذْرُحَ ، فينظروا في أمر الأمة ، فافترق الناس ، ورجع معاوية إلى الشام ، وعليّ إلى الكوفة .

---

(٢) شديد السمرة .

(٣) تاريخ الخلفاء ٢٠٦ .

فخرجت عليه الخوارج من أصحابه ، ومَنْ كان مَعهُ ، وقالوا : لا حُكم إلاّ لله ، وعسكروا بحَرُورَاءَ . فبعث إليهم بن عباس فخاصمهم وحَاجَّهُمْ ، فرجع منهم قوم كثير ، وثبت قوم ، وساروا إلى النَّهْرَوَانِ ، فعرضوا للسبيل ، فسار إليهم عليٌّ فقتلهم بالنهروان ، وذلك سنة ثمان وثلاثين .

واجتمع الناس بأَذْرُحَ في شعبان من هذه السنة ٣٨ هـ وحضرها سعد بن أبي وَقَّاصٍ ، وابن عمر ، وغيرهما من الصحابة ؛ فقدَّم عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري ـ مكيدة منه ـ فتكلم فَخَلعَ عليّاً ، وتكلم عمرو فأَقَرَّ معاوية ، وبايع له ، فتفرق الناس على هذا ، وصار عليٌّ في خلاف مع أصحابه ، حتى صار يَعُضُّ على إصبعه ويقول : أُعْطِىٰ وَيُطاعُ معاوية ؟!

مقتل علي . .

انتدب ثلاثة نفر من الخوارج ؛ عبد الرحمن بن مُلْجَمَ المرادي ، والبُرَكُ بن عبدالله التميمي ، وعمرو بن بكير التميمي . فاجتمعوا بمكة وتعاهدوا وتعاقدوا لَيَقْتُلُنَّ هؤلاء الثلاثة : علي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، ويريحوا العباد منهم .

فقال ابن ملجم : أنا لكم بعلي .

وقال البرك : أنا لكم بمعاوية .

وقال عمرو بن بكير : أنا أكفيكم عمرو بن العاص .

وتعاهدوا على أن ذلك يكون في ليلة واحدة ، ليلة إحدى عشر ، أو ليلة سبع عشرة من رمضان ، ثم توجه كل منهم إلى المصر الذي فيه صاحبه .

فقدم ابن ملجم الكوفة ، فلقي أصحابه من الخوارج فكاتمهم ما يرون إلى ليلة الجمعة السابع عشرة من رمضان سنة أربعين من الهجرة . فاستيقظ علي سحراً ، فقال لابنه الحسن : رأيت الليلة رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، ما لقيت من أمتك من الأود واللدد ؟

فقال لي : ادْعُ الله عليهم .

فقلت : اللهم أبدلني بهم خيراً لي منهم ، . وأبدلهم بي شراً لهم مني .

ودخل ابن الذباح المؤذن على عليّ ، فقال : الصلاة . فخرج عليّ من الباب ينادي : أيُّها الناسُ ، الصَّلاةَ الصَّلاةَ ، فاعترضه ابن ملجم ، فضربه بالسيف فأصاب جبهته إلى قرنه ووصل إلى دماغه ، فشد الناس عليه من كل جانب ، فأُمسِكَ وأُوثِقَ .

وأقام عليٌّ الجمعة والسبت ، وتوفي ليلة الأحد ، عشرين من رمضان سنة أربعين للهجرة الموافق ٦٦١ م وغسله الحسن والحسين ، وعبدالله بن جعفر ، وصلى عليه الحسن ، ودفن بدار الإمارة بالكوفة ليلاً . فكانت خلافته إلى أن استشهد أربع سنين وتسعة أشهر .

ثم قطعت أطراف بن ملجم ، وجعل في قوصرة ، وأحرقوه بالنار . هذا كلام ابن سعد[1] .

وكان لعلي حين قتل على إختلاف الروايات بين سبع وخمسين ، وثلاث وستين سنة ، وكان له تِسعَ عَشْرَةَ سُرِّيَةٍ[1] .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

في فضائل علي رضي الله عنه . .

لما هاجر عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، أمر علياً أن يقيم بعده بمكة أياماً حتى يؤدي عنه أمانة الودائع والوصايا التي كانت عند النبي ﷺ ، ثم يَلْحَقُهُ بأهله ، ففعل ذلك .

وشهد مع رسول الله ﷺ ، بدراً ، وأحداً ، وسائر المشاهد إلّا تبوك ، فإن النبي ﷺ استخلفه على المدينة .

وقال سعيد بن المسيب : أصابت علياً يوم أُحدٍ ست عشرة ضربةً .

وثبت في الصحيحين «أنه عليه الصلاة والسلام أعطاه الراية في خيبر ، وأخبر أن الفتح يكون على يديه»[1] .

وأخرج ابن اسحاق في المغازي ، وابن عساكر عن أبي رافع أن عليّاً تناول باباً عند حصن خيبر فترس به عن نفسه ، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله علينا ، ثم ألقاه ، فلقد رأيتنا ثمانية نفر نجهد أن نقلب ذلك الباب فما استطعنا أن نقلبه .

وعليٌّ رضي الله عنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وصهر رسول الله ﷺ على ابنته فاطمة رضي الله عنها . وقال ابن عباس وأنس وزيد بن أرقم وسلمان الفارسي وجماعة أنه أول مَنْ أسلم .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٩٨ .

الأحاديث الواردة في فضله . .

قال الإمام أحمد بن حنبل : ماورد لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ما ورد لعلي رضي الله عنه . أخرجه الحاكم .

وأخرج الشيخان عن سعد بن أبي وّقاصٍ : «أن رسول الله ﷺ ، خَلَّفَ علي بن أبي طالب في غزوة تَبُوكٍ فقال : يا رسول الله ، تخلفني في النساء والصبيان ؟

فقال : أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى ؟ غير أنه لانبيَّ بعدي» .

وأخرج عن سهيل بن سعد «أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر» لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه . يحبُّ الله ورسولَه ، ويحبُّه الله ورسولُه» فبات الناس يدوكون[1] ليلتهم أيُّهُمُ يُعطاها ؟ فلما أصبح الناس غَدَوْا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها «فقال : أين عليُّ بن أبي طالب ؟»

فقيل : هو يشتكي عينيه .

قال : فأرسِلوا إليه . فأتي به ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ، ودعا له ، فبرىء حتى كأنْ لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية» .

وأخرج الترمذي عن أبي سريحة ـ أبو زيد بن أرقم ـ عن النبي عليه الصلاة والسلام قال : «مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه»[2] .

---

(١) يدوكون : يخوضون ويتحدثون .

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٠٠ .

وفي حديث للرسول عليه الصلاة والسلام ، عن عدة طرق ، مع زيادة ونقص قال : «اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَلاَهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ» .

ولأحمد عن أبي الطفيل قال : جمع علي الناس سنة خمس وثلاثين في الرحبة ، ثم قال لهم : أَنْشُدُ الله كلَّ امرىء مسلم سمع رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول يوم غدير خُمًّ ما قال لمَّا قام ؟

فقام إليه ثلاثون من الناس ، فشهدوا : أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : «مَنْ كُنْتُ مولاه فعليٌّ مولاه ، اللهم والِ مَنْ والاه ، وعادِ مَنْ عاداه»[1] .

وأخرج الترمذي عن ابن عمر قال: آخى رسول الله عليه الصلاة والسلام بين أصحابه، فجاء علي تدمع عيناه، فقال: يارسول الله، آخَيْتَ بين أصحابك، ولم تؤاخ بيني وبين أحد! فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «أنت أخي في الدنيا والآخرة».

وأخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: كنا نعرف المنافقين ببغضهم علياً.

وأخرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال عمر بن الخطاب: عليٌّ أقضانا[2].

وأخرج عن سعيد بن المسيب قال: كان عمر بن الخطاب يتعوذ بالله من معضلةٍ ليس فيها أبو حسن.

---

(١) انظر المرجع السابق صفحة ٢٠١ .

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٠٢ .

وأخرج ابن عساكر عن ابن مسعود قال : أَفْرَضُ أهل المدينة وأقضاها عليُ بن أبي طالب .

وأخرج عن عائشة رضي الله عنها أنّ عليًّا ذُكر عندها، فقالت: أما إنه أعلم مَنْ بقي بالسنة.

وقال مسروق: انتهى علم أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى عمر، وعلي، وابن مسعود، وعبد الله رضي الله عنهم[1].

واخرج الطبراني، والحاكم وصححه، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا غضب لم يجترىء أحد أن يكلِّمه إلا عليّ.

وأخرج أبو يَعْلى عن أبي هريرة قال: قال عمر بن الخطاب: لقد أعطي علي ثلاث خصال، لأن تكون لي خصلة منها، أحبُّ إليَّ من أن أعطى حُمُرَ النَّعَمِ. فسئل وما هن؟

قال : تزوجه ابنته فاطمةَ ، وسكناه المسجد لا يحل لي فيه ما يحل له ، والراية يوم خيبر[2] .

وأخرج أبو يعلى والبزاز عن سعد بن أبي وقَّاصٍ قال: قال رسول الله ﷺ : «مَنْ آذى عَلياً آذاني».

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن أم سملة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: «مَنْ أَحَبّ علياً فقد أحبَّني، ومن أحبَّني فقد أحبَّ الله. ومن أبغض علياً فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله».

وأخرج البزاز وأبو يعلى والحاكم عن علي قال: دعاني رسول الله ﷺ وآله وسلّم فقال: «ياعليُّ إن فيك مثلاً من عيسى؛ أبغضته اليهود حتى بَهَتُوا أمَّه،

(١) المرجع السابق ٢٠٣ .
(٢) المرجع السابق ٢٠٤ .

وأحبَّته النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذي ليس به» ألا وإنَّه يهلك فيَّ اثنان: محب مفرط يقرظني بما ليس فيَّ، ومبغض مفترٍ يحمله شنآني على أن يَبْهَتني[1].

نبذ من أخبار علي:

وجاء في المستدرك عن السدري قال: كان عبد الرحمن بن ملجمٍ المرادي، عشق امرأة من الخوارج يُقال لها: قَطَامِ فنكحها وأصدقها ثلاثة آلاف درهم، وقَتْلَ عليّ، وفي ذلك قال الفرزدق:

فَلَمْ أَرَمَهْـراً سَاقَـهُ ذُو سَمَاحَـةٍ كَمَهْرِ قَطَامٍ، مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمِ
ثَـلاثَـةِ آلافٍ، وَعَبْـدٍ، وَقَيْنَـةٍ وَضَـرْبِ عَلِيٍّ بِـالحُسَامِ المُصَمَّمِ
فَلا مَهْرَ أَغْلَى مِنْ عَلِيٍّ وإنْ غَلا وَلا فَتكَ إلا دُوَنَ فَتْكِ ابنِ مُلْجَمِ

وقال أبو بكر بن عياش: عُمِّيَ قبر عليٍّ لئلا ينبشه الخوارج.

وقال شريك: نقله الحسن إلى المدينة.

وقال المبرد عن محمد بن حبيب: أول من حول من قبر إلى قبر، علي رضي الله عنه[2].

وفي الطيوريات بسند إلى جعفر بن محمد عن أبيه، قال: قال رجل لعلي بن أبي طالب: نسمعك تقول في الخطبة: اللهم أصلحنا بما أصلحت به الخلفاء الراشدين المهديين، فمن هم؟ فاغرورقت عيناه، فقال: هما حبيباي أبو بكر وعمر، إِما مَا الهُدَىٰ، وشيخَا الإسلام، ورجُلا قريش، والمقتَدَىٰ بهما بعد رسول

---

(١) المرجع السابق ٢٠٥ .
(٢) المرجع السابق ٢٠٨ .

الله ﷺ، مَنِ اقتدى بهما عصم، ومنِ اتَّبع آثارها هُدِي الصراطَ المستقيم، ومن تمسَّك بهما فهو من حزب الله[1].

ومن أعجب وأطرف ماأخرجه عبد الرزاق عن حجر المدري، قال: أمرني محمد بن يوسف أخو الحجاج، وكان أميراً على اليمن، أن أَلْعَنَ علياً!!

فقلت: إن الأمير أمرني أن العنَ عليا، فالعنوه، لعنه الله، فما فطن لها إلا رجلٌ[2].

وأخرج الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الدلائل عن زاذان، أن علياً حَدَّثَ بحديث، فكذَّبَهُ رجلٌ، فقال له علي: أدعو عليك إن كنت كاذباً؟

قال: ادْعُ، فدعا عليه، فلم يبرح حتى ذهب بصره[3].

ومن أحسن ماأخرج عن المدائني، قال: لما دخل علي الكوفة، دخل عليه رجل من حكماء العرب، فقال: والله ياأمير المؤمنين، لقد زِنْتَ الخلافة ومازانَتْكَ، ورفعتها ومارفعتك، وهي كانت أحوجَ إلَيْكَ منكَ إليها[4].

وأخرج عن علي قال: التوفيق خير قائد، وحسن الخلق خير قرين، والعقل خير صاحب، والأدب خير ميراث، ولا وَحْشَةَ أشد من العُجْبِ[5].

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢١١ .
(٢) الهاء في العنوه عائدة في الأمير محمد بن يوسف .
(٣) تاريخ الخلفاء ٢١١ .
(٤) المرجع السابق ,٢١٣
(٥) تاريخ الخلفاء ٢١٤ .

وأخرج عن علي قال: إن للنكبات نهايات، ولابُدَّ لأحد إذا نكب من أن ينتهي إليها، فينبغي للعاقل إذا أصابته نكبة أن ينام لها حتى تنقضي مدَّتُها، فإنَّ في دفعها قبل انقضاء مدتها زيادة في مكروهها[1].

وأخرج عن عليّ أنه أتاه رجل، فأثْنَى عليه فأَطراهُ،وكان قد بلغه عنه قبل ذلك، فقال له علي: إني لست كما تقول، وأنا فوق ما في نفسك.

وأخرج عن عليّ قال: جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والنقص في اللَّذة.

قيل له: وما النقص في اللذة؟

قال: لاينال شهوةَ حَلالٍ إلا جاءهماينغصه إياها[2].

وأخرج عن عقبة بن أبي الصهباء قال: لمّا ضرب ابن ملجم عليّاً دخل عليه الحسن وهو باكٍ، فقال عليٌّ رضي الله عنه: يابنيَّ، احفظ عني أربعاً، وأربعاً.

قال: وما هُنَّ ياأبت؟

قال: أغنَى الغِنَى العقل، وأكبر الفَقْرِ الحُمْقُ، وأوحش الوحشة العجب، وأكرَمُ الكَرَم حُسْنُ الخُلق.

قال: فالأربع الآخر؟

قال: إيّاك ومصاحبة الأحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك.

وإيّاك ومصادقة الكذاب، فإنه يقرب عليك البعيد، ويبعد عليك القريب.

وإيّاك ومصادقة البخيل، فإنه يقعد عنك وأنت أحوج ما تكون إليه.

وإيّاك ومصادقة الفاجر، فإنه يبيعك بالتافه.

---

(١) المرجع السابق ٢١٥ .

(٢) المرجع السابق ٢١٥ .

علي أصدق من أرخ للخلافة..

وأخرج ابن عساكر عن الحسن قال: لما قدم عليٌّ البصرةَ، قام إليه ابن الكَوَّاءِ وقيسُ بن عباد، فقالا له: ألا تخبرنا عن مسيرك هذا الذي سرت فيه، تتولّى على الأمة تضرب بعضهم ببعض؟ أعهدٌ من رسول الله ﷺ عَهِدَهُ إليك؟ فحدِّثْنَا فأنت الموثوقُ المأمون على ماسمعت. فقال: أما أن يكون عندي عهد من النبي عليه الصلاة والسلام، في ذلك فلا؛ والله لئن كنت أوَّلَ من صدَّق به، فلا أكون أوَّلَ من كذَّبَ عليه. ولو كان عندي من النبيِّ عليه الصلاة والسلام عهد في ذلك، ماتركتُ أخا بني تَيْم بن مرة[1] وعمر بن الخطاب يقومان على منبره، ولقاتلتهما بيدي ولو لم أجد إلا بُرْدِي هذا. ولكن رسول الله ﷺ لم يُقتل قتلاً، ولم يمت فجأة، مكث في مرضه أياماً وليالي، يأتيه المؤذِّن فيؤذِنُهُ بالصلاة، فيأمر أبا بكرٍ فيصلي بالناس، وهو يرى مكاني. ولقد أرادت امرأة من نسائه أن تصرفه عن أبي بكر، فأَبَى وغضب، وقال: أَنْتُنَّ صواحبُ يوسفَ، مُرُوا أبا بكرٍ يصلي بالناس.

فلما قَبَضَ الله نبيَّهُ ﷺ نظرنا في أمورنا، فاخترنا لدنيانا من رضيه نبي الله ﷺ لديننا. وكانت الصلاةُ أصْلَ الإسلام، وهي أمير الدين، وقوام الدين، فبايعنا أبا بكر، وكان لذلك أهلاً، لم يختلف عليه مِنّا اثنان، ولم يشهد بعضنا على بعض، ولم تقطع منه البراءة، فأدَّيت إلى أبي بكر حقَّه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جنوده، وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي.

---

(١) يعني أبا بكر الصديق رضي الله عنه.

فلما قُبِضَ تولاها عمر، فأخذها بسنة صاحبه، وما يعرف من أمره، فبايعنا عمرَ، ولم يختلف عليه منا اثنان، ولم يشهد بعضنا على بعض، ولم تقطع منه البراءة، فأديت إلى عمر حقَّه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جيوشه، وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي.

فلما قبض تذكرت في نفسي قرابتي، وسابقتي وسالفتي وفضلي، وأنا أظن أن لايُعْدَلَ بي ولكن خشي[1] أن لايعمل الخليفة بعده ذنباً إلا لحقه في قبره، فأَخْرَجَ منها نفسه وولده، ولو كانت محاباةً منه لآثر بها ولده، فبرىء منها إلى رَهْطٍ من قريش ستةٍ أنا أحدهم.

فلما اجتمع الرهط ظننت أن لايعدلوا بي، فأخذ عبد الرحمن بن عوفٍ مواثيقنا على أن نسمع ونطيع لمن وَلاَّهُ الله أمرنا، ثم أخذ بيد عثمان بن عفان، وضرب بيده على يده، فنظرت في أمري، فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي، وإذا ميثاقي قد أُخِذَ لغيري، فبايعنا عثمان، فأديت له حقه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جيوشه، وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي.

فلما أصيب[2] نظرت في أمري، فإذا الخليفتان اللذان أخذاها بعد رسول الله ﷺ إليهما بالصلاة قد مضيا، وهذا الذي أخذ له الميثاق قد أصيب؛ فبايعني أهل الحرمين، وأهل هذين المصرين، فوثب فيها من ليس مثلي، ولاقرابته كقرابتي، ولا علمه كعلمي، ولا سابقته كسابقتي، وكنت أحقَّ بها منه[3].

---

(١) الضمير على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٢) الضمير عائد على عثمان رضي الله عنه.
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٠٩ - ٢١٠ - ٢١١ .

وحدَّث أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، عن محمد بن حميد الرازي، عن أبي مجاهد، عن محمد بن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، قال: لما حج معاوية طاف بالبيت ومعه سعْدُ بن أبي وقاص، فلما فرغ انصرف معاوية إلى دار الندوة، فأجلسه معه على سريره، وَوَقَعَ معاوية في علي وشرع في سبِّه.

فزحف سعدُ ثم قال: أجلستني معك على سريرك ثم شرعت في سبِّ علي، والله لأن يكون فيَّ خصلة واحدة من خصال كانت لعلي أحب إلي من أن يكون لي ماطلعت عليه الشمس:

والله لأن أكون صهراً لرسول الله ﷺ، وأن لي من الولد مالعلي أحب إليّ من أن يكون لي ماطلعت عليه الشمس.

والله لأن يكون رسول الله ﷺ قال لي ماقاله يوم خيبر: «لأعْطِينَّ الراية غداً رجلا يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله، ليس بِفَرَّارٍ، يفتح الله على يديه» أحبُّ إليّ من أن يكون لي ماطلعت عليه الشمس.

والله لأن يكون رسول الله ﷺ قال لي ماقال في غزوة تبوك: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لانبي بعدي» أحب إليَّ من أن يكون لي ماطلعت عليه الشمس. وايم الله لادخلت لك داراً مابقيت ثم نهض[1].

ووجدت في وجه آخر من الروايات، وذلك في كتاب علي بن محمد بن سليمان النوفلي في الأخبار، عن ابن عائشة وغيره، أنّ سعداً لما قال هذه المقالة لمعاوية ونهض ليقوم، ضرط له معاوية، وقال له: أقعد حتى تسمع جواب ماقلت؛ ماكنت عندي قطُّ ألأم منك الآن، فهلا نصرته، ولم قعدت عن بيعته؟[2]، فإني لو

(١) مروج الذهب للمسعوي ٣/٢٣ ـ ٢٤.

(٢) كان سعد، وأسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن سلمه ممن قعد عن علي بن أبي طالب، وأبوا أن يبايعوه هم وغيرهم من القصّار.

سمعْتُ من النبي ﷺ مثل الذي سمِعْتَ فيه لكنت خادماً لعلي ماعشت.

فقال سعد: والله إني لأحقُّ بموضعك منك.

فقال معاوية: يأبى عليك ذلك بنو عذرة، وكان سعد فيما يقال لرجل من بني عذرة.

قال النوفلي: وفي ذلك يقول السيد بن محمد الحميري:

سَائلْ قُرَيْشاً بهَا إنْ كُنْتَ ذَا عَمَهٍ ... مَنْ كَانَ أَثْبَتَهَا في الدِّينِ أَوْتَادَا

مَنْ كَانَ أَقْدَمَهَا سِلْماً، وَأَكْثَرَهَا ... عِلْماً، وأَطْهَرَهَا أَهْلاً وأَوْلادا

مَنْ وَحَدَّ الله إذْ كَانَتْ مُكَذِّبَةً ... تَدْعُو مَعَ الله أَوْثَاناً وَأَنْدَادَا

مَنْ كَانَ يُقْدِمُ في الهَيْجَاءِ إنْ نَكلُوا ... عَنْهَا، وَإنْ بَخِلُوا في أَزْمَةٍ جَادَا

مَنْ كَانَ أَعْدَ لَها حُكَماً، وَأَقْسَطَهَا ... حِلْماً، وأَصْدَقَهَا وَعْداً وَإيعَادَا

إنْ يَصْدُقُوكَ فَلَمْ يَعْدُوا أَبَا حَسَنٍ ... إنْ أَنْتَ لَمْ تَلْقَ لِلأَبْرَارِ حُسَّادَا

إنْ أَنْتَ لَمْ تَلْقَ مِنْ تَيْم أَخَا صَلَفٍ ... وَمِنْ عَدِيٍّ لِحَقِ الله جَحَّادَا

أَوْ مِنْ بَنِي عَامِرٍ، أَوْ مِنْ بَنِي أَسَدٍ ... رَهْطِ العَبِيدِ ذَوي جَهْلٍ وَأَوْغَادَا

أَوْ رَهْطِ سَعْدٍ، وَسَعْدٌ كَانَ قَدْ عَلِمُوا ... عَنْ مُسْتَقيم صراطِ الله صَدَّادَا

قَوْمٌ تَدَاعَوْا زَنيماً ثُمَّ سَادَهُمُ ... لَوْلا خُمُول بَني زُهْرٍ لَمَا سَادَا

شعر الإمام علي رضي الله عنه :

للإمام علي شعر كثير متناثر في كتب الأدب ، ومما لا ريب فيه أنه أشعر الخلفاء الثلاثة هذا إن كان لهم شعر ، ويجب أن لا نغفل أنه حُمِلَ عليه شعرٌ كثير أيضاً .

فقد أخرج عن نبيط الأشجعي ، قال : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى اليَأْسِ القُلُوبُ وَضَاقَ بِهَمِّها الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
وَأَوْطَنَتِ المَكَارِهُ وَاطْمَأَنَّتْ وَأَرْسَتْ فِي أَمَاكِنِهَا الخُطُوبُ
وَلَمْ يُرَ لِإنكِشَافِ الضرِّ وَجْهٌ وَلَا أَغْنَى بِحِيلَتِهِ الأَرِيبُ
أَتَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ غَوْثٌ يَجِيءُ بِهِ القَرِيبُ المُسْتَجِيبُ
وَكُلُّ الحَادِثَاتِ إِذَا تَنَاهَتْ فَمَوْصُولٌ بِهَا الفَرَجُ القَرِيبُ[1]

وأخرج عن الشعبي قال : قال عليُّ بن أبي طالب لرجل كره له صحبة رجل :

فَلَا تَصْحَبْ أَخَا جَهْلٍ وَإِيَّاكَ ، وَإِيَّاهُ
فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرْدَى حَلِيماً حِينَ آخَاهُ
يُقَاسُ المَرْءُ بِالمَرْءِ إِذَا مَا هُوَ مَا شَاهُ
وَلِلشَّيءِ مِنَ الشَّيْءِ مَقَايِيسٌ وَأَشْبَاهُ
قِيَاسُ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ إِذَا مَا هُوَ حَازَاهُ
وَلِلْقَلْبِ عَلَى القَلْبِ دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ

وأخرج عن المبرد قال : كان مكتوباً على سيف عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه :

لِلنَّاسِ حِرْصٌ عَلَى الدُّنْيَا بِتَدْبِيرِ وَصَفْوُهَا لَكَ مَمْزُوجٌ بِتَكْدِيرِ
لَمْ يُرْزَقُوهَا بِعَقْلٍ بَعْدَمَا قُسِمَتْ لَكِنَّهُمْ رُزِقُوهَا بِالمَقَادِيرِ
كَمْ مِنْ أَدِيبٍ لَبِيبٍ لَا تُسَاعِدُهُ ؟ وَأَحْمَقٍ نَالَ دُنْيَاهُ بِتَقْصِيرِ
لَوْ كَانَ عَنْ قُوَّةٍ أَوْ عَنْ مُغَالَبَةٍ طَارَ البُزَاةُ ، بِأَرْزَاقِ العَصَافِيرِ

وأخرج عن حمزة بن حبيب الزيات قال : كان علي بن أبي طالب يقول :

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢١٥ .

وَلَا تُفْشِ سِرَّكَ إِلَّا إِلَيْكَ فَإِنَّ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحَا
فَإِنِّي رَأَيْتُ غُوَاةَ الرِّجَالِ ، لَا يَدَعُونَ أَدِيماً صَحِيحَا

وجاء في مروج الذهب قوله : ولما قبضت - يعني زوجته فاطمة - جزع عليها بَعلُها عَليٌّ جزعاً شديداً ، واشتد بكاؤه وظهر أنينه وحنينه ، وقال في ذلك :

أَرَى عِلَلَ الدُّنْيَا عَلَيَّ كَثِيرَةً وَصَاحِبُهَا حَتَّى الْمَمَاتِ عَلِيلُ[1]
لِكُلِّ اجْتَماعٍ مِنْ خَلِيلَيْنِ فُرْقَةٌ وَكُلُّ الَّذي دُونَ الْمَمَاتِ قَلِيلُ
وَإِنَّ افْتِقَادِي فَاطِماً بَعْدَ أَحْمَدٍ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لَا يَدُومَ خَلِيلُ[2]

ووقف عليٌّ رضي الله عنه عند مصرع المِرْقَالِ[3] وَمَنْ صرع حوله من الأسلميين وغيرهم فدعا لهم ، وترحم عليهم ، وقال من أبيات :

جَزَى اللهُ خَيْراً عُصْبَةً أَسْلَمِيَّةً صِبَاحَ الْوُجُوهِ صُرِّعُوا حَوْلَ هَاشِم
يَزِيدَ ، وَعَبْدَاللهِ بِشْرَ بن مَعْبَدٍ وَسُفْيَانَ وَابْنَا هَاشِمٍ ذِي الْمَكَارِمِ
وَعُرْوَةَ لَا يَنْفَدْ ثَنَاهُ وَذِكْرُهُ إِذَا اخْتُرِطَتْ يَوْماً خِفَافُ الصَّوَارِمِ[4]

وكان عليٌّ يوم صفين على بغلته الشهباء في عشرة آلاف من ربيعة وغيرهم ، وهو يرتجز ، قائلاً :

مِنْ أَيِّ يَوْمَيَّ مِنَ الْمَوْتِ أَفِرْ؟ أَيَوْمَ لَمْ يُقْدَرْ ، أَمْ يَوْمَ قُدِرْ[5] ؟

فلما أقبل على قبة معاوية ، كان يقول :

---

(١) اضافة صاحب زهر الآداب ٨٢/١ .
(٢) مروج الذهب للمسعودي ٢/٢٩٧ .
(٣) المرقال : هاشم بن عتبة .
(٤) انظر مروج الذهب للمسعودي ٢/٣٩٣ .
(٥) المرجع السابق ٢/٣٩٦ .

أَضْـــرِبُهُــمْ وَلاَ أَرَى مُـعَــاوِيَــهْ   الأَخْزَرَ العَيْنِ العظيمَ الحَـاوِيَـهْ
تَهْوِى بِهِ فِي النَّارِ أُمٌّ هَاوِيَهْ[1]

وفي يوم النهروان حمل رجل من الخوارج على جيش علي ، وجعل يغشي كل ناحية ويقول :

أَضْـــرِبُهُــمْ وَلَــوْ أَرَى عَـلِيًّــا   أَلْبَسْــتُــهُ أَبْيَضَ مَـشْــرَفِيّــا

فخرج إليه علي رضي الله عنه ، وهو يقول :

يَــا أَيُّهــذَا المُبْتَــغِي عَــلِيًّــا   انِّي أَرَاكَ جَــاهِــلًا شَــقِــيًّــا
قَــدْ كُنْتَ عَنْ كِفَـاحِــهِ غَنِيًّــا   هَلُمَّ فَــابْــرُزْ هَــاهُنَــا إِلَــيَّــا[2]

وكان علي رضي الله عنه كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين :

تِلْكُمْ قُــرَيشٌ تَمَنَّــانِي لِتَـقْتُـلَنِي   فَلاَ وَرَبِّكَ مَـا بَرُّوا وَمَـا ظَفِرُوا
فَــإِنْ هَلِكْتُ فَــرَهْنٌ ذِمَّتِي لَهُمُ   بِذَاتِ وَدْقَيْنِ لاَ يَعْفُو لَهَا أَثَرُ[3]

وكان يكثر من ذكر هذين البيتين :

اشْــدُدْ حَـيَــازِيمَــكَ لِــلْمَــوْتِ   فَــإِنَّ المَــوْتَ لاَقَــيــكَــا
وَلاَ تَجْــزَعْ مِــنَ المَــوْتِ   إِذَا حَــلَّ بِــوَادِيــكَــا

وقيل إنها آخر أبيات أنشدها رضي الله عنه بعد أن ضرب بالمسجد ، وهو في طريقه الى بيته سمع يرددها[4].

ولعلي في ربيعة كلام كثير يمدحهم فيه ، ويرثيهم شعراً ومنثورا ، وقد كانوا أنصاره وأعوانه ، والركنُ المنيع من أركانه ، فمن بعض ذلك قوله يوم صفين :

---

(١) قيل ان هذا الشعر لبديل بن ورقاء قاله في ذلك اليوم انظر مروج الذهب للمسعودي ٢/٣٩٦ .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ٢/٤١٦ .

(٣) المرجع السابق ١٢/٤٢٩ .

(٤) مروج الذهب للمسعودي ٢/٤٢٩ .

لِمَنْ رَايَـةٌ سَـوْدَاءُ يَخْفُقُ ظِلُّهَـا إذَا قِيـلَ قَدِّمْهَـا حُضَيْنُ تَقَـدَّمَا
فَيُورِدُهَا فِي الصَفِّ حَتَّى يُعِلَّهَـا حِيَاضَ المَنَايَا تَقْطُرُ المَوْتَ وَالدَّمَا
جَزَي الله قَوْماً قَاتَلُوا فِي لِقَائِهِ لَدَى المَوْتِ قُدَّاماً مَا أَعَزَّ وَأَكْرَمَا
وَأَطْيَبَ أَخْبَـاراً ، وَأَكْـرَم شِيَمـةً إذَا كَانَ أَصْوَاتُ الرِّجَالِ تَغَمْغُمَا
رَبيعةَ أَعْني ، إنَّهُمْ أَهْلُ نَجْـدَةٍ وَبَأْسٍ إذَا لَاقُوا خَمِيسا عَرَمْرَمَا[1]

ومن شعره ، رضي الله عنه ، وقد قاله يوم صفين يذكر همدان ونصرهم إياه ، وكان من المجودين في الشعر :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الخَيْلَ تَـرْجَمُ بالقَنَا نَـوَاصِيُّهَـا حُمْـرُ النُّحـورِ دَوَامي
وَأَعْـرَضَ نَقْعٌ فِي السَّـمَاءِ كَأَنَّـهُ عَجَـاجَـةُ دَجْنٍ مُلْبَسٍ بِقَتَـامِ
وَنَادَى ابْنُ هِنْدٍ فِي الكِلاعَ وَحِمْيَرٍ وَكِنْـدَةَ فِي لَخْمٍ وَحَيٍّ جُـذَامِ
تَيَمَّمْتُ هَمْـدَانَ الَّـذينَ هُمُ هُمُ إذَا نَابَ دَهْرٌ ، جُنَّتِي وَسِهَامِي
فَجَاوَبَني مِنْ خَيْلِ هَمْدَانَ عُصْبَةٌ فَـوَارِسُ مِنْ هَمْدَانَ غَـيْرُ لِئَـامِ
فَخَاضُوا لَظَاهَا ، وَاسْتَطَارُوا شَرَارَهَا وَكَانُوا لَدَى الهَيْجَاءِ كَشَرْبِ مُدَامِ
فَلَوْ كُنْتُ بَوَّاباً عَلَى بَابِ جَنَّـةٍ لَقُلْتُ لِهَمْدَانَ : ادْخُلُوا بِسَلامِ[2]

وعقب صاحب كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، بقوله : فهؤلاء الخلفاء الأربعة ، رضوان الله عليهم ، ما منهم إلاّ من قال الشعر[3] .

ولما قَتَلَ عمرو بن ود العامري سنة خمس للهجرة ، سقط فانكشفت عورته ، فتنحى عنه علي ، وقال :

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣/٢٧ والعمدة لابن رشيق ١/٣٥ .
(٢) انظر العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ١/٣٤ .
(٣) المرجع السابق ١/٣٥ .

آلَى ابنُ عَبْدٍ ـ حِينَ شَدَّ ـ أَلِيَّةً وَحَلَفْتُ ، فَاسْتَمِعُوا مِنَ الكَذَّابِ[1]
أَلَّا يَفِرَّ وَلَا يُهَلِّلَ فَالْتَقَى أَسَدَانِ يَضْطَرِبَانِ كُلَّ ضِرَابِ[2]
اليَوْمَ يَمْنَعُني الفِرَارَ حَفِيظَتِي وَمُصَمِّمٌ فِي الرَّأْسِ لَيْسَ بِنَابِ[3]
أَعْرَضْتُ حِينَ رَأَيْتُهُ مُتَقَطِّراً كَالجِذْعِ بَيْنَ دَكَادِكٍ وَرَوَابِي[4]
وَعَفَفْتُ عَنْ أَثْوَابِهِ وَلَوْ أَنَّنِي كُنْتُ المُقَطَّرَ بَزَّنِي أَثْوَابِي[5]
نَصَرَ الحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِ وَنَصَرْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ بِصَوَابِ[6]
لَا تَحْسَبَنَّ اللهَ خَاذِلَ دِينِهِ وَنَبِيِّهِ ، يَا مَعْشَرَ الأَحْزَابِ[7]

وجاء في كتاب أدب الدنيا والدين لأبي الحسن الماوردي ، قول الإمام علي رضي الله عنه ، في المكارم والأخلاق معدداً إيّاها حسب قدرها :

إِنَّ المَكَارِمَ أَخْلَاقٌ مُطَهَّرَةٌ فَالعَقْلُ أَوَّلُها ، والدِّينُ ثَانِيهَا
وَالعِلْمُ ثَالِثُها ، وَالحِلْمُ رَابِعُها وَالجُودُ خَامِسُها ، والعُرْفُ سَادِيهَا
وَالبِرُّ سَابِعُها ، وَالصَّبْرُ ثَامِنُها وَالشُّكْرُ تَاسِعُها ، وَاللِّينُ عَاشِيهَا
وَالنَّفْسُ تَعْلَمُ أَنِّي لَا أُصَدِّقُها وَلَسْتُ أَرْشُدُ إِلَّا حِينَ أَعْصِيهَا
وَالعَيْنُ تَعْلَمُ فِي عَيْنَيْ مُحَدِّثِهَا مَنْ كَانَ مِنْ حِزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا
عَيْنَاكَ قَدْ دَلَّتَا عَيْنَيَّ مِنْكَ عَلَى أَشْيَاءَ لَوْلَاهُمَا مَا كُنْتَ تُبْدِيهَا[8]

---

(١) آلى : أقسم . الآلية : اليمين .
(٢) يهلل : يتقلب . الضراب : المطاردة .
(٣) الحفيظة الحمية والغضب . المصمم : السيف لا تبو .
(٤) متقطر : صريع . الدكادك : جمع دكدك وهو الرحل المتلبد بالأرض .
(٥) بزّ : سلب . .
(٦) نصر الحجارة : كناية عن الأوثان .
(٧) انظر زهر الأداب للقيرواني ١/٨٣ .
(٨) . أدب الدنيا والدين للماوردي ٢٦ .

وجاء أيضاً في الصفحة ٥٧ من كتاب أدب الدنيا والدين لأبي الحسن علي البصري الماوردي قول الإمام علي رضي الله عنه :

لا تَعْجَزَنَّ وَلَا يَدْخُلْكَ مَضْجَرَةٌ فَالنُّجْحُ يُهْلِكُ بَيْنَ العَجْزِ وَالضَّجَرِ

وللإمام علي ديوان شعر مطبوع باللغتين العربية والتركية بعنوان (ترجمة المنتخب) طبع في دمشق سنة ١٣١٢ هـ .

الحسن بن علي رضي الله عنهما
٣ - ٥٠ هـ/٦٢٤ - ٦٧١ م

هو الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، كنيته أبو محمد ، وأمّه فاطمة الزهراء ابنة رسول الله ﷺ ، وهو آخر الخلفاء الراشدين .

ولد الحسن في النصف من رمضان سنة ثلاث من الهجرة ، في المدينة وتربّى في أحضان رسول الله ﷺ . وكان شبيهاً بالنبي عليه الصلاة والسلام وهو الذي سمّاه الحسن . وَعَقَّ عنه يوم سابعه [١] ، وحلق شعره ، وأمر أن يتصدّق بزنة شعره [١] .

وأخرج الشيخان عن البراء قال : رأيت النبي عليه الصلاة والسلام ، والحسن بن علي على عاتقه وهو يقول : اللهم إني أُحبُّه فأَحِبَّهُ» .

وأخرج البخاري عن أبي بكرة قال : سمعت النبي عليه الصلاة والسلام على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرّة وإليه مرة ، ويقول : «إنَّ ابني هذا سيّد ، ولعلَّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين» [٢] .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٢٣ .
(٢) المرجع السابق ٢٢٤ .

وكان الحسن رضي الله عنه سيّداً ، حليماً ، ذا سكنية ووقار ، وحشمة ، جواداً ، ممدوحاً ، يكره الفتن والسيف ، تزوج كثيراً . وأخرج ابن سعد عن عليّ بن الحسين قال : كان الحسن مطلاقاً للنساء ، وكان لا يفارق امرأة إلاّ وهي تحبُّه ، وأحصن تسعين امرأةً .

خلافته . .

ولي الحسن رضي الله عنه الخلافة بعد مقتل أبيه ، وكان أصيب ليلة الجمعة سابع عشر من رمضان سنة أربعين من الهجرة ، فأقام الجمعة والسبت وتوفي ليلة الأحد ودفن بدار الإمارة ليلاً ، وفي الغداة قام أهل الكوفة بمبايعة الحسن . فأقام فيها ستة أشهرٍ وأيّاماً .

ثم سار إليه معاوية ، فأرسل إليه الحسنُ يبذل له تسليم الأمر إليه ، على أن تكون له الخلافة من بعده ، وعلى أن لا يُطالب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان أيام أبيه ، وعلى أن يقضي عنه ديونه .

فأجابه معاوية إلى ما طلب ، فاصطلحا على ذلك ، لتظهر المعجزة النبوية في قول ﷺ : «يصلح الله به بين فئتين من المسلمين» ، ونزل له عن الخلافة . وذلك سنة إحدى وأربعين من الهجرة في شهر ربيع الأول في أكثر الاحتمالات . ثم ارتحل الحسن بأهله عن الكوفة إلى المدينة وأقام فيها . وهكذا دان الحكم لبني أمية .

وفاته . .

توفي الحسن رضي الله عنه بالمدينة مسموماً ، سمَّتْهُ زوجتُهُ جَعْدَةُ بنت الأشعث بن قيس ، دَسَّ إليها يزيد بن معاوية أن تسمه فيتزوجها ، ففعلت ، فلمّا مات الحسن بعثت إلى يزيد تسأله الوفاء بما وعدها ، فقال : إنّا لم نرضك

للحسن ، أفنرضاكِ لأنفسنا ؟ وكان ذلك على الأكثر في ربيع الأول سنة خمسين للهجرة ، ثم دفن بالبقيع إلى جنب أمّه رضي الله عنهما وأرضاهما .[1]

ولما دفن الحسن رضي الله عنه وقف أخوه محمد بن الحنفية على قبره فقال : لئن عزّت حياتُكَ . لقد هدت وفاتُكَ . ولنعم الروح روح تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمّن بدنك . .[2] ثم أنشأ يقول :

أَأَدْهَنُ رَأْسِي أَمْ تَطِيبُ مَجَالِسِي ؟ وَخَــدُّك مَعْفُــورٌ وَأَنْـتَ سَلِيـبُ
أَأَشْرَبُ مَاءَ المُزنِ مِنْ غَيْرِ مَائِهِ ؟ وَقَدْ ضَمِنَ الأَحْشَاءَ مِنْكَ لَهِيبُ
سَأَبْكِيكَ مَا نَاحَتْ حَمَامَةُ أَيكـةٍ وَمَا اخْضَرَّ في دَوْحِ الحِجَازِ قَضِيبُ
غَـريبٌ وَأَكْنَافُ الحِجـازِ تَحُوطُـهُ أَلَا كُلُّ مَنْ تَحْتَ التُّرَابِ غَرِيبُ[3]

ويروي المسعودي في مروج الذهب قائلاً : ووجدت في بعض كتب التواريخ في أخبار الحسن ومعاوية ، أن بخلافة الحسن صَحَّ الخبر عن رسول الله ﷺ «الخلافة بعدي ثلاثون سنةً» .

	يوم	شهر	سنة
لأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه تقلدها	٨	٣	٢
وعمر بن الخطاب رضي الله عنه تقلدها	٤	٦	١٠
وعثمان بن عفان رضي الله عنه تقلدها	١٣	١١	١١
وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه تقلدها	٢٩	٦	٤
والحسن بن علي رضي الله عنه تقلدها	١٠	٨	٠

---

(١) وقيل هو معاوية الذي أمرها أن تدس السم انظر مروج الذهب للمسعودي ٣/٤ .
(٢) مروج الذهب للمسعودي ٦ - ٣/٧ .
(٣) المرجع السابق .

٦٤ ٣٤ ٢٧

= ثلاثون سنة وأربعة أيام

وجاء في كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لابن رشيق القيرواني ، بعد أن ذكر شعراً للخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم ، قال : وخامسهم الحسن بن علي رحمه الله ، وهو القائل ، وقد خرج على أصحابه مختضباً ، رواه المبرد :

نُسَوِّدُ أَعْلاَهَا ، وَتَأْبَى أُصُولُهَا فَلَيْتَ الَّذي يَسْوَدُّ مِنْهَا هُوَ الأَصْلُ

(١) انظر كتاب العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده لابن رشيق ، القيرواني ٣٥/١ .

محتوى الجزء الأول

فهرس أعلام الرجال والنساء

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

مسلم بن الحجاج ١٦٣ - ١٦٤ - ٢٨٠ - ٢٨١

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس أعلام القبائل والشعوب والفرق والممالك

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الأماكن والمدن

حرف الهمزة

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

الآيات القرآنية الكريمة

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

أيام العرب والمواقع والمغازي والسرايا والأحلاف

فهرس الأسجاع والأمثال

فهرس الأشعار والأراجيز

قافية الباء

قافية الحاء

قافية الدال

قافية الراء

قافية السين

قافية العين

قافية الفاء

قافية القاف

قافية الكاف

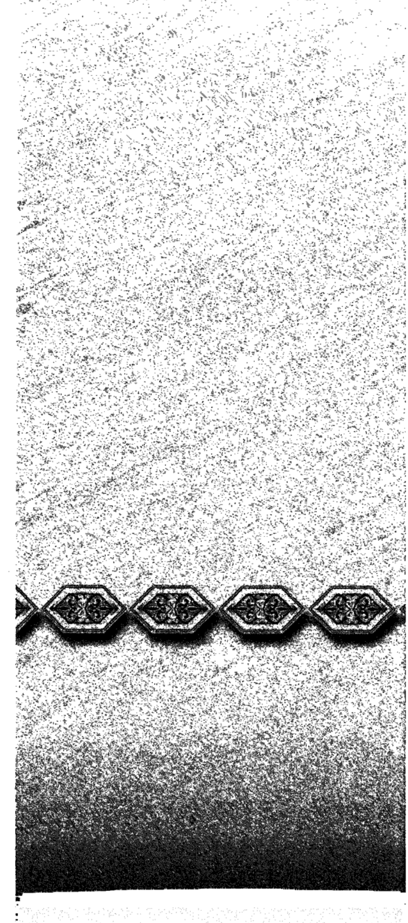
قافية اللام

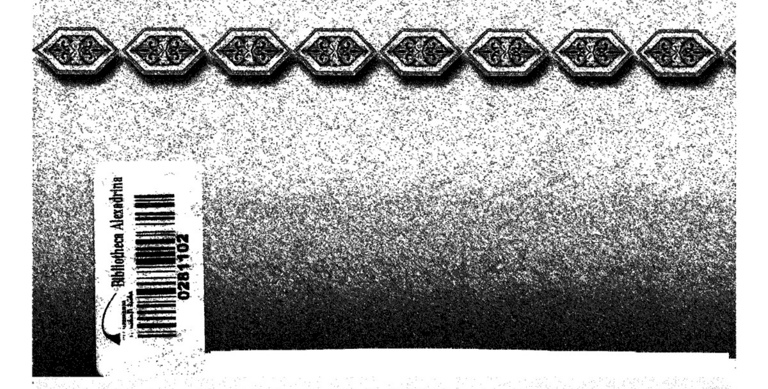
قافية الميم

قافية النون

قافية الهاء

قافية الياء




Bibliotheca Alexandrina
0281102